

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

٩٧ / ١٤
١٧
٧

٧١٣

الرفض في شعر القرن الرابع الهجري

إعداد

عاطف سلامة الدويكات

كلية الدراسات العليا

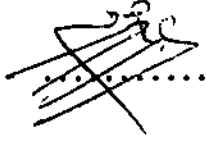
بإشراف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

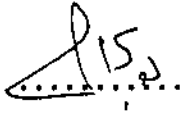
قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراة في اللغة العربية
وآدابها / كلية الدراسات العليا / الجامعة الأردنية

تموز ١٩٩٧

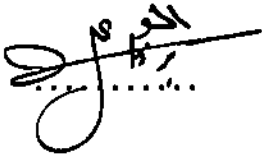
نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٣/٧/١٩٩٧ م.
أعضاء لجنة المناقشة :



الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي / رئيساً



الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن / عضواً



الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي / عضواً



الأستاذ الدكتور محمد ابراهيم حور / عضواً

المحتوى

الصفحة	
ج	قرار لجنة المناقشة
هـ	فهرس المحتويات
أ	ملخص باللغة العربية
	المقدمه
٦٠-١١	الفصل الأول: دواعي الرفض
٢٠-١٤	- ضعف الدولة ، وانقسامها ، وتغلب الروم على بعض نواحيها
	- ضعف بعض الخلفاء ، وتبذيرهم ، وسوء تصرفهم،
٢٧-٢٠	وسيطرة النساء عليهم
٣٠-٢٧	- سيطرة الأعاجم على مقاليد بعض الأمور
٣٣-٣١	- نفوذ الأعاجم في الجيش
٤١-٣٣	- ظلم بعض الوزراء والولاة وسوء تدبيرهم
٤٥-٤١	- الإجراءات المالية
٤٩-٤٦	- الفقر وغللاء الأسعار
٥١-٤٩	- شيوع التشيع
٥٨-٥٢	- حركات المعارضة
٥٤-٥٢	* حركة الحلاج
٥٦-٥٥	* حركات الشيعة
٥٨-٥٦	* الحركة القرمطية
٦٠-٥٨	- سوء الأحوال الأمنية
٩٧-٦١	الفصل الثاني: شعر الرفض السياسي
٧٧-٦٢	- رفض الواقع السياسي
٨٤-٧٨	- رفض حكم الأجانب
٩٧-٨٥	- رفض الاستبداد
١٥٥-٩٨	الفصل الثالث : شعر الرفض الاجتماعي
١٠٤-١٠٠	- رفض هيمنة العرق (العرب، العجم)
١٠٧-١٠٤	- رفض التمايز بين الفئات الاجتماعية

١١٦-١٠٧ - رفض بعض التقاليد الاجتماعية

١٤٢-١١٦ - رفض بعض الاتجاهات الأخلاقية

١٥٣-١٤٢ - رفض بعض الظواهر الاجتماعية في سلوك الأفراد

١٥٥-١٥٤ - رفض بعض المظاهر السلوكية لدى المرأة

١٨٧-١٥٦ الفصل الرابع : شعر الرفض الاقتصادي

١٦١-١٥٩ - رفض الإجراءات المالية الظالمة

١٧١-١٦٢ - رفض الفقر

١٧٧-١٧١ - رفض بعض الظواهر المتعلقة بأصحاب الحرف

١٨٧-١٧٧ - شعر الكدبة

٢٣٤-١٨٨ الفصل الخامس : شعر الرفض الذاتي

٢٠٨-١٨٩ - رفض الزمان

٢٢٠-٢٠٩ - رفض المكان

٢٢٦-٢٢١ - رفض الشيب والكبر

٢٣٤-٢٢٧ - موقف الشعراء من المرض والموت

٢٧٠-٢٣٥ الفصل السادس : الدراسة الفنية

٢٤١-٢٣٦ - التجربة الشعرية

٢٤٨-٢٤٢ - البناء الفني

٢٥٩-٢٤٩ - اللغة والأسلوب

٢٦٧-٢٦٠ - الصورة الشعرية

٢٧٠-٢٦٨ - الموسيقى الشعرية

٢٧٤-٢٧١ الخاتمة

٢٧٦-٢٧٥ الملخص باللغة الانجليزية

٣٠١-٢٧٧ المصادر والمراجع

ملخص

"الرفض في شعر القرن الرابع الهجري"

اعداد : عاطف سلامة الدويكات اسم المشرف : الاستاذ عبد الجليل عبد المهدي

الرفض ؛ تعبير عن معارضة الرفض ، وعدم رضاه عن واقعه ، ومخالفته لما هو قائم.

وقد عبّر كثير من شعراء القرن الرابع الهجري عن رفضهم لبعض سلبيات أحوال عصرهم ؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما عبّروا عن ضيقهم وضجرهم من بعض الأمكنة وبعض قضاياهم الخاصة . وثمة دواع للرفض منها :

ضعف الدولة وانقسامها ، وضعف بعض الخلفاء ، وانحسار النفوذ العربي ، وسيطرة الأعاجم على الحكم ، وغلبتهم على مقاليد بعض الأمور ، وقيام الفتن والاضطرابات ، وسوء الأحوال الأمنية ، والفقر ، وغلاء الأسعار ، والاجراءات المالية الظالمة ، وانتشار عادات وتقاليد مخالفة لعادات المجتمع الإسلامي وتقاليد.

ورفض كثير من الشعراء الواقع السياسي المتردي ، وصوروا التنازع على الخلافة ، ورفضوا أيضاً سوء تدبير بعض الحكام ، وظلمهم ، وفسادهم الإداري ، كما رفضوا تحكم الأجانب في أمور الدولة ، واهتمام الولاة بمصالحهم الخاصة .

كما رفض كثير من الشعراء التناحر بين العرب والعجم ، ورفضوا التمايز الحاصل بين فئات المجتمع ، فقد عاش الناس في مستويات مختلفة نتيجة لتفاوت مقدراتهم المالية ، فظهرت نقمة الفقراء على الأغنياء ، وأبدى الشعراء رفضهم لذلك التفاوت الطبقي .

كما رفض الشعراء بعض التقاليد الاجتماعية والاتجاهات الأخلاقية . وعابوا على كثير من الأفراد سلوكهم المخالف لقيم الأمة وتقاليدها وعاداتها ، فرفضوا الكذب والغدر والخيانة والشر والنفاق وغيرها .

كما رفض الشعراء كثرة الضرائب ، ومصادرة الأموال دون حق ، والاجراءات المالية الظالمة ، كما رفضوا الفقر وغلاء الأسعار ، وعبّروا عن همومهم الذاتية ، فرفضوا الزمان وما يأتي به من خطوب ومصائب .

ورفضوا بعض الأمكنة لما لاقوه فيها من مصاعب أو لكرههم أهل تلك الأمكنة . ورفضوا السجن وأظهروا مرارته ، كما رفض بعضهم الشيب والكبر ، وشكوا المرض ، ووقفوا أمام الموت موقف الحزن والضعف ، حائرين يعبرون عن ألمهم ودهشتهم .

وشعر الرفض يعبر عن تجربة أصحابه ، ويصور نفوسهم ويحكي آلامهم وهمومهم ،
ويصف حالتهم ، ويظهر طريقة معيشتهم كما فعل شعراء الكدبة .
وشعر الرفض - أيضاً - فن يرتبط بالحياة لما عني به من تصوير لجوانبها المختلفة ،
وكشف كثير من حقائقها . وقد تفاعل ذلك الشعر مع الحياة ، وسائر واقع العصر ، فرسم
صورة الناس والمجتمع ، وأبان عن خواطر أصحابه وآرائهم .

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

امتاز القرن الرابع الهجري بنضج الأمة الإسلامية الفكري، وتقدمها العلمي، ورقتها الأدبي.

واشتهر ذلك العصر بكثرة أحداثه وضخامتها، وكثرة أدبائه، وغزارة أدبيهم، وتنوع موضوعات ذلك الأدب، حتى عُدَّ بحق عصر الحضارة الإسلامية. فحفل باهتمام الدارسين وعنايتهم، وأغنى فكر الباحثين ودراساتهم.

ويستحضر هذا البحث إحدى سنن الكون التي تتجلى في آية من آيات الخالق عز وجل، بما وصف به عبده في قوله تعالى: ((إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)).

فالإنسان غير راض في كلا الحالتين، وطبيعي أنه في حالة الشر أنأى عن الرضا، وأقرب إلى التذمر وعدم الرضا.

ويصدر البحث عن سمة واضحة عُرِفَ بها الإنسان العربي، ألا وهي الرفض. وقد برزت هذه الظاهرة في مسلك الإنسان الجاهلي، إذ تحدى الصعاب وواجهها، ورفض ما خالف ديدنه منها. وكان يطير من أقطاب الأرض إذا ما سيم خطه خسف أو ضيم أو هوان.

وظلت هذه الظاهرة بارزة في ما تلا من عصور، وهذا البحث معني بإظهارها والتدليل عليها، ودراسة جوانبها في القرن الرابع الهجري.

وينطلق البحث من فكرة مؤداها أن ثمة محناً واضطرابات وصراعات، كانت تمر بها حياة الناس في القرن الرابع الهجري.

فقد انقسمت الدولة الإسلامية إلى عدة دويلات، وضعف بعض الخلفاء العباسيين، ولم يبق لبعضهم سوى بغداد، وانحسر النفوذ العربي، وغلب الأعاجم على مقاليد الأمور، وقامت فتن وثورات، كما فعل القرامطة، وتطرف كثير من الشيعة، وغالوا في معتقداتهم، وتردّت الأوضاع الاقتصادية، وظهر التمايز بين فئات الناس، وعاشت فئة منهم فقيرة وصلت حدّ العدم، فأكدوا واحتالوا للحصول على لقمة العيش، وانتشرت بعض العادات المخالفة لقيم المجتمع الإسلامي وتقاليده.

ومن الطبيعي أن يقود ذلك كله إلى ردة فعل رافضة لكثير من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ويسعى البحث إلى دراسة ((الرفض في شعر القرن الرابع الهجري)) لتوضيح جوانب الحياة في تلك الحقبة، وجلاء صورة أوضاع المجتمع وأحوال الناس، وتبين مدى تلك الأوضاع في شعر ذلك الزمان.

وموضوع البحث لا يؤرخ لحياة الشعراء وشعرهم، وإنما يركز على دراسة ظاهرة الرفض من خلال استقراء النصوص الشعرية، واستنباط ما فيها من رؤية رافضة لبعض جوانب حياة المجتمع، عني بها كثير من الشعراء، أظهروا في شعرهم معاناة الناس، وعبروا عن آلامهم وآمالهم، وما يجول في خواطرهم.

ولذا لم يعن البحث بالمشاهير من الشعراء، ولم يبين اختيار الشواهد على مكانة أصحابها، بل اختيرت الشواهد بما يخدم الفكرة ويوضحها، وبناء على تمثيلها للواقع الذي يسعى البحث إلى تجليته ورسم صورته، بغض النظر عن قائلها، سواء أكان من المشهورين أم من المغمورين.

ويهدف البحث إلى أكثر من غاية:

الأولى: التعريف بظاهرة الرفض، ومعرفة كنهها ومواطن وجودها في شعر القرن الرابع الهجري.

الثانية: دراسة مضامين شعر الرفض، وأنواعه. وتبويب تلك الأنواع حسب أحوال الناس؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

الثالثة: الكشف عن جزئيات الرفض في كل جانب من جوانب حياة المجتمع، وبيان اتجاهات كثير من الشعراء، ورؤيتهم لما يحدث في عصرهم.

الرابعة: ربط الأدب بالحياة، ومحاولة الإمام بمواقف الشعراء من قضايا عصرهم ومجتمعهم، وتبين مدى صدق الشعر في التعبير عن تجربة أصحابه، وصدوره عن همومهم، وتصوير معاناة الناس، ونقل أفكارهم وآرائهم، ووصف أحاسيسهم ومشاعرهم.

وأهمية الموضوع تكمن في تأريخ حقبة من حياة الأمة، ورسم صورة لطبيعة العلاقات في المجتمع في ذلك الوقت، خاصة وأن شعر الرفض مظهر حقيقي يعكس آلام الأمة وشقائها وأحزانها. ينضاف إلى ذلك زخم الرفض الذي فاض به المجتمع آنذاك، فكان شعر تلك الحقبة مرآة تعكس ألم الناس وحزنهم ومعاناتهم.

وفي حدود علم الباحث، وضمن ما استطاعه من بحث وتحرر، ثبت لديه، أنه لم تقم دراسة - حتى الآن - تعنى بتلك الظاهرة أو تحمل هذا العنوان.

ولكن هذا لا ينفي وجود إشارات مسّت الموضوع، فتناولت نتفاً منه في كتب الأقدمين والمحدثين. ولعلّ أكبر مواطن ذلك كتب التاريخ وكتب التراجم، والكتب التي تتحدث عن الشعراء وأشعارهم حديثاً، ومنها:

دراسة يوسف الحناشي: ((الرفض في شعر المتنبي)) وقد استعرض فيها آراء النقاد القدامى والمحدثين في شعر الشاعر، ومكونات وحدات الرفض الثلاثة، وأساليبها المعنوية والمادية. مهتماً بالترتيب الزمني لقصائد الديوان.

ودراسة محمد جميل شلش: ((الحماسة في شعر الشريف الرضي))، درس فيها الواقع السياسي في عصر الشاعر، مما ألهم حسّه وألهمه صندوق التعبير عن المعاناة، فتحمّس ونقم على واقعة وتذمّر منه.

ودراسة عزيز السيد جاسم ((الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي))، درس فيها اغتراب الشاعر الروحي والسياسي والقومي والاجتماعي، مرجعاً ذلك إلى تشييع الشاعر ومجده الأسري.

ودراسة الدكتور نبيل أبو حاتم: ((اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال بيتيمة الدهر)) وضّح فيها أهم سمات الشعر، ومظاهر التجديد فيه، دون الإشارة إلى الشعر الذي ينم عن معاناة الناس ورفضهم الواقع، إلاّ عرضاً عند الحديث عن الهجاء. ولكنه أفرد عنواناً خاصاً للحديث عن شعر الكدية.

ومهما يكن، فإن تلك الدراسات قد اتجهت إمّا إلى شعر شعراء منفردين عن بقية شعراء العصر، أو مسّت موضوع الرفض مساً لا يعطيه حقّه، مما يؤكد الحاجة إلى دراسة ظاهرة الرفض عند جمهرة شعراء العصر، لرصد مواقف الشعراء، وأسباب رفضهم، وبيان مدى ارتباطهم بمجتمعهم وبأحوال الناس، دون النظر إلى تلك الأحوال من زوايا فردية، أو رؤية شاعر شخصية.

ويقوم البحث على منهج استقصائي تحليلي، يتمثل في جمع ما يجب جمعه من شعر، ودراسته وتحليل مضامينه، لاستخراج ما فيه من رفض، وما يدعو إليه من أشكال ذلك الرفض وأساليبه. ثم يسلك البحث ما جمعه من شعر في طرائق تمثل الرفض، ويُقارب ذلك كله بحال المجتمع في تلك الحقبة لمعاينة مدى مقاربة الشعر لواقعه، ومقدار تصويره أحوال الناس وهمومهم.

وهذا سيقود إلى دراسة غير مقصودة لذاتها، وهي تتبع ظاهرة الرفض بشكلها الفطري العفوي عند عامة الناس، وبشكلها المنظم المقتن عند أصحاب المعتقدات وذوي الميول والاتجاهات.

ويعنى منهج البحث بالاعتماد على النصوص الشعرية، ليتسنى الكشف عن مجالات الرفض كلها واستصفائها مما خلط بها أو خلطت به من أغراض الشعر الأخرى. ولما كان الشعر محور البحث، وهدفه الأول، فقد انصب الاهتمام على استقراء نصوصه الواردة في دواوين شعراء العصر، وكتب المجموعات الشعرية، والمختار منه في كتب الأدب والأخبار والسير والتراجم. وإلى جانب ذلك اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع التاريخية، وعلى الدراسات الحديثة التي تناولت تلك الفترة.

واستوى بناء البحث - قائماً - في فصول ستة، يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة:

أوجز التمهيد - معتمداً على المعاجم اللغوية - معنى الرفض لغة، وهو يدور حول الترك والتفرق والتبدد والتكسر. واجتهد في توضيح معنى الرفض اصطلاحاً، وربط المعنى اللغوي بالاصطلاحي، وهو التعبير عن عدم الرضا عما في الواقع، ومعارضته. وبين التمهيد أشكال الرفض ومظاهره، ومستوياته، وأشار إلى تأثير مناحي الحياة في الشعراء وتأثرهم بها، وإلى المفاهيم والمصطلحات التي تتردد عند البحث في ظاهرة الرفض.

وجاء الفصل الأول للحديث عن ((دواعي الرفض)) وهي كثيرة، انتقى البحث أهمها، فأشار إلى ضعف الدولة وانقسامها، وتغلب الروم على بعض نواحيها. وضعف بعض الخلفاء، وسوء تصرفهم، وسيطرة النساء عليهم. وسيطرة الأعاجم على مقاليد بعض الأمور، ونفوذهم في الجيش. وظلم بعض الوزراء، والولاء، وسوء تدبيرهم. والإجراءات المالية الظالمة. والفقر، وغلاء الأسعار. والتشيع، وحركات المعارضة. وسوء الأحوال الأمنية.

وتحدث الفصل الثاني عن ((الرفض السياسي)) فدرس رفض الواقع السياسي، والتنازع على الحكم بين العرب والعجم من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى. وأشار إلى رفض الاستبداد وظلم بعض الحكام، وسوء بعض الأحوال الإدارية.

وعرض الفصل الثالث ((للرفض الاجتماعي)) فأشار إلى هيمنة العرق، إذ رفض العرب هيمنة العجم وتحكمهم في كثير من أمور العرب، كما أبدى بعض العجم رفضهم لهيمنة العرب، وحاولوا الفخر عليهم والتقليل من شأنهم. ودرس الفصل - أيضاً - ظاهرة

التمايز بين الفئات الاجتماعية، وأشار إلى كثير من التقاليد الاجتماعية، والاتجاهات الأخلاقية الطارئة على المجتمع، ورفض الشعراء لها، كما أشار إلى كثير من الظواهر الاجتماعية في سلوك الأفراد، وإلى بعض المظاهر السلوكية لدى المرأة.

وعالج الفصل الرابع ((الرفض الاقتصادي)) بما فيه من رفض للإجراءات المالية الظالمة، ورفض الفقر، ورفض بعض الظواهر المتعلقة بالحرف. وشعر الكدية. وتناول الفصل الخامس ((الرفض الذاتي)) فوقف عند علاقة الشعراء بالمكان، والزمان، وما لاقاه بعضهم من عنت وسوء في بعض الأمكنة والأزمنة، فانسحب رفض ما كان بها من هموم عليها، وقد اتخذ بعض الشعراء الزمان رمزاً لحكام العصر، يرفضونه ويرفضونهم. وعرض الفصل إلى شكوى الشعراء من الشيب والكبر، وصور همومهم وأحزانهم. وبيّن موقفهم من المرض والموت.

وعني الفصل السادس ((بالدراسة الفنية)). ومع ما يحيط تلك الدراسة من صعوبة، فقد عرض البحث لتجربة الشعراء، وصدقهم في التعبير عن واقعهم، وتصوير آلامهم وأحاسيسهم، وقدرتهم على التعبير عن قضايا الناس وهمومهم. وعرض - أيضاً - للغة الشعر وأسلوبه، وصوره الفنية، وموسيقاه الشعرية.

وختم البحث بخاتمة ضمنت أهم نتائجه. وبقائمة لمصادره ومراجعته. ولا يدعي الباحث الإحاطة بجوانب الظاهرة كلها، فهي واسعة كما الحياة، متشعبة تشعب جوانبها ودروبها وطرائقها، فهو أمر صعب يتعذر إنجازها، ويصعب تحقيقه، ولكنها المحاولة التي يرتجي أن تحقق شيئاً.

وأما الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي، الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث، فقد غمر صاحبه بلطفه ووافر حلمه، وأولاه عنايته ورعايته، ومكنه من الإطلاع على كثير من المصادر والمراجع، وصحح كثيراً من أخطائه، وقوم البحث بملاحظاته السديدة، حتى خرج على هذه الصورة. فله أجزل الشكر وأعظم الامتنان.

كما ويتقدم الباحث بالشكر الجزيل وعرقان الجميل لأعضاء لجنة المناقشة؛ الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن، والأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، والأستاذ الدكتور محمد حور، لتفضلهم بقراءة البحث، وإبداء ملاحظاتهم القيمة.

والله من وراء القصد، وهو ولي التوفيق

التّمهيد

معنى الرّفّض ، لغةً واصطلاحاً

الرَّفْضُ؛ لُغَةً

الرَّفْضُ: التَّرك (١) ، وقد رَفَضَهُ يَرَفِضُهُ، ويرَفُضُهُ، رَفْضاً، ورَفَضاً (محرَكة): تَرَكَه (٢).
والرَّفْضُ: تَرَكَكَ الشَّيْءُ (٣) ، ونقول: رَفَضَنِي فلانٌ فَرَفَضْتُهُ، يَرَفُضُنِي ويرَفِضُنِي (٤). ورَفَضْتُ
الشَّيْءَ، أَرَفَضْتُهُ وأَرَفِضُهُ رَفْضاً: تَرَكَتُهُ وفَرَقْتُهُ (٥). ورَفَضَ الإبلَ يَرِفِضُها رَفْضاً ورَفَضاً:
تَرَكَها تَتَبَدَّد ، أي تَتَفَرَّق في مَرعَها حيث أَحَبَّت ، لا يَشِيها عما تَريد (٦). وأَرَفَضَ القومُ إِبِلَهُم
إِرْضاً: إذا أَرسلوها بلا رِعاء (٧). ورَفَضْتُ هي تَرَفُضُ رَفْضاً، إذا تَفَرَّقَتْ وتَبَدَّدَتْ في
الرَّعَى (٨)، ورَعَتْ وحَذَّها والرَّاعي يَنْظُرُ إليها (٩)، ويَبْصُرُها ، قَريباً منها أو بَعيداً (١٠)، لا
تَتَعَبُها ولا يَجْمَعُها (١١).

وهي إبل رَافِضَةٌ ورَفُضٌ: مَتَفَرِّقة (١٢). والرَّفْضُ: الشَّيْءُ المَتَفَرِّق (١٣)، والنَّعْمُ المَتَبَدِّد،
فنقول: رأيت رَفْضاً من ناسٍ ونَعْمً ومَتاعٍ ونِباتٍ، أي فَرَق، وجمعه حينئذٍ أَرْفاضٌ، كأَرْفاضِ
القومِ في السَّفَر (١٤).

(١) الجوهري، إسماعيل بن حماد الجوهري (-٣٩٣هـ): الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق: د. أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٦م، ١٠٧٨/٣.

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (-١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق:

عبد الكريم العزباوي، مراجعة: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٩م، ٣٤٨/١٨.

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (-٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، (٩)، ١٥٦/٧.

(٤) الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (-٥٣٨هـ): أساس البلاغة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ٣٥٤/١.

(٥) ابن منظور: لسان العرب ١٥٦/٧.

(٦) الزبيدي: تاج العروس ٣٤٨/٨.

(٧) ابن منظور: لسان العرب ١٥٦/٧.

(٨) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (-٧٧٠هـ): المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ١٩٠٦م، ٢٧٦، ٢٧٥/١.

(٩) الزبيدي: تاج العروس ٣٤٩/١٨.

(١٠) الجوهري: الصحاح ١٠٧٨/٣.

(١١) ابن منظور: لسان العرب ١٥٧/٧.

(١٢) الجوهري: الصحاح ١٠٧٩/٣.

(١٣) الصاحب بن عباد، كافي الكفاة، الصاحب إسماعيل بن عباد (-٣٨٥هـ): المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٤م، ٨/٨.

(١٤) الجوهري: الصحاح ١٠٧٩/٣.

ويقال : رَفَضَ النَّخْل ، وذلك إذا انتشر عَذْقُهُ ، وسَقَطَ قَيْقَاؤُهُ^(١) . ومنه : رَفَضَ فلانُ النَّخْلَ ، وَنَفَضَهُ ، وَرَفَضَهُ^(٢) .

الرَّفَضُ : الشيء المتحرك^(٣) . وارفَضَ الدَّمْعُ وَتَرَفَضَ : سَالَ وتَفَرَّقَ ، وَتَبَاعَ سِيلَانِهِ وَقَطِرَانُهُ . وارفَضَ دَمْعُهُ اِرْفَاضاً : إذا انهل متفرقاً ، وارفِضاضُ الدمع : ترششه . وكل متفرق ذهب مُرَفَضٌ^(٤) .

والرَّفَضُ من الماء واللبن : الشيء القليل ، يبقى في القرية أو المزايدة ، وهو مثل الجرعة ، ويقال : في القرية رَفَضٌ (ويسكن) من ماء ، أي قليل ، والجمع أرفاض . وقد رَفَضَتْ في القرية ترفيضاً ، أي أبقيت فيها رَفَضاً من ماء^(٥) .

ورَفَضَ الشيء : جانبه ، ويجمع أرفاضاً^(٦) ، ورَفَضَ الوادي : انفسح واتسع ، كأرفَض^(٧) . ومرافِضُ الأرض : مساقطُها من نواحي الجبال ونحوها ، واحدها مَرَفَضٌ . ومرافِضُ الوادي :

(١) الجوهرى : الصحاح ، ١٠٧٩/٣ ، وينظر :

ابن منظور : لسان العرب ١٥٨/٧ .

والقيقاء : وعاء زهر النخل .

(٢) ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن فارس (-٣٩٥هـ) : مجمل اللغة ، تحقيق الشيخ هادي حسن حمودي ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، الكويت ، ١٩٨٥م ، ٤٠٦/٢ .

(٣) الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (-١٧٥هـ) : كتاب العين ، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨٤م ، ٢٩/٧ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ١٥٦/٧ .

(٥) الفيروز ابادي ، مجد الدين الفيروز ابادي (-٨١٦هـ) : القاموس المحيط ، المطبعة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٣م ، ٣٣٢/٢ .

(٦) ابن منظور : لسان العرب ١٥٧/٧ ، واستشهد بقول بشار بن برد :

وكانَ رَفَضٌ حديثها قِطْعُ الرياض كسين زهرا

* بشار بن برد (-١٦٧هـ) : ديوان بشار بن برد ، جمعه وشرحه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٦م ، ٦٩/٤ .

(٧) الزبيدي : تاج العروس ٣٤٩/١٨ .

مفاجره ، حيث يَرْفُضُ إليه السيل^(١) .

ورَفُضَ الشيء (بالفتح) ورَفَاضُهُ (بالضم) : ما تحطّم منه وتفرّق ، وجمعه أَرْقَاض^(٢) .
والرَفُضُ : الكسر ، وترَفُضَ الشيء إذا تكسّر ، ورَفَضْتُ الشيءَ أَرْفُضُهُ وأَرْفِضُهُ رَفْضاً ،
فهو مرفوض ورفيض : كسرتة . والرَقِيض : المتَقَصِّد أي المتكسر من الرماح^(٣) . ورَفُوض
الناس : فرَقْهم . ورَفُوض الأرض : المواضع التي لا تملك^(٤) . والرَفُوض : المتفرّق من
الكلأ^(٥) . والرَقَاض : جمع رَفَضٍ : القطيع من الظباء المتفرّق ، وفي حديث عمر : أن امرأة
كانت تزفّن والصبيان حولها ، إذا طلع عمر ، رضي الله عنه ، فارفضّ الناس عنها ، أيتفرّقوا^(٦) .
والرَفُضُ : الكسْرُ ، والطَرْدُ ، والرَّمْيُ^(٧) . والرَّافِض : الرّامي^(٨) ، وشي رَفِضٌ ومرفوض :
متروك ، مرْمِيٌّ مُفَرَّقٌ^(٩) . ورجل رَفُضَةٌ : يأخذ الشيء ثم لا يلبث أن يدّعه .

(١) ابن منظور : لسان العرب ١٥٨/٧ ، وأنشد لابن الرقاع :

ظَلَمْتُ بحزم سَبَّيْعٍ أو بِمَرْفُضِهِ ذي الشَّيْح ، حيث تَلَقَى النَّعْجُ فانسحلا

* ابن الرقاع ، عدي بن الرقاع العاملي : ديوان عدي بن الرقاع العاملي ، عن أبي العباس أحمد بن يحيى
ثعلب (-٢٩١هـ) ، تحقيق د. نوري حموري القيسي ود. حاتم صالح الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ،
بغداد ، ١٩٨٧م . ٧٨ .

وسَبَّيْع : اسم موضع . وهو واد بنجد .

* ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبيد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (-٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، دار
صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ١٨٧/٣ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ١٥٦/٧ ، وأنشد بيت طفيل الغنوي ، يصف سحابة :

لَهُ هَيْئَتٌ دَانٍ كَأَنَّ فَرْجَهُ فريق الحصى والأرض أَرْقَاضٌ حَنَمٌ

* طفيل بن عوف الغنوي : ديوان طفيل الغنوي ، رواية أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي ، تحقيق كرنكو ،
لندن ، ١٩٢٧م ، ٣٤ .

(٣) ابن منظور : لسان العرب ٥٦/٧ ، وأنشد لامرئ القيس :

ووالى ثلاثاً واثنتين وأربعاً وغادر أخرى في قناة رَفِيز

* امرؤ القيس بن خُجر بن الحارث الكندي : ديوان امرئ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار
المعارف ، القاهرة ، (٩) ، ٧٦ .

(٤) ابن منظور : لسان العرب ١٥٦/٧-١٥٧ .

(٥) الزبيدي : تاج العروس ٣٥١/١٨ .

(٦) ابن منظور : لسان العرب ١٥٦/٧ .

(٧) الزبيدي : تاج العروس ٣٤٩/١٨ .

(٨) ابن منظور : لسان العرب ١٥٨/٧ .

(٩) الزبيدي : تاج العروس ٣٤٩/١٨ .

ويقال: راع قُبْضَةً رُفْضَةً: للذي يقبض الإبل ويسوقها ويجمعها، فإذا صارت إلى الموضع الذي تحبه وتهواه، رَفَضَهَا وتركها ترعى كيف شاءت^(١).

والرَوَافِضُ: كل جند تركوا قائدهم وانصرفوا، أو ذهبوا عنه وكل طائفة منهم رافضة، والمسبة إليهم رافضي^(٢).

والرافضة: فرقة من الشيعة، سُمُوا بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رحمهم الله تعالى، وكانوا بايعوه، ثم قالوا له: تبرأ، أو ابرأ من الشيخين، نقاتل معك. فأبى وقال: كانا وزيرى جدّي، صلى الله عليه وسلم، فلا ابرأ منهما. فتركوه ورفضوه، وارفضوا عنه، فسموا رافضة، وقالوا: الرَوَافِض، ولم يقولوا: الرَقَاض، لأنهم عَنُوا الجماعات^(٣).

والرَفْضُ (بالكسر): مُعْتَقَدُ الرافضة، ومنه قول الشافعي، رضي الله عنه، فيما ينسب إليه^(٤):

إن كان رفضاً حباً آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

* * *

والرفض - اصطلاحاً -: هو التعبير عن عدم الرضا عما في الواقع، لمغايرته ما استقر في النفس من قناعات حول شيء معين، أو عدم قبول ظاهرة، أو حالة - سياسية كانت، أو اجتماعية، أو اقتصادية - واقعة، لمخالفتها ما يراه الرافض ويتمناه، أو يسعى إليه. ولما كانت معاني الرفض - في اللغة - تدور حول الترك، والتفرق، والتبدد، والانتشار، والتحرك، والتكسر، فثمة صلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، الذي ينبع من عدم الموافقة، لاختلاف وجهات النظر، أو عدم مطابقة الأفكار، أو تقارب الآراء، فيصعب الإجماع، وينتفي الاتحاد، ويكون التفرق.

وغير الموافق، تارك ما يرفضه، مبتعد عن مخالفه، متحرك ضدهم، لو يستطيع تحطيم ما هم عليه، وتغيير ما هم به واقع، لما قصر عن ذلك. ويمكن أن نرجع ظاهرة الرفض إلى موقف يجابه به فرد أو جماعة حالة موجودة لم يعد، أو لم يعودوا، قابلين استمرارها، وقد يواجهونها بما يمكن أن يعوضها^(٥).

(١) الزمخشري: أساس البلاغة ١/٣٥٥

(٢) الزبيدي: تاج العروس ١٨/٣٥٠. وينظر:

ابن منظور: لسان العرب ٧/١٥٧

(٣) الزبيدي: تاج العروس ١٨/٣٥٠. وينظر:

ابن منظور: لسان العرب ٧/١٥٧

(٤) الزبيدي: تاج العروس ١٨/٣٥٤

(٥) يوسف الحناشي: لرفض ومعلية في شعر لمثبي، دار لعربية للكتاب، لمطبعة نفقية، تونس، ١٩٨٤م، ٤٩.

وينبني على هذا ، أن التغيير مطلبٌ منشود للرافض ، بغض النظر عن صحة أفكاره ، أو صواب آرائه ، أو عدالة مطالبه . وإذا ما تحكمت الرغبة بالفرد ، فإنها توجه سلوكه ، وتقود سيرة حياته ، وتحدد علاقاته بمن حوله ، فتدفعه إلى المطالبة بالتغيير ، والرغبة في تحقيق أهدافه ، والوصول إلى ما يصبو إليه .

والرفض موقف يؤدي إليه الإحساس بالظلم ، والوعي بالضياع ، والمعاناة المؤلمة ، والشعور بنقص الحقوق ، والرغبة في التغيير والتحرر من واقع يقيد الفرد مادياً ومعنوياً ، فتكون المناداة بالتغيير طلباً للعدل ، والحرية ، والمساواة ، والأمن ، والطمأنينة ، وتكافؤ الفرص ، والعيش الكريم ، وما يخفف من المعاناة ، وحدة الإحساس بالجور ، وما يزيل السلبيات المحيطة بالمرء في مجتمعه .

وقد تكون رغبة التحرر ، وإرادة التغيير - عند بعض الرافضين - قوية جامحة ، نابعة من تجربة مريرة ، وعندها يرى الرافض الواقع المحيط به عدواً لدوداً ، يجعل حياته صعبة مرة ، مما يؤدي إلى التصادم بينه وبين ما يحيط به ، وتكون نتائج ذلك التصادم مختلفة باختلاف أساليب المواجهة نفسها .

واستثناساً بحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، : " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " ^(١) . نستطيع تمييز ثلاثة مستويات تعبيرية عن الرفض هي :

الأول: التعبير بالفعل ، وذلك بالثورة ، أو المواجهة ، الناتجة عن الهيج ، الذي يسببه الغضب ، بقصد التحول من وضع إلى آخر .

الثاني : التعبير بالقول ، وذلك بما يحسنه الرافض من أنواع القول ، نثراً أو شعراً . ترجمة لما في داخله ، أو إعلاناً عن مقاصده ، أو رغبة في التأثير ، أو دعوة صريحة للتغيير .

الثالث: الاكتفاء بأضعف الإيمان ، وذلك أن يكتم الرافض رفضه ، ويبقيه رهين النفس ، مكنوناً في القلب ، لغرض في نفس كاتمته ، لا يعرف الآخرون عن رفضه شيئاً ، إلا إذا أباح سره من يثق به .

وتحديد معنى الرفض - في إطار المستويين التعبيريين ؛ الأول والثاني ، يستلزم العناية بظاهرة " الثورة " أو " التمرد " ، فالثائر هو الذي يعبر عن رفضه ، معلناً معارضته لمن هو أقوى منه ، وهو الذي لا يتراجع عن رفضه ، ولو كان في منزلة العبودية تحت سيطر سيده .

(١) الإمام مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (٢٦١هـ) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، ومكتبة الغزالي ، دمشق ، (٢٠٠٢/٢) ٢٥-٢٢ .

وقد توجد هذه الظاهرة عند من لم يذق طعم المرارة، ولم يعيش حالة الحرمان، وهذا هو تصوّر حالة المتمردين الثائرين، أو تمثّل وضعيّة الآخرين.

وإن كان الرفض مادياً أو معنياً فهو - في إطار المستوى الثاني - تعبير عن واقع يعكسه الفرد، ويصور بأدبه بعض جوانب مجتمعه، مهتماً بالأبعاد التالية أو ببعضها :

الأول: فلسفة الأديب الكونية ورؤيته للحياة والموت ووجود الإنسان وقيّمته .

الثاني : موقفه من مناحي الحياة المختلفة ؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

الثالث: عدم الوقوف عند طرح المشكلة، بل الإتيان بالحل، فالرفض المكتمل لا يكتفي بالتكرار للواقع بل يخطط للمستقبل ويقترح البديل، ولا يتوقف عند إشارة المشكلة وتصور خطورتها، بل يضع الحلول ويقترح البدائل.

وللربط بين الأبعاد الثلاثة السابقة، وبين الظروف المؤثرة في الشعر والشعراء، لا بد من الإشارة إلى أن التعبير عن الرفض بالفنون الأدبية - نثرية أو شعرية - يقتضي الإشارة إلى تأثير الشعراء بظروفهم .

وقد أثرت مناحي الحياة المختلفة في الشعراء، وتأثروا بها، وتفاعلوا مع ما كان يحيط بهم من ظروف الزمان والمكان، وعاشوا جوانب الحياة التي يحياها مجتمعهم، بما فيها من مؤثرات مختلفة في تكوينهم الشخصي، وعلى فنهم الشعري .

والشعراء أبناء مجتمعهم، هيأت له حياتهم الاجتماعية التعرف عن قرب وبطريق مباشر على الناس، جماعات وأفراداً، وعلى الشعب فئات وأجناساً، مما جعلهم قادرين على استيعاب حركة مجتمعهم، وما فيه من نظم وتقاليد لفئاته وأجناسه كلّها، وكذا معرفة كيف يعيش أفرادهم، ووسائل هذا العيش، كما تهَيّئ لهم الاقتراب وفهم طرق تعبيرهم عن رضاهم وسخطهم عن أمّهم وألمهم، وما هم عليه من أخلاق وأعراف . ومن ثم يستطيع الشاعر أن يصرّ ما في النفوس، ويعبّر عنه، وعن وقع هذه الحياة عليهم، وأثرها فيهم، وموقفه تجاه هذه الحياة .

ويختلف تعبير الشعراء عن واقعهم باختلاف رؤيتهم له، وتبعاً لحيواتهم التي عاشوها. وكل فريق منهم صدر عن تجربته وظروف معيشته، فمنهم الراضي السعيد الذي أبرز مباحج الحياة وملذاتها، ومنهم المحايد الذي وصفها بخيرها وشرها ووقف عن ذلك، ومنهم الرافض الذي أكثر من سلبياتها .

وكان الرافضون على حالين :

الأول: الذين أعطوا قيمة مطلقة متعددة الجوانب، لأنهم رأوا في الحياة طريقين ؛ طريق مجد وخلود، وطريق مذلة وخنوع، وعلى الإنسان أن يختار الطريق الأسلم، على الرغم من

كونه اشقّ الطريقين ، وأثقلهما ، وأعرهما سبيلاً ، ففيه يكسب النصر والمجد ، وفيه تحمد المآثر ويخلد الذكر ^(١) .
قال المتنبي ^(٢) :

عش عزيزاً أو متاً وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنود

وقد أيقن هذا الفريق أنّ في القوة طريقاً للعدالة ، ووسيلة للوصول إلى الأهداف ، وأنها (القوة) طريق لتغيير الحكام الفاسدين ، وإحلال الحكام الصالحين ، وتثديد بتقصير المتهاونين عن نصرة الوطن والدين ^(٣) . وتتجسم دعوتهم إلى القوة في قول المتنبي ^(٤) :

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

الثاني : الذين يئسوا من الإصلاح والتغيير ، فمالوا إلى التساؤم ، واستولت عليهم النزعة السوداوية ، فهم قد سلبوا القدرة على الأفعال ، فانقلبوا إلى الاسترواح والتنفس بالأقوال ، وذلك "لأن في الكلام راحة وفرجاً وتنفيساً من ألم الباطن" ^(٥) ، وهم يعانون ويتألمون ، ولا يستطيعون كتمان ما في بواطنهم ، فقلماً يطيق الإنسان استدامة إظهار أقوال تخالف دوائله ، ولا بد من فلتات تظهر المكتوم ؛ "فلا بد للمصدر أن ينفث" ^(٦) . وفي ذلك راحة لهم .

وبلغ التساؤم واليأس عند فريق من هؤلاء حدّاً جعل بعضهم يتجه وجهة العزلة نهج حياة ، وبعضهم يختار الكدية سبيلاً للعيش ، والاحتياط وسيلة للكسب .
ووجد المكدون والشطّار راحتهم ، وتخفيف معاناتهم في شعر ؛ مرة يسلون به أنفسهم ويغطون نقائصهم ، ويقنعون الآخرين بترجيح كفة المعنويات ، وتقضيها على

(١) د . هادي نهر : مع المتنبي في شعره الحربي ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٧٩م ، ٨٨ .

(٢) المتنبي ؛ أبو الطيب ، أحمد بن حسين الجعفي الكندي المشهور بالمتنبي (-٣٥٤هـ) : ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكري ، المسمى بالتيبان في شرح الديوان ، ضبطه وصححه ، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٥٦م ، ٣٢١/١ .

(٣) سبيل عثمان ومنير كنعان : المحصول الفكري للمتنبي ، دار الإرشاد ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ٢٥٦ .

(٤) المتنبي : الديوان بشرح العكبري ١٦٠/٤ .

(٥) الدلجي ، شهاب الملة والدين أحمد بن علي الدلجي (-٨٣٨هـ) : انفلاكة والمفلوكون ، مكتبة الأندلس ، مطبعة الآداب ، النجف ، بغداد ، ١٣٨٥هـ ، ١٦٧ .

(٦) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (-٥١٨هـ) : مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار النصر ، دمشق - بيروت ، (٩) ، ٢٤١/٢ .

الماديات التي يفقدونها ، ويأتون بحجج وبراهين وأدلة على ذلك . ومرة يعتذرون به (الشعر) عن تصرفاتهم ، ويبدون أعتذارهم ، بأسلوب رشيق، وحكمة فائقة، وكلمات رائقة، تحسناً لتلك التصرفات ، وتقليلاً من قبح صورتها، وليشغلوا الناس عن قبحها بحسن ما ورد فيها من شعر . ومرة يفخرون بحيلهم ، ويجعلونها رقة أدبية ، أو نكتة شعرية، أو جملة هزلية، ويذكرونها بل يفصلون القول فيها ، قبل أن يذكرها غيرهم ، وفي هذا تخفيف على أنفسهم من ذكر غيرهم لها، لأن الإنسان لا يأنف من نفسه ما يأنفه من غيره ، ولا يتقل عليه كلامه كتقل كلام غيره عليه . ^(١) وقد حكى أن الأخفش الصغير كان يحفظ الأماجي التي هجاه بها ابن الرومي ، ويوردها في جملة ما يورده ، وكان يقول : "أنوه بذكرى بها" ^(٢) .

والمتشأمون في رفضهم - قلقون مضطربون ، يغرون الآخرين بطلب المجد والثروة تارة ، ويأمرون الناس بالقناعة والزهد تارة أخرى. وتعتريهم الحيرة والدهشة بذكرهم الأسفار وطلبها حيناً ، وذمها والنهي عنها أحيان أخرى . ولذا نراهم يستبون الأيام، ويتضجرون ، ويتململون ، ويستعجبون .

واستكمالاً لتحديد معنى -الرفض اصطلاحاً - تجدر الإشارة الى أن الرفض قديماً قد اقتن من بفرقة من فرق الشيعة ، وهم الذين تركوا زيد بن علي ، ثم انسحبت كلمة الرفضة على الشيعة عامة ، فأبو بكر الخوارزمي وهو من شيوخ الشيعة - يسميهم رافضة، في قوله: ^(٣)

بأمل مولدي وبني جرير فاخوالي، ويحكي المرء خاله ^(٤)

فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلالة

على أن مفهوم اللفظ قد خصص ، بعد تعميمه ليشمل الغلاة من الشيعة، والمغالين من الفرق الأخرى .

٤٨١٣٩٣

(١) الدلحي: الفلاكة والمفلوكون ، ١٦٧، ١٦٨

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (-٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د . إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٣/٣٠٢

(٣) الصفي ، صلاح الدين خليل بن أيك الصفي ، (-٧٦٤هـ) : الوافي بالوفيات ، باعتناء هلموت رينز.وس. ريدريغ. دار نشر فرانز شتاينر بيسبادن ، ١٩٦٢م ، ٣/١٩٥. وينظر :

حسن الصدر : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، دار الرائد العربي، بيروت ، ١٩٨١م ، ٤٦

(٤) أمل : مدينة في بلاد خراسان ، على ضفة نهر جيحون اليسرى تدعى أيضاً : أمل الشط وأمل جيحون ، وأمل المغارة، تميزاً لها عن مدينة أمل التي تقع شمالي إيران في منطقة طبرستان القديمة، جنوبي بحر قزوين.

* ياقوت الحموي : معجم البلدان ١/٢٥٥

ولا بد من الإشارة إلى بعض المفاهيم السياسية والاجتماعية المتداولة عند الحديث عن المجتمع في القرن الرابع الهجري ، وما فيه من خلاقات وصراعات محتدمة بين أطرافه. وإن استخدمت هذه المفاهيم في وصف المجتمع العباسي ، فإنما يجيء استخدامها مرناً ، رغم الاختلاف في المدلولات والأبعاد .

وفي هذا الإطار ، نجد مفهومين " المعارضة " و " الحزب " . والباحث في وقائع الصراع في العصر العباسي ، لا بد أن يجد مضموناً لما نسميه " المعارضة " ، إذا عبرت عنه لغة العصر " بالخصوم " و " الخارجين " و " الثوار " و " المتمردين " ، وغيرها من العبارات الدالة على اتخاذ جماعة أو فرد ، موقفاً يتجاوز الاختلاف والتباين مع الدولة ، إلى الوقوف في صف العاملين على تغييرها لصالحهم . وكذلك الشأن بالنسبة لمفهوم " الحزب " ، الذي كان يعني الجماعة المتناغمة في عقيدتها المتلاصقة في علاقاتها ، الهادفة إلى بلورة موقف موحد من أجل هدف واحد .

أما الحزب في الاستخدام الحديث، فيأخذ معنى الحركة المنظمة ، القائمة على معتقدات ونظريات مقننة، تتخذ موقفاً جذرياً من السلطة القائمة ، يتجاوز موقف النقد والتغاير المذهبي^(١) .

(١) د. محمد نجيب أبو طالب : الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، الجمهورية التونسية ، ١٩٩٠م ، ١٠٦ .

الفصل الأول

دواعي الرفض

- ضعف الدولة وانقسامها ،وتغلب الروم على بعض نواحيها
- ضعف بعض الخلفاء ، وتبذيرهم ،وسوء تصرفهم ،وسيطرة النساء عليهم .
- سيطرة الأعاجم على مقاليد بعض الأمور .
- نفوذ الأعاجم في الجيش .
- ظلم بعض الوزراء والولاة ،وسوء تدبيرهم .
- الاجراءات المالية .
- الفقر ، وغلاء الأسعار .
- شيوع التشيع .
- حركات المعارضة .
- حركة الحلاج .
- حركات الشيعة .
- الحركة القرمطية .
- * سوء الأحوال الأمنية .

دواعي الرفض

من التعريفات التي تشد الانتباه ، في مجال العلاقة بين الشاعر وعصره ، التعريف القائل " إن تلك العلاقة تتسم بالتذكر والعقوق ؛ عقوق الشاعر (الابن) تجاه عصره (الأب) ^(١) . ومع ما في تعبیر العقوق من قسوة يوصف بها الابن العاق في مجال العلاقات الأسرية ، إلا أنه في هذا المجال ، يعني رفض السلبيات ، والتمرد على بعض مواضع العصر ، ومعاييره ، بهدف الوصول إلى ما يئمنه الشاعر من الرقي والرفعة لمستقبل الأمة . وهذا العقوق يعني التخلص من الهيمنة ، أو السيطرة التي تفرضها تقاليد العصر ، ليصبح الشاعر قادراً على التفكير والإبداع .

على أن العلاقة بين الشاعر وعصره ليست عقوقاً على إطلاقه ، وليست تبعية خالصة ، لأن العقوق المطلق كالتبعية المطلقة ، ضد نوااميس الحياة وطبائع الأشياء ، فالعقوق قطيعة ، والتبعية جمود ، ويجب أن تكون العلاقة قائمة على جدلية الأخذ والعطاء ؛ جدلية واعية بواقعها الموجود ، وواعية بدورها التاريخي المنشود ^(٢) .

والصلة بين الشاعر وعصره كانت موجودة ، وكان الشاعر يعي واقعه ويعي دوره التاريخي حيال قضايا عصره ، ولكن ذلك الوعي لا يمكن أن يتحقق له النضج ، بعيداً عن إحداث التغيير أو التجديد ، وذلك لا يكون إلا بالمعاناة ، وإحساس الواقع والتجربة ^(٣) .

(١) د. عبد الرحمن بدوي : نيتشه ، خلاصة الفكر الأوروبي ، المطبوعات الكويتية ، الكويت ، ١٩٧٥م ، ١٢١ .

(٢) د. عبد القادر زيدان : قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، ١٣ .

(٣) الدكتور مصطفى ناصف : نظرية المعنى في النقد العربي القديم . دار القلم ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ١٠٦ - ١٠٧ .

وشخصية الشاعر ، ومدى قابليته للتفاعل بما يحيط به ، والقدرة على تمييز الغث من السمين ، ورفض المخالف ، وتعزيز الموافق وقبوله ، من العناصر المؤثرة في الشاعرية . كما ان للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثراً في بناء شخصية الشاعر ، إذ إن من يمتزج مع الشعب في محنه وافراحه غير من يقف وقفة اللامبالاة بما يحيطه .

والشعراء أبناء المجتمع ، يتأثرون بما يؤثر في مجتمعاتهم ، وليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، وقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويصدرون عنها في أشعارهم^(١) .

ومن العوامل التي عملت على وصل الشعر العربي بالشعب، عمومية الثقافة ، فقد كانت (الثقافة) حقاً للجميع ، وملكاً لهم ، وكان كل فرد يجد ما يريد من العلوم ، التي كانت تلقى في المساجد على أيدي كبار العلماء . "ولم تكن هناك حواجز تفصل بين أفراد الشعب وبين ألوان الثقافات شعراً ونثراً، ولم تكن هناك - أيضاً - شروط لمن يحضر حلقات العلماء أو الأدباء ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين، وأتاح ذلك لنفر منهم أن يصبحوا شعراء .. نذكر منهم الخباز الموصلي"^(٢) .

ولذا كان الشعر مرآة عصره ، وكان الشعراء لسان حال الناس، عبّروا عن أفراحهم وأحزانهم ، وصوّروا آمالهم وآلامهم ، رضوا عما رضي به الناس وأثّروا عليه ، ورفضوا ما رفضه الناس وأنكروه .

وثمة محن واضطرابات وصراعات عاشها الناس في القرن الرابع الهجري ، فقد حلّ تعدد الدويلات محلّ وحدة الدولة . واختلفت صور بعض الخلفاء العباسيين في إذهاب الناس لاختلاف تصرفاتهم ، وابتعادهم عن سيرة أجدادهم الأوائل ، وانحسر النفوذ العربي ، وسيطر الأعاجم على مقاليد بعض الأمور ، وكثرت الفتن والثورات لأسباب متعددة ، واشتدت النزاعات المذهبية ، وتردت الأوضاع الاقتصادية ، وعاشت فئة من الناس فقيرة وصلت إلى حدّ العدم، وانتشرت بعض العادات المخالفة لقيم المجتمع الإسلامي وتقاليده ، وهذا التردّي، في عدد من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، أدى إلى ظهور حركة شعرية رافضة ، أهمّ دواعيها :

(١) د. شوقي ضيف : عصر الدول والإمارات ، دار المعارف، مصر، ١٩٨٢م ، ٤٢٣.

(٢) السابق، ٤٢٣.

أولاً : ضعف الدولة، وانقسامها، وتغلب الروم على بعض نواحيها .

استطاع المسلمون بناء الدولة الإسلامية ، في عهد الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين ، رضوان الله عليهم، على أسس سياسية واجتماعية واقتصادية متينة. ثم اتسعت هياكل هذه الدولة ، عندما انتقلت قاعدتها إلى دمشق ، زمن بني أمية (٤١-١٣٢هـ)، ثم بلغت أوج ازدهارها وسيطرتها على العالم في زمن العباسيين .

وهي الفترة الذهبية ، في تاريخ الدولة الإسلامية ، ومنتهى ما وصلوا إليه في المشرق والمغرب من قوة ، وتفوق في جميع الأصعدة . فبيّن المقدسي أن مملكة الإسلام تمتد من كاشغر في أقصى المشرق إلى السوس الأقصى في المغرب ، وأنها تقطع في نحو عشرة أشهر^(١).

وحُدود المملكة الإسلامية عند ابن حوقل : " شرقياً أرض الهند وبحر فارس، وغربياً مملكة السودان ، الذين يسكنون على المحيط الأطلسي ، وشمالياً بلاد الروم ، وما يتصل بها من الأرض، والآن والران والخزر والبلغار والصقالبة والترك والصين ، وجنوبياً بحر فارس"^(٢).

ولم يكن من السهل - على فريق حكم مركزي ينطلق من قاعدة واحدة - إدارة شؤون تلك الدولة المترامية الأطراف . فاستقلت بعض الأطراف البعيدة من الدولة الإسلامية ، مع بقاء علاقة لها بمركز الخلافة ببغداد. وكان هذا شأن الدولة الأغلبية بتونس ، والدولة الطولونية بمصر ، والدولة الطاهرية بخراسان ، والدولة السامانية بما وراء النهر ، فضلاً عن الدولة الأموية الثانية بالأندلس ، وهي أقدم هذه الدول ، وأكثرها استقلالية في الأصل عن بغداد.

ولم تكن تلك الجهات في بداية الأمر معادية للعباسيين ، بل كانت عوامل قوة للدولة ، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

(١) المقدسي ، شمس الدين . أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري المقدسي (٣٨٧هـ) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، نسخة مصورة عن طبعة ليدن ، ١٨٧٧م ، نشر مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١م ، ٦٤.

(٢) ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي ، محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (٣٦٧هـ) : كتاب صورة الأرض . دار مكتبة الحياة ، بيروت ، (٩)، ٢٠٠.

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، أصبحت الأمور مختلفة عن ذي قبل ، فمظاهر الانقسام الأولى ، في الأطراف البعيدة ، كانت حصون حماية للدولة ، وأسباب دعم ومنعة لها . أما في هذه الفترة ، فقد بدأت عوامل التراجع الساسي في الظهور لأسباب عديدة معقدة ، أهمها الأزمات الاقتصادية ، وكثرة الفتن ، والقلق ، وتعاضم نفوذ الإداريين ، وقواد الجيش من غير العرب في ظل بعض الخلفاء الضعاف^(١) .

وفي بداية القرن الرابع الهجري (حوالي سنة ٣٢٤هـ) واجهت الدولة العباسية - التي وصلت ذروة مجدها وأوج عنفوانها العسكري ، في عهد الخليفة المعتصم - صعوبات في إدارة دفة الحكم ، وتسيير شؤون ولاياتها المنتشرة ، لأسباب منها : ضعف بعض الخلفاء ، وتنازع العصبيات الثلاث : التركية والفارسية والعربية . فانقسمت الدولة الإسلامية إلى دول صغيرة ، وانحسرت سلطة الخليفة ، وسيطرته تدريجياً ، حتى أصبحت لا تتعدى مدينة بغداد ، وما جاورها . وهيمن الولاة على الدويلات وأموالها ، يتصرفون بها كيف يشاؤون . ولم يكن للخليفة نصيب منها ، فعجز الخليفة الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ) عن أداء نفقات الجند ، واستدعى ابن رائق لتوفير تلك النفقات ، ويسلمه مقاليد الحكم في بغداد ، بعد أن كان مستقلاً بأطراف البصرة وواسط^(٢) .

(١) عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، م ١٩٦٨ ، ٣٩٨/٢ وما بعدها (تجزوء الخلافة).

(٢) ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (-٦٣٠هـ) : الكامل في التاريخ ، دار الفكر ، بيروت ، (؟) ، ٢٥٤/٦ . وينظر :

• أبو الفداء ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي ، صاحب حماة (-٧٣٢هـ) : المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، ١٩٠٧م ، ٨٤/٢ .

• ابن الوردي ، زين الدين عمر بن مظفر بن محمد بن علي (-٧٤٩هـ) : تاريخ ابن الوردي (تتمة المختصر في أخبار البشر) ، جمعية المعارف ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ . ٢٦٠/١ - ٢٦٦ .

• ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (-٧٧٤هـ) : البداية والنهاية في التاريخ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٣٢م ، ١٥٩/١١ ، ١٦٠ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٦٩ .

• الكيالي ، سامي الكيالي : سيف الدولة وعصر الحمدانيين ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ٤٣ .

• الشكعة ، د. مصطفى الشكعة : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، مطبعة المعرفة ، القاهرة ، ١٩٥٨م ، ٧١-٧٧ .

وأما بقية أجزاء الدولة ، فقد تمكن الولاة وأصحاب القوة من السيطرة عليها ، والاستقلال فيها ، فكان البريدي في خوزستان ، وعماد الدولة بن بويه في فارس ، وركن الدولة بن بويه في الري وأصبهان والجل ، ينازعه عليها وشمكير ، ومحمد بن الياس في كرمان ، وكان بنو حمدان في الموصل وديار بكر ، ومحمد بن طغج الأخشيد في مصر والشام ، والقائم بأمر الله بن المهدي الفاطمي في المغرب وأفريقية ، ونصر بن أحمد الساماني في خراسان ، والديلم في طبرستان وجرجان ، وأبو طاهر القرمطي في البحرين واليمامة ^(١) .

وتمكن البويهيون من الزحف على بغداد ، مركز الخلافة ، والسيطرة عليها واخضاعها لحكمهم ، فدانت لسلطانهم ، وبهذا سقطت سلطة الخلافة الدنيوية ، ولم يبق لها الا شعارها ورسمها الدينيان ، وهي في ذلك لم تسلم من تدخلات البويهيين ، وأصبح الخليفة موظفاً من موظفي الدولة البويهية ، حتى إن عزل الخلفاء وتنصيبهم ، كان يتم بمشيئة البويهيين ورضاهم ^(٢) . وكان مظهر سلطان الخليفة منصبه فحسب ، يحكم الأمة وليس له عليها سلطان فعلي ، ورغم هذا ، لم تفقد فكرة الدولة ما كان لها من سلطان ، فلم يتخذ بنو أمية - في الأندلس - لأنفسهم لقب الخليفة ، أو اسم أمير المؤمنين ، إلى أن جاء الفاطميون ، وكانوا أول من خرج على القاعدة ، ولم يكتفوا بالسلطة الدنيوية فقط ، بل أرادوا أن يكونوا الخلفاء الحقيقيين للنبي ، عليه الصلاة والسلام ، فاتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان سنة ٢٩٧هـ . وسمي حاكم سجلماسة (جنوب جبال اطلس) نفسه أمير المؤمنين سنة ٣٤٢هـ . وهو اللقب الذي كان من قبل يبعث في النفس رهبة عظيمة ^(٣) . ولقب عبد الرحمن الداخل - بالأندلس - نفسه أمير المؤمنين سنة ٣٥٠هـ ^(٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٥٤/٦-٢٥٥ وينظر :

• أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٨٤/٢ .

• ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي ٢٦٩/١ .

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٨٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣١٤/٦-٣٥٠ وينظر :

• أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ٩٤/٢-١١٩ .

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١/٢١٢ .

(٣) البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري (-٤٨٧هـ): كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية

والمغرب ، مكتبة المشى ببغداد ، صورة عن طبعة الجزائر ، ١٨٥٧م ، ١٥١ .

(٤) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ٩٤/٢ (تحت عام ٣٥٠هـ) وينظر :

• المقرئ ، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (-١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق

د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٢١٢/١-٢١٣ .

"على أن شبحاً لسيادة الخليفة - ببغداد - ظلّ وهماً ماثلاً في الأذهان" ^(١) . فكان أصحاب الدول يعترفون بالسيادة الأسمية للدولة، ويدعون للخليفة في المساجد، ويشتررون منه بعض ألقابهم ، ويرسلون إليه الهدايا في كلّ عام، ومن ذلك ما تمّ لعضد الدولة بن بويه لما فتح كرمان سنة ٣٥٧هـ، إذ أنفذ إليه من الحضرة ، ببغداد ، عهد الخليفة وخلّعه ، والعقد على أعمال كرمان كلها ^(٢) .

ومما زاد الأمر سوءاً التنافس والخلافات بين دول العالم الإسلامي ، فكان الخليفة الفاطمي على أشد ما يكون من المنافسة لبني العباس ، إذ كان يخطب له في اليمن والشام ، زيادة على أفريقية ومصر، وكان لمذهب الفاطميين " دعاة منبثون في كل صقع" ^(٣) . وكان النزاع على أشد ما يكون فيما يتعلق بمكة والمدينة ، لأن امتلاكها يعني أن مالِكها هو أمير المؤمنين الحقيقي ^(٤) .

ولم تقف الأمور عند هذا الحد من الضعف والتفرق والتناحر ، بل تعدّى ذلك إلى فقد أجزاء من الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، إذ فقدت بعض ممتلكاتها في الغرب ، وبدأ زحف الروم سنة ٣١٤هـ واستولوا على مدينة ملطية ^(٥) ، ووافقت جيوشهم سنة ٣٣١هـ، ديار بكر وحدود نصيبين ، وطلبوا من أهل الرها أن يدفعوا فدية مقابل خلاص بعض المسلمين من الأسر ^(٦) . وفي سنة ٣٥٠هـ فتح نفقور (امبراطور بيزنطة) جزيرة اقريطش بعد حصار دام ثمانية أشهر. وبعد خمس سنين سقطت قبرص في يد الروم ، وفي سنة ٣٥١هـ ورد نفقور حلب ^(٧) ، وفي سنة ٣٥٤هـ أخذت مدينة المصينصة ، وسقطت طرطوس وأخذها الروم بعد أن عظم بها الغلاء والربا حتى بلغ الأمر بالناس أكل الميتة. وفي سنة ٣٥٧هـ أخذ نفقور حماة وحمص واللاذقية ، وبعدها بسنة واحدة سقطت مدينة أنطاكية بعد أن كان يخيل للناس أنها لن تغلب ^(٨) .

(١) متر، آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريّدة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٦٧م، ٢٠/١ .

(٢) مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد مسكويه (٤٢١هـ) : تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، القاهرة ، ١٩١٤م، ٢٤١/٢ .

(٣) ابن النديم ، محمد بن اسحق بن النديم (٣٨٣هـ) : الفهرست تحقيق د. ناهدة عباس عثمان ، دار فطري بن الفجاءة ، الدوحة ، ١٩٨٥، ٤٠٠ .

(٤) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (٣٤٦هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مطبعة دار الرّجاء ، مصر ، ٣٦٢/١ .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم ١٤٧/١ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٩٤/٦ .

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ١٩٢/٢ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٦/٧ .

ولما أغار الروم سنة ٣٦٢هـ على الرّها ونواحيها ، وساروا في ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين ودخلوا ديار بكر ، فغنموا واستباحوا وسبوا وخرّبوا البلاد ، قصد بغداد من نجا من أهل تلك البلاد ، مستنفرين ، رافضين ما يحدث ، بل ثائرين على الخليفة . فاجتمع معهم أهل بغداد في الجوامع ، وأصابهم جميعاً غضب اليائسين ، فكسّروا المنابر ، ومنعوا الخطب ، وقصدوا دار الخليفة ، وحاولوا الهجوم عليه ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف ، فرماهم الغلمان بالنشاب من الرواشن^(١) .

وقد استنفر لصد الغزاة جمعٌ عظيم من العامة والخاصة ، بلغ زهاء ستين ألفاً ، فطلب عزّ الدولة بختيار بن بويه من الخليفة المطيع أن يبعث له مالاً يخرجهم للمجاهدين ، فامتنع الخليفة بحجة أن الأموال لا تجبى إليه ، فلا تلزمه النفقة على المجاهدين ، وهتّد بالاعتزال ، وترددت الرسائل بينه وبين بختيار ، حتى بلغ الأمر التهديد ، فبذل المطيع أربعمئة ألف درهم ، واحتاج في ذلك إلى بيع ثيابه ، وانقاض داره ، وشاع بين الحجاج أن الخليفة قد صودر^(٢) .

ثم تحزّب المجاهدون إلى سنيين وشيعية ، ووثب بعضهم على بعض ، وأعرضوا عن ذكر الروم جانباً ، ولما قبض بختيار المال صرفه في مصالحه ، وبطل حديث الغزاة . وقد أدّى ذلك الوضع إلى حالة من الضيق والشدة عند الناس ، فكثّر همهم ، وازدادت معاناتهم ، فشكوا من " ضعف الإسلام في هذا الوقت وذهابه ، وظهور الروم على المسلمين ، وفساد الحج ، وعدم الجهاد ، وانقطاع السبيل ، وفساد الطريق ، وانفراد كلّ رئيس وتغلّبه على الصقع الذي هو فيه ... ولم يزل الإسلام مستظهِراً إلى هذا الوقت ، فتداعت دعائمه ووهى .. والله المستعان على ما نحن فيه " (٣) .

ولما كان ضعف الدولة وانقسامها ، وتغلّب الروم على بعض نواحيها ، من العوامل التي ساعدت على كثرة الشعور ورقّيه ، فإن نوعية تلك العوامل ، أثّرت في بروز ظاهرة الشكوى والرفض عند شعراء القرن الرابع الهجري .

(١) ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (- ٥٩٧هـ) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ٢١٤/١٤ . وينظر :

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٤٩/٧ .

• أبو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تعري بردي الاتاكي (- ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطابع كوستاتسوماس ، القاهرة ، ١٣٥١هـ ، ٤٣٥/٢ .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ١٠١/٢ . وينظر :

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦١/٧ - ٦٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ٢٤٧ - ٢٥٢ .

فكثرة الصراعات ، وكثرة الهموم ، وقساوة التجارب ، أدت إلى رفضها ، والذين رفضوها ، هم أكثر الناس إحساساً بها ، وهم مرهقو الإحساس ، وكثرتهم من الشعراء ، فلا غرابة أن نجد من الشعراء من يرفض الواقع السياسي الذي آلت إليه الدولة الإسلامية في هذا القرن ، بل يدافع عنها ، ويهاجم أعداء الإسلام ، الذين تجرأ بعضهم ، فأرسل شعراً يهاجم فيه الإسلام والمسلمين ، كما فعل ملك الروم ، نقفور ، الذي أرسل القصيدة الأرمنية - وقد نظمها له بعض كتابه - إلى الخليفة المطيع لله ، وأولها :^(١)

مِنَ الْمَلِكِ الطَّهْرِ الْمَسِيحِيِّ مَالِكٍ إِلَى خَلْفِ الْأَمْلَاقِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وفيها يدّعي القوة ويصفُ الخليفة بالضعف :

أَمَّا سَمِعْتَ إِذْنَاكَ مَا أَنَا صَانِعٌ وَلَكِنْ دِهَاكِ الْوَهْنُ عَنْ فَعْلٍ حَازِمٍ
فَبِأَنَّ تَكِ عَمَّا تَقْلَدُ نَائِمًا فَبِأَنِّي عَمَّا هَمَنِي غَيْرِ نَائِمٍ

ويدّعي منعة ثغور الروم وضعف ثغور المسلمين :

ثَغُورُكُمْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا - لَوْ هُنْكُمْ وَضَعُفُكُمْ - إِلَّا رُسُومُ الْمَعَالِمِ
فَتَحْنَا الثَّغُورَ الْأَرْمَنِيةَ كُلَّهَا بِفَتَيَانِ صَدَقَ كَاللِّيُوثِ الضَّرَاعِمِ

ثم يستمر في تهديد المسلمين ، وتعداد المعارك التي انتصر فيها الروم ، وذكر الأماكن التي استولوا عليها في بقية القصيدة التي بلغ عدد أبياتها تسعة وستين بيتاً ، قال في آخرها :

سَأَفْتَحُ أَرْضَ اللَّهِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَأُنْشُرُ دِينًا لِلصَّلِيبِ بِصَارِمِي
فَعِيسَى عَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ عَرْشَهُ يَفُوزُ الَّذِي وَالَاهُ يَوْمَ التَّخَاصُمِ
وَصَاحِبُكُمْ بَالْتَرَبِ أَوْدَى بِهِ الثَّرَى فَصَارَ رِفَاتًا بَيْنَ تِلْكَ الرَّمَائِمِ
تَنَاوَلْتُمْ أَصْحَابَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ بِسَبَبٍ وَقَذْفٍ وَانْتِهَاكِ الْمَحَارِمِ^(٢)

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ٢٤٧/١١ - ٢٥٢.

(٢) أورد ابن كثير قصيدة أبي محمد بن حزم ، التي عارض بها القصيدة الأرمنية ، ويرد فيها مزاعم نقفور ، رافضاً تلك المزاعم ، مدافعاً عن الإسلام والدولة الإسلامية . يقول في أولها :

مِنَ الْمُحْتَمِيِّ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَوَالِمِ وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
إِلَى قَاتِلِ بِالْإِفْكِ جَيْلًا وَضَلَّةً عَنِ النَّقْفُورِ الْمُفْتَرِي فِي الْأَعَاجِمِ

وبيّن ضعف الخليفة في ذلك الوقت ، وضعف الدولة قائلًا :

دَعَوْتُ إِمَامًا لَيْسَ مِنْ أَمْرَائِهِ بِكَفِيهِ إِلَّا كَالرُّسُومِ الطُّوَاسِمِ
دَهَتْهُ الدَّوَامِي فِي خِلَافَتِهِ كَمَا دَهَتْ قَبْلَهُ الْأَمْلَاقُ ذُهْمُ الدَّوَامِ
وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَالِ مَاضِي جُدُودِهِ لَجُرْعَتُمْ مِنْهُ سُمُومُ الْأَرَاقِمِ

ويذكر في بقية القصيدة التي بلغ عدد أبياتها أربعة وثلاثين ومائة بيت - انتصارات المسلمين على الروم والبلاد التي فتحوها ونشروا الإسلام بها .

• ابن كثير : البداية والنهاية ، ٢٤٧/١١ - ٢٥٢.

ومن الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام والمسلمين وهاجموا الروم - فعلاً وقولاً- أبو فراس الحمداني ، الذي يقول في إحدى روميّاته ، مفتخراً بجده: ^(١)
 أساء داء تغبر كان أعياء دواؤه وفي قلب ملك الروم داء مخامر
 رافضاً القعود عن الجهاد ، والخلود إلى الدعة والراحة :
 وكيف يُنال المجد والجسم وادع وكيف يُحازر الحمد والوفر وافر
 ومفتخراً بوالده الذي :

غزا الروم لم يقصد جوانب غيرة ولا سبقته بالمُراد النذائر
 فلم ترَ إلّا فالقاً هام فيلق وجرأ له تحت العجاجة ماخر
 ومادحاً سيف الدولة الذي هزم الروم ، وأورد خيله بلادهم وأسر ابن قائدهم :
 وأوقع في جلباط بالروم وقعة بها العمق واللكام والبرج فاخر
 أخذن بأنفاس الدمستق وابنه وعبرن بالتيجان من هو عابر
 وجبن بلاد الروم ستين ليلة تغاور ملك الروم فيمن تغاور
 وولى على الرسم الدُمستق هارباً وفي وجهه عذر من السيف عاذر
 فدى نفسه بابل عليه كنفسه وللشدة الصماء تقتل الذخائر
 ثانياً: ضعف بعض الخلفاء ، وتبذيرهم ، وسيطرة النساء عليهم .

بلغت الأمور في بداية القرن الرابع الهجري ، حدّاً تتخلل الوزراء والكتاب في اختيار خليفة الأمة ، فلما ثقل المرض على الخليفة المكتفي سنة ٢٩٥هـ، استشار الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن ، كاتبه أبا الحسن علي بن الفرات ، فيمن يرشح للخلافة ، وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، ولكن كاتبه نصحه ألا يولّي القوي ، والخبير المجرب حتى تسهل السيطرة عليه ، ويجب ألا يولّي من عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وحنكته التجارب . واتفقا على اختيار جعفر بن المعتضد (الخليفة المقتدر) " فإنه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يُصرف من المكتب " ^(٢) فقلّد المقتدر الخلافة، وكان صبيّاً في الثالثة عشرة.

(١) أبو فراس الحمداني ، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي (- ٣٥٧ هـ) :

• ديوان أبي فراس الحمداني ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦١ م .

• ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق د. إبراهيم السمراي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٣ م ،

(٢) الصابي ، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن هلال بن زهروب الحراني (- ٤٤٨هـ) : كتاب الوزراء ، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار احياء الكتب العربية ، مصر ، ١٩٥٩ م ،

وقد استغرب بعض الناس هذا الاختيار ، ورفضه ، لعدم شرعية خلافة المقتدر ، لصغر سنّه ، وأعدم القاضي أحمد بن يعقوب ، لانه رفض المبايعه ، وقال : هو صبي ولا تجوز المبايعه له (١) .

ولبث المقتدر خليفة زهاء خمسة وعشرين عاما ، وهو تحت سيطرة أمّه ، وبلغ من ضعفه وسوء تدبيره ، وتحكم الآخرين في أمره ، أن خلع في أثناء تلك المدة مرتين ؛ فقد ثار عليه بعض قواده ، وخلعوه في كل مرة مدة يوم أو يومين ، مع ما صاحب ذلك من فوضى واضطراب في صفوف الناس .

ولم يخرج المقتدر في جيش ليقاقل ، إلا مرة واحدة ، وقد قتل فيها ، وذلك عندما خرج لمحاربة مؤنس ، بين الحاح قواد الجيش ، ومعارضة أمّه ، التي جهدت به ألا يخرج ، وكشفت عن نديبها ، وبكت . ولكنه خرج كارهاً ، وقتل ، وسلبت ثيابه وبردته (٢) .

وكان المقتدر مبذراً كثير الشراب ، مما اثار كثيراً من الناس عليه ، فرفضوا تصرفاته . وانتخب القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ) بعد المقتدر ، خليفة ، وكان القوم قد اتعظوا بحكم المقتدر ، فعينوا القاهر ، وقالوا : هو كهل لا أم له ، فنرجو أن تستقيم أمورنا معه (٣) . ولكنه خيب ظنهم ، إذ كان أهوج ، يقدم على سفك الدماء ، محباً للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرغبة في اصطناع الرجال ، غير مفكر في عواقب الأمور ، وكان مولعاً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع الغناء ، مع أنه حرم على الناس الخمر والقيان (٤) .

وبلغ من ضعف الخليفة وهوانه ، أن طلب من القاهر أن يشهد على نفسه بالخلع ، فلما أبى ، خلع وسُلبت عيناه ، ولم يُسمل قبله أحد من خلفاء المسلمين (٥) . وعاش القاهر بعد خلعه ، عيشة ذل وفقر .

(١) عريب بن سعيد القرطبي (-٣٦٦هـ) : صلة تاريخ الطبري ، طبعة دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩٧م ، ٢٨ .

(٢) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (-٣٤٦هـ) : التنبيه والاشراف ، نسخة مصورة عن طبعة دي غويه ، ليدن ، ١٨٩٤م ، نشر مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ٣٧٦-٣٧٧ . وينظر : مسكويه : تجارب الأمم ١/٢٣٧ .

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٦٨-١٦٩ .

(٣) الذهبي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان التركماني (-٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام ، جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، ١٣٦٤هـ ، ١/١٤١-١٤٢ . وينظر :

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٦٨ .

(٤) المسعودي : التنبيه والاشراف ٣٨٨ . وينظر :

• مسكويه : تجارب الأمم ١/٢٦٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/٢٣٦-٢٣٧ . وينظر :

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٧٨ .

ولما عيّن الراضي (٣٢٢-٣٢٩هـ) خليفة ، كان له من العمر خمسة وعشرون عاماً ، وكان لا يأبه بأمور الدولة ، مولعاً بجمع البلور ، فلم ير البلور " عند ملك أكثر منه عند الراضي ، ولا عمل منه ملك ما عمل ، ولا بذل في أثمانه ما بذل ، حتى اجتمع له من آتته ما لم يجتمع لملك قط " (١) . ولم يسلم عهده من سفك الدماء ، والظلم ، والتشريد ، وكان يؤثر لذته وشهوته على رأيه (٢) .

وبلغ من بؤس المتقي (٣٢٩-٣٣٣هـ) وضعفه أنه ترك مدينة السلام ، عاصمة الخلافة ، خوفاً ، وطلباً للنجاة ، ولحق بالحمدانيين ، وظلّ ينتقل معهم في الجزيرة . ثم غدر به القائد التركي توزون ، لقاء ستمائة ألف دينار ، أخذها من أحد طالبي الخلافة ، فقبض عليه ، وخلعه ، وامر الجارية الشيرازية بسمّته بيد غلامها السندي (٣) .

وخلف المستكفي (٣٣٣-٣٣٤هـ) أخاه المتقي ، بعد مؤامرة مع الأتراك ، وقد سيطر عليه - لضعفه - أمّه والأتراك ، الذين زاد نفوذهم في بغداد . وقد بلغ من ضعفه وسوء تدبيره ، أنه لم يستطع - أمام الحاج البويهيين - كفة يد أحد قواد الجيش من التصرف بشيء من أمور الدولة . ولما أرادوا خلعه رضي ذلك . واشترط ألا يقطعوا شيئاً من أعضائه ، ولكن خليفته المطيع (٣٣٤-٣٦٤هـ) أمر أن يُسمل انتقاماً لأخيه (٤) .

والخلفاء المتأخرون من بني العباس ، لم يكن لهم من الأمر حلّ ولا عقد ، وكانت الأمور بيد القواد ، والمتنفذين من الأعاجم ، ولذلك طالت مدة خلافتهم ، وقد خلع المطيع نفسه وترك ولاية الخلافة لابنه الطائع (٥) (٣٦٣-٣٨١هـ) ، الذي ترك تدبير شؤون الدولة لأمه ، واشتغل هو بملذاته ، واتباع شهواته .

ثم خلع الطائع بعد ثماني عشرة سنة من حكمه ، وقبض عليه ، واعتقل عند الخليفة القادر ، ضعيفاً ذليلاً ، مما حدا بالشريف الرضي إلى وصف الحال يوم القبض على الطائع ، ووصف

(١) الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى (-٣٣٥هـ) : أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة (٣٢٢-٣٣٣هـ) . من كتاب الأوراق ، نشره ج. هيورت . ، مطبعة الصاوي ، القاهرة ، ١٩٣٥م ، ٢٧ .

(٢) السابق ١٤٨-١٤٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/ ١٧٥ .

(٤) المسعودي : التنبيه والإشراف ٣٠٠ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ١٤/ ٢٢٣ .

خروجه (الرضي) من الدار سليماً، وقد سلبت ثياب أكثر الأشراف والقضاة، وانتبهوا وامتنحوا، فبادر الشريف إلى نزول دجلة، وكان أول خارج من الدار، فقال شاكياً، رافضاً ما جرى ذاماً عمل السلطان (١) :

لواعجُ الشوقِ تُخطيهمُ وتُصميني	واللومُ في الحبِّ يناههمُ ويُغريني (٢)
سلّني عن الوجدِ إني كلُّ شارقيةٍ	يُريشني الوجدُ والأيامُ تَبْرِيني
من لي ببلغةٍ عيشٍ غيرِ فاضلةٍ	تَكْفِنِي عن أذى الدنيا وتكفيني
أخي من باع دنياه وزخرفها	بِصَوْتِهِ كان عندي غيرَ مغبون
قالوا اتَّقَنُ بالدونِ الخسيسِ وما	قَتَعْتُ بالدونِ بل قَتَعْتُ بالدونِ
إذا ظَنَنَّا وَقَدَرْنَا جَرَى قَدَرٌ	بِنِازِلٍ غيرِ مَوْهُومٍ ومُظَنونِ
أعجبُ بِمُسْكَةٍ نفسٍ بَعْدَما رُميت	بين النوائبِ بالأبكارِ والعونِ
ومن نجاتي يومَ الدارِ حين هوى	غيري ولم أخلُ من حزمٍ يُنجيتني
مرَقْتُ فيها مروقَ النجمِ مُكْدَرًا	وقد تلاقت مصاريعُ الردى دوني
وكنْتُ أولَ طلاعِ ثنيتها	ومن ورائي شرٌّ غيرُ مأمون (٣)
من بعد ما كان ربُّ المُلِكِ مبتسماً	إلي أدنيه في النجوى يدنيني
أُمسيتُ أرحمُ من أصبحتُ أغبطه	نقد تقارب بين العزِّ والهونِ
ومنظرٍ كان بالسراءِ يضحكني	يا قرباً ما عادَ بالضرءِ يبكينني
هيهاتُ أغترُّ بالسلطانِ ثاتيةً	قد ضلَّ ولاجُ أبوابِ السلاطينِ

وقد جرَّ ضعف أولئك الخلفاء وهوانهم الويلات والمصائب على المجتمع، وعاش الناس في محن وشدائد، وعانوا الكثير، مما دفع بعض الشعراء إلى رفض الواقع، والتحسر على الأيام الخوالي، يوم أن كانت الدولة في أوج عزها وقوتها، يقول الشريف الرضي (٤) :

إن كان ذاك الطود خراً فبعد ما استعلى طويلاً
لهفي على ماضٍ قضى ألا ترى منه بديلاً
وزوالُ مُلْكٍ لم يكن يوماً يُقَدَّرُ أن يزولا
ومنازل سطر الزمان على مغائبيها الحوولا

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري (٤٢٩هـ-): يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة، ١٩٥٦م، ١٣٦/٣.

(٢) أصماه : قتله

(٣) الثَّيَّة: منعطف الوادي.

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٣٤-١٣٥.

من يزجر الدهر الغشوم ويكشف الخطب الجليلا
وتسراه يمنع دوننا وادي النوائب ان يسبلا

* * *

ومما كان في القرن الرابع الهجري ، تحكم النساء في ادارة شؤون الحكم زمن معظم الخلفاء العباسيين ، ففي عهد المقتدر ، انفسح المجال للنساء للتدخل في كل شيء ، ووقع الخليفة تحت تأثيرهن حتى " غلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم " (١) . وصرن يسيّرن الأمور وفق أهوائهن ، ولعل من بين الأسباب التي أدت إلى حركة ابن المعتز سنة ٢٩٦هـ ، ظهور سلطة نساء القصر ، وتدخلهن في سياسة الدولة ، فاصبح لهن الأمر والنهي ، علاوة على ان دولة المقتدر كانت ذات تخطيط كثير ، لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمة عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم ، وهو مشغول ببلدته ، وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة (٢) . ومن اللواتي امتدت أيديهن إلى السلطة في القرن الرابع الهجري ، القهرمانات ، (٣) إذ كان لهن شأن كبير ، وحظوة مرموقة في دار الخلافة ، ولهن أيضاً دور ملحوظ في تصريف شؤون الدولة ، وكن يتدخلن في كبريات المسائل ؛ يعزلن الوزراء ، ويولين الولاة ، ويجلسن للمظالم (٤) ، ويتولين شؤون دار الخلافة ، والنفقة عليها ، بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه (٥) ونظراً لمنزلتهن الرفيعة ، امتد نفوذهن إلى مختلف أعمال الدولة ومؤسساتها ، ومن ذلك ما روته كتب التاريخ عن فاطمة (قهرمانة السيدة أم المقتدر) (٦) ، والقهرمانة أم موسى و " اشتراكها في تدبير الأمور مع الوزراء والقواد " (٧) .

(١) ابن دحية ، مجد الدين عمر بن حسن بن علي المعروف بذي النسيين ، دحية والحسين ، (٥٤٤هـ) : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، تحقيق المحامي عباس العزاوي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٦م ، ١٠٩ . وينظر : المسعودي : التبيين والاشراف (مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥م) ٣٢٨ .

(٢) ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (٦٦٠هـ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦م ، ٢٦٢ .

(٣) القهرمانة : تعني الوكيل عن الشخص ، أو الأمين على الدخل والخرج .

• ابن شاکر الكتبي ، محمد بن شاکر الكتبي (٧٦٤هـ) : فوات الوفيات ، تحقيق د. احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ٧٢/١ .

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٧٤/٦ .

(٤) ابن دحية : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، ١٠٩ .

(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، دار الهلال ، مصر ، ١٩١٠م ، ١٣١/٢ .

(٦) مسكوية : تجارب الأمم ٢٠/١ . وينظر :

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١٨/١١ .

(٧) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) : جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢م ، ٣٢ .

وكانت "قهرمانة متحكمة في كل شيء من عزل ونصب وردّ وقبول" ^(١) والقهرمانة تُمل، التي جلست للمظالم ^(٢) والقهرمانة زيدان، التي نالت ثقة الخليفة، فجعل بيتها سجنًا لكل من يغضب عليه، ويقصيه عن منصب الوزارة ^(٣).

ولم يكن هذا التدخل حاصلاً، لولا ضعف الخلفاء، وتأثير أمهاتهم - ومعظمهن غير عربيات - وبذلك "انتقلت السلطة الحقيقية من الرجال إلى النساء، وأدى تدخلهن في الأمور إلى انخراق الهيبة وضياح الأمور، وانتشار الفوضى.." ^(٤).

والتبذير سمة ظهرت على تصرفات بعض خلفاء بني العباس في القرن الرابع الهجري، فقد اقترن عهد الخليفة المقتدر بالتبذير والاسراف المفرطين، فما ان تمت له البيعة، حتى اطلق يد وزيره العباس بن الحسن، وامره باخراج مال البيعة ^(٥)، ولما اخفقت مؤامرة ابن المعتز وحزبه، قلد المقتدر بالله ابا الحسن علي بن الفرات وزارته ^(٦)، فجدد هذا البيعة للمقتدر، وصرف للجند صلة ثانية، علماً أنهم كانوا قد نالوا صلة قبل أربعة أشهر ^(٧).

(١) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٣٢.

(٢) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي (- ٨٤٥هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤م، ج ١/ق ١/١٨. وينظر: • الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (- ٨٢١) : مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٤م، ١/١٧٦. وينظر:

• ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ١٠٩.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ٢٠/١. وينظر:

• ابن الجوزي: المنتظم ٢٦٨/١٣.

• ابن كثير: البداية والنهاية ١٢٦/١١.

(٤) د.صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، دار الحياة، بيروت، ١٩٥٧م، ١٢، ١٥.

(٥) عريب: صلة تاريخ الطبري ٢٣. وينظر:

• مسكويه: تجارب الأمم ٤/١.

• ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١٩/٦.

(٦) مسكويه: تجارب الأمم ٨/١. وينظر:

• عريب: صلة تاريخ الطبري ٢٨.

• الصايي: الوزراء ٢٧.

(٧) عريب: صلة تاريخ الطبري ٢٩. وينظر:

• مسكويه: تجارب الأمم ٨/١.

ويورد الصابي قول الوزير ابن الفرات : " عندما توفي المكتفي كان في بيت مال الخاصة ^(١) ، أربعة عشر ألف ألف دينار ، أطلق منها العباس مال البيعة ثلاثة آلاف ألف دينار " ^(٢) .

ويذهب صاحب المنتظم إلى انه كان في " بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار ، وفي بيت مال العامة ^(٣) ، ستمائة ألف دينار ، ومن غير ذلك ما يتم عشرين ألف ألف دينار ومن الفرش والآلة والجواهر ما يزيد قيمته عن الكل " ^(٤) .

ويقول ابن كثير عن تبذير المقتدر وإسرافه أنه كان في " بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار ، وفي بيت مال العامة ستمائة ألف دينار ونيف ، وكانت الجواهر الثمينة في الحواصل من لدن بني أمية أيام بني العباس قد تناها جميعها ، فما زال يفرقها في حظاياهم وأصحابه ، حتى أنفدوها ، وهذا حال الصبيان وسفهاء الولاة " ^(٥) . أما ابن الأثير فيذكر إهماله أحوال الخلافة ، وإسرافه قائلاً : " وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيراً وتضييعاً في غير وجهه ، نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة ^(٦) ، ويذكر مسكويه اتلافه أموال المسلمين ، وانفاقه كميات تزيد على ما جمعه الرشيد وخلفه ^(٧) .

(١) الصابي : الوزراء ٣١٧ .

(٢) بيت مال الخاصة ، وجدت فكرته في عهد الخليفة المعتضد ، وقد تجمعت الأموال بيت مال الخاصة من الكنوز المتجمعة من عهود الخلفاء العباسيين السابقين ، والمبالغ الضخمة المتروكة من قتلهم والمصادرات الكثيرة ، وكان الهدف الأساسي من بيت المال هذا سد نفقات الخليفة ، وحاشيته ، وقد انشئ له ديوان خاص سمي ديوان بيت مال الخاصة .

(٣) بيت مال العامة : هو المكان الذي تحمل إليه الأموال من الأقاليم لتعد للمصالح العامة ، حيث يرد إليه ما يفضل من أرزاق الجيش في الأقاليم ليضعه الخليفة في بيت مال العامة . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكة فهو من حقوق بيت المال . ينظر :

• الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (- ٤٥٠ هـ) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، المطبعة المحمودية التجارية ، مصر ، (٤) ، ٢٠٥ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم في أخبار الملوك والأمم ٦٠ / ١٣ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ١٠٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٢٢ / ٦ وينظر :

• ابن كثير : البداية والنهاية ١١ / ١٢١ .

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ٢٣٨ / ١ " ولم يكن من ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد ، فإنه خلف في بيت المال ثمانية وأربعين ألف ألف دينار " .

ولم يكتفِ المقتدر بتبذير الأموال، بل تجاوزها إلى الجواهر فبذرها، وضيعها بين الجواري والحريم^(١). وقد بلغ من عدم تورعه أنه أمر أن ينادى بالناس، حين اصطدم جيش الخليفة بجيش مؤنس سنة ٣٢٠ هـ "من جاء بأسير فله عشرة دنانير، ومن جاء برأس فله خمسة دنانير"^(٢).

ولم يكن القاهر بأقل من المقتدر إسرافاً وتبذيراً. أما الراضي فقد أولع بهدم القصور وبناء غيرها^(٣). وكان ينفق ما وجد، ويعطي جلساءه وزن الأجرة التي يجلس عليها دنانير^(٤). والمتتبع لأخبار بعض الخلفاء اللاحقين يجد السيرة نفسها من تبذير الأموال والاسراف وانفاق أموال الدولة في غير وجه حق.

وبينما كان الخلفاء ومن حولهم، يتعمون بالأموال وينفقونها في ملذاتهم واهوائهم، كانت فئة من الناس ليست بالقليلة تعوزها لقمة العيش، ويعيشون حياة الفقر والذل والهوان، الأمر الذي ملأ صدور الفقراء غضباً على المترفين، رافضين تصرفاتهم، شاكين لله سوء أعمالهم، وربما تعدى ذلك إلى الثورة والتمرد على الدولة كما فعل القرامطة والعباسيون والشطار وقطاع الطرق.

ثالثاً: سيطرة الأعاجم على مقاليد بعض الأمور.

اتجه أهل الذمة في القرن الرابع الهجري كعادتهم^(٥) نحو الصنائع التي تدر الأرباح الوفرة، فكانوا صيارفة، وتجاراً، وأصحاب ضياع، وأطباء، وقد نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام يهوداً، وكان أكثر الأطباء والكتبة نصارى^(٦). إذ لم يكن في التشريع الإسلامي ما يمنع أهل الذمة من مزاوله ما يريدون من أعمال.

وقد استعين بأهل الذمة قديماً، في الأمور التي لا يتقنها، ولكنهم شغلوا كثيراً من الوظائف في الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، "فكان النصاري هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام"^(٧) الأمر الذي أدى إلى الشكوى والتذمر من كثرة عدد العمال والمتصرفين - غير المسلمين - في أمور الدولة الإسلامية، وربما تعدى ذلك إلى استنكار اصطناعهم ورفضه، إذ اصطنعهم بعض الخلفاء والولاة.

(١) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (-٤٤٠هـ): الجماهر في معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد، ١٣٥٥هـ، ٥٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٦٩.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٣/٣٧٧.

(٤) السابق: ١٣/٣٧٧.

(٥) أبو يوسف لقضي، يعقوب بن إبراهيم (-١٨٢هـ): كلب لخراج، لمطبعة لسفلية ومكتبتها، القاهرة ١٣٩٢ هـ، ١٢٠.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٨٣.

(٧) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/١٠٥ وينظر المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٨٣.

والشكوى من تحكم أهل الذمة في مصالح المسلمين وأموالهم قديمة^(١)، فيحكى عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه لما عرف أن لأبي موسى الأشعري كاتباً نصرانياً، ضرب فخذة وقال: ألا اتخذت رجلاً حنيفاً. وكان رضي الله عنه، يأبى أن يتخذ الكتاب من اليهود أو النصارى^(٢).

ولما قلد ديوان الجيش - في القرن الثالث الهجري - لرجل نصراني، وجّه اللوم للوزير ورفض عمله لأنه "جعل انتصار الدين وحماة البيضة يقبلون يديه ويمتثلون أمره"^(٣).

ونتيجة للشكوى والتذمر من تحكم الأعاجم في بعض أمور المسلمين، أمر الخليفة المتوكل سنة ٢٣٥هـ بإبعادهم عن الدواوين، وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين^(٤). ولكن أمر الخليفة لم ينفذ، فاستعان هو نفسه بهم، فصير - فيما بعد - نفقة نهر قصره الجعفري إلى دليل النصراني^(٥). وانتشر الكتاب المسيحيون في كل مكان، وقربوا من الحكام، إذ اتخذ محمد بن عبدالله بن طاهر قهرماناً نصرانياً^(٦).

وأمر الخليفة المقتدر سنة ٢٩٦هـ بما أمر به المتوكل، من رفض أهل الذمة، وإطراحهم عن الخدمة الآ في الطب أو الجهيزة^(٧). ولكن أمره لم ينفذ أيضاً، فقد كان وزيره ابن الفرات يقرب النصارى ويستخدمهم^(٨).

وفي القرن الرابع الهجري، قرب أهل الذمة من ذوي السلطان، وشغلوا وظائف هامة، فكان رئيس النصارى ببغداد طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم في دار السلطان^(٩).

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (-٢٧٦هـ): عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م، ١٧، ٢٣.

(٢) السابق ٤٣.

(٣) الصابي: الوزراء ٢٥.

(٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (-٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م، ٨٧/٩. وينظر:

• الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (-٣٥٠هـ): كتاب اتولاة وكتاب القضاء، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ٢٠٣.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٩٠/٩.

(٦) الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (-٣٨٨هـ): كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مكتبة المثنى، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٦م، ١٢٣.

(٧) عريب: صلة تاريخ الطبري ٣٠. وينظر:

• أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٧٤/٢-١٧٥.

(٨) الصابي: الوزراء ٢٤٠.

(٩) السابق ٢٤٦.

وطالب المقنن من وزيره الحسين بن القاسم سنة ٣١٩هـ الاجتهاد في اصلاح أعدائه ، فقرب الوزير كثيراً من الكتاب النصاري وتقرّب إليهم ^(١) ، وكان يقول لهم : " إن أهلي منكم واجدادي من كباركم .. " ^(٢) .

ومما زاد في نقمة الناس وكثرة شكواهم ، ازدياد نفوذ أهل الذمة وتوليهم مناصب مهمة في الدولة ، فكان اصطف بن يعقوب النصراني ، صاحب بيت مال الخاصة حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ ^(٣) ، واتخذ علي بن بوية كاتباً نصرانياً من أهل الري ^(٤) ، ولما خرج الوزير عز الدولة إلى البصرة سنة ٣٥٧هـ استخلف أبا العلاء صاعد بن ثابت النصراني بالحضرة ، وكذلك كان للخليفة الطائع (٣٦٣-٣٨١هـ) كاتب نصراني ^(٥) .

ورفض كثير من الناس تولي بعض أهل الذمة الوزارة ، أو تساويهم مع المسلمين ، ففي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري اتخذ كل من عضد الدولة (-٣٧٢هـ) في بغداد ، والخليفة العزيز في القاهرة ، وزيرين نصرانيين ، وقد استأذن نصر بن هارون (وزير عضد الدولة) سيده في عمارة البيع والديرة وفي إطلاق المال لفقراء النصاري ، فأذن له ^(٦) . ومع افتاء بعض فقهاء الإسلام أنه يجوز أن يكون وزير التنفيذ ^(٧) من أهل الذمة ، إلا أن هذا الأمر رفض ، لتعدي وزير التنفيذ صلاحياته وظلم كثير من الناس كما حدث مع ورثة القاضي محمد بن النعمان (-٣٨٩هـ) إذ باعوا ما عندهم ارضاء لرغبة كاتب نصراني ^(٨) .

(١) مسكويه : تجارب الأمم ١/٣٢٠ .

(٢) عريب : صلة تاريخ الطبري ١٦٤ .

(٣) الصولي : الأوراق ٩٦ .

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ٢/٢٣٧ .

(٥) السابق: ٢/٢٥١ .

(٦) نفسه ٢/٥١١ . وينظر :

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧/١١٢ .

(٧) وزير التنفيذ لا يباشر الحكم ولا يقلد العمال ولا يدبّر الجيش ، أما وزير التفويض فهو الذي يفوض السلطان اليه تدبير المملكة برأيه وهو يشارك السلطان في حكمه ، وليس وزير التنفيذ الا سفيراً بين السلطان والرعية .

• ابن طلحة ، أبو سالم ، النصيبي ، كمال الدين محمد بن طلحة (-٦٥٢هـ) : العقد الفريد للملك السعيد ، مطبعة الوطن ، مصر (القاهرة) ١٨٨٨م ، ١٤٧ .

(٨) الكندي : كتاب الولاية وكتاب القضاة ٥٩٥ - ٥٩٧ .

وزاد إكرام أهل الذمة وزاد نفوذهم ، في عهد الفاطميين ، فقد أطلق المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥هـ) يد وزيره اليهودي ابن كلّس في كلّ شيء ، وصيّر صهره ارستس بطريكاً على بيت المقدس ، وصيّر أخاه مطراناً على القاهرة ^(١) ، واتخذ العزيز (٣٦٥-٣٨٦هـ) عيسى بن نسطورس النصراني وزيراً ، واستتاب بالشام يهودياً اسمه منشأ ، فاعتز بهما النصراني واليهود ، فكتب أهل مصر - رافضين - رقعة ، وجعلوها في يد صورة ، عملوها من الورق ، واقعدوا الصورة في طريق العزيز ، وببد الصورة رقعة فيها : بالذي اعزّ اليهود بمنشأ ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذلّ المسلمين بك ، إلا كشفت ظلامتي ! فلما رآها العزيز علم ما أريد ، فعزل الرجلين وقبض عليهما ^(٢) .

وعبر الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي عن رفض كثير من الناس تلك السيطرة قائلاً ^(٣) :

تنصّر فالتنصّر دين حقّ عليه زماننا هذا يدلّ
وقلّ بثلاثة عزّوا وجلّوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبّ وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل

وبازدياد المعاناة ، لازدياد هيمنة الأعاجم وسيطرتهم على كثير من الأمور ، اختار الناس الثورة والمواجهة شكلاً من أشكال الرفض ، فوقعت فتنة بين المسلمين والنصارى سنة ٣٨٦هـ على أثر احراق الأسطول الذي جهّزه العزيز لغزو بلاد الروم ، فاتهم الناس تجار الروم باحراقه فثار العامة ، وقتلوا من النصارى مائة وستين رجلاً ، ونهبوا الكنائس ، ولكن الوزير نسطورس أعاد الهدوء إلى البلاد ^(٤) .

ولم تدم القوانين التي وضعها الحاكم بأمر الله الفاطمي ، للحدّ من تميّز أهل الذمة وسيطرتهم ، طويلاً . إذ اتخذ هو نفسه وزيراً نصرانياً ، واتخذ خلفاؤه وزيراً يهودياً ، فعادت معاناة الناس أشدّ من ذي قبل ، وأظهروا رفضاً شديداً لما يجري ، قال الحسن بن خاقان ^(٥) :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية أمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١٠-١١١ .

(٢) السابق ١٧٦/٧-١٧٧ .

(٣) نفسه ١٧٦/٧ .

(٤) المقرئ ، تقي الدين أحمد بن علي المقرئ (٨٤٥هـ-) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المسمى الخطط المقرئية) الناشر مكتبة المثنى ببغداد (عن الطبعة القديمة سنة ١٩١٠م) ، ١٩٥/٢-١٩٧ .

(٥) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ-) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ ، ١١٧/٢ .

رابعاً: نفوذ الأعاجم في الجيش .

انضوى الجند الأعاجم تحت راية العباسيين ، وقاتلوا إلى جانبهم إبان الثورة العباسية ، وفرض لهم العطاء من بيت المال ^(١) . وبذلك اختلفت أسس بناء الجيش عما كانت عليه أيام الأمويين ، فبينما اقتصر الجيش في العصر الأموي - في الأغلب - على العرب ، أصبح الجيش العباسي يضمّ اجناساً مختلفة ، الأمر الذي أدّى إلى تأثر الجيش بمؤثرات أجنبية ، سواء أكانت تركية أم فارسية ، مما اضعف - فيما بعد نفوذ العرب في صفوف الجيش ^(٢) .

وكثر أولئك الأعاجم في الجيش ، أيام الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) إذ جمع كثيراً من الأتراك ^(٣) - وكان يحبهم لأن أمّه تركية الأصل ^(٤) - وجنّدهم ، وتدرّج بعضهم إلى أن وصل إلى أعلى مراتب الجندية ، مما مكنهم - لاحقاً - من التحكم في مقاليد السلطة .

وأدت كثرة الأعاجم في الجيش ، وازدياد نفوذهم فيه ، إلى تحوّل من حام للدولة الإسلامية ، وناشر للوائها ، إلى الارتزاق ، وتحقيق المآرب الشخصية ، دون الاهتمام بالدين أو الدولة ، وقد تبين - فيما بعد - أن هؤلاء الأعاجم ، لم يكونوا أهلاً للوثوق بهم أو الركون إليهم ^(٥) ، فقد تدخلوا في شؤون الدولة الادارية والمالية ، وتحكموا في تعيين الخلفاء ، والوزراء والولاة ^(٦) ، وأضعفوا معنوية الجيش ، الذي أصبح نهياً للانقسامات ، والمنازعات ، خاصة في عهود الخلفاء المستضعفين ، "فبينما كان جناحاً النسر العباسي يكسران في الشرق والغرب ، كان قلبه هدفاً ، لينال منه الدخلاء من الترك " ^(٧) . وكان من المحتم أن تؤدي سيطرة الأعاجم على الجيش ، إلى اضعاف الحكومة المركزية ، وتمهيد الطريق لهم للسيطرة على الأمور في العاصمة ، وسلب صلاحيات الخليفة ، حتى صار بعض الخلفاء كالأسير ، أموره بيد حرسه ^(٨) .

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ٣٣.

(٢) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١٧١/١.

(٣) المسعودي : التتبيه والاشراف ٣٥٤ وينظر :

المسعودي : مروج الذهب ٥٢/٤.

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٦٣/٩ وينظر :

فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ، ترجمة د. ادوارد جرجي ود. جبرائيل جبور ، دار الكشف للنشر والطباعة والتوزيع ، بيروت ، ١٩٥٣م ، ٥٥٩/٢.

(٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ١٧١/١.

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٦٩، ٦٧/٦.

(٧) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول ٥٥٩/٢.

(٨) المسعودي : مروج الذهب ٣٧٢/٤.

وبعد مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٧٤هـ، صار العنصر التركي هو الحاكم فعلاً ، فزاد عدد أفراده في الجيش والوظائف ، وصار دفع أرزاقهم من المشاكل التي تواجهها الدولة ، وكثير شغبهم ، وازدادت الفوضى بهم ^(١) .

وازداد الأمر سوءاً في القرن الرابع الهجري ، إذ شهد العصر صراعاً بين الفئات العسكرية والسلطة المدنية ، فبينما كان الوزراء قديماً يشرفون على الجيش والدواوين ^(٢) ، صار القواد العسكريون يتدخلون في أمور الدولة ^(٣) ، وأصبح تدخلهم مصدر قلق واضطراب باشعال الفتنة واثارة الشغب عند احتياجهم للأموال ^(٤) ، الأمر الذي أضعف السلطة المدنية ، وزاد من سيطرة العسكريين على الخلفاء والوزراء والموظفين ، فتدخلوا في توليتهم وعزلهم حسب أهوائهم ^(٥) ، بل كانوا يقدمون في بعض الأحيان على قتلهم أو سملهم ^(٦) .

ولم يكن دافع العسكريين إلى التطلع للمناصب الهامة في الدولة ، الرغبة في الإصلاح ، وإنما كان ذلك بدافع أطماعهم ، وتسابقهم إلى جمع الأموال والاثراء على حساب المصلحة العامة وقوت الشعب الفقير ، ومما زاد الوضع سوءاً ، أن منح الوظائف الادارية لقادة الجيش لم يكن يجري على أساس الكفاءة أو المقدرة أو الخبرة الادارية ، وإنما كان الدافع إلى ذلك كسب رضاهم ، أو الخوف من تمردهم على الدولة ، فأدى توليهم الوظائف المدنية إلى فقدان السيطرة على اقاليم الدولة ، لأنهم لم يباشروا أعمالهم بأنفسهم بل أرسلوا نواباً عنهم ^(٧) ، ولم يكن للنواب هم غير ارضاء اسيادهم ، وتأمين الأموال لهم ، بغض النظر عن الأسلوب الذي يتبعونه مع الناس .

(١) مسكويه: تجارب الأمم ١/٣٨، ٣٩، ٨٩، ١٠٠، ١١٦ .

وينظر:

• بروكلمان ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقلة إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨م ، ٢١٢ .

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ١/٤٠ .

(٣) الهمذاني ، محمد بن عبد الملك (٥٢١هـ) : تكملة تاريخ الطبري ، تحقيق البرت يوسف كنعان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦١م ، ١/١٠٩ .

(٤) الكندي : كتاب الولاة وكتاب القضاة ٢١٧ .

(٥) الصابي : كتاب الوزراء ٦٨ .

(٦) عريب : الصلة ١٨٠ .

وينظر مسكويه: تجارب الأمم ١/٢٩٠ .

(٧) عريب: الصلة ٤٢ .

ولم يقف التناحر في المؤسسات العسكرية والمدنية عند حد كونه بين الأعاجم والعرب، بل تعداه إلى التناحر بين فرق الأعاجم أنفسهم في تلك المؤسسات، فبتعدد عناصر الجيش، وكثرة الأيادي الأجنبية المتعارضة، وبضعف الخلافة، واستبداد العمال في ولاياتهم، والحركات الانفصالية من جسم الدولة العباسية، بكل هذا وغيره، انتظم الجند المرتزقة في فرق التفت حول بعض القواد، وسميت باسمائهم، كالساجية نسبة إلى يوسف بن أبي الساج، والمؤنسية نسبة إلى مؤنس الخادم، والهارونية نسبة إلى هارون بن غريب، والنازوكية نسبة إلى نازوك.. وغيرها^(١)، وما لبثت هذه الفرق أن تحولت إلى مصدر فتن وقلق واضطرابات، أثرت في حياة الناس، وكثيراً ما نشبت بين تلك الفرق حروب أريقَت من جرائها الدماء، وعانى الناس من أثرها أشد المعاناة^(٢). وانعكس استبداد الأعاجم، ونفوذهم بالسلطة وتحكمهم بأمور الدولة، وازدياد نفقاتهم، وكثرة شغبهم، والتناحر بينهم، وحروبهم الداخلية، وكثرة فتنهم.. انعكس على الناس الذين ارهقهم الضرائب والاجراءات المالية الظالمة، وعطلت سبل حياتهم، فاستدّت كراهيتهم للأجانب وضاقوا بهم ذرعاً، وبخاصة حين عرقل شغبهم المستمر أسلوب الحياة المعتاد، وأثر في معيشتهم^(٣).

ومن الطبيعي لمن عاش تلك الظروف أن يعاني ويتألم، وهكذا كان، فقد عانى الناس وتألّموا، فاشتكوا ورفضوا، ومنهم من ثار وتمرد على ذلك الوضع.

خامساً: ظلم بعض الوزراء والولاة، وسوء تدبيرهم :

تأتي الوزارة بعد الخلافة في الأهمية السياسية والإدارية، والوزير وسيط بين الخليفة والرعية، ويساعد الخليفة في إدارة شؤون الدولة، ويطلع على احوال الناس بوجه عام^(٤). فصارت الوزارة بذلك أرفع رتبة وأعلى مقاما من سائر الأعمال^(٥). لأن النظر للوزير كان

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ١٦٠/١.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ١٨٨/١ وينظر:

• ابن كثير: البداية والنهاية ١٥٨/١١.

(٣) السامر، د. فيصل السامر: الدولة الحمدانية في الموصل و حلب، مطبعة الايمان، بغداد، ١٩٧٠م، ٢٩/١.

(٤) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري (-٤٥٠هـ): أدب الوزير، المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق حسن الهادي حسين، نشر مكتبة الخانجي، مطبعة دار العصور للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٢٩م، ٩.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (-٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي، بيروت، (٤)، ٢٣٨.

عالمًا في سائر الأمور^(١) .

وثمة نظرية للوزارة^(٢) . وقواعد لاختيار الوزراء : " فلم تكن الخلفاء والملوك تستوزر الا الكامل من كتابها، والأمين العفيف من خاصتها، والناصح الصدوق من رجالها، ومن تؤمنه على اسرارها، وأموالها، وتثق بحزمه، وفضل رأيه، وصحة تدبيره في أمورها " (٣) .

وقد مال الخلفاء العباسيون، منذ مطلع القرن الرابع الهجري، إلى تولية الوزارة لفئة الكتاب الحاذقين بالأمور المالية، والابتعاد عن القضاة، فلم يقبل المقتدر نصيح من أشار عليه بتولية القاضي محمد بن يوسف منصب الوزارة قائلاً " لعمرى أنه قاض عالم ثقة، إلا أنني لو فعلت ذلك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر، لأنني اكون بين امرين؛ إما أن تتصور مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة، فيصغر الأمر في نفوسهم، أو أنني عدلت عن الوزراء إلى اصحاب الطيالس، فانسب إلى سوء الاختيار " (٤) .

ومن الملاحظ أن غالبية وزراء العباسيين في القرن الرابع الهجري . لم يحوزوا " خطة السيف والقلم، وسائر معاني الوزارة والمعاونة " (٥) فهمهم الاول جمع المال، وتحقيق مآربهم الشخصية، وحتى الوزراء الذين أكثر كتب التاريخ من الثناء عليهم، وتعداد مناقبهم، واشهار أمانتهم، وعدلهم، واستقامتهم، لم يكونوا في الحقيقة كذلك، فلم يصدق علي بن عسى الخليفة بما عنده من أموال، واعترف بثلاثة آلاف دينار، وقد وجد له بعد ذلك عند رجل سبعة عشر ألف دينار، ولما ضيقوا عليه، استجاب لدفع ثلاثمائة ألف دينار (٦) .

ونقل لنا كتب التاريخ تذيير بعض الوزراء، وغناهم الفاحش، وفسادهم الإداري، فلم يخرج علي بن الفرات من مده إلى خزائن الدولة، وأضاف هو واخوه الكثير إلى أملاكهما، وقد كان وزيراً واسع الثروة " ما سمعنا وزيراً يملك من العين والورق والضياع والأثاث، ويحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات " (٧) وما كان يروى عن موائد هذا الوزير لا يصدق (٨) .

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ٢٣٨ .

(٢) نفسه ، ٢٣٨ - ٢٤٠ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ، ٣٤٠ .

(٤) الصابي : الوزراء ٣٤٦ وينظر :

* سرور، د. محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، من عهد الاتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، مطبوعات دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م، ٣٧-٣٨ .

(٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ٢٣٨ .

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ١٠٨/١ وينظر :

• الصابي : الوزراء ٢٦٠، ٢٩١، ٣٥١ .

(٧) عريب : صلة تاريخ الكبري ٣٧ وينظر : ابن الجوزي : المنتظم ١٩٠/٦ (طبعة حيدر اباد ١٣٥٧هـ) والعين : ما ضرب نقداً من الدنانير، والورق : الامل من الدراهم .

(٨) الصابي : الوزراء ٢١٦ .

وقد أفرط ابن الفرات في سوء التدبير، إذ ولى ولده المحسن ليعاونه في إدارة شؤون الدولة، فأفرط الأخير في المصادرة والتعذيب^(١).

وتصرف الوزير ابن الفرات كما يشاء، وفق خطة تضمن بقاءه بمنصبه مدة أطول، مما أثار سخط الناس، واستياءهم، فأنكروا تصرفاته، وتصرفات ابنه، وعلنوا رفضهم لسياستهما الخاطئة، كما رفضوا تعسف ولاته وفساد ادارتهم. ولكن ذلك لم يثن الخليفة عن تقديرهما وكرامتهما، مما دفعهما إلى المزيد من التصرفات الطائشة^(٢).

وكان الوزير الخاقاني سييء السيرة والتدبير "متشاعلاً بخدمة السلطان، ومراعاة أعدائه، لا يقرأ الكتب الواردة عليه ولا النافذة"^(٣) وكان جلّ اعتماده على ابنه الذي عينه مساعداً له في تنفيذ الأمور^(٤). وكان ابنه هذا "متشاعلاً بالشراب، إنما يراعي أمر القواد والجيوش والولايات للعمال، ويدع ما سوى ذلك"^(٥).

ولعل أسوأ ظاهرة شهدتها العصر، اسراف بعض الوزراء في تولية العمال، وقد ذكر ابن مناصباً شاغراً، شغله سبعة ولاة خلال عشرين يوماً، "فاجتمع بطلوان في خان بها سبعة عمال أو لاهم (الوزير) في عشرين يوماً ماه الكوفة، فاجتمعوا في الطريق، فسار الأخير، وعاد الباقون"^(٦).

"وقدّ عماله بادرياً في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً"^(٧). ومما لا شك فيه أن الرشوة لعبت دوراً كبيراً في تلك التعيينات، مما سبب استياء عاماً، بل رفضاً صارماً، حتى قال الشاعر:^(٨)

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢٣٤/٤ وينظر:

• ابن الجوزي : المنتظم ١٧٣/٦ (حيدر اباد)

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ١١٣، ٩٤/١ وينظر

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٧٣-١٧٤/٦

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ٢٣/١

(٤) السابق ٢٣/١

(٥) نفسه ٢٣/١

(٦) الهمداني : التكملة ١٢/١ وينظر:

• مسكويه : تجارب الأمم ٢٣/١

والماء - بالهاء - قصبه البلد، ومنه قيل ماد البصرة، وماء الكوفة، وهي الدينور.

• ياقوت، شهاب الدين أبو عبيد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) : معجم البلدان،

الناشر دار الصياد وبيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٦م، ٤٠٥/٤-٤٠٧.

(٧) عريب : صلة تاريخ الطبري ٣٩.

(٨) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ٢٦٧ وينظر :

• عريب : صلة تاريخ الطبري ٤١.

وزير ما يفيق من الرقاعة يولي ثم يعزل بعد ساعة
ويدني من تعجل منه مال ويبعد من توسل بالشفاعة
إذا أهل الرشا صاروا إليه فأحضى القوم أوفرهم بضاعة
وليس بمنكر ذا الفعل منه لأن الشيخ أفلت من مجاعة

ولم يكتف بعض وزراء العصر باظهار الأبهة، وكثرة الانفاق على الأطعمة والأشربة، بل تعدوا ذلك إلى السفه والفحش، فقد كان لحامد بن العباس ألف وسبعمائة حاجب، وأربعمائة مملوك يحملون السلاح، وكان ملاحو حراقتة من الخصيان البيض، وهم أغلى الخصيان ثمناً^(١). وكان ينفق على الطعام كل يوم مائتي دينار، وربما نصب في داره في اليوم الواحد أربعون مائدة، ومع ذلك كان لا يتورع أن يتلفظ بالفاحشة ويجهر بها، "فما رأينا ولا سمعنا برئيس اسفه لساناً من حامد بن العباس، فإنه كان لا يرد لسانه عن أحد البتة، وكان إذا غضب شتم"^(٢) وتدل أقواله ومخاطباته على فحشه وعدم ورعه، وسوء سريرته ومنكر أعماله^(٣). وكثيراً ما كانت تشتد الأزمات المالية، ويزداد شغب الجند، وترتفع الأسعار، وتقوم الفتن والانتفاضات، وتشتد الصراعات في عهود الوزراء الميملين الجشعين، فبعضهم "كان يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها، وإذا ما انتبه يكون مخموراً لا فضل فيه للعمل، فرد فض الكتب الواردة من عمال الخراج والمعاون وقراءتها والتوقيع عليها واخراجها إلى كتاب الدواوين"^(٤). أو ربما يقرأ تلك الكتب كاتبه النصراني فيوقع فيها بحسب ما يرى^(٥). وأدار بعض الوزراء ظهورهم لالو ضاع المالية المتردية، وأغمضوا عيونهم عن اصلاح المؤسسات، وتحسين موارد الدولة، وإقامة أسس اقتصادية مقننة ومثينة، فلجأوا إلى أقصر الطرق للحصول على الأموال بالصادرات وفرض الضرائب، فمنهم من "لم يدع عند أحد مالا أحسن به إلا أخذه بأتعس ما يكون الأخذ"^(٦)، ومنهم من حاول أن يرجع الموارد ويأخذ من تركة المتوفى^(٧)، علماً بأنهم جميعاً قد اتصفوا بالتبذير، والاسراف، واتباع اللهو المفرط،

(١) ابن الجوزي : المنتظم ١٨٠/٦ (حيدر آباد) .

(٢) التتوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي بن أبي الفهم (-٣٨٤هـ) : جامع التواريخ (المسمى نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٣٠م، ومطابع دار الصياد، بيروت، ١٩٧١م. ٤٩/٨. (مطبعة المفيد).

(٣) السابق ٥٠/٨

(٤) مسكويه: تجارب الأمم ١٤٣/١. وينظر:

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٤/٦.

(٥) مسكويه: تجارب الأمم ٢٤٤/١-٢٤٥.

(٦) عريب: الصلة ١٢٧-١٢٨.

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٣/٦.

حتى بلغت نفقات بعضهم المعلنة ١٦٠ ألف دينار خلال أربعة أشهر^(١)، غير النفقات التي اخفاها ولم يسجلها وكان يعطيها لحريمه وأولاده والتي يسترها عن كاتبه^(٢)، ومنهم من بلغت وارداته السنوية ٢٥٠٠٠٠ دينار سنوياً بينما بلغت نفقاته ١٦٠٠٠٠ دينار^(٣).

وأدى سوء الأحوال، والظروف المعاشية القاسية، وتوالي الضائقات المالية والفساد الإداري، إلى الرفض، بل إلى الشغب والفتن، واقتحام دور بعض الوزراء، واحراقها، وبذا ظهر "ما كان مستوراً من سخف الكلام وضرب الأمثال المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة مما يجلب الوزراء عنه"^(٤).

وحينئذ أبدى الشعراء رفضهم، وهجوا الوزراء، فقال ابن ياقوت في سليمان بن الحسن^(٥) :

يا سليمان غنني ومن الراح فاسقني

وقال فيه ابن دريد^(٦) :

سليمان الوزير يزيد نقصاً فأحر بأن يعود بغير شخص

أعم مضرّة من أبي خلاط وأعيّا من أبي الفرج بن حفص

ولما كان بعض الوزراء سبباً في تخريب البلاد، وضياع الأموال، وتقشي الرشوة، وتوالي الأزمات، وتتابع الفتن والثورات، هانت منزلتهم عند الناس، بل هانت منزلة الوزارة بهوان أصحابها، وكان الوزراء أنفسهم يعلمون أن الوزارة قد هانت على الخاص والعام، وأن نهايتها غير حميدة، فقال أحد الشعراء عندما قلد الفضل بن جعفر بن الفرات الوزارة سنة ٣٢٠هـ:

أتطمع في الذي أعيّا ابن مقلّة وقد أعيّا على الوزراء قبله

وأدبر أمر من ولّك حتى كما نرجو من الأدباء مهلة

كأنك بالحوادث قد تواليت عليك وجاءك المكروه جملة

بل إن بعض الشعراء قد رفض ازدواجية السلطة، فلم يكن لبعض الوزراء من منصبه إلا اللقب والخلعة لوجود المتنفذين الذين يدبرون الأمور، ويسوسون الناس دون الرجوع إلى الوزراء المشغولين بالجمع والمصادرة واللهو والمجون، كما هو الحال فلي وزارة حامد بن العباس الذي قال فيه ابن بسام مستهزئاً^(٧) :

(١) سكويه: تجارب الأمم ١/١٥٥-١٥٦.

(٢) السابق ١/١٥٥-١٥٦.

(٣) نفسه ١/١٥٥-١٥٦.

(٤) عريب : الصلة ١٥٦-١٥٧.

(٥) السابق ١٦١.

(٦) نفسه ١٦١.

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ١/٥٩.

يا ابن الفرات تعزّه قد صار أمرك آية
لما عزّلت حصلنا على وزير بداية

فقد اكتفى حامد بن العباس من الوزارة بالمظهر ، واصبح علي بن عيسى المدير الفعلي للأمر
بل إنه الوزير الفعلي صاحب الأمر والنهي والحل والعقد، فقل فيهما ^(١) :
أعجب من كلّ ما رأينا أن وزيرين في بلاد
هذا سواد بلا وزير وإذا وزير بلا سواد
وقيل فيهما أيضاً ^(٢) :

قل لابن عيسى قوله يرضى بها ابن مجاهد
أنت الوزير وإنما سخرُوا بلحية حامد
جعلوه عند سترة لصلاح أمر فاسد
مهما شككت فقل له لم واحد في واحد

ومجمل القول، إن تصرفات الوزراء وسيرتهم واحوال الوزارة، كانت من أسباب
معاناة الناس ورفضهم الواقع المؤلم، فقد انصرف الوزراء إلى الاهتمام بمصالح الخلفاء
ومطالبهم الخاصة والاعتناء بالقواد والحريم والحاشية وكبار رجال الدولة وتوفير الأموال لهم
لكسب رضاهم خاصة وأنهم -وحدهم- الطريق إلى الوزارة ^(٣) ، بالإضافة إلى السيطرة على
الأموال والاقتطاعات، واحتكار الوظائف للأقرباء والاتباع، وبيع المناصب بالأموال، بينما حرم
عامة الناس من العناية والرعاية، ولم تجر أية محاولة جديدة وجادة لإصلاح أحوال الشعب،
وكان على الناس تأدية ما كان يفرضه الوزراء من ضرائب مما دفع بعض الرافضين إلى تقديم
شكوى عن وزير من الوزراء في القرن الرابع الهجري إلى ديوان المظالم ^(٤) .

ولم يكن كثير من الولاة والأمراء احسن حالاً من الوزراء، وكان لبعضهم تصرفات
مرفوضة، فاتصف الحسين بن حمدان - رأس اسرة الحمدانيين - بالغدر إذ قتل الوزير العباس
ابن الحسن، وكذل فعل ناصر الدولة أبو محمد بن حمدان بابن رائق ^(٥) . وكانت الخلافات

(١) ابن كثير : البدايات والنهاية ١٣٠/١١ .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ٥٩/١ .

(٣) عريب : الصلة ٣٧ .

(٤) اليوزبكي : د. توفيق سلطان اليوزبكي : الوزارة، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٧٠م،
١٧٢ .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم ٢٦/٢ .

موجودة في بيت بني حمدان، فقتل أبو المعالي ابن سيف الدولة خاله أبا فراس^(١)، ولم يخل سيف الدولة من هذه أو عيب فقد " كان معجباً بنفسه يحب أن يستبد ولا يشاور أحداً لئلا يقال إنه أصاب برأي غيره " (٢) .

وابتدأ البريدون عهدهم في بغداد سنة ٣٣٠هـ بظلم الناس وزيادة الخراج، وخبط أصحاب الأراضي، وأهل الذمة واخذ جزء من مال التجار غصباً^(٣) .

وكان مرداويج الديلمي ضعيف الإسلام، ذا نزعة شعوبية محباً لسفك الدماء، بطش بأهل فارس وقتل منهم الآفاً إثر رفضهم كثرة الضرائب المفروضة عليهم^(٤) . وبلغ من ظلمه وسوء تدبيره، أنه ملك أربعة آلاف من المماليك الأتراك، وخمسين ألفاً من الديلم، وكان يجعل سروج الدواب على ظهور الغلمان الأتراك، ويقود الدواب بأرسانها إلى الاصطبلات، مما أثار الأتراك عليه فقتلوه^(٥) .

واتصف بنو بويه بحب المال، وجمعه من كل وجه، وادخاره، فكان ركن الدولة- صاحب الري- " لا يتسجيب إلى عمارة نواحيه خوفاً من اخراج درهم من الخزانة " (٦) وجمع عضد الدولة ثروة هائلة، وكذلك ترك فخر الدولة (٣٨٧هـ-) من الورق والفضة والجواهر شيئاً كثيراً، وجمع بهاء الدولة - من الأموال ما لم يجمعه أحد من بني بويه، وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات^(٧) .

وكان معز الدولة " يحب أن يقضي أو قاته في الصيد والأكل والشراب والسماع واللهو واللعب بالنرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ، فإذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به " (٨) ولذا لم يأبه لحقوق رعيته، وخبط الناس، واستخرج الأموال من غير وجوها، وأقطع قواده وخواصه ضياع السلطان، وأخذ من الرشوة، وفوض تدبير كل ناحية إلى خواصه من الديلم فاتخذوها مسكناً وطعنة، والتحف عليهم المتصرفون الخونة، فبطلت العمارة، وخربت البلاد، فاعتاض العمال عما يذهب من أموالهم بالمصادرة والحيث على الناس، فرقت أحوال الرعية، فمن هارب جال، إلى مظلوم صابر، إلى مستريح لتسليم ضيعته إلى المقطع ليأمن شره

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٩٠/٦ وينظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٠٦/٣ .

• مسكويه : تجارب الأمم ٣٢/٢ .

(٢) أبو الفداء : تاريخ أبي الفداء ٤٨٩ / ٢ (تحت عام ٣٤٩) .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ٢٦، ٢٥/٢ .

(٤) السابق ٣١٦ / ١ وما بعدها .

(٥) مسكويه : تجارب الأمم ٣١٨/٢ .

(٦) السابق ٢٢٠/٢ .

(٧) ابن الجوزي : المنتظم ٣٩٤/٤ (بيروت)

(٨) مسكويه : تجارب الأمم ٣٣٧ .

وبوائقه^(١)، وكان معز الدولة حديداً، سريع الغضب، بذىء اللسان يكثر من سب الناس وحشمة ووزرائه وكان يلحق المهلبى (وزيره) من فحشه وشتمه مالا صبر لأحد عليه، بل كان يضربه بالمقرعة^(٢). ولما مات وزيره قبض أمواله وذخائره وأخذ المال من أهله، وأصحابه، وحواشيه فاستعظم الناس من ذلك واستبحوه^(٣).

وكان عضد الدولة قاسياً سمل وزيره ابن بقتة، وطرحه، واضربت عليه الفيلة، فقتله شر قتله^(٤) وقد بلغ من هيئته وخوف الناس منه أن الوزير المطهر بن عبدالله خرج في طلب احد الخارجين عليه، فلما لم يجد الخارج قتل نفسه^(٥).

ولم يكن عضد الدولة أباً لرعيته بل ظل الحاكم الأجنبي عنهم، وقد أحدث في آخر أيامه رسوماً جائرة، وزاد الرسوم القديمة وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل الطرق^(٦)، وكان دخله في آخر أيامه ثلاثمائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم، فأراد أن يبلغ به ثلاثمائة وستين ألف ألف ليكون دخله كل يوم ألف ألف درهم^(٧). وقد أحكم نظام الجاسوسية " فكان يبحث عن اشراف الملوك، وينقب عن سرائرهم وكانت أخبار الدنيا عنده، حتى لو تكلم انسان بمصر رقي إليه . فكان الناس يحترزون في كلامهم وأفعالهم من نسانهم وغلماهم " ^(٨).

ولما جاء بجكم إلى بغداد حمل معه كثيراً من ضروب الغلظة التي اقترنت بحياته العسكرية، وعندما دخل واسط طالب أهلها بالمال واشتد في تعذيبهم، حتى كان يضع على بطن الرجل منهم طستاً به جمر، فنبهه بعضهم إلى أنه يفعل كفعل مرداويج بأهل الجبل، وذكره بأنه في بغداد ودار الخلافة لا الري واصبهان، ولا تحتل بغداد هذه الأخلاق^(٩).

وقد أبغض أهل بغداد بجكم لقبح سيرته، ورفضوا تصرفاته، فلما ظهر ابن رائق، أظهروا فرحهم، فكان العيارون والصبيان، يهزؤون ببجكم ورجاله، ويقولون : بجكم حلقوا نصف سباله، فإذا راوا تركياً عليه قلنسوة صاحوا به : قلنسوة طيري ! ليس أميرنا بجكم . ^(١٠)

(١) مسكويه : تجارب الأمم : ٩٠/٣

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٩١/٧

(٣) السابق ٦/٧

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ٤٨١، ٤٧٧/٢

(٥) السابق ٤٠٩/٢

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١١٥/٧

(٧) ابن الجوزي : المنتظم ٢٦٨/١٤

(٨) السابق ٢٦٩/١٤

(٩) مسكويه : تجارب الأمم ٣٧٩/١

(١٠) السابق : ٣٧٩/١.

واتصف الأخشيذ بخصلتين: السذاجة وحب التملك، وقد صادر جميع العمال وأخذ أموالهم، واشتهر بحبه للعنبر، فكان يبيع ما يهدى إليه للتجار الذين يبيعونه للذين يهدونه إليه، فيحصل له الثمن الوافر، ثم يعود العنبر إليه. (١)

سادساً: الإجراءات المالية

عدّ الفقهاء المسلمون الضرائب الجمركية من الزكاة (٢)، وكانوا يعدّون كلّ ما زاد عن الضرائب الشرعية (وهي عشر الأرض، والزكاة، والجزية) ضرائب غير قانونية. وكان التجار يدفعون المكس (ضريبة العشر) مرة واحدة في أثناء تجولهم من حدود البلاد، على أن يدفعوا ضريبة ما معهم من عين المال على معدل ربع العشر (٣).

ولكن اختلال الموازين، في القرن الرابع الهجري، وخروج كثير من الأمور عن دساتيرها، وتحولها عما هو مألوف، غير من قوانين المكوس، فكانت الضرائب في البلاد التي تبثلى بها، تختلف باختلاف الحكام، فخارج الشام "وأعشارها ومرافق سلاطينها كان على أوقات مختلفة بقوانين متباينة، وجبايات ناقصة وزائدة، وذلك أنها منذ سنة ثلاثين (٣٣٠هـ) بين قوم يتناول أحدهم على الآخر، وأكثرهم عرضة ما اجتلبه في يومه وحصله لوقته، لا يرغب في عمارة، ولا يلتفت إليها بروية ولا إشارة" (٤). وبلغ وفر الضرائب، بعد أرزاق العمال في الشام وما في ضمنها من أعمال وأجناد، لسنتي ٢٦٩هـ و ٣٠٦هـ، تسعة وثلاثين ألف ألف درهم، مسجل في جماعة علي بن عيسى ومحمد بن سليمان (٥).

ومع نصّ الفقهاء على أن يكون للإمام مسالحي على المواضع التي تنفذ إلى بلاد أهل الشرك، فيفتشون من يمرّ بهم من التجار (٦) إلّا أن مواضع التفتيش تلك، قد كثرت على حدود الدويلات داخل الدولة الإسلامية، وفتش المسافرين، وذكر الكثير عن صعوبة التفتيش وما يلاقيه المسافر من مشقة وأرهاق على الحدود (٧)، فكانت العراق كثيرة المراصد في البر والبحر والنهر وكانت البصرة مشهورة بتفتيش صعب.

(١) ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (-٦٨٥هـ) : المغرب في حلى المغرب، تحقيق زكي محمد ود. شوقي ضيف وسيدة كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الاول، القاهرة، ١٩٥٣م، ٣٥-٣٦.

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (-٨٢١هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، ١٩٦٣م، ٤٦١/٣-٤٦٣.

(٣) المقرئزي : الخط المقرئزي ١/١٠٣.

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ١٧٢.

(٥) السابق : ١٧٣. وكلمة جماعة اصطلاح ديواني معناه الحساب الجامع، ينظر :

* الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (- ٣٨٧هـ) : كتاب مفاتيح العلوم، تحقيق جرولف فان فلوئن، ليدن، ر. أ. ج. بريل، ١٩٦٨م، ٥٤.

(٦) أبو يوسف القاضي : كتاب الخراج ١٨٧-١٨٨.

(٧) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٠٥.

وكان لكل حاكم دولة من دول الإسلام مراصد برية تدفع إليها الضرائب على تفاوت في القيمة ؛ فكان بعضهم يأخذ نصف دينار عن الحمل ، وأكثرهم كان لا يأخذ عن الحمل إلا درهماً^(١) .

وقد ثقلت الضرائب والمكوس على الناس في القرن الرابع الهجري ثقلاً أدى - بسبب الفقر - إلى الشكوى والرفض ، ففي العراق كانت الضرائب ثقيلة والمكوس كثيرة، إذ فرض عضد الدولة (- ٣٧٢هـ) في آخر أيام دولته رسوماً على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة وزاد على ما تقدم ، ومنع عمل الثلج والقر ، وجعلها متجراً للخاص، فقال الشاعر^(٢) :

أفي كل أسواق العراق إساوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
تعاطى الملوك السلم ما قصدوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرّم

وفي بلاد فارس كان الناس يرزحون تحت ثقل الضرائب والمكوس ، ومع رفض أهل فارس كثرة الضرائب وثقلها، إلا أنهم كانوا "أنجع الناس بطاعة السلطان، وأصبرهم على الظلم، وأقلهم خراجاً، وأذلهم نفوساً" ، وهم لم يعرفوا عدلاً قط"^(٣) .

وكان في بيت المقدس ضرائب تقال على كل شيء يباع^(٤)، ومثال ذلك في مصر^(٥)، وفي جدة^(٦) .

* * * * *

ومن الاجراءات المالية التي شاعت في القرن الرابع الهجري، المصادرة، وهي أخذ المال غصباً، وسببها التنافس والمساومة على الوزارة، واثراء الوزراء بطرق غير مشروعة، إذ استأثروا بالأموال، وحازوها بأساليب مختلفة، كالرشوة والهدايا، وما يغتصبونه من ضياع الخليفة ،ومن عامة الشعب، وما يسلبونه من أموال الجباية،وما يصادرونه من بعضهم، أو من غيرهم .

ومرّ نظام المصادرة في اطوار، فكان في أوائل القرن الرابع ضرباً من ضروب العقاب، وبعد ذلك صار كل من كانت له صلة بالحكومة مشتبهاً في نقاوة يده، يصادر بين حين وآخر^(٧) . فلما أراد المقتدر معاقبة وزيره ابن الفرات صادرة، وكان هذا الوزير قد أثرى ثراء طائلاً بطرق مختلفة أهمها المصادرة ، وكان المعتاد ان يتهم كل وزير سلفه بسوء التصرف

(١) السابق ١٠٥ .

(٢) الجوهري : الصحاح ٩٧٩/٣ .

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٥١-٤٥٨ .

(٤) السابق ١٦٧ .

(٥) المقرئزي : الخط المقرئزية ١٠٣/١ .

(٦) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢١٣ .

(٧) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٢٠/١ .

والظلم والتعسف، ويطلب منه ومن كتابه وأعوانه أن يفدوا أنفسهم بكميات من المال^(١). ولم ينج الولاة^(٢)، والقضاة^(٣)، من هذا الأسلوب التعسفي. ويحصل الوزير الجديد على المال من الوزير المعزول، ومن اتباعه، وأهله، وموظفيه، وبمصادرة أموالهم وأموالهم، وقد يستخدم القسوة في تعذيبهم للحصول على المال الذي ضمن به منصب الوزارة، وفي ذلك يقول الصابي: "وقد تعددت وسائل استحصال الأموال عن طريق المصادرة والاستصفاء. بحيث أصبح كل صاحب منصب أو مال عرضة للمصادرة"^(٤).

وقد وجدت الدولة تبريراً لمصادر أموال الوزراء والعمال، لأن هؤلاء أنفسهم جنوا أموالهم بطرق غير شرعية، ذلك أن أغلب المصادرين أثروا على حساب الشعب، وجراء سوء سلوكهم واستغلال مناصبهم^(٥). وقد اتبع الوزراء أسلوب المصادرة لتوفير الأموال للدولة ولهم معاً، ولكن هذه الوسيلة أصبحت - بمرور الزمن - سنة قبيحة، فتفشيت الرشوة، وضاعت الحقوق، وانتشرت الفوضى والاضطرابات، في أرجاء الدولة.

وأدى نظام المصادرات إلى سنن غير مرغوب فيها، ومرفوضة من الناس جميعهم، فالموظفون الكبار صاروا مضطرين إلى جمع الثروة بكل وسيلة استعداداً ليوم مصادرتهم.

ولجأ بعض المسؤولين وأهل المال - خوف المصادرة - إلى حيل مختلفة لاختفاء ثرواتهم عن عيون الطامعين، فكانوا يودعون أموالهم عند ناس كثيرين، أو يدفنونها تحت الأرض، ولا يخفي ما كان لدفن النقود من أثر اقتصادي سيء، إذ فقدت كميات من النقود المدفونة بوفاء أصحابها، ونتج عن ذلك تجميد كميات كبيرة من النقد المتداول، مما أدى إلى عرقلة النشاط الاقتصادي وشل الحركة التجارية^(٦).

ومما زاد من ألم المصادرة، ما صاحبها من تعذيب لبعض المصادرين، وصفه ابن المعتز قائلاً^(٧):

(١) عريب: الصلة ٣٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٧٤/٦.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم ١٦٦/٦ وينظر:

• ابن كثير: البداية والنهاية ١٤٥/١١.

(٤) الصابي: الوزراء ١٤٦.

(٥) متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢١٩/١.

(٦) الدوري، د. عبدالعزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٢م، ٢٧٨.

(٧) ابن المعتز، عبدالله بن المعتز (-٢٩٦هـ): ديوان ابن المعتز دراسة وتحقيق د. محمد بدیع شریف دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م، ١٨/٢-١٩.

فكم وكم من رجل نبيل	ذي هبة ومركب جليل
رأيتُه يعتلّ بالأعوان	إلى الحبوس وإلى الديوان
حتى أقيم في جحيم الهاجرة	ورأسه مثل قدر فائرة
وجعلوا في يده حبلاً	من قَبّ يقطع الاوصالاً
وعلقوه في عرى الجدار	كأنه برّادة في الدار
وصفّقوا فقاه صفق الطبل	نصباً بعين شامت وخل
إذا استغاث من سكير الشمس	أجابه مستخرج برفس
وصبّ سجان عليه الزيتا	وصار بعد بزة كميتا
حتى إذا طال عليه الجهد	ولم يكن مما أراد بدّ
قال الذنوا لي أسأل التجارا	قرضاً وإلا بعثهم عقارا
وجاءه المعينون الفجرة	وأقرضوه واحداً بعشرة
وكتبوا صكاً ببيع الضيعة	وحلفوه بيمين البيعة
ثم تأدى ما عليه وخرج	ولم يكن يطمع في قرب الفرج

وكان استعمال الوسائل القاسية في تحصيل أموال الخراج والمصادرات، من الوسائل المعروفة، وقد تحدث مواجهة بين عمال الخراج والمكلفين، كما هو حال أهل بادوريا (حول بغداد)، عندما طُلب من الوزير أن يعاملهم بالقسوة والغلظة، لتحصيل ما عليهم من أموال^(١)، وقد عذب الخليفة القاهرة أمّ المقتدر (أخيه وسلفه) فضربها، وعلقها برجلها لتخرج مالها، وتحلّ أو قافلها، وتوكل في بيعها^(٢).

واشتدّ بجكم في مطالبته أهل العراق، وأمعن في تعذيبهم، فوضع أطلسات الجمر على بطونهم^(٣). ويؤخذ من بعض النصوص، أن بعض الوزراء كانوا يختارون من لا يؤمن بالله ولا يخافه، بل يطيع رئيسه، ليطلق يده في تعذيب المتأخرين عن دفع الضرائب أو قيمة المصادرة كما فعل الوزير ابن الفرات، حين أطلق يد أبي منصور في تعذيب محمد بن جعفر ابن الحاج، وتحصيل ما عليه من أموال^(٤).

وكان الناس يذوقون أصناف العذاب والمكاره، حتى كانوا يموتون تحتها أقيح موت في عهد الأمير بختيار ببغداد^(٥). وكان الحبس أهون أنواع التعذيب في تحصيل الضرائب أو المصادرات، قال ابن الحاج، وقد سأله صديقه عن حاله والعمال يصادرونه^(٦):

(١) الصايي: الوزراء ٣٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٢٢/٦.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ٣٧٩/١.

(٤) الصايي: الوزراء ١٢١-١٢٢.

(٥) مسكويه: تجارب الأمم ٣٥٨/٢.

(٦) الثعالبي: نيتمة الدهر ٥٠/٣.

أيها السبائل عن حالي أنا المضروب زيد
وأنا المحبوس لكن ليس في رجلي قيد

وكان التعذيب أشد مما تقدم إذا كان المطلوب استرداداً لأموال الدولة، فيكون باستعمال القيود الحديدية الثقيلة في الأرجل، والضرب المتلف، وربما كان التعذيب بغرز أطراف القصب في أظافر المعذبين^(١). أو بالضرب على رؤوسهم بالدبابيس^(٢). وقد يكون التعذيب بأن يلبس المطالب جبة صوف مدهونة بالنفط أو بماء الأكارع^(٣).

وإزاء تلك الاوضاع السيئة، كان الناس مبهوتين، يشكون سوء الحال، وظلم القائمين على تدبير الأمور، ويرفضون كل الاجراءات المالية الظالمة التي فرضت عليهم من ولاية لا تهمهم إلا مصالحهم الشخصية. قال ابن المعتز^(٤):

أفما ترى بلداً أقمت به أعلى مساكن أهله خصّ
وولاته نبط زنادقة ملأى البطون، وأهله خُمص

وكان بعض أهل النقي يعتون بعض عمال السلطان والفساق فريقاً واحداً فيمتنعون عن خدمة الأمراء والعمال، ولو كان ذلك بالأجر، خوفاً من أخذ مال اكتسب بالحرام^(٥).
لأنهم عدوا مال السلطان من الشبهات أو حتى من المحرمات^(٦). وبلغ من رفض بعض الناس انهم عدوا عمال السلطان كفرة، فكانوا لا يسلمون عليهم بما تجري به العادة من قول: السلام عليكم، بل كانوا يقولون لأحدهم: تب من عمل السلطان! وقد تاب رجل مرة من عمل السلطان، ولكنه كسر التوبة وتولى عملاً آخر، فسماه بعض الناس المرتد^(٧).

(١) المرتضى: المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى: باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، اعتنى بتصحيحه توما أرنولد، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر اباد الدكن، ١٨٩٨م، ٥٢.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ١٧٣/٢

(٣) الصابي: الوزراء ١٢، ١٣، ١١٩.

(٤) ابن المعتز: ديوان ابن المعتز ٤٥١/٢.

(٥) ابن المرتضى: ذكر المعتزلة ٦١.

(٦) السابق: ٦١.

(٧) مسكويه: تجارب الأمم ١٨٨/٢.

سابعاً: الفقر وغلاء الأسعار

كان الوضع المالي للدولة العباسية قد تحسن كثيراً في أو آخر خلافة المعتضد بالله، وخلال عهد المكتفي بالله، وبذلك وجد المقتدر بيت المال مترعاً بالمال والذهب والفضة والمجوهرات^(١). لكن الوضع المالي ما لبث أن أربكته أنانية بعض الوزراء ومنافساتهم، وطمع بعض القادة وشغب جنودهم، وجشع بعض الحكام والولاة، إضافة إلى اسراف الخليفة المقتدر الذي كان متلافاً مبدراً^(٢).

وفي القرن الرابع الهجري أضرباً بخزينة الدولة مجموعة من العوامل منها: سوء طرق الجباية، وزيادة النفقات الباهظة، وكثرة الثورات المتتابعة، وحروب القرامطة المستمرة، وانفصال بعض الولايات عن مركز الخلافة.

وباشتداد الأزمات السياسية، ازدادت أزمة بيت المال شدة وتعقيداً، وتعسر الاحتفاظ بالتوازن بين الدخل والمصروف. وكان الخلفاء يشكون دائماً قلة المال. والظاهر أن خزينة الدولة لم تتحمل بذخ الخلفاء وإسرافهم، وجشع الوزراء وكبار موظفي الدولة، الذين كثيراً ما استغلوا مراكزهم لجمع المال لأنفسهم على حساب الدولة والمصلحة العامة، فلا غرو أن أفلست الخزينة، فلم يتوفر المال الكافي لدفع أرزاق الجند المتراكمة بذمة الدولة.

ومما زاد في اشتداد الضائقة المالية، إفراط بعض الوزراء في قبول الرشاوي وبيع الوظائف لجمع الأموال لأنفسهم^(٣). الأمر الذي أثر كثيراً في إفساد الوضع المالي، وتدهور طرق الجباية، واستعمال سبل التعسف فيها، وبخاصة بعد أن استشرى نظام الضمان في جمع الضرائب^(٤). الذي أفسح المجال للعسف والظلم، ولا سيما في أوقات الحروب والفتن، حين ضعفت الرقابة على العمال والموظفين^(٥).

ونتيجة لذلك فإن توالي الاضطرابات، وعسف الضمان، ثبطاً عزم الفلاحين وأدى إلى ترك كثير من الأراضي بوراً دون زراعة، أو ربما اضطر عدد كبير من الفلاحين إلى الهجرة عن أراضيهم وترك حرفة الزراعة، وكان لهذه الظاهرة أضرار مزدوجة، ففي الوقت الذي قلت فيه الأيدي العاملة في الزراعة مما أدى إلى قلة الانتاج، نجد من جهة أخرى أن الضرائب

(١) عريب: الصلة ٢٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١٩/٦

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٢٢/٦، التنوخي: نشوار المحاضرة ٢٤/١

(٣) عريب: الصلة ٤١، مسكويه: تجارب الأمم ٢٣/١، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٣٩/٦

(٤) الصابي: الوزراء، ٣١٥، ٣٧٢، مسكويه: تجارب الأمم ٧٩/١

(٥) الصابي: الوزراء: ٢١٣

المرتبة على أو لك الفلاحين النازحين قد أضيفت على الفلاحين الباقين، باسم التكملة فأرهمهم ذلك^(١).

وقد رفض الفلاحون هذه الضريبة واشتكوا فألغيت^(٢). لكن السلطة ما لبثت أن سنت ضريبة جديدة على الأشجار المثمرة متوخية إيجاد مورد جديد للخزينة^(٣). علماً أن الأشجار المثمرة كانت قد أعفيت من الضرائب في زمن المهدي^(٤).

ومع أن الحكومة كانت تطالب العمال بالنظر في شكاوي المتظلمين من دافعي الضرائب ضد الجباة والموظفين الآخرين^(٥). إلا أن تلك الاجراءات لا تدوم طويلاً، فسرعان ما تعود الاوضاع إلى حالتها، فتسود السنن الجائرة رغم شعور المسؤولين بشدة وطأتها، الأمر الذي يؤدي إلى رفض تلك الاجراءات، وكثرة الاضطرابات الداخلية، وفي ذلك فرصة للجند والموظفين للمطالبة بزيادة مخصصاتهم، مما يؤدي إلى التفاوت بين الدخل والانفاق، ونتيجة ذلك فقر مدقع وشكوى دائمة، كما في قول ابن الحجاج يصف حاله^(٦):

خليلي قد اتسعت محنتي	عليّ وضائق بها حيلتي
عذرت عذاري في شيبه	وما لمت أن شمطت لمتي
إلى كم يخاسسني دائماً	زمتني المقبح في عشريني
تحيفني ظالماً غاشماً	ومكدر بعد الصفا عيشتي
وكنت تماسكت فيما مضى	فقد خاتني الدهر في مسكني
إلى منزل لا يوارى إذا	تحصّلت فيه سوى سوائتي
مقيماً أروح إلى منزل	كقبري وما حضرت ميتتي
إذا ما ألمّ صديقي به	على رغبة منه في زورتي
فرشت له فيه بسط الحديث	من باب بيتي إلى صفّتي ^(٧)
ومعدته من خلال الكلام	تشكو خواها إلى معدتي
وقد فتّ في عضدي ما به	ولكن عليه غلبت علّتي

(١) الصابي: الوزراء ٣٦٦-٣٦٨، التتويح: نشوار المحاضرة ٦٨/٨

(٢) الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن هلال بن زهروب الحرائي (-٤٤٨هـ) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م، ٦٨/٦٧ وينظر:

• الصابي: الوزراء ٣٦٧-٣٦٨.

(٣) الصابي: الوزراء ٣٦٨-٣٧١.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم ٢٨/١.

(٥) السابق ٢٨/١.

(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ٥٤/٣.

(٧) الصفة: الاستراحة أمام البيت.

وأعدو غدواً ملياً بأن يزيد به الله في شقوتي
 قايّة دار تيممتها تيمّم بوابها حجّتي
 يعرّق خدي جفاف الهزال وحاف الشناج على وجنتي^(١)
 وقوسني الهمّ حتى انطويت فصرت كأني أبو جدتي

وعانى الناس كثيراً من جباية الضرائب قبل موعدها حين تضطّرّ الدولة في اشتداد الأزمات المالية الخائفة وتغلق السبل في وجه المسؤولين لتدبير الأموال اللازمة^(٢).

ومما يزيد في حراجه الموقف، أن السكان كانوا يعللون غلاء الأسعار إلى حد كبير بسبب جشع الوزراء وضماناتهم^(٣)، وبذلك لم يكن ذلك الغلاء ويمر دون أن يجد صدى في نفوس العامة والخاصة، وقد كان له فعل النار في الهشيم، ولم يجدوا غير طريق الشغب ومهاجمة دور الوزراء^(٤)، لظهار سخطهم ورفضهم، ليجدي في خفض الأسعار وانتشالهم مما أحاق بحياتهم المعاشية من عسر شديد^(٥).

وقد توسعت دائرة رفض العامة وشغبهم فمنعوا - في إحدى المرات - الأمام من تأدية صلاة الجمعة، وهدموا المنابر، وأحرقوا الجسور، ونهبوا الغلال^(٦). في محاولة لإثبات وجودهم، ورفض الرأي الفردي المتسلط ضد رأي الجماعة، التي وصل بعض أفرادها إلى حد العدم، يعبر عن حالها ابن الحجاج قائلاً^(٧):

يا سادتي قول ميت في مثل صورة حي
 لم يبق في الخرج شيء أتأذنون بشيء؟

ومما يزيد الألم والأسى في نفوس فقراء ذلك الزمان، رؤيتهم فئة تتنفس حياة الترف والبذخ، وتغرق في الهناء والنعيم، وهم على حالهم في الفقر مقيمون. وثمة فرق شاسع بين الفئتين، وحدود واضحة " كل الوضوح، فجنة ونار، ونعيم مفرط، وبؤس مفرط، وامعان في الترف، يقابله فقدان القوت. "^(٨)

(١) الشناج: تقبض الجلد.

(٢) مسكويه: تجارب الأمم ٢٢٦/١ وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢١٩/٦ - ٢٢٠.

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ٧٣/١ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٩٨/٣.

(٤) مسكويه: تجارب الأمم ٧٤/١ وابن الأثير الكامل في التاريخ ١٦٦/٦.

(٥) مسكويه: تجارب الأمم ٧٥/١.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام ١٥٧/١، ١٦١.

(٧) الثعالبي: يتيمة الدهر ٥٧/٣.

(٨) أحمد أمين: ظهر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م، ٦٧/١.

وبينما كان كثير من الناس لا يجدون ما يسدون به رمقهم، كان المهلبى الوزير يتناول وجبته - المتعددة الأصناف - بثلاثين ملعقة من الزجاج (١). وبينما كان بعض الناس لا يجد ماوى يقيه حر الصيف وبرد الشتاء، كان مترف يبني داراً " ما دخلها عامي إلا افتتن بها، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة، بها ستون وثلاثمائة حجرة، وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة " (٢).

وهذا التناقض والتباعد بين أفراد المجتمع الواحد، وذلك العسر والضيق الذي لازم فئة واحاط بها دون سواها، لا بد وأن يؤدي إلى التباغض والتناحر، ويؤدي كذلك إلى استقرار الحقد، وتمكن الغضب في النفوس، فتتدر الرحمة، ويسود الكره، ويطغى الشر، ويتراجع الخير، وكل ذلك يدعو إلى الرفض. بل التمرد والثورة، على حال يخبرنا عنها ابن سكرة الهاشمي قائلاً (٣):

أمسى يسائل عن حالي ليخبرها وكيف أمسيت في أهلي وفي بلدي
فقلت حالي بحال من رثائتها وعلة الحال تنسي علة الجسد

ثامناً : المغالاة والتطرف في التشيع

يؤمن الشيعة بنظرية الإمامة، التي تقوم على وراثية الحكم في علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأبنائه المختارين من بعده (٤). وهم فرق كثيرة يجمعهم الايمان بالأئمة من نسب علي رضي الله عنه، ووجوب الانضواء تحت لواء إمام العصر (٥).

(١) ياقوت الحموي، أبو عبيد الله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، (٦٢٦هـ-): معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، د. أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٣٦م، ١٥٣/٥.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٦٩/١، ٧٣-٧٤.

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٥/٣.

(٤) المظفر، الشيخ محمد رضا المظفر : عقائد الإمامية، قدم له د. حامد حنفي داو د، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٧٢م، ٧٠. وما بعدها وينظر؛

• تسخير، جولد تسخير (١٩٢١م) : العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٦م، ١٨١ -

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (٤٥٦هـ) : الفصل في الملل والنحل، تحقيق د. محمد ابراهيم نصر ود. عبد الرحمن عميرة - دار الجيل - بيروت ١٩٨٥م، ٣٣/٥ وما بعدها. وينظر:

• الخوارزمي، جمال الدين أبو بكر محمد بن العباس (٣٨٣هـ) : رسائل أبي بكر الخوارزمي، المطبعة العثمانية، ١٨٩٤م، ٤٩ وما بعدها.

• الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) : رسائل الجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م، ٨/١ وما بعدها.

وكانت بغداد -عاصمة الخلافة الإسلامية وملتقى العلوم والآداب في القرن الرابع الهجري- مكان تواجد انصار الفرق الإسلامية جميعها. وأكبر فرقتين كانتا بها هما : الحنابلة والشيعة ^(١). ولوجود الخلاف بين السنة والشيعة، كون كل فريق منهما أحياء خاصة به يسكنونها، ولا تختلط مساكنهم في حي واحد ^(٢). وأدى الاختلاف في المبادئ، وتباين وجهات النظر في كثير من المسائل بين الشيعة والسنة من جهة، وبين فرق الشيعة أنفسهم من جهة أخرى، إلى المواجهة والاضطراب في الكثير من الأحيان، وكانت المغالاة سبباً مباشراً في كثير من تلك الاضطرابات، فترك الجماعة، وتعطيل الجامع، وجعل المال كله للبنات دون الولد، كما فعل بعض المغالين، مرفوض من أطراف أخرى، وأدى إلى فتن بين الطرفين ^(٣).

وأدت مغالاة بعض الشيعة في معتقداتهم إلى رفض أهل السنة تلك المعتقدات، فالإمامية الاثنا عشرية، اعتقدت - تبعاً لاعتقادها بالاثني عشر إماماً - برجعة المهدي بعد اختفائه، وسوف يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ^(٤). والنصيرية عدواً علي بن أبي طالب وأبناءه آلهة وعبدوهم من دون الله، وأنزلوا الرسول صلى الله عليه وسلم منزلة دون علي كرم الله وجهه، ورفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ^(٥).

ويرفض أهل السنة سب الصحابة، وهو مذهب جماعة من الشيعة، وكثيراً ما كانت الفتن والاضطرابات تقع لهذا السبب، ومن ذلك الفتن التي وقعت في بغداد أعوام ٣١٣هـ ^(٦)، و٣٢١هـ ^(٧)، و٣٢٢هـ ^(٨).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ٢٣٩/٧. وينظر:

• ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤٤٨/٤-٤٤٩ (كرخ)

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ٣٩٨/٤

(٣) السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي السبكي (-٧٧١هـ) : طبقات الشافعية الكبرى، (طبقات السبكي)، تحقيق محمود الطنجي وعبد الفتاح الحلوي، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٦٤م، ١٩٤/٢.

(٤) المظفر : عقائد الإمامية ٨٠

(٥) الشهرستاني، الإمام أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (-٥٤٨هـ) : الملل والنحل، بهامش كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم الظاهري (-٤٥٦هـ)، نسخة مصورة بالافست، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م، ١٠/٢-١١. وينظر :

* جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ٢٢١، ٨٣

(٦) ابن الجوزي : المنتظم ٢٤٨/١٣. (طبعة بيروت)

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ٤١٣/١

(٨) أبو الفداء : تاريخ أبي الفداء ٣٩٣/٢ (تحت عام ٣٢٢هـ)

وفي عام ٣٤٥هـ وقعت فتنة كبيرة سببها أن رجلاً شيعياً من أهل قم سب الصحابة ،
فثار أهل أصفهان ، واجتمع خلق لا يخصون ووقع بينهم قتلى وجرحى ، ونهب أهل أصفهان
أموال التجار من أهل قم ^(١) . ومثل ذلك حدث عام ٣٤٩هـ ، إذ قامت فتنة بين العامة - شيعة
وسنيين - وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصال الفتن ^(٢) .

وفي عام ٣٥٠هـ بلغت الفتنة في مصر - في يوم عاشوراء - مبلغاً عظيماً إذ نشب
القتال بين الجند السنيين من الأتراك والسودان وبين الشيعة ودام وقتاً طويلاً ^(٣) .

وبتحول الحكم إلى البويهيين - وكانوا شيعة امامية - قويت شوكة الشيعة ، فكتبوا سنة
٣٥١هـ ، بأمر مهز الدولة على مساجد بغداد عبارات لعن الصحابة ، فقامت فتن ، إلى أن محي
ما كتب ^(٤) .

وأمر معز الدولة أهل بغداد سنة ٣٥٢هـ بالاحتفال بيوم عاشوراء وهو اليوم الذي
استشهد فيه الحسين ، وأمر أيضاً أن تغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ، ولا يذبح القصابون ،
ولا يطبخ الطباخون ، وعلى الجميع أن ينوحوا على الحسين ، كما أمر - في السنة نفسها -
بالاحتفال بعيد الغدير ، وأمر أن يستشعر الناس الفرح والسرور في هذا العيد ^(٥) .

ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين مقابل عيدي الشيعة ، فجعلوا لهم
عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذي دخل فيه
النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه غار حراء ، وجعلوا لهم عيداً بعد
يوم عاشوراء بثمانية أيام - أيضاً - أحيوا فيه ذكرى اليوم الذي قتل فيه مصعب بن
الزبير ^(٦) .

ولم تخل تلك الأعياد من شغب وفتن يبين الفريقين ، حتى كان بعض الحكام يمنعون
إقامتها ^(٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥١/٧

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٢٦/١٤ (طبعة بيروت) وينظر :

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ٢٥٨/٦

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدياء ٢٦٨/١

(٤) أبو الفداء : تاريخ أبي الفداء ٤١٨/٢ (تحت عام ٣٥١هـ) .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ١٥/١٤ - وينظر :

• ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨-٧/٧

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٨-٧/١١

(٧) السابق ١٨٢/٧

تاسعاً: حركات المعارضة

أو لا : حركة الحلاج

وهو أبو عبدالله الحسين بن منصور الحلاج ^(١) ، ينحدر عن جدّ مجوسى ، من أبناء فارس ^(٢) ، وقد اختلف المؤرخون في سبب تسميته بالحلاج ^(٣) ، واختلف المتكلمون والفقهاء والصوفية في حاله ، وأثار جدلاً بين الباحثين في تحديد منزلته ، وتعيين اتجاهه ومراميه ^(٤) ، فمنهم من رفعه إلى أعلى مراتب الصوفية ، ومنهم من هبط به إلى هاوية السحر والضلال والمروق والالحاد ^(٥) .

عاش في بداية حياته صوفياً في البصرة ^(٦) ، ثم تنقل في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي ^(٧) .

رأى الحلاج - في بغداد - الصراع الفكري ، والعصبية القبلية والمذهبية المختلفة ^(٨) . كما شاهد ترفاً ومجوناً ، وفساداً في الإدارة ، وظلماً في بعض المعاملات ، وعندئذ أخذت تراوده أفكار ، عمل على تطبيقها ، كي يستطيع أن يهيمن على تلك المتناقضات ، ويصهرها في بوتقة واحدة ، ويمحو العصبية ، ويحارب الترف ، والفساد الإداري ، الذي صار المجتمع ين من ويلات ، فخيّل للناس أنه من الدعاة إلى الله عزّ وجلّ ^(٩) .

-
- (١) السمعاني ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد التميمي السمعاني المروزي (-٥٦٢هـ) : الأنساب ، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، نشر محمد امين دمج ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ٢٧٨/٤ .
 (٢) الاسفرائيني ، عبد القاهر بن ظاهر بن محمد (-٤٢٩هـ) الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، نشر مكتبة محمد علي سبع واو لاده ، مطبعة المدني ، القاهرة ، (٩) ، ٢٠٦ .
 (٣) الخطيب البغدادي ، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (-٤٦٣هـ) : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٣١م ، ١١٤/٤ وما بعدها .
 (٤) الاسفرائيني : التبصير بالدين ، تحقيق محمد سليم النعيمي الأعظمي ، مطبعة النهضة ، تونس ، ١٩٣٩م ، ١١٩ . وينظر :

* د. محمد بديع شريف : الصراع بين الموالى والعرب ، دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٥٤م ، ٧٠ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٠٥/١ وينظر :

* ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٣٢-١٣٣

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨/١١٢ وينظر :

أحمد أمين : ظهر الإسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ٦٩/٢ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٣٣ .

(٨) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/١٧٣ .

(٩) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨/١١٣ .

وشعرت السلطة بخطر الحلاج على وجودها، وبخاصة عندما أخذ يتصل بالناس عامة^(١)، ويوثق صلته بطوائف من الجند، وبعض القادة، والأمراء وأبناء الأغنياء^(٢)، اتصالاً لم ترض عنه الخلافة التي رأت أن في رأس الحلاج أهواء متعددة، وأنه يجعل من نفسه مصلحاً دينياً واجتماعياً وسياسياً، وأنه يلتزم طريقة إلى أمر عظيم^(٣)، فخافوا مغبة فتنة، فعدوه إنما جاء ليزلزل نظاماً، ويحطم حكماً، ويثير انقساماً حاداً في المجتمع لأنه كان "جسوراً على السلاطين مرتكباً للعظائم يروم انقلاب الدولة"^(٤)، ونسبوا إليه أنه كان يستخف بالقرآن الكريم، وأنه قال إن في استطاعته أن يأتي بمثل القرآن^(٥)، فقال ناس عنه "ساحز فأصابوا"، وقال ناس به مس من الجن فما أبعدوا، لأن الذي يصدر عنه لا يصدر عن عاقل... وهذه بلية عظيمة ومرضة مزمنة أعي (كذا) الأطباء دواءها"^(٦).

وفسرت السلطة أقوال الحلاج أنه يريد الخلافة^(٧) لنفسه، وكفل هذا للحلاج عداوة شديدة من الأطراف المنتفعة بالخلافة ومن يحيط بها، أو يدور في فلكها، كما كفل له كثير من المؤيدين الرافضين لسياسة الدولة، وللاوضاع الاجتماعية والاقتصادية عامة، وزاد في عنف المواجهة، أن الحلاج كان بطبيعته الثائرة قوي المنطق^(٨)، مهاجماً عنيفاً، لا يعرف المهادنة ولا يرضى بأنصاف الحلول.

واستهوت صفات الحلاج وطبيعة تاريخه كثيراً من الناس، فافتتن بسحره قوم نسجوا حوله الأساطير الكثيرة^(٩)، إذ أو صله بعضهم إلى مرتبة الألوهية^(١٠).

(١) ابن دحية: النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ١٠٢.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١١٤/٨.

(٣) ابن النديم: الفهرست ٢٨٣. وينظر:

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١١٣/٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست ٢٨٣.

(٥) الاسفرائيني: الفرق بين الفرق ٢٦٢.

(٦) الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان الترمذاني (-٧٤٨هـ): العبر في خبر من غير، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦١م، ١٣٩/٢-١٤٠.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٣٧.

(٨) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١١٢/٨.

(٩) الاسفرائيني: الفرق بين الفرق ٢٦٣.

(١٠) عريب: الصلة ٨٦.

ولما تأكد الحلاج من كثرة أتباعه ومناصريه ، عزم أن يخوض معترك الأحداث السياسية ، فاتجه بدعوته إلى طبقة المتعلمين من الكتاب ورجال الأعمال والجنود ، مستهدفاً إصلاح الإدارة الحكومية الغارقة في الانحراف ^(١) ، ولما رفض المتصوفون تدخله في الأمور الدنيوية ، خلع خرقة التصوف ، وارتدى الملابس العادية في بعض الأحيان ، كما لبس ملابس الجند في أحيان أخرى ^(٢) ، وأنفذ أتباعه إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي ، ودرّبهم بما يدعون إليه الناس وأمرهم أن يستعملوا الحكمة ، وبذلك عظم أمره في الأهواز ، وبغداد ، ومكة ، والتركستان ، والهند والصين ^(٣) .

وعظمت حركة الحلاج في بداية القرن الرابع الهجري ، بعد أن تعاطف مع ابن المعتز في حركة عام ٢٦٩ هـ ، ولما أخفقت تلك الحركة أمر الوزير ابن الفرات بالقبض عليه ، ولكنه نجا واختفى في الأهواز وادعى فيها " أنه إله وأنه يقول بحلول اللاهوت في الأشراف من الناس ^(٤) وبذلك قبض عليه والي الأهواز ، وأدخل بغداد ، وفي سنة ٣٠٩ صلب أمام الناس ^(٥) ، وكان قد قال في عشية اقتياده ليصلب ^(٦) :

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا
فقلت من الزمان ونال مني وكان مناله حلوا ومرا
أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرا

ويعلل ابن خلكان خطورة حركة الحلاج بصلاته بالقرامطة والعلويين وبتهديده الخلافة العباسية ^(٧) ، ويظهر أن أكبر تهمة وجهت إليه هو أنه من الشيعة الذين يريدون انتزاع الخلافة ، ومما زاد في خطورة المعارضة ، انتشارها في العراق وخراسان وبعض مناطق جزيرة العرب ، ولذا أقضت مضاجع السلطة وخاف الخليفة مغبة فتنته ^(٨) ، فكانت نهايته السالفة الذكر .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٤/١١ .

(٢) السابق ١٣٤/١١ .

(٣) الخطيب البغدادي ١١٣/٨ ، ١١٤ ، ١٢٥ .

(٤) عرب : الصلة ١٠٠-١٠١ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ٢٨٤ .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٣٠/٨ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٠٨/١ .

(٨) الاسفرائيني : الفرق بين الفرق ٢٦٣ .

ثانياً : حركات الشيعة

استكملت الحركة الشيعية نشأتها في غضون القرنين الثاني والثالث الهجريين، وامتد مذهب التشيع إلى أنحاء أخرى غير منطقة الكوفة التي كانت تعدّ أكبر مراكز التشيع منذ البداية، فظهر الشيعة في شرق الدولة العباسية، وبلاد الشام، وشمال إفريقيا. وهذا لا يعني أن مذهب التشيع استطاع أن يجذب إليه أكثرية الناس، ومع ذلك فإن الكثير من الرافضيين الناقمين، أو غير الراضين عن جماعة السنة لأسباب اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، أخذوا يلتفون حول آل البيت، كما انضم إليهم ممن كانوا يطمنون في نفوسهم الاحتجاج على زعامة العرب التي اقرتها القيم الروحية، إذ وجدوا في الشيعة الحزب المعارض الأكبر لسلطة العرب القائمة (١).

ومع بعد الشيعة عن مقاليد الأمور فقد قام أبناؤها، بثورات تجلت في بعضها روح المثابرة والجرأة والشجاعة والاقدام، وإن لم تتكلل بالنجاح. ومن الحركات التي قامت في القرن الرابع الهجري:

حركة الأطروش؛ الحسن بن علي العلوي، الذي نشر مبادئ الزيدية في الديلم، فأعانوه على الثورة على حاكم طبرستان سنة ٣٠٢ هـ، فتمت له السيطرة على تلك المنطقة، وأقام فيها إمارة علوية حتى سنة ٣١٦ هـ (٢).

وفي سنة ٣٠٠ هـ ظهر من الشيعة رجل، هو أبو الرضا محسن بن جعفر في أعمال دمشق، وكانت له مع أبي العباس أحمد بن كيغلق وقعة قتل فيها خلق كثير (٣). وفي سنة ٣٠٢ هـ ظهر بالخامدة رجل ادعى أنه "علوي فقتل العامل بها ونهبها وأخذ من دار الخراج أموالاً كثيرة" (٤).

وخلع محمد بن سليمان العلوي - أمير مكة - طاعة العباسيين سنة ٣٠١ هـ وخطب لنفسه بالإمارة، ثم اعترضه أبوطاهر القرمطي سنة ٣١٢ هـ، فانقطع حجيج العراق بسبب ذلك (٥). ويبدو أن الصراع بين الشيعة والخلافة العباسية تعدى المجال السياسي والديني، وهو الاستئثار بالخلافة وبقية مؤسسات الدولة، إلى الإضرار بمصالح الناس، وتعطيل بعض أركان الإسلام وفرائضه. ومثل هذا الأمر الذي لا يمكن تجاهل أثره أدى إلى الرفض وارتفاع أنات صريحة مبعثها أو لئك الذين كان يؤلمهم ما وصلت إليه تلك المنافسات بين الدولة ومعارضيه من الحدة، وامتد ضررها فأصاب الناس في صميم معتقداتهم وتعدّز عليهم أداء فروضهم الدينية في بعض الأحيان.

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ٢ / ٣١٧.

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ٣٦ / ١، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٥٧ / ٦.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ٢٣٦ / ٤.

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٥٢ / ٦.

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ٢٦٨ / ٤.

ففي سنة ٣٠٢ هـ ، " خرج على الحاج رجل علوي ومعه بنو صالح بن مبارك الطائي فقطعوا عليه الطريق ، وتلف خلق كثير من الحاج بالقتل والعطش " (١) .

وفي سنة ٣٠٣ هـ ثار رجل طالبي بجهة واسط وانضم إليه جماعة من الأعراب والسودان وهاجموا مدينة واسط واوقعوا بأهلها وأحرقوا مسجدها واستباحوا الحرم " (٢) .
وفي سنة ٣١٢ هـ ثار رئيس الاسماعيلية في الكوفة ، واستفحل أمره ، إلى أن قاتله جيش الخليفة وقضى على ثورته (٣) .

وكثيراً ما كانت العامة تقف بجانب الخلافة العباسية في أثناء اشتداد الصراع بين الشيعة والخلافة في حاضرة الخلافة وربما كان اندفاعهم متأثراً من دوافع دينية ، فمن النادر حدوث التوافق بين مصالح الحاكمين ومعتقدات العامة .

ثالثاً : الحركة القرامطية

وهي حركة معارضة ، قامت نتيجة تردّي بعض الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد ظهرت في اماكن متعددة من الدولة العباسية (٤) .

والقرامطة ، طائفة شيعية ، ظهرت لأول مرة في سواد الكوفة (٥) حوالي سنة ٢٧٨ هـ ، على يد حمدان قرامط ، الذي دعا إلى إمام من آل البيت ، فاستجاب له جمع كثير (٦) .
وامتازت حركة القرامطة بالعنف ، وعدم الهوادة في معاملتهم أعدائهم ، وأباحت دماء منائبيها ولو كانوا مسلمين ، فنشروا الرعب في جميع أرجاء جزيرة العرب والعراق (٧) . وكانوا يعتقدون بوجود تضارب بين مصالح الأفراد والجماعات ، مما أدى إلى حصول الصراع بين الأفراد والطوائف (٨) .

ومما ساعد على رواج حركتهم استنادها إلى أسس اجتماعية واقتصادية استهدفت المساواة بين الناس (٩) ، كما كان من أهدافها القضاء على الاستغلال ونزع الملكية الفردية الواسعة ، ومصادرة الإيرادات الكبيرة الخاصة لمصلحة المجتمع (١٠) .

(١) عريب : الصلة ٥٤ ، وابن الجوزي : المنتظم ١٣/١٥١ .

(٢) عريب : الصلة ٥٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٥٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦/٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٤ .

(٥) محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرن الثالث والرابع الهجري ، المطبعة الثقافية ، القاهرة ، ١٩٦٩ م ، ٢٧ ، ١٣ .

(٦) السابق ، ٢٧ .

(٧) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦١ م ، ٢٦١ .

(٨) عارف ثامر : القرامطة " أصلهم ونشأتهم ، وتاريخهم وحروبهم " ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، (٩) ، ٦٤ .

(٩) محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق في القرن الثالث والرابع الهجري ٢٧ .

(١٠) عارف ثامر : القرامطة ، ٦٨ .

وأعلن القرامطة مناوئتهم للخلافة العباسية منذ سنة ٢٨٦هـ عندما أعلنوا العصيان في البحرين^(١)، واحتلوا القطيف^(٢)، وساروا إلى البصرة^(٣)، مما أجبر واليها على بناء سور حولها بلغت تكاليفه أربعة عشر ألف دينار^(٤)، وظل القرامطة يهددون البصرة حتى هزموا جيش الخلافة ودخلوها سنة ٢٩٩هـ^(٥).

وفي سنة ٣٠٧هـ دخل القرامطة البصرة ونهبوها وسبوا الحريم^(٦). وأعادوا الهجوم عليها (البصرة) ودخلوها سنة ٣١١هـ وقتلوا واليها ووضعوا السيف في أهلها وأشعلوا النار في سوق المربد فالتهمت النار بعض المساجد وهرب السكان إلى خارج المدينة، بعد تدميرها ونهب ما بها^(٧).

وتكررت اعتداءات القرامطة سنة ٣١٤هـ على قوافل الحجاج، فكلف الخليفة فرقة من الجيش لمحاربتهم^(٨).

واستولى القرامطة على الكوفة سنة ٣١٥هـ، وانهزم جيش الخليفة إلى بغداد فاصاب سكانها الذعر والهلع والخوف، وعزموا على الهرب إلى واسط والأهواز وحلوان وهمدان^(٩). ويبدو أن خطة القرامطة كانت ترمي إلى إثارة الفرع والرعب في قلوب الأهليين، والاستحواذ على الأموال، لأنهم لم يستقروا في بلد غزوها وسيطروا عليها، بل كانوا يكتفون بتخريبها.

ولم يكتف القرامطة بالغنائم التي كانوا يحصلون عليها في أثناء تعرضهم لحجاج بيت الله الحرام، وإنما كانوا يرمون إلى هدف أبعد إذ أرادوا إظهار عجز الخلافة العباسية - أمام العالم الإسلامي - عن حماية الحجاج العائدين من مكة في مدينة اليبير، ونهبوا الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، وقد أحدث ذلك ذوباً هائلاً في عاصمة الخلافة العباسية، إذ سارت الجموع - من أهل المنكوبين - معلنة رفضها وسخطها، في شوارع بغداد، واشتد الخطر بعد انضمام المعارضين لسياسة الدولة إلى تلك الجموع، وعملوا في المدينة نهياً وتخريباً^(١٠).

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ٤٠٩/١ .

(٢) السابق ٤٠٩/١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٩٢/٦ .

(٤) السابق ٩٢/٦ .

(٥) عريب : الصلة ٣٨ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٠/١١ .

(٧) السابق ١٤٧/١١ وينظر :

• عريب : الصلة ١١١ .

(٨) عريب : الصلة ١٢٨ .

(٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٧، ١٨٦/٦ .

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤٩-١٥٠ .

وأعاد القرامطة الكرة ، فاعترضوا قوافل الحجاج سنة ٣١٢هـ وهزموا الجيش المكلف بحمايتها ، ودخلوا الكوفة ونهبوها " ولم يحج في هذه السنة أحد " ^(١) ولم يستطع حجاج سنة ٣١٣هـ أداء الفريضة إلا بعد أن دفعوا فدية للقرامطة أمنوا بها شرهم ^(٢) ، أما أهل خراسان فإنهم لم يحجوا في ذلك العام لأن الدولة غير قادرة على حمايتهم ^(٣) .

وقد بلغ من جراءة القرامطة واستهانتهم بالخلافة العباسية أن أغاروا في ذي الحجة سنة ٣١٧هـ على مكة ، وروّعوا العالم الإسلامي بأكبر حادثة ارتكبوها بهجومهم على الحجاج في يوم التروية، ونهبوا أموال الحجاج وقتلوه في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وكان الناس يقتلون وهم يطوفون بالبيت الحرام ، وطرح بعض القتلى في بئر زمزم ودفن الباقيون في المسجد الحرام ، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألف شخص ، وسبي من النساء والصبيان نحو ذلك، وقلع القرامطة الحجر الأسود، وعادوا به إلى هجر ، وبقي عندهم اثنتان وعشرين سنة ، حتى رد في ذي الحجة سنة ٣٣٩هـ ^(٤) .

عاشراً: سوء الأحوال الأمنية

ترتبط حالة الأمن ارتباطاً وثيقاً بقوة السلطة المركزية أو ضعفها ، ففي نهاية القرن الثالث الهجري سكنت الفتن وهدأ المرج ، وخضع أكثر المخالفين للدولة ، لأن الخليفة - المعتمد ومن بعده المكفي - لم يتوان عن عقاب المعارضين لسياسة الدولة .

ومع بداية القرن الرابع الهجري ظهر - بوضوح - تطرق الضعف والانحلال والاضطراب إلى الخلافة العباسية ، فكثر الخارجون عليها ^(٥) ، فضلاً عن فساد الإدارة، وانتشار الرشوة بين كثير من عمال النواحي ^(٦)، وعندئذ استغل أعداء العباسيين، وأصحاب المطامع وضع الخلافة الحرج والمرتبك فأثاروا الفتن والاضطرابات، إذ كانت العناصر المعارضة والرافضة للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، تتحين الفرص للتنفيس عن نواياها الدفينة.

وقد حدثت سلسلة من الفتن والاضطرابات التي كان الجند يثيرونها في عهد المقتدر ليخلقوا مناخاً مناسباً للعابثين والغوغاء ، للنهب وفتح السجون ^(٧) . وكانت العناصر المعارضة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٨٠/٦

(٢) السابق ١٨٢/٦

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٤/١١ .

(٤) السابق ١٦٠/١١ - ١٦١ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٢٠/١١ - ٤٣٥ .

(٦) عريب : الصلة ٤١ .

(٧) مسكويه : تجارب الأمم ٢٠/١ .

تستغل الأحداث السياسية لاثارة الفتن للنهب والسلب ، ولم يكن يقضى على تلك الفتن إلا بضحايا كثيرة (١) .

وكثيراً ما كانت تحترق الأسواق (٢) ، بفعل متعمد - ويزداد الشغب لتتصدر هيبة السلطة، الأمر الذي حدا ببعض الوزراء إلى أن يطلب من الخليفة إعفائه من منصبه لأنه شعر أن زمام الأمور أفلت من يده ، وأصبح من المتعذر إعادة الأمن إلى نصابه (٣) .
وتعرضت المساجد لخطر المشغبين ، ومما كان يزيد الأمر خطورة اشتراك الجند في ذلك الشغب ، وامتداده (الشغب) إلى السجون (٤) .

ويبدو أن الناس وصلوا إلى درجة من الوعي والتيقظ ، أصبحوا - معها - لا يطبقون ظلم السلطة وتعسفها ، عندما يقع عليهم هذا الظلم ، وخاصة في الوقت الذي تستشعر فيه العامة ضعف السلطة وارتباكها ، وعندئذ تبدأ تلتمس متفصلاً لها لتهاجم المسؤولين في قصورهم ، عامدة الفتك بهم ، وقد ينشب من جراء ذلك صدام محقق بين الرافضين ورجال الدولة المسخرين لها ، الأمر الذي يؤدي إلى اضطراب الأمن ، ووقوع النهب والقتل من كلا الطرفين (٥) .

ونتيجة لضعف الخلافة وانحطاط هيبة موظفيها كثر وثوب العامة على المسؤولين ، وكان يصاحب ذلك صخب العيارين والشطار وانتفاضهم ضد السلطة ، مما يؤدي إلى تعطيل سير الحياة اليومية ، وتعطيل أداء الفروض الدينية في كثير من الأحيان (٦) .

ولم تكن حالة الأمن في دول الخلافة الإسلامية بأحسن منها في حاضرة الخلافة العباسية. ذلك أن ضعف السلطة المركزية وانشغال رجال الدولة بانقساماتهم وأطماعهم لخاصة، وتفتشي روح الفتن والاضطرابات ، والتمرد بين فرق الجيش ، كل ذلك جعل قبضة الدولة على ممتلكاتها ضعيفة ، وأرخت الروابط التي تشد أطراف الدولة العباسية بمركزها ، ولا غرابة أن انعدم الأمن والطمأنينة خارج حاضرة الخلافة العباسية ، بعد أن وجد ذلك في بغداد نفسها (٧) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١١٦ .

(٢) السابق ١١/١٢٣ .

(٣) الصابي : الوزراء ٣٠٧ .

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ١/٥٦ .

(٥) الذهبي : دول الإسلام ١/١٤٣-١٤٧، ١٦٢-١٦٥ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١١/١٥٠ وينظر :

مسكويه : تجارب الأمم ١١/١٢٢، ١٤٦، ١٧٩ .

(٧) انذهبي : دول الإسلام ١/١٦٤ .

تلك هي حالة الأمن في عاصمة الخلافة العباسية التي " كانت أحسن شيء للمسلمين، وأجل بلد ، وفوق ما وصفنا ، حتى ضعف أمر الخلافة فاختلفت ، وخفّ أهلها ، فأما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب.. وهي في كل يوم إلى وراء، وأخشى أنها تعود كسامرا ، مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان " (١) .

ولذا توجهت أنظار الناس إلى مدينة الفسطاط بمصر لأنها " ناسخ بغداد ، ومفخر الإسلام ، ومتجر الأنعام ، وأجل من مدينة السلام " (٢) وذلك لأن بغداد كانت في نهاية القرن الرابع الهجري - في سنة ٣٩٢هـ - مسرحاً " للفواخت والعصافر تمشي في أرضها انتصاف النهار ، وفي الوقت الذي جرت العادة بازدهام الناس فيه بهذا المكان ، وذلك لأن البلد كان قد خرب وانتقل أهله عنه " (٣) .

١- المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٢٠ .

٢- نفسه ١٩٧ .

٣- مسكويه : تجارب الأمم ٤١٣/٣ .

الفصل الثاني

شعر الرفض السياسي

- رفض الواقع السياسي
- رفض حكم الأجانب
- رفض الاستبداد

رفض الواقع السياسي

رفض كثير من الشعراء سياسة بعض الحكام المسؤولين عن ضعف الدولة الإسلامية وتفككها، والمتسببين في آلام الناس وعذابهم . واستقر في أذهان هؤلاء الشعراء أن إسقاط هيبة السلطان ، يسهل على الناس الثورة على حكامهم ، واستبدال خير منهم بهم . فالحكام الذين يعيشون - في قصورهم - بين غلمانهم وحراسهم ، ما هم في نظر الشعراء إلا دمي تحرك بقوة الآخرين ، يملؤهم الرعب والخوف من رافضيهم .

واشتدت النقمة على الحكام لما كثرت الاضطرابات ، وكثرت الحركات المعارضة ، وامتدت النقمة إلى الخليفة نفسه ، لما شعر الناس بفساد الحكام ، وانتشار الفوضى ، وفشل الدولة في تحقيق العدالة ، وإشاعة الأمن .

وكان وعي هذه الحقائق خطوة أولى نحو شحذ العزائم للانقضاض على المتقلبين في نعيم مسروق من أقوات الفقراء والمساكين . وإذا علم مقدار البذخ الذي كان يحيط ببعض الخلفاء وحواشيهم ، في وقت مات فيه بعض الناس ، جوعاً وبرداً في أزقة بغداد ، سهل إدراك سر تلك النقمة على تلك الأقلية التي كانت سبب شقاء الأكثرية .

وإذا كانت خلافة العباسيين مرفوضة أصلاً من بعض الناس ، فإن تصرفات بعض الخلفاء ، وما آلت إليه أوضاع الدولة في عهود الخلفاء المتأخرين ، قد زاد في الرفض واشتداد النقمة عليهم . ووجد من يصرح بأحقية في الخلافة ، رافضاً الواقع الحالي .

فلم تكن الخلافة رغبة أو حلماً يراود الشريف الرضي ، بل كانت دعوة علنية ، شغلت اهتمامه طوال حياته .

وكان يشعر في أعماقه أنه خليف بالخلافة دون أبناء عمه العباسيين ولكن الضرورة تدفعه " إلى مصانعتهم بمديح لا يزال يزخر - مثل مديح المتنبي - بالفخر والشكوى من الأيام التي لا تتبله مبتغاه" (١) وقد ختم قصيدته التي قالها في مدح القادر بثلاثة أبيات أفصح فيها عن مراده قائلاً (٢):

ما بيننا يومَ الفخار تفاوت
أبدأُ كلاتا في المعالي مغرُقُ
إلا الخلافة ميزتك فإتني
أنا عاطل منها وأنت مطوقُ

ورفض الرضي خلافة بني عمه، وإن قناعته بحقه، وظل شعوره بأحقية في الخلافة لا يفارقه، مما طبع أشعاره "بالتذمر من الدهر، بل بالثورة عليه دون أن يلجأ به شيء من يأس أو قنوط" (٣).

(١) د شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ، ٣٧٢/٥

(٢) الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين الموسوي (٤٠٦ هـ) : ديوان الشريف الرضي ، دار صادر ، بيروت . ١٩٦١ م ، ٤٢/٢ .

(٣) د. شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ، ٣٧٢-٥ .

ولم يكن توسم بعض المرموقين في الرضيّ الخلافة ، وهو في مرحلة مبكرة من العمر ، من قبيل البشارة والفراسة ، بل كان إيماناً بحق الرضيّ في الحكم ، ورفضاً لخلافه العباسيين القائمه ، فقد خاطب أبو اسحق إبراهيم بن هلال الصابي ^(١) ، الشريف الرضيّ والأخير في بداية العقد الثاني من عمره ، قائلاً ^(٢) :

أبا حسن لي في الرجال فراسة تعودت منها أن تقول فتصدّقاً
وقد خبرتني عنك أنك ماجدٌ سترقى من العلياء أبعد مرتقى
فوفيتك التعظيم قبل أوانيه وقلت : أطل الله للسيد البقا
وأضمرت منه لفظة لم أبح بها إلى أن أرى إطلاقها لي مطلقاً
فأجابه الرضي ^(٣) :

سنت لهذا الرمح غرباً مذلقاً وأجريت في ذا الهند واني رونقا
وسومت ذا الطرف الجواد وانما شرعت له نهجاً فخباً وأعناقاً
إلى أن يقول :

فإن راشني دهري أكن لك بازياً يسرك محصوراً ويرضيك مطلقاً
أشاطرك العز الذي أستفيده بصفقة راضٍ إن غنيت وأملقاً
فتذهب بالشطر الذي كلة غنى وأذهب بالشطر الذي كلة شقاً

ودعوة الصابي إلى خلافة الرضيّ ، ما هي إلا رفض للواقع السياسي . مع ما كانت تسببه تلك الدعوة من إحراج للرضي نفسه ، بسبب مكانته الخاصة بين المسلمين ، وحساسية موقفه ودعوته إلى الخلافة وكان بإمكانه الاكتفاء بإبداء الود والمحبة دون المجاهرة بحق الرضيّ في الخلافة الإسلامية ، ذلك الحق الذي كان الخليفة يناصب من يطلبه العدا ، بل يعاقبه أشد العقاب ، ولكن الإيمان المؤدي إلى الولاء ، والرفض المؤدي إلى المجاهره بالمعارضة ، هما اللذان أمليا على الصابي إبداء رأيه .

وإذا كان تولي العباسيين الخلافة ، وسيطرتهم على الدولة ، ومقدراتها ، وامتلاكهم الأموال ، قد مكّنهم من استمالة كثير من الشعراء لمدحهم ، وإثبات حقهم في الخلافة ، فإن المناوئين المعارضيين ، أظهروا رفضهم لهذا الحق ، وردوا على العباسيين وعلى شعرائهم ، ببطلان دعواهم ، وزيف أقوالهم ، يقول عبدالله بن المعتز في قصيدته التي مطلعها ^(٤) :

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٨٩/٢

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٨٩/٢ .

(٣) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٩١-٩٠/٢ .

(٤) ابن المعتز : ديوان ابن المعتز ٢٥٧/١ .

أَيَّ رَيْعٍ لَّالٍ هَنْدٍ وَدَارٍ دَرَسَا غَيْرَ مَلْعَبٍ وَأَوَارٍ

يؤكد حق العباسيين في الخلافة بقوله (١):

هَاشِمِيّ إِذَا نُسِبْتَ وَمَخْصُوصُ بَيْتٍ مِنْ هَاشِمٍ غَيْرِ عَارِي
أَخْزَنَ الْغَيْظَ فِي قُلُوبِ الْأَعَادِي وَأَحْلَى الْجَبَّارِ دَارَ الصُّغَارِ
وَلِي الصَّافِنَاتِ تَرْدِي إِلَى الْمَوْتِ وَلَا تَهْتَدِي سَبِيلَ الْفَرَارِ
وَسَيُوفُ كَأَنَّهَا حِينَ هُزَّتْ وَرَقٌّ هَزَهُ سَقُوطُ الْقَطَارِ
وَدُرُوعُ كَأَنَّهَا سَمَطٌ جَعْدٌ دَهِينٌ تَضَلَّ فِيهِ الْمَدَارِي

فَإِذَا عَلَيْهِ تَمِيمُ بْنُ الْمُعْزِ لَدَيْنَ اللَّهِ الْفَاطِمِي ، وَيَنْفِي ذَلِكَ الْحَقُّ بِقَوْلِهِ : (٢)

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تَقَاسَ النُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ
مَنْ لَهُ الصُّهْرُ وَالْمَوَاسَاةُ وَالنَّصْرَةُ وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي بِالْشَّرَارِ
مَنْ دَعَاهُ النَّبِيُّ خِدْنًا وَسَمَاءَهُ أَخًا فِي الْخَفَاءِ وَالْإِظْهَارِ
مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنْهُنِي كَهَارُونَ وَمُوسَى أَكْرَمُ بِهِ مِنْ نَجَارِ
ثُمَّ يَوْمَ الْغَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتُمْ خَصَّهُ دُونَ سَائِرِ الْحَضَارِ
مَنْ لَهُ قَالَ : لَا فَتَى كَعَلِيٍّ لَا وَلَا مُنْصَلَّ سِوَى ذِي الْفَقَارِ
مَنْ تَوَطَّاهُ الْفَرَّاشُ يَخْلَفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرِبَ سَارِ
وَلَنَا حَرَمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْمَامُ وَالسَّبِقُ وَالْهَدَى وَالْمَنَارِ
نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادِسْنَا الرُّوحَ أَمِينُ الْمَهِيْمِنِ الْجَبَّارِ
حُجَجٌ كُلَّمَا تَأَمَّلَهَا الْعَالَمُ بَاتَتْ لَهُ بَيَانُ النَّهَارِ

وَيَرَفُضُ أَبُو فَرَّاسٍ الْحَمْدَانِي نَظْرِيَّةَ حَقِّ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الْخِلَافَةِ قَائِلًا : (٣)

الدين مخترم والحق مهتضم	وفيء رسول الله مقتسم (٤)
يا للرجال أما لله منتصف	من الطفافة أما للدين منتقسم
بنو علي رعايا في ديارهم	والأمر تملكه النسوان والخدم

(١) ابن المعتز : ديوان ابن المعتز ٢٥٧/١ .

(٢) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (٣٧٥٠هـ) : ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ١٨٦ .

(٣) أبو فراس الحمداني ، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي (٣٥٧هـ) :

(أ) ديوان أبي فراس الحمداني ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦١م ، ٢٥٥ .

(ب) ديوان أبي فراس الحمداني ، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٣م ، ١٥٤ .

(٤) مخترم : مستأصل .

عند الورود وأوفى ودهم لمم^(١)
 والمال إلا على أربابه ديم
 وما الغني بها إلا الذي حرموا
 وإن تعجل منها الظالم الأثم
 بنو علي مواليتهم وإن زعموا
 حتى كأن رسول الله جذكم
 ولا تساوت بكم في موطن قدم
 باتت تنازعها الذؤبان والرخم
 وما لهم قَدَمَ فيها ولا قَدَمَ
 أم هل أتمتهم في أخذها ظلموا ؟
 وكم دم لرسول الله عندكم
 لا تدعو ملكها ! ملاكها العجم
 وغيركم أمر فيهن مُحْتَكَم
 يوم السؤال وعمّالين إن علموا
 وفي بيوتكم الأوتار والنغم
 شيخ المغنين إبراهيم أم لكم ؟^(٢)
 ولا بيوتهم للسوء معتصم
 ولا يرى لهم قِرْدَ له حشم
 وقفلت الشرى بفم الكاذب
 وأختص آل أبي طالب
 فبأي كما زعموا ناصبي
 فلا يبرح الرفض من جاتبي
 ولله من عجب عاجب

محلنون فأصفي شربهم وشل
 فالأرض إلا على ملاكها سعة
 وما السعيد بها إلا الذي ظلموا
 للمتقين من الدنيا عواقبها
 لا يطغين بني العباس ملكهم
 أتفخرون عليهم ؟ لأبأ لكم
 وما توازن يوماً بينكم شرف
 حتى إذا أصبحت في غير صاحبها
 ثم ادعاهما بنو العباس إرثهم
 فهل هم مدعوها غير واجبة
 كم غدره لكم في الدين واضحة !
 أبلغ لديك بني العباس مالكة
 أي المفاخر أمست في منابرهم
 خلّوا الفخار لعلمين إن سنلوا
 تبدو التلاوة من أبياتهم أبداً
 منكم عليّة أم منهم ؟ وكان لهم
 ما في ديارهم للخمر متعصر
 ولا تبیت لهم خنثى تنادمهم

ويصرّح بديع الهمداني ، بحبّه وولائه لآل البيت ، رافضاً مقالة العباسيين ، قائلاً^(٣) :

يقولون لي لا تحب الوصي
 أحب النبي وأهل النبي
 فإن كان نصباً ولأء الجميع
 وإن كان رفضاً ولأء الوصي
 فله أنتم ويهتاكم

(١) محلنون : مبعدون . الوشل : الماء القليل . لمم : ذنب .

(٢) عليّة بنت المهدي ، أخت هارون الرشيد ، وأخوها إبراهيم ، وكان كلاهما حسن الصوت والغناء .
 * الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (- ٣٣٥هـ) : أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق ،
 نشر ج . هيورت . رن ، مطبعة الصاوي ، مصر ، ١٩٣٦م ، ١٨ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٨٣ .

(٣) بديع الزمان الهمداني (- ٣٩٨هـ) : ديوان بديع الزمان الهمداني ، دراسة وتحقيق يسرى عبد الغني عبد الله ،
 دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ٣٨ - ٣٩ .

وبهاجم أبو الحسن الأعصم، وهو من أبرز شعراء القرامطة حكام زمانه، منتقداً سيرتهم، رافضاً مبادئهم، قائلاً^(١):

يا ساكن البلد المنيف تغزراً
بتلاعه وحصونه وكهوفه^(٢)
لا عز إلا للعزیز بنفسه
وبخيله وبرجله وسيوفه
وبقية بيضاء قد ضربت إلى
جنب الخيام لجاره وحليفه

وفطن المتنبي - مبكراً - إلى ما كان يهدد كيان العالم العربي الإسلامي، من انحلال داخلي، سببه تردي الأحوال السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وتهديد الأعاجم للدولة الإسلامية، وإهمال أمور الرعية، وعدم الاعتناء بشؤونها، وكان موقفه من هذا الوضع رفضه له، والتنبية إلى سلبياته، والإيحاء بما يمكن أن يكون بديلاً للأوضاع القائمة.

"ومهما قيل عن تشيع المتنبي وقرمطيته^(٣)، فإنه تأثر تأثراً بالغاً" بدعوات الثائرين المتحمسين المطالبين بعدل اجتماعي^(٤) وأمن بوسائلهم لتحقيق هدفه الذي يصبو إليه، وفي الثورة التي تتأجج بين جوانحه ضد من تسبب في ضعف الأمة العربية الإسلامية، من الخلفاء والعجم وغيرهم، وضد من يقف في طريقه.

ويظهر رفض المتنبي واضحاً جلياً، وهو يلهج بالمجد والسؤدد والغلبة والملك. ويعلن أنه غير راضٍ عن واقع سييء، في حين يتمتع بالسلطان أناس غير جديرين به قائلاً^(٥):

ليس التعلل بالامال من أربي
ولا القناعة بالإقلال من شيمي
وما أظنُّ بنات الدهر تتركني
حتى تسد عليها طرقها هممي

(١) د. محيي الدين اللاذقاني: ثلاثية الحلم القرمطي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م، ١٦٢.
(٢) ثابت بن سفيان، أبو الحسن ثابت بن قرّة الحراني (٢٨٨هـ): تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، دار الامانة، بيروت، ١٩٧١، ٧٤.

(٣) يوسف الحناشي: الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، ٦ وينظر:
• عبد الغني الملاح: المتنبي يسترد أباه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م، ١١٨، ١١٤، ٦١، ٥٣.

• د. مصطفى أبو العلا: شعر المتنبي، دراسة فنية، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة (٩)، ٥٤.
• عبد الوهاب عزام: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م، ٢٣٣.
• بلاشير، ربحيس بلاشير: أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥م، ١١٠.

(٤) يوسف الحناشي: الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، ٦ وينظر:

• د. مصطفى أبو العلا: شعر المتنبي، دراسة فنية، ٥٤.

(٥) المتنبي، ديوان المتنبي، شرح العكبري ٤/٣٤-٤٤.

أرى أناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم
ورباً سالٍ فقيراً من مروته لم يثر منها كما أثرى من العدم

فقد حان الوقت لفرض احترامه - عنفاً على كبراء عصره، إذ (١)

سَيَصْحَبُ النَّصْلُ مني مثل مضربه وينجلي خبري عن صمة الصمم
لأتركَنَ وجوه الخيل سَاهِمَةً والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدم
والطعنُ يحرقها والزجر يفلقها حتى كأن بها ضرباً من النَّمم
قد كلمتها العوالي فهي كالحلة كأنما الصَّابُ معصوبٌ على اللِّجَم (٢)
بكل منصلتٍ ما زال منتظري حتى أدلت له من دولة الخدم
شيخ يرى الصلوات الخمس نافلةً ويستحل دم الحجاج في الحرم
وكلما نُطِحت تحت العجاج به أسدُ الكتائب رامته ولم يَرَم
تنسى البلاد بروقَ الجوّ بارقتي وتكتفي بالدم الجاري من الديم
ويستحث الشاعر نفسه على الإقدام ، منهيّاً كلامه بإعلان الحرب على الحكام كافة (٣) :

ردي حياض الردى يا نفس واتركي ردي حياض الردى للشاء والنعم
إن لم أذكر على الأرماع سائلة فلا دعيتُ ابن أم المجد والكرم
أيمالك الملك والأسياف ظائمة والطير جائعة لحم على وضم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً ومن عصي من ملوك العرب والعجم
فإن أجابوا فما قصدي بها لهم وأن تولّوا فما أرضى لها بهم

ورفض المتنبّي الواقع السياسي ، نابع من اعتقاده أنه يستطيع تدارك أوضاع أمته التي بدأت تتجه نحو الهاوية، بعد أن أحاط بها الأعداء من كل جانب ، وكان من أبرز اماله أن يكون حاكماً، أو اميراً من أمراء عصره ، الذين يرى نفسه مثلهم أو فوقهم " ولم يكن طلبه للحكم والوجاهة حباً في التسلط أو الحكم بحد ذاته" (٤) وإنما للإصلاح، وتغيير الواقع المؤلم، وما طموح المتنبّي وصراعه إلا رفض الواقع ، والعمل على تغييره ، ولذا جاء أكثر شعره نبضاً وجدانياً متمرداً على الواقع ، لا يعرف الإذعان للذل والخنوع والهوان (٥) .

(١) المتنبّي: ديوان المتنبّي ٤٠/٤-٤٢.

(٢) الصاب: نبت مرّ.

(٣) المتنبّي: ديوان المتنبّي ٤٣/٤-٤٤.

(٤) د. هادي نهر: مع المتنبّي في شعره الحربي، ٢٧٦.

(٥) السابق ، ٢٧٨.

وقد كانت قمة الرفض عنده أن يرى إن إعجابه بنفسه ليس شيئاً غريباً، فلناس - الذين هم أدنى منزلة منه - مطامح وآمال، ولذا فهو يعلو بنفسه، رافضاً مماثلة الآخرين، قائلاً^(١) :

وإني لمن قومٍ كان نفوسهم بها أنفأ أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرنهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

وهو - برفضه - وإن كان فوق جميع الأناس ، إلا أنه تحت همته ، يتقمص التحدي

أحياناً دفاعاً عن علو المطامح ، فيستحيل اللفظ لديه تمرداً على الواقع القائم : ^(٢)

واقفاً تحت اخصمي قدر نفسي واقفاً تحت اخصمي الأناس
أقراراً ألد فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام
دون أن يشرق الحجاز ونجد والعراقان بالقتنا والشام

ولذا فإنه يسمي مطلبه حقاً وسيناله بالقوة ^(٣) .

سأطلبُ حقِّي بالقتنا ومشايخ كأنهم من طولٍ ما التئموا مرد
ثقالٌ إذا لاقوا خفاقاً إذا دعو قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا

ويتعجل المتنبّي هذا المطلب ، أحياناً ، فيقول ^(٤) :

لله حال أرجيها وتخلّفني واقتضى كونها دهري ويمطّني

ويلوم نفسه على التواني في تحقيق مطالبه، قائلاً^(٥) :

إلى كم ذا التخلّف والتواني وكم هذا التماذي في التماذي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

ويرفض الشعراء الواقع السياسي ، لجهل بعض الحكام وظلمهم ، واهتمامهم بقشور الأمور دون اللباب، يقول ابن نُكَّك ^(٦) :

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم وبقيت في خلفٍ بلا أكناف
ببطالسٍ وقلانسٍ محشورة يتعاشرون بقلّة الإنصاف
ما شئت من حلل وفره مراكب أبواب دورهم بلا أجواف

(١) المتنبّي : ديوان المتنبّي ١٠٩/٤

(٢) السابق ٩٤/٤

(٣) نفسه ٢٧٣/١

(٤) نفسه ٢١٣/٤

(٥) نفسه ٣٥٥/١

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٤٩/٢ - ٣٥٠.

ويقول في أبيات أخرى^(١) :

زمان قد تفرغ للفضول وسود كل ذي حُقى جهول
فإن أحببت فيه ارتفاعاً فكونوا جاهلين بلا عقول

ويقود رفض الواقع السياسي، والنقمة على الحكام، ابن لنكك إلى شكوى الدهر الذي جعل من بعض الناس حكاماً، ويقرر انه زمان رديء، لا يستحق أن يعيش فيه، لأن المنطق يفترض أن يسود الأحرار، ومن يستحق السيادة، لا تلك الشخصوس التي تسالت إلى السلطة فارضة لؤمها وخبث سجاياها، معينة كل من يتفق معها في سوء الخلق والظلم والتسلط^(٢) :

لُعنتم جميعاً من وجود لبلدة تكنفهم لؤم وجهل فأفرطاً
وإن زماناً أنتم رؤساؤه لأهل لأن يخري عليه ويضرباً
أراكم تعينون اللثام وإنني أراكم بطرق اللؤم أهدى من القطا

وتضيق الدنيا على الشعراء الأحرار في أوضاع لا يستطيعون احتمالها، وهم وإن عاشوها مكرهين^(٣) :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد
وهم يتساءلون عن المخرج والفرج، ويعلمون سخطهم ونقمتهم^(٤) :

أما في هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان تسرُّ بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعيدي علينا والموالي والصميم
وما أدري إذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم
حصلت بأرض مصر على عبيد كان الحر بينهم يتيم
كان الأسود اللابي فيهم غراب حوله رخم ويوم
أخذت بمدحه فرأيت لهواً مقالتي للأحيمق يا حلیم

ومما رفضه الشعراء، انغماس بعض القادة والحكام في ملذاتهم وشهواتهم، فاتهموهم بالمساوي، وعابوا عليهم شرب الخمر واللهو، وسخروا منهم لجبنهم، فأبو طاهر القرمطي، يتوعد مؤنساً الفحل - قائد جيش المتوكل - ويدعوه لمقابلته وحربه، ويصمه بالجبن، لأنه لا يملك الشجاعة لملاقاة القرامطة^(٥) :

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٤٩/٢.

(٢) نفسه ٣٥٠/٢.

(٣) المتنبي: ديوان المتنبي ٣٧٥/١.

(٤) السابق ١٥٤-١٥١.

(٥) بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٨م، ٨١.

قولوا لمؤنسكم بالراح كن أنساً واستتبع الراح سرنيا ومزمارا
وقد تمتلئ عن شوقٍ تقاذف بي بيتاً من الشعر للماضين قد سارا
نزورك لا نؤاخذكم بجوفتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا
ولا نكون كأنتم في تخلفكم من عالج الشوق لم يستبعد الدارا

وكما اقترن رفض أبي طاهر القرمطي بالتهديد والوعيد، اقترن رفض أبي بكر الخوارزمي لبني ساسان ودولتهم، بالشماتة والنقمة، والتهديد، يقول في هجاء العتبي، والدولة السامانية^(١) :

فإن ردتني دهري عليك طريدةً فلا غرو أن يسترجع القوس حاجب
هو الوكر طرنا عنه والريش وافدٌ وعدنا إليه الآن والريش ذاهب
جزى الله عني أهل سامان ما أتوا وفي الله للشار المضيع طائب
هم زوجوني لهم بعد طلاقه وذلك عرسٌ للمآتم جالس
هم اعطشوا زرعي فشمت سحابياً غرائب لما اخلفتني القرائب
فأتحوأ لزرعي بالحصاد وانضبوا مياهاً لها أيدي سواهم مذائب^(٢)
أتحصد أيديكم ويزرع غيركم فأتتم جراد والملوك سحاب
وقد يرفض بعض الشعراء واقعاً سياسياً انتصاراً للجهة المغلوبة ، فابن نباتة السعدي، يرفض اغتصاب حكم بلاد الشام من قبل قرغويه - غلام سيف الدولة - وينتصر لأبي المعالي ابن سيف الدولة ، وينقم على الوضع الجديد ، معلناً عجزه عن المساعدة لضعف حيلته^(٣) :

وما زالت غواة بني عديّ تضعح حقوقنا فيما تضعح
أذيتهم محرمة علينا وفي أعراضنا لهم رتوع
ويعجبهم هجوع الدهر عنهم ويقظته إلينا والولوع
فيخنفهم من الضحك التشفي وتخنقنا من الكمد الدموع^(٤)
إلى أن قامت الأيام عنهم وفي أظفارها منهم نجيع
فلو أسطيع كربتهم تجلت ولكن حيلتي لا تستطيع
هم فلوا عن الأعداء حدي وغلوا ساعدي فما أبوع^(٥)

(١) الثعالبي بتيمة الدهر ٢٣٤/٤-٢٣٥

(٢) مذائب : جمع مذنب، مسيل الماء إلى الأرض

(٣) ابن نباتة السعدي ، أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدي (٤٠٥هـ) : ديوان ابن نباتة السعدي ،

دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ٢٨٣

(٤) الكمد : أشد الحزن

(٥) حدي : بأسى وقوتي ، غلوا : قيدوا ، أبوع : امد يدي للقياس.

ويأتي رفض بعض الشعراء وضعاً سياسياً لغرض شخصي فردي ، كما فعل الخالديان ، عندما أبطأ عليهما الشريف محمد بن عمر الرّاونديّ بالجائزة ، بعد أن مدحاه ، فلما أراد الخروج إلى بعض الجهات، دخلا عليه وأنشده (١) :

قلّ للشريف المستجار به إذا عدم المطر
وابن الأئمة من قريش والميامين الغرر
أقسمت بالريحان والنّعم المضاعف والوتر
لئن الشريف مضى ولم ينعم بعبدية النظر
لنشاركن بني أمية في الضلال المشتهر
ونقول لم يغصب أبو بكر ولم يظلم عمر
ونرى معاوية اماماً من يخالفه كفر
ونقول إن يزيد ما قتل الحسين ولا أمر
ونعدّ طلحة والزبير من الميامن الغرد
ويكون في عنق الشريف دخول عبديه سقر

ويكون رفض كرام النفوس للأوضاع السائدة بذكر مفاخرهم المعنوية ومساوئ حكامهم، معتمدين في ذلك على المقارنة بين الشكل والمضمون ، فالخبرأ رزي يرى نفسه - على فقره - أحسن حالاً ، وأكرم نفساً ، لأنه مع ما يبدو عليه من رثالة الهيئة ، يقارن بالشمس التي لا تحجبها الغيوم ، بينما الحاكم الظالم مثل الليل ، يخفي المفاصد ، ويستر نفسه بنفيس الثياب ليخبي قبحاً لا يريد أن يطلع عليه أحد (٢) :

عليّ ثياب فوق قيمتها الفلس وفيهنّ نفسٌ دون قيمتها الأنس
فتوبك مثل الشمس من تحتها الدجي وتوبي مثل الغيم من تحته الشمس
ويتخذ الرفض - أحياناً - طريق الثورة والتمرد منهجاً للتغيير، وتحقيق الأهداف، والدعوة إلى ذلك واضحة في شعر المتنبّي، فهو يستحث نفسه على الإقدام، ويدعوها إلى ورود حوض الردى، ويؤكد مبدأ التغيير بالعمل، معزراً دور القوة والحرب لتغيير الواقع السييء ، قائلاً (٣) :

مازلت أضحك أبلي كلما نظرت إلى من اختضبت أخفافها بدمي
أسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم

(١) الخالديان : أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي (-٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (-٣٩٠هـ) :

ديوان الخالديين ، جمع وتحقيق د. سامي الدهان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩م، ١٦٠-١٦١

(٢) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٨٣/٤

(٣) المتنبّي : ديوان المتنبّي ١٥٩/٤ - ١٦٠

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائي ما أشرت به فإن عصيت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم
توهم القوم أن العجز قربنا وفي التقرب ما يدعو إلى التهم
ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الأنام ولو كانوا ذوي رحم
فلا زيارة إلا أن تزورهم أيدٍ نشأن مع المصقولة الخدم
من كل قاضية بالموت شفرته ما بين منتقم منه ومنتقم

ومقابل الرفض المشحون بالقوة، والداعي إلى المواجهة والصراع، ثمة رفض يكتفي بالشكوى، ويقف عند حد الاماني والدعاء بزوال المرفوض، وتبدل الحال .

وكريم الطباع الذي يعد سياسة الدولة بلية عليه ، يتمنى زوال تلك الدولة ، كما في قول أبي سهل المعقلي الطوسي^(١) :

يا دولة ليس فيها من المعالي شظية
زولي فما أنت إلا على الكرام بلية

وكما في قول ابن لنكك ، الذي أصيب بالإحباط ، فقرر ألا يغادر بيته ، لأنه لا يريد أن يرى الحكام المفسدين، الذين يشبهون القروذ التي تعطي صهوات الجياد ، والاعتكاف خير من رؤية فئة تحكمت، وأصبحت تأمر فتطاع، وهي مع ذلك مضحكة للرائح والغادي ، يقول^(٢) :

مضى الأحرار وانقرضوا وبادوا وخلفني الزمان على علوج
وقالوا قد لزمنا البيت صبراً فقلت لفقد فائدة الخروج
لمن ألقى إذا أبصرت فيهم قروداً راكبين على السروج

ولم يقف الأمر عند نقد سلطة الحكام الزمنية ، ورفض الواقع السياسي ، بل تعداه عند بعض المتطرفين الذين يسوا من الإصلاح، فأعلن بعضهم ألا قدرة للإنسان على العمل، فهو مسير في كل أفعاله، كما في قول الحلاج^(٣) :

ما يفعل العبد والأقدار جارية عليه في كل حال أيها الرائي
ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبطل بالماء

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٣٥٣/٤

(٢) الشعالي : يتيمة الدهر ٣٤٨/٢

(٣) الحلاج، أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (-٣٠٩هـ) : شرح ديوان الحلاج، أعاد صناعته ونصّص عليه الدكتور كامل مصطفى الشبيبي ، مكتبة النهضة ، بيروت، بغداد، ١٩٧٣م، ١٤٥

وفي شعر القرن الرابع الهجري رفض لضعف بعض الخلفاء وسوء تدبيرهم ، وعدم قدرتهم على الامساك بزمام الأمور ، لاستيلاء غيرهم عليها ، فلم يكن لهم تأثير يذكر في سياسة الدولة ، حتى شبههم أبو عبد الله المفجع البصري بالسراج الذي لا ينير ما حوله ، قائلا^(١) :

لنا سراج نوره ظلمه ليس له ظل على الأرض
كأنه شخص الامام الذي تبغي الهدى منه أولوا الرفض

فهم (الأئمة) لا يستطيعون إصلاح الرعية لفسادهم ، وفاقد الشيء لا يعطيه، كما في قول الأستاذ أبي الفرج علي بن الحسين بن هندو^(٢) :

لنا ملك ما فيه للملك آله سوى أنه يوم السلام متوج
أقيم لإصلاح الوري وهو فاسد وكيف استواء الظل والعود اعوج

وعاقبة فساد الحكام خراب ممالكهم ، واندثارها، وفي ذلك تشبيه لأبي الفتح البستي^(٣) :

إذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب

اما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا برج نجم اللهو والطرب

ويرثي الشريف الرضي أيام قوة الخلفاء الماضية ، ويتوجع مما لحقه ، ويرفض ما جرى

لما خلع الخليفة الطائع سنة ٣٨١ هـ ، باحثاً عن منقذ يحمل لواء الإصلاح ، قائلا^(٤) :

إن كان ذاك الطود خراً فبعد ما استعلى طويلاً

لهفي على ماضٍ قضى أن لا يرى منه بديلاً

وزوال ملك لم يكن يوماً يقدر أن يزولا

ومنازل سطر الزما ن على مغايتها الحوولا

من يزجر الدهر الغشوم ويكشف الخطب الجليلا؟

وتراه يمنع دوننا وادي النوائب أن يسبلا

ويمتزج رفض ضعف الخلفاء ، وفسادهم ، بالنقمة على الظروف التي أوصلتهم إلى

عرش الخلافة ، كما يقول أبو انقاسم الحسين بن علي الوزير المغربي^(٥) :

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٦٤/٢

(٢) الثعالبي : تنمة اليتيمة ، عني بنشره عباس إقبال ، مطبعة فردين ، طهران ، ١٣٥٣ هـ ، ١/١٣٩

(٣) الثعالبي : يتيمة ٣١٥/٤ وينظر :

• د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ، حياته وشعره ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، (٤) ، ١٩٨٠م ، ١٥٩ .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٣٤/٣ - ١٣٥ .

(٥) الثعالبي : تنمة اليتيمة ٢٥/١ .

إذا ما الأمور اضطربن اعتلى
سفينة تضام العلى باعتلاه
كذلك إذا الماء حركته
طفا عكر راسب في إنائه

ولا يقتصر الرفض على ضعف الخليفة وفساده، وإنما يمتد إلى بطائنه الفاسدة، كما في قول أبي الفضل يوسف بن محمد بن أحمد الرازي^(١) :

لا يصحبن ملوكنا إلا أمرؤ
لص مغن مفلس قواد
فله لديهم زلفة ومنالة
ولمن تخرج واستعف كساد
ما ذاك إلا أنهم أشكالهم
والقرء يعرف قدره القراد

وينعى الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير على الدولة بتقديمها من ليس له فضل، ويرفض ضعف خلفائها وتهورهم، مشيراً إلى حاشية الخلفاء المنخدعين بمجدهم الزائف^(٢) :

بالله لا تنهضي يا دولة السفلى
وقصري فضل ما أرخيت من طول
أسرفت فافتصدي جاوزت فاتصرفي
عن التهور ثم امشي على مهل
مخدمون ولم تخدم أوائلهم
مخولون وكانوا أرذل الخول

ومن مظاهر ضعف بعض الخلفاء المرفوضة، مبالغتهم في تلقيب عمالهم، لما خافوهم ولم يجدوا ما يسكتهم غير تلك الألقاب التي تهافت عليها العمال والمقربون من الخلفاء، ظناً منهم أنها ترفع قدرهم، وتنتشر ذكركم، وتستر فسادهم وظلمهم، "وبنوا العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة، وسووا فيها بين الموالي والمعادي، ونسبواهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم"^(٣)، ولذا رفض أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، صنيع الخلفاء ومبالغتهم في توزيع تلك الألقاب على غير مستحقها، وسخر من عملهم ذلك قائلاً^(٤) :

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا
من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم
ما كان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم في كفي خيفتنا
هذا فاتفق في الأقوام ألقابا

وقول الخوارزمي السابق مثل قول ابن بسام الذي يرفض فساد إدارة المعتضد، ويتمنى زوال حكمه، قائلاً^(٥) :

(١) الشعالي: نعمة اليتيمة، ١٢٣/١

(٢) الشعالي: يتيمة الدهر ٦١/٤

(٣) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (-٤٤٠هـ)، الآثار الباقية من القرون الخالية، نسخة مصورة عن طبعة لا ييزك، ١٩٢٣م، مكتبة المثنى، بغداد، (٤)، ١٣٢.

(٤) الشعالي: يتيمة الدهر ٢٣٠/٤

(٥) المسعودي: مروج الذهب ٣٠٤/٤

إلى كم لا نرى ما نرتجيه ولا ننفك من أمل كـذوب
لئن سموك معتضداً فبأي أظنك سوف تعضد عن قريب (١)

ومن مظاهر ضعف بعض الخلفاء المرفوضة ، أيضاً ، تحكم النساء ، وتصرفهن في امور الدولة ، ولم يقتصر نفوذ النساء على القرن الرابع الهجري ، وإنما بدأ سلطان المرأة يقوى منذ تولي المهدي الخلافة ، وزواجه بالخيزران (٢) ، ولما ولي الخلافة الهادي زاد نفوذ الخيزران وتدخلها في شؤون الدولة ، واستولت على زمام الأمور ، وأطاعها الرشيد في كثير من الأمور (٣) . وفي الحقبة الممتدة بين خلافة المأمون وخلافة المعتضد ، تدخلت القيآن في امور الدولة ، وكانت القيآن ذوات سلطان ، يتعصبن لطائفة سياسية ، أو يشايعن مذهباً ، ويقضين حوائج أهله عند أولي الأمر (٤) .

وزاد نفوذ النساء في القرن الرابع الهجري وصرن يتحكمن في امور الدولة ، ويقدمن - في بعض الأحيان - على الرجال ، ويتسلطن على مقاليد الحكم . ومما يزيد في رفض تدخل النساء في امور الدولة ، وتحكمهن في مصائر الناس ، إنهن يباشرن تلك الأعمال في مجتمع يقوم على تمجيد الرجولة ، واعطاء حق القوامة عليهن للرجال ، ولذا فإن اتهام الحاكم ، انه حاكم نساء ، من أفسى أنواع الإهانات التي يمكن أن توجه إليه والى حاشيته ، وهذا ما يقوله أبو طاهر ابن الخيزر ارزي حين يرفض تصرفات حكام زمانه وتذبذبهم ، رافضاً تكبرهم وتدخل النساء في شؤونهم (٥) :

وحاكم ظن أنى دون ثروته مذبذب فقرا لي وجهه عيسا
سنستجد خلاف الحالتين فلا أبقي فقيراً ولا تبقى لحكم نسا

* * * * *

ومما اتصف به القرن الرابع الهجري ، قلق الوزارة ، وعدم استقرار المؤسسات المرتبطة بها ، فلا تطول مدة الوزارة ، فكان الوزير يشعر في بداية تقلده الوزارة انه عرضة للعزل والمصادرة ، ولذا كرس بعضهم جهده لمنفعته الشخصية ، ومصالح المقربين إليه ، وأهملوا

(١) العضد: داء يأخذ الإبل في أعضائها فتبط (لسان العرب ٢٩٤/٣) .

(٢) التقفطي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الاشرف (-٦٤٦هـ) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، نسخة مصورة عن طبعة ليبسك سنة ١٩٠٣م ، نشر مكتبة المتنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بمصر ، ١٠١

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٤٢٩/٨ وينظر :

• الاصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي (٣٥٦هـ) : الأغاني ، شرحه وكتب هوامشه ، عبد الأمير علي مهنا وسمير يوسف جابر ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ٣٧٠/١٦ .

(٤) ابن المعتز : عبد الله بن المعتز (-٢٩٦هـ) : طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء ، اعتنى بنشره عباس إقبال ، لندن ، ١٩٣٩م ، ٢٠٠ وينظر :

• د. صلاح الدين المنجد : بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي ، ١١/٧ .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٨٣/٤ .

امور الناس ، فرفض الشعراء تصرفاتهم ، وفسادهم الإداري والمالي ، وجشعهم ، وعابوا عليهم تلك التصرفات . قال مضراب الشعر ؛ أبو منصور البوشنجي، يذم بعض الوزراء^(١) :

وكنا زماتنا نذم الزمان
ونرثي الوزارة بالبلعمي
فاخرنا العمر حتى انتهت
من البلعمي إلى البرعشي
وسوف تؤول على ما أراه
من البرعشي إلى البرمكي

ويرفض بعض الشعراء تغيير تصرفات الذين يتولون امور الناس ، وسلوكهم بعد تولي المناصب . فيأخذ كشاجم الرملي عليهم تغيير أخلاقهم، ويرفض تحولها نحو الأرءاً قائلاً^(٢) :

رأيت الرئاسة مقرونة
بلبس التكبر والنخوة
إذ ما تقمصها معجب
ترفع في الجهر والخلوة
ويقعد عن حق إخوانه
ويطمع أن يسرعوا نحوه
وينقصهم من جميل
الدعاء ويأمل عندهم الحظوة
فذلك إن أنا كاتبته
فلا سمع الله لي دعوة
ولست بأت له منزلاً
ولو أنه يسكن المروة
أود الصديق فإن خاتني
سلوت وعن مثله سلوة

وعلى الرغم من ظهور بعض الوزراء الأكفيا في أداء مهامهم، المتمكنين من متابعة امور الناس ،وتسيير امور الدولة نحو الأصوب فإنهم وقفوا عاجزين امام الأزمات المالية المستعصية، وفشلوا في إيجاد الحلول الناجحة للتغلب على كثير من المعوقات ، لأن السياسة الرشيدة التي اتبعوها لم ترق لكثير من العناصر المستأثرة بالأمور ، فكانت تضغط على الخليفة وتضطره إلى تغييرهم^(٣) ، مما أدى إلى كثرة الوزراء واختلاط حابلهم بنابلهم ، فذم أكثرهم وهجي، كما في قول أبي منصور البوشنجي^(٤) :

وكنا نذم الدهر من غير خبرة
بيوسفه والبلعمي وغيره
إلى أن رماتنا بالغفاري بعدهم
وعاندنا في عبده وعزيزه
وما قد رعانا في ابن عيسى وزوره
وفي ابن أبي زيد السفية وسيره
ولم نرض بالمقدور فيهم فامنا
بكل كسير في الوري وعويره

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٥٩/٤ - ١٦٠.

(٢) كشاجم ، أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم (-٣٥٠هـ) : ديوان كشاجم ،

تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٧٠م، ٤٩٣.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ١٠/٤٠٢، ١١/٤٠٧، ١١/٤١٨، ١٢/٤٢٢، ١٣/٤٢٣، ١٤/٤٥٢.

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٦٠/٤.

وكره بعض الناس الوزارة ، ورفض توليها ، لما يحيط بها من مخاطر ودسائس ومؤامرات، كما فعل أبو الفتح البستي (١) :

حرّضوني على وزارة بست ورأوها ارفع الدرجات
فقلت لا اشتهي وزارة بست إنني لم امل بعد حياتي

ويلوم البستي كتاب موطنه على تناحرهم للظفر بمنصب الوزارة، ويدعوهم إلى رفضها والابتعاد عنها قائلاً (١) :

أكتب بست كم تناجزكم على وزارة بست وهي سخنة عين
وخفّ حنين فوق ما تطلبونه فلم بينكم في ذاك حرب حنين

وينصح البستي سامعه بالابتعاد عن الوزارة، فهي خطيئة كبيرة، وهي محنة مهلكة ، وذلك لمرارة تجربته ، يقول (٢) :

وزارة الحضرة الكبيرة خطيئة بل هي الكبيرة
فلا تردّها ولا تردّها فإتها محنة مبيرة

ورافضوا الوزارة ، يتعجبون ، ويتندرون إذا ما رأوا وزيراً قد طالت مدة وزارته، فالبستي يداعب أبا علي الدامغاني الذي تولى الوزارة للسامانيين مدة قيل أنها بلغت خمسين عاماً (٣) ، ويتعجب من ذلك قائلاً (٤) :

وقالوا العزل للعمال حيض لحاه الله من حيض بغيض
فإن يك هكذا فأبو علي من اللاي يئسن من المحيض

وفي جو ضعفت فيه الإدارة الحكومية ، وقدمت المنفعة الشخصية على المصلحة العامة، اقترنت الوظيفة العامة بالفساد الإداري ، وأصبح كل فرد ينخرط في الخدمة العامة يشار إليه بالفساد والإهمال ، ويتهم بالابتعاد عن جادة الصواب ، ويظن به ظن السوء ، ولذا يهجو كشاجم أصحاب البريد ، رافضاً صنيعهم ، يقول (٥) :

لا حبذا البريد من ولاية ليست لمن يعمله رعاية
همته الاغراء والسعاية وكرباً جاوز فيه الغاية

ولحظه ولفظه سعاية

* * * * *

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ٣١٧/٤ .

(٢) نفسه ٣٢٤/٤ .

(٣) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي، حياته وشعره، دار الأندلس للطباعة والنشر، (٤)، ١٩٨٠م، ٢٦٢ .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٤٣/٤ .

(٥) السابق ١٤٣/٤ .

(٦) كشاجم : ديوان كشاجم ٤٩٥ .

رفض حكم الأجانب

كان لأفكار الموالي وآرائهم المبنوثة في أرجاء الدولة الإسلامية من خلال دخولهم الخدمة العامة والخاصة، اثر في ضعف الامة وخلودها إلى الراحة ، وتحولها إلى اللهو ، وعودها عن الطموح، فضعف الجيش ، وطمع الطامعون في ثغورها ، وممتلكاتها ، وقامت الفتن، وتطلع قواد الموالي إلى الاستقلال والحكم .

وكان من أبرز هؤلاء القادة " أسفار " الذي ألقى الدولة العباسية ، وخليفته مرداويج ، الذي زحف بجيشه واستولى على الري وطبرستان وبلاد الجبل ، سنة ٣١٩ هـ ، فأقطعها له الخليفة المقتدر على مائة ألف درهم في كل عام . وتظاهر مرداويج بمظاهر حكم الفرس وطمع في حكم بغداد ، وكان في حكمه قاسياً مستبداً ظالماً، عامل الرجال والنساء معاملة العبيد، واعمل السيف في أهل همدان ، فثار الناس - رافضين حكمه - وتظاهروا امام قصر الخليفة ^(١) .

ويتراءى للباحث أن مأساة القرن الرابع الهجري كونتها عناصر عدة، كان في طبيعتها العناصر العسكرية الأجنبية التي هيمنت على مؤسسات الدولة جميعها ، فقوى الجانب العسكري حتى لاذ الوزراء وكبار موظفي الدولة بحمايته بعد أن لمسوا عجز الخلافة عن حمايتهم ^(٢) . ورغم قوة السلطة العسكرية وفعاليتها في مجال الحياة العامة، فإنها كانت السبب في إثارة كثير من الفتن والاضطرابات التي أدت إلى تمزيق وحدة الدولة ، وضعف كيانها ^(٣) .

ومع وجود شخصيات سياسية بارزة ، إلا أن أمراء الجيش الأجانب هم الذين يؤثرون في الحوادث وتصريفها وفق مشيئتهم ، وقد بلغت الجراة بهم مراراً إقالة الوزراء ، أو نفيهم ، وأحياناً قتلهم ^(٤) ، وتقليد غيرهم ممن يطمئن إلى سياستهم ويوافق أهواءهم ، حتى طال ذلك الخلفاء فتذللوا لهم ، كما فعل المقتدر في رسالته الموجهة إلى مؤنس الخادم قائلاً: "امتعني الله بك ولا أخلاني منك، أنت شيخي وكبيرى ،ومن لا اميل عنه ، وأرجوك ألا تشك في ذلك" ^(٥) .

ولما كان الخليفة لا يحكم - إن حكم - إلا في البلاط ، وكان السادة الفعليون عبيد الخلفاء قديماً، جاء رفض الشعراء شديداً ، وشكوا الوضع ، عاتبين غاضبين ، إذ لا بد لزمان سياسي ضعيف ، ان يفرز مجتمعاً ضعيفاً ، منحط الأخلاق، ووقتاً ساكناً لا انجاز فيه ، يقول المتنبي ^(٦) :

(١) الطبري: ٤٧٢/١١ .

(٢) السابق ٤٧٣-٤٧٤ .

(٣) نفسه ٤٧٢-٤٧٨ .

(٤) نفسه ٤٥٦، ٤٥٩ .

(٥) مسكويه: تجارب الامم ١/١١٤ .

(٦) المتنبي : ديوان المتنبي ١٦٢-١٦٣ .

غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الأخبار والقسم
سبحان خالق نفسي لذتها فيما النفوس تراه غاية الأثم
الدهر يعجب من حملى نوائبه وصبر جسمي على أحداثه الحطم^(١)
وقت يضيع، وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الامم .

واقترن رفض حكم الأجانب بشكوى " زمن البهائم "، و" الغنم " و" القروء " ، لأن العرب المسلمين رضوا أن يحكمهم حكام أجانب صغار " أقزام ، وأن ملوكهم " أرانب تنام مفتوحة الأعين ، وخیلهم لا یخر لها طعين " .

قال المتنبي^(٢) :

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش في هم ولكن معدن الذهب الرغام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
بأجسام يحر القتل فيها وما أقرانها الا الطعام
وخیل لا یخر لها طعين كأن قنا فوراسها ثمام

وكان رفض الشعراء ناتجاً عن وعيهم التام بمسألة الحكم ، وهم متألمون من كون "أمتهم" قد " تداركها الله " ، طامحين إلى استنهاض "همم" أبنائها ، عسى بعضهم يوقف حركة سقوطها، وينقذها من التلاشي . ويرجع إليها مجدها الحضاري ، ولذا كانت صرخة المتنبي^(٣):

أحقّ عافٍ بدمعك الهمم أحدث شيء عهداً بها القدم
وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم لا ذمم
في كل أرض وطنتها أمم ترعى بعبد كأتها غنم
يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبيري بظفره القلم

وكانت غلبة الأعاجم على الحكم سبباً في تغيّر ممارسات بعض الشعراء ، على الصعيد السياسي ، فانقل المتنبي ، مثلاً من الحدة والتطرف والثورة على الملوك ، إلى تشخيص أدواء الحكم والسياسة ، والتركيز على عروبة الحكم وضرورتها ، في إطار المعتقد الديني الإسلامي ، رافضاً حكم الأجانب ، مشنعاً على من يقبل هذا الحكم^(٤) :

(١) الحطم : جمع حطوم، وحطمة : من أسماء النار

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٧٠/٤ - ٧١ .

(٣) السابق ، ٥٨/٤ - ٥٩ .

(٤) السابق ، ١٥٠/٤ .

لا شيء أقبح من فعل له ذكرٌ تقوده أمةٌ ليست لها رحم
سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم
داعياً المتنبى " إلى الثورة على الحاكم الأجنبي وقتله (١) :

الافتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم

* * * * *

ولما جاء بنو بوية ، ودخلوا بغداد أيام الخليفة المستكفي سنة ٣٣٤هـ، انتقلت السلطة الفعلية إليهم ، وصارت مقاليد الأمور بأيديهم ، فتمكنوا من سلطان الحكم ، وطفقوا يلعبون بالخلفاء لعب الأطفال بالدمى، ففي أيام معز الدولة أحمد بن بويه خلع الخليفة المستكفي وسلمت عيناه ، وضاعت أموال الدولة ، وأقطع القواد والخاصة الضياع ، وأبطلت الدواوين ، وتفتشت الرشوة ، وعم الفقر ، ورقت أحوال الناس ، واهتم الحكام بمصالحهم الخاصة ، وتعمدوا ظلم العامة ، وكثرت المصادرات ، وقلّ النظر في شكاوى المستضعفين ، وأثيرت الفتن بين الشيعة والسنة (٢) .

واشغل عز الدولة بالصيد واللهو ، وسعى وزراؤه وراء شهواتهم ، وأصبح الخليفة في عهده مستضعفاً لا حول له ولا قوة ، وحُصّلت الأموال بالمصادرات ، وزادت حوادث النهب والحرق ، وانقطعت المعاش ، وحوصر الناس ، حتى أن الخليفة المطيع خلع نفسه وسلم الأمر -بأمر البويهيين - لولده الطائع .

وخلع بهاء الدولة الخليفة الطائع، ونصب القادر وسط اجواء من الفتنة والاضطراب ، رفضها العامة والخاصة، ووصفها الرضي، فانه كان في جملة من حضر، معلناً سخطه ونقمته، مؤكداً رفضه لما يجري. قال (٣) :

أعجباً لمسكة نفسي بعدما رميت من النوائب بالأبكار والعون
ومن نجائي يوم الدار حين هوى غيري ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق السهم منكراً وقد تلاقت مصاريع الهوى دوني
وكنت أول طلاع ثنيته ومن ورائي شر غير مامون
من بعد ما كان ربه الملك مبتسماً إلي أدنوه في النجوى ويدتيني
أمتيت أرحم من أصبحت أغبطة لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء يئكني
هيهات أغتر بالسultan ثانية قد ضلّ ولاج أبواب السلاطين

(١) المتنبى : ديوان المتنبى ، ١٥٤/٤ .

(٢) مسكويه : تجارب الامم ٩٨، ٩٦، ٩١/٢ .

(٣) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٤٤٦/٢ - ٤٤٧ .

وفي أثناء حكم البويهيين ساءت كثير من جوانب الحياة ، " فأفقرت الجيوب ، وشاع الفقر ، وتفككت عرى الأخلاق ، وفشت الجرائم ، وتمزقت أوصال الأمة في وحدتها الروحية ، وشاع الانشقاق في الصفوف بما فشا من مذاهب الاعتزال بالعراق وخرسان ، وقويت دعوة الباطنية .. وانتشرت الفرق في عامة بلاد المغرب ومصر والشام ، وتطاحت هذه الفرق طحان الرحي " (١) .

ورأى كثير من الشعراء ما تمور به الحياة في ذلك الوقت من مساوئ ، ونفذوا بثاقب بصرهم وقوة بصيرتهم إلى حقائق الأمور وخفاياها ، وعلنوا رفضهم ومواجهتهم لحكام عصرهم ، وما آلت إليه سياستهم وأثارها على الأمة ، فالمتنبى - وهو يستضاف من عضد الدولة - ، ويستقبل مكرماً طمعاً في مدحه - يعلن نغمته على ساسة زمانه ، وحكام مصر والعراق ، قائلاً (٢) :

فَلَمَّا أَنْخَنَّا رَكَزْنَا الرَّمَا	حَ فَوْقَ مَكَارِمِنَا وَالْعُلَا
وَبِتْنَا نَقْبِلُ أَسْيَافَنَا	وَنَمْسُحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا
لَتَعْلَمَ مِصْرَ وَمَنْ بِالْعِرَاقِ	وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِي الْفَتَى
وَأَنِي وَفِيَتْ وَأَنِي أَبَيْتُ	وَأَنِي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا
وَمَاذَا بِمِصْرٍ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ	وَلَكِنَّ ضَحِكَ كَالْبُكََا
بِهَا نَبْطِي مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ	يَدْرُسُ أُنْسَابَ أَهْلِ الْعُلَا
وَأَسْوَدُ مِشْقَرُهُ نِصْفُهُ	يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدُّجَى
وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَافِهِمْ	فَمَا يَزِقُّ رِيَّاحُ فَلَا
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدَرَهُ	رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

ويرفض المتنبى حكم العبيد الأجانب ، واستعباد الأحرار ، فيقول في هجاء كافور واستنهاض همم أهل مصر (٣) :

أَكَلْنَا اغْتَالَ عَبْدُ السَّوءِ سَيِّدَهُ	أَوْ خَاتَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْهِيدُ
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا	فَالْحَرُّ مُسْتَعْبِدٌ وَالْعَبْدُ مَعْبُودُ

(١) د. محمد بدیع شریف : الصراع بين الموالي والعرب ١١٦-١١٧

(٢) المتنبى : ديوان المتنبى ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ، نشر المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ٤٤/١-٤٦ وينظر :

• ديوان المتنبى بشرح العكبري ٤١/١-٤٤ إذ روي البيت الثاني بدل تبنا تبنا ، أي رجعنا . وروي البيت السادس بدل الفلا ، العلا .

(٣) المتنبى : ديوان المتنبى (بشرح العكبري) ٤٢/٢-٤٦ .

نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ ثَعَالِيهَا فَقَدْ بِشَيْمَنْ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدَ
 الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بَأَخٍ لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودَ
 لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبْدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاقِيدَ
 مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَبْقَى إِلَى زَمَنِ يَسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودُ
 وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَقَدُوا وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودُ
 وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدِ الْمَثْقُوبَ مِشْقَرُهُ تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرَّعَادِيدِ
 إِنَّ أَمْرَ أُمَّةٍ حُبْلَى تَدْبِرُهُ لِمُسْتَضَامٍ سَخِينُ الْعَيْنِ مَقْنُودُ
 وَيَلْمُهَا خُطَةً وَيَلْمُ قَابِلَهَا لِمِثْلِهَا خُلِقَ الْمَهْرِيَّةُ الْقُودُ
 وَعِنْدَهَا نَذْرٌ طَعَمَ الْمَوْتَ شَارِبُهُ إِنَّ الْمَنِيَّةَ عِنْدَ الذَّلِّ قَنَدِيدُ
 مِنْ عِلْمِ الْأَسْوَدِ الْمَخْصِيٍّ مَكْرُمَةً أَقْوَمُهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصِّيدُ

وتكثر أسباب رفض حكم العبد الأجنبي ، فلا تقتصر على لونه فقط ، وإنما تتعدى ذلك إلى صفاته الخلقية والخلقية ، مثل العبودية ، وقصور الهمة عن المعالي ، والغفلة ، والغدر ، وخلف الوعد ، واللؤم ، والذل والهوان ، والبخل ، ولؤم الأصل ، وغيرها مما ذكره المتنبي في أبياته التالية يهجو كافوراً ، رافضاً حكمه ، ناقماً على سياسته (١) :

أَنْوَكُ مِنْ عَبْدٍ وَمِنْ عَرْسِهِ مِنْ حَكَمِ الْعَبْدِ عَلَى نَفْسِهِ
 وَإِنَّمَا يُظْهِرُ تَحْكِيمَهُ تَحْكَمُ الْإِفْسَادُ فِي حِسِّهِ
 الْعَبْدُ لَا تَفْضُلُ أَخْلَاقُهُ عَنْ فَرْجِهِ الْمُنْتَنِ أَوْ ضَرْبِهِ
 لَا يَنْجِزُ الْمِيعَادَ فِي يَوْمِهِ وَلَا يَعِي مَا قَالَ فِي أَمْسِهِ
 وَإِنَّمَا تَحْتَالُ فِي جَذْبِهِ كَأَنَّكَ الْمَلَّاحُ فِي قَلْسِهِ (٢)
 فَلَا تُرْجِ الْخَيْرَ عِنْدَ أَمْرٍ مَرَّتْ يَدُ النَّخَاسِ فِي رَأْسِهِ
 وَإِنْ عَرَكَ الشُّكُّ فِي نَفْسِهِ بِحَالِهِ فَانْظُرْ إِلَى جَنْسِهِ
 فَقَلَمَا يَلُومُ فِي ثَوْبِهِ إِلَّا الَّذِي يَلُومُ فِي غُرْسِهِ

ويبقى رفض الحاكم الأجنبي قائماً في نفس الحر ، ولو أنه أظهر خلاف ذلك ، فالمتنبي - وإن مدح كافور وأراه الرضا - فإنه يخفي نقمة عليه ، ورفضاً لحكمه أظهرهما في قوله (٣) :

أَرَيْكَ الرِّضَا لَوْ أَخْفَتِ النَّفْسُ خَافِيَا وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلَا عَنْكَ رَاضِيَا
 أَمِينًا وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخَسَاةً وَجِبْنًا أَشْخَصًا لَحْتِ لِي أَمْ مَخَازِيَا
 تَظُنُّ ابْتِسَامَاتِي رَجَاءً وَغِبْطَةً وَمَا أَنَا إِلَّا ضَاحِكٌ مِنْ رَجَائِيَا

(١) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ٢٠٣/٢ - ٢٠٥

(٢) القلس : حبل السفينة الذي تجتنب به في الأصعاد

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٩٤/٤

ويزداد الرفض عندما يوزان بين الحاكمين ؛ الأصل العربي والعبد الأجنبي ، فهما وإن تشابها في شكليات الحكم ، إلا أنهما مختلفان في جوهر سياسة الناس ، والتعامل معهم ، وهو ما أراده المتنبى في قوله (١) :

يذكرني فاتكاً جِلْمُهُ	وشيء من الندف فيه اسمه
بمصر ملوك له ما له	ولكنهم ما لهم همّه
فأجود من جودهم بخله	وأحمد من حمدهم ذمّه
وأشرف من عيشهم موته	وأنتفع من وجدهم عذمه

ويتّوازي رفض مساوئ الحياة الاجتماعية في الإطار الداخلي زمن البويهيين ، ورفض ضعف الدولة وسياستها في مواجهة الخطر الخارجي في الإطار العام . فبينما كانت الفتن والثورات الداخلية تنهش جوف الدولة ، كانت حروب الروم وهجماتهم تدمي جسم الدولة وممتلكاتها . وبينما كان الأجانب يسلبون الخلفاء حكمهم ، كانت العناصر الأجنبية تستلب العرب هويتهم بسبب سيادة الفرس والروم وطغيان ثقافتهم وتقاليدهم . ولذا كان همّ الشعراء كبيراً ، ونفقتهم شديدة ، ورفضهم عنيفاً ، يواجهون سلطة غاشمة ، وخطراً داهماً وكان الشعراء - خاصة الأشراف منهم - يحتفظون بروح التحدي والمقارعة ، كما في قول الشريف الرضي (٢) :

سئمت زماناً تنتحيني صروفه	وثوب الأفاعي أو دبيب العقارب
مقام الفتى عجز على ما يضيّمه	وذلّ الجري القلب احدى العجائب
سأركبها بزلاء اما لمادح	يُعَدّد افعالي واما لنادب
إذا قلّ عزم المرء قلّ انتصاره	واقطع عنه الضيم دامي المخالب
وما جرّ ذلاً مثل نفس جزوعة	ولا عاق عزمًا مثل خوف العواقب

وكان الشعراء الذين ينطوون على شرف رفيع ، وكرامة عظيمة ، ويحسون بهما ، يعرفون مقامهم ومكانتهم جيداً ، ويتطلعون نحو غايتهم الكبرى ويسيرون نحوها . ولم يكن "العلی" الذي ينادي به الشعراء ترجمة للتباهي والتفاخر ، بل كان الحكم ، وتولي الخلافة ، ويرى بعضهم انه احق بالخلافة من الديلم الذين جاءوا من بلاد فارس ، واستولوا على بغداد ، مستبحين تاريخ العروبة وامجادها . ويبدو ذلك الاحساس في شعر الرضي واضحاً ؛ فهو منذور للسلطة ، ومهيأ لدور قيادي عظيم ، لابد أن يأتي حينه ، وعبر الرضي عن ذلك بقوله (٣) :

ستعلمون ما يكون مني	إن مدّ من ضبّعي طول سنّي (٤)
أأدع الدنيا ولم تدعني	يلعب بي عناؤها المعني

(١) المتنبى ، ديوان المتنبى ، ١٥٣/٤ - ١٥٤ .

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٨٩/١ .

(٣) السابق ٥٣٢/٢ .

(٤) ضبّعي : عضدي .

ناطحة بالجَمِّ هام القرنِ نطاح رَوْقِ الجازي الأَغْنِ (١)
وسعت أيامي ولم تسعني أفضل عنها ، وتضيق عني
لِمَ أنا مثل القاطن المَبِينِ أسحبُ بُردي ضَرَعِ وَأَفْنِ (٢)
ولي مضاءٌ قطّ لم يخني ضمير قلبي وضمير جفني
قد عزّ أصلي ، ويعزّ غصني غنيت بالمجد ، ولم استغن
يشهد لي أن الزمان قِرني سوف ترى غبارها كالذَّجَنِ

ويعلو صوت الرافضين من الشعراء ، وهم يذكرون أصلهم ومعدنهم الكريمين ، وينتفض الشاعر منهم كأنه ملك زمانه ، أو خليفة عصره . ويكتسب التحدي في شعره طعم التقرّيع ، خاصة عندما يغضب من الخليفة ، إذ يقرب الأجانب ويترك العرب . يقول الشريف الرضي ، مخاطباً الخليفة الطائع (٣) :

وَتَمَى إِلَيَّ مِنَ الْعَجَائِبِ أُنَّةٌ لَعَبْتَ بِعَقْلِكَ حِيلَةَ الْخَوَانِ
وَتَمَلَّكَتْكَ خَدِيعَةٌ مِنْ قَوْلَانَةٍ غَرَارَةُ الْأَقْسَامِ وَالْأَيْمَانِ
أَيُّنَ الَّذِي أَضْمَرْتَهُ مِنْ بَغْضِهِ وَعَقَّدْتَهُ بِالسَّرِّ وَالْإِعْلَانِ
أَمْ أَيُّنَ ذَاكَ الرَّأْيُ فِي إِبْعَادِهِ حَقًّا ، وَأَيُّنَ حَمِيَّةُ الْغَضْبَانِ
سَبْحَانَ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ مُعْجِبٍ مَا فِيكُمْ مِنْ كَثْرَةِ الْأَلْوَانِ
يَوْمَ لَذَا وَغَدَ لَذَاكَ وَهَذِهِ يَمُ مَقْطَعَةٌ قَوَى الْأَقْرَانِ
فَالْآنَ مِنْكَ الْيَأْسُ يَنْفَعُ غُلَّتِي وَالْيَأْسُ يَقْطَعُ غُلَّةَ الظَّمَانِ
لَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِي مَالٍ بِهِ يُغْدَى الْبَعِيدُ عَلَى الْقَرِيبِ الدَّانِي
ثم يبلغ رفضه منتهاه في قوله :

لِي مِثْلُ مُلْكِكَ لَوْ أَطَعْتُ تَقْتَعِي وَذَوُو الْعِمَائِمِ مِنْ ذَوِي التَّيْجَانِ
وَلَعَلَّ حَالِي إِنْ يَصِيرُ إِلَى عَلَيٍّ فَالرَّوْحُ مِنْبَتُهَا مِنَ الْقَضْبَانِ
فاحذر عواقبَ ما جنيتَ فربّما رَمَتْ الْجَنَائِيَّةُ ' غُرْضَ قَلْبِ الْجَانِي
أَعْطَيْتَكَ الرَّأْيَ الصَّرِيحَ وَغَيْرَهُ تَنْسَابُ رَغْوَتِهِ بِغَيْرِ بَيَانِ
وَعَرَضْتَ نَصْحِي وَالْقَبُولَ إِجَازَةً فَإِذَا ابْيَيتَ لَوَيْتَ عَنْكَ عِبَانِي
وَلَقَدْ يَطُولُ عَلَيْكَ إِنْ أَصْغَيْتَ إِلَيَّ ذِكْرَاكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ لِسَانِي

* * * * *

(١) الجازي: الثور الوحشي المجترى، أي المكثفي بالعشب عن الماء. الأغن : الذي يخرج صوته من خياشيمه.

(٢) المين : من أبين المكان : أقام فيه . الضرع : الذل . الأفن : ضعف الرأي والعقل

(٣) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٥٢٢-٥٢١/٢

رفض الاستبداد

اتصف بعض خلفاء القرن الرابع الهجري بالقسوة ، تبعاً لطبائعهم ومما يذكر عن القاهر أنه لجأ إلى وسائل التعذيب والقتل القاسية ^(١) . وظهر في هذا العصر أيضاً عادة سمل الخلفاء، وخنقهم وتعذيبهم ^(٢) .

وفي أثناء ضعف الخلافة العباسية ، وتعاضل النفوذ الفارسي ، والهيمنة الشعوبية ، انتشر الاضطهاد السياسي ، وبلغ درجة عالية ، خاصة في زمن بني بويه ، لما كان فيهم من فظاظة ، وقسوة وجشع وحب للمال .

ونتيجة لتردي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كثرت معاناة الناس والأمم ، وأصبحت الشكوى والتذمر سمة بارزة في حياة الناس . ومما زاد من تلك المعاناة انصراف بعض الحكام والمسؤولين إلى مصالحهم الخاصة ، وإهمالهم العامة ، ومصالح الأمة ، وحقوق الأفراد .

وكان الناس - وهم يُظلمون - لا يستطيعون الوصول إلى حكامهم لبسط مظالمهم ، والمطالبة بحقوقهم ، فقد أغلق المسؤولون أبوابهم ، وحجبوا أنفسهم - بالحجاب - عن الناس ، فرفض ذلك الصنيع ، وعبر الشعراء عن نقمتهم ، رافضين ذلك الظلم ، فلما عدل أبو سعيد المجيمري ، أبا الطيب المتنبي ، على تركه لقاء الملوك والأمراء ، أجابه قائلاً ^(٣) :

أبا سعيد جنب العتاب فربّ رائي خطأ صوابا
فاتهم قد اكثروا الحجاب واستوقفوا لردنا البوابا
وإن حدّ الصارم القرضابا والذابلات السمر والعرابا
يرفع فيما بيننا الحجابا

ويلوم ابن الحجاج بعض الرؤساء ، ويعاتبه على فعل حجابيه ، رافضاً صنيع أولئك الحجاب ، معلناً نقمته عليهم ، ورغبته في نهش أكبادهم غضباً وثأراً لما اقترفوه ^(٤) :

قولا لمن إحساته لم يزل شفاء علاتي وأوصابي
بي علة تقطع أسبابها من راحة الصحة أسبابي
أخفيت ما بي اليوم منها فما تطلع الناس على ما بي
وليس يشفيني سوى نهشى من قطعة من كبد بواب

(١) مسكويه: تجارب الأمم ٢٤٣/١

(٢) السابق ٢٩١/١

(٣) المتنبي: ديوان المتنبي ١٠٥/١

(٤) الثعالبي: نيتمة الدهر ٨١/٣

تبّيت فيها وهي مشبوبة بالنار أضراسي وأنياي
فامنن بأن تذبح لي واحداً بالنعل في دَوّارة الباب
فنقطة من دمّ أوداجه أنفع لي من رطل جلاب

ويعلن ابن الحجاج - في أبيات أخرى - رفضه وصال ، أو موافاة الحكام ، لما يلاقيه عند أبوابهم من منع وصفع (١) :

قد وقع المنع والحجاب معاً فكلّ من رام بابكم صفعا
وافيته طامعاً لأدخله ولم اكن قطّ احمد الطمعا
فواثبوني جهلاً بمرتبتسي في حيث اشكو الصداغ والصلعا
لا تطلبوا بعدها مواصلتسي فإن حبل الوصال قد قطعاً

ويزداد الرفض ، وتشتد النقمة بوجود ظاهرة تلويث ثياب الناس بالنفط إن اقتربوا من باب الحاكم ، وكان المهلب قد فعل مثل هذا ، ويرفض ابن الحجاج هذه الظاهرة قائلاً (٢) :

الصفع بالنفط في الثياب ما لم يكن قطّ في حسابي
ليس يقوم الوصول عندي مقام خيطين من ثيابي
يا ربّ من كان سنّ هذا فزده ضعفاً من العذاب
في قعر حمراء ليس فيها غير بني البظر والقحاب
تفعل في لحمه المهري ما يفعل الجمر بالكباب
فالقرد عندي يجلّ عمن يسنّ هذا على الكلاب

ويرفض ابن الحجاج - أيضاً - ظاهرة نتف الشوارب عند أبواب الملوك أن وفد عليهم من يطلب ردهم أو يستعديهم على حوائج الزمن (٣) :

قد قلت لما ان رجعت مولياً ومعني مدابير من الكتاب
نحن الذين يقال لهم وكلنا فلّ العصا وطريدة الحجاب
قوم إذا قصدوا الملوك لمطلب نتفت شواربهم على الأبواب

ولم يكتف بعض حكام ذلك العصر بصد الناس ومنعهم من بسط حاجاتهم ، بل زادوا فدخلوا على كثير ممن استطاع الدخول ، ومنعوا حاجاتهم ، فتساوى الممنوع من الدخول ومن استطاعه. وذلك بما اتصف به كثير من أولئك الحكام من حبّ وحرص زائدين على المال ، فلما

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٨٢/٣ .

(٢) السابق ٧٨/٣

(٣) نفسه ٨٩/٣

سأل أبو الفتح البستي ، أبا علي الدامغاني (وزير الدولة السامانية) لم يعطه ، فعذ البستي نفسه غريباً عن تلك البلاد ، وقال رافضاً صنيع الوزير (١) :

سألت أبا عليكم نوالاً فقبل تمام مسألتني نوى لا

ويعذ أبو الحسن علي بن الحسن اللحام الحراني أبا علي البلعمي قفلاً على خزائن الأموال ، ويرفض شحّه وعدم رعايته الأولياء والوجوه والكتاب ، قائلاً (٢) :

وزارة البلعمي منقلبة وهو كقفل غدا على خربه

لم يرع للأولياء حرمتهم فيها ولا للوجوه والكتبه

قد قلبت وجه كل مكرمة متى تراها عليه منقلبه

فهموا أحقّ الورى بداهية تضحي لها رأسه على خشبة

ويرفض البستي بخل عمال نيسابور - على كثرة غلاتها وخيراتها - قائلاً (٣) :

لله نيسابور من حلة ما مثلها دار ولا حلة

للخير والمير بها كثرة للشر والضرير بها قلة

ما عيبها إلا بعمالها قالبخل والمنع لهم ملة

جفوا فما عليهم في الذي يعصره من بلة بلة

فهذه أولى خطابي لهم وبعدها ما يهتك الكلة

* * * * *

ورفض الشعراء كبر بعض الساسة ، وقلة تواضعهم ، إذ يخالفون في ذلك الشريعة الإسلامية ، وتقاليده المجتمع - وكان الشعراء يحبّون اتصافهم بالتواضع ، ويحذرونهم عليه ، ويحذرونهم من عاقبة الكبر والترفع ، يقول أبو اسحق الصابي (٤) :

ألا قل لأهل الدولة النذلة التي ثوى داؤها فينا وأعيادها

لقد كبت الدنيا على أم وجهها فنحن لها أرض وأنتم سماؤها

فلا تفرحوا بالحظ منها فاته قليل على هذا المحال بقاؤها

ويثني أبو العلاء المعري على الحكام المتواضعين ويزري بالمتكبرين ، ويؤكد تضاد الكبر والحمد ، فهما ضدان لا يجتمعان ، لأن المتكبر لا يجني ولا ينال محمداً الناس ، ويحذر

(١) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ٢٨٩

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٠٨/٤

(٣) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ١٢٩

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٨٥/٢

علوتم فتواضعتم على ثِقْسَةٍ
لَمَّا تَوَاضَعَ اقْوَامٌ عَلَى غَرَرٍ
والحمدُ والكِبَرُ ضِدَّانِ اتَّفَقَهُمَا
مِثْلُ اتَّفَاقِ فَتَاءِ السَّنِّ وَالْكِبَرِ
يَجْنِي تَزَايِدُ هَذَا مِنْ تَنَاقُصِ ذَا
وَيَرْفُضُ أَبُو الْعَلَاءِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ صَفِيَّ الْحَضَرَتَيْنِ ، الْخُضُوعَ وَتَقْبِيلَ يَدِي
الْحَاكِمِ الْمُنْتَكِبِ ، وَيُؤَكِّدُ عُلُوَّ هِمَّتِهِ وَكِرَمَ نَفْسِهِ قَائِلًا^(٢) :

وزير الشعراء بمن لا يعرفون قدر انفسهم ، ويرفضون تصرفاتهم ، ويدعونهم إلى معرفة حقائق انفسهم وأقدارها ، يقول أبو العلاء محمد بن علي بن الحسين في رئيس معزول فعد فوقه في مجلس الوزير (٣) :

(١) أبو العلاء المعري، أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري (٤٤٩ هـ)، شروح سقط الزند. تحقيق مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، بإشراف الدكتور طه حسين، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، مصورة عن نسخة دار الكتب، ١٩٤٥م/١٦٧-١٦٨.

(٢) النعالي: نعمة الينمية ١/١٠٩.

(٣) السابق: ١/١٠٩.

ويقدح بعض الشعراء في هجاء الساسة المتكبرين ، رافضين أسلوبهم في التباهي بمكانتهم وسلطنتهم ، يقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي في طاهر بن شار (١) :

وقال أنا المليك فقلت حقاً بقلب اللام نوناً في الهجاء
ولم أر من أداة الملك شيئاً لديك سوى احتمالك للواء

ويحذر أبو الحسن علي بن هرون الشيباني منصور بن باقرا ، عاقبة كبره وطيشه ، ويرفض تصرفاته تلك ، قائلاً (٢) :

يا مكثراً للعظمة أسرفت في الكبر فمه
فكم رأينا من كبير كبره قد قصمه

غدت على أبوابه مواكب مزدحمة
فراح قد صب الردى على الثرى جهراً دمه
وانتهبت امواله كذلك عقبى الظلمة

فاحذر وبادر إنني أرى اموراً مظلمة
ترى لها وقت الضحى كمثل لون العتمة

ورفض الشعراء غرور بعض الحكام ، واغترارهم بمناصبهم ، ونعوا عليهم سطوتهم وتيههم على الناس ، يقول أبو مسعود احمد بن عثمان الخشنامي (٣) :

يا والياً عزّ الولاية غره فسطا لذاك على الأنام وتاها
أقصر فذلّ العزل يتبع عزه عطر الولاية لا يفي بفساها

ويرفض أبو الحسن علي بن الحسن الحراني ظلم تميم بن حبيش وطيشه ، ويذكره بماضيه قائلاً (٤) :

يا تميم به حبيش كلّ ذاك الطيش أيش

إنما أنت وكيل الباب لا صاحب جيش

قد تبظرمتم وقدماً كنت في أنكد عيش

كنت ذمياً فصرت اليوم في أعلى قریش

ويذكر أبو الحسن علي بن هارون الساسة الظالمين بقدرة الله عليهم إن هم قدروا -

في زمن محدد - على ظلم الناس ، ويرفض استبدادهم غير يائس لقرب نهايتهم ، قائلاً (٥) :

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٠٧/٤ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٢٨/٤ - ١٢٩ .

(٣) السابق : ١٧/٢ .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٠٧/٤ .

(٥) السابق ١٢٨/٤ .

أيها التائه في الدولة مهلاً في اقتدارك
 كم إلى كم تجعل التيه علينا من شعسارك
 ما تبالي بخراب الأرض في عمران دارك
 أي شيء كان لو فكرت في دار قرارك
 ته كما شئت وصل واسطع علينا في جوارك
 فلنا صبر على ذاك إلى يوم ———— جوارك

ويجيء رفض أبي الحسن علي بن هرون الشيباني على شكل نصيحة يسديها لوزير الوقت ، ويذكره بتحول الأيام وتغير السلطان ، فيقول (١) :

حمل الرياسة ما علمت ثَقِيل	والدهر يعدل مرة ويميل
يا راكب الآثام في سلطانه	انظر إلى الأيام كيف تحول
هي ما سمعت وما رأيت سبيلها	التحويل والتثقل والتبدل
لا تعتل بالشغل إنك إنما	ترجي لأتاك دائماً مشغول
وإذا فرغت ولا فرغت فغيرك	المقصود للحاجات والمامل

ولا يكتفي أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي برفض تصرفات الوزير البلعمي وظلمه ، وإنما يوسعه سباً وهجاء ، إذ ورد الشاعر بخاري وصحب أبا علي البلعمي ، فلم يحمده صحبته ، وفارقه وهجاه بقوله (٢) :

إن ذا البلعمي والعين غين	وهو عار على الزمان وشين
إن يكن جاهلاً بخفي حنين	فهو الخف والزمان حنين

ويصل رفض ابن نباة ظلم ابن اسماعيل (وزير بهاء الدولة) إلى المواجهة والتهديد والوعيد بالمجابهة قائلاً (٣) :

حلف المفقع أنني في كفه	كف لعمرك حبسها إطلاقاً (٤)
لا تجعلن لطلاق عرسك عنة	إن الطوالق ما لهن طلاق
يخفي ضغينته وييدي ثغره	ليغرني بالود وهو نفاق
ضحكت إليك كما ضحكت أراقم	تفتري عن أنيابها الأشداق

ويقول في أخرى مخاطباً ابن اسماعيل السالف الذكر (٥) :

أبوعد فقغ كامن بقراره	ذؤابة طود من بهامة أغلبا (٦)
كما قيل للغيل البعوض سفاهة	تثبت تجدني فوق ظهرك ترتبا (٧)

(١) الثعالبي : نبتة الدهر ٤ / ١٢٨ .

(٢) السابق ٤ / ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) ابن نباة السعدي : ديوان ابن نباة ٢ / ٣٥٠ .

(٤) المفقع : الرجل . أسوأ ما يكون من الحال .

(٥) ابن نباهة السعدي : ديوان ابن نباهة السعدي ٢ / ٢٩٩ .

(٦) الفقغ : ضرب من الكمأة ، وقيل البيضاء الرخوة .

(٧) ترتبا : ثابت .

يؤنبني اتني وفيت لصاحب
وسراً بان كانت له كثرة الحصى
فلا مات حتى لا يفني ويؤنبنا
فأي حصان كان في المضغ أصلياً
دع الوثبة الغشماء لليث والتمس
بغدوك إلا في الحزاور أرنبا^(١)
ففرق الذي بيني وبينك بين
رغبت ولم يترك لي العز مرغبا

وكان رفض ظلم القضاة أشد وأقوى من رفض ظلم الحكام ، فهم الذين يعول عليهم في وضع الأمور في انصبتها إذا حاد الناس عن جادة الصواب وسوّلت لهم انفسهم الظلم وزينت لهم الحرام ، وظلمهم (القضاة) اشد وقعاً على النفوس ، واعظم خطراً على الامة، واكثر ايلاًماً للمظلومين . وكان في بعض قضاة بغداد ظرفاً ومجون ذكره السري الرفاء بقوله^(٢):

كيف خلاصي من العراق وقد
رأيت فيها خلاعة وصلت
آثرت فيها معادن الكرم
أطرافها بالعلوم والحكم
مجالس يرقص القضاة بها
إذا انتشوا في مخاتق البرم
كانهم من ملوك حمير ما
أوفت أكاليهم على اللمم
وصاحب يخلط المجون لنا
بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شبيه عبثاً
أنامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شيبته
شبيه عثمان ضرجت بدم

وجاءت صرخة بديع الزمان الهمداني لكل قاض يتولى القضاء ، ليذكر أعظم القضاة، ربة العرش العظيم في أحكامه . ويسخر الهمداني من القاضي الظالم ويرفض أحكامه ، ويذكره بمصيره إذا ما ارتكب الفظائع في حق اليتامى والنكالي والاماء ، فيقول^(٣) :

يا من يلي أمر القضاء
ويل لقاضي الأرض يوم
وذاك من سوء القضاء
الدين من قاضي السماء
كم من يتيم قد حشوت
غناه في ذاك الوعاء
ولرب تكلّى قد تركت
بعينها أثر البكاء
فسمنت من هزل اليتيم
نعم ومن غزل الاماء

(١) الغشماء : الظالمة ، الحزاور : الروابي الصغار

(٢) السري الرفاء ، السري بن أحمد الكندي (٣٧٢هـ) : ديوان السري الرفاء ، عن نسختي الأديبين تيمور باشا والبارودي باشا ، عنت بنشره مكتبة القدسي ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ ، ٦٧٧/٢ .

(٣) بديع الزمان الهمداني : ديوان بديع الزمان الهمداني ، ٣١ .

ومما رفض في الحياة السياسية في القرن الرابع الهجري ، سرعة عزل العمال عن وظائفهم ، وقد مرّ أن وزيراً ولّى إحدى النواحي أحد عشر عاملاً في أحد عشر شهراً ، وإن منصّباً شاغراً شغله سبعة عمال في عشرين يوماً ، وذلك دلالة واضحة على سوء التدبير ، وتفشي الرشوة ، وتعيين الأقارب والخواص دون النظر إلى الكفاية والقدرة ، فتمتلى نفس المعزول أسى وحرناً ، خاصة وأنه لم يكن ذنباً ، ولم يرتكب تقصيراً ، أو يعتمد إهمالاً ، ولذا يجرّد أبو الفتح البستي من نفسه شخصاً محدّثه وبيّنه شكواه ، رافضاً تلك الظاهرة وناقماً على من يأمر بها (١) :

جعلنا أجنبيين	بلا جرم ولا تبيل
وأقصينا وما خنا	وما زغنا عن العدل
فقل لي يا أبا السوء	دد والهمة والفضل
إلى كم نحن في ضيق	وفي عزل وفي أزل
أما تنشط أن تملني	على الكتاب انتم لي

وتكمن في نفس ابن الحجاج نقمة على سيده الذي عزله ، وهو لا يملك - وإن كان رفض فعله - إلا أن يظاھره ويجامله خوفاً وطمعاً ، فيقول (٢) :

يا من نظر الهلال إلى محاسنه سجـ	
وإذا رأته الشمس كادت أن تموت من الحسـ	
يوم الخميس بعثتني	وصرفتني يوم الأحد
والناس قد غنّوا عليّ	كما رجعت إلى البلد
ما قام عمرو في الولا	ية ساعة حتى قعد

ويقول (٣) :

يا مالك الصدر ما خلوت	من الإيراد ما عشت والصدر
قلدتني ليلة وباكروني	كتاب صرفي المشؤم في السحر
فقدت بختي فكيف درت به	دور لي جائب استه وخري

(١) النعالي : بئيمة الدهر ٣٢٥/٤ والأزل : الضيق والشدة والحبس

(٢) السابق ٨٠/٣-٨١

(٣) نفسه ٨١/٣

ومما رفض في الحياة السياسية - أيضاً -، عقوبة السجن دون محاكمة أو دون ذنب. ولم يكن الحكام ينهجون نهجاً أو يتبعون شريعة إذا خرج عنها واحد عوقب بالسجن، "وكان يكفي أن يقول الخليفة أو الأمير أو صاحب الشرطة (الحبس)، حتى يودع من لفظت بسببه "المطبق"، فقد كان الحبس سلاحاً في يد الخلفاء والوزراء، وقوة يكيدون بها للمعارضين ويهددون مخالفين فيما يشتهون ويحبون " (١)

وكانت الوزارة سبيلاً إلى السجن، وندر من نجا من الوزراء ولم يسجن، وربما قتل ولم يحبس، وربما أصابه الأمان معاً، وأدت الديون إلى السجن، وكثرت المصادرات، وكان مخالف رأي الخليفة أو الوزير معرضاً للسجن، كما سجن المستهترون والفساق واللصوص والمشايخون.

وكان في بغداد أنواع من السجون (٢)، وفي تلك السجون أقسام، وبها غرف مختلفة الاتساع والأشكال (٣). وربما سجنوا في أماكن ومحال أخرى غير السجون مثل الحجر الضيقة (٤)، والكنيف (٥)، والحفر التي كالتقبور فيها الأفاعي والبق (٦)، والسرايب (٧)، والقصور، والبيوت (٨).

وكان بعض المسجونين يقيدون بالسلاسل، التي تبقى أثارها بعد فكها (٩)، ويلبسون لباساً خاصاً، جبة صوف تدهن أحياناً كثيرة بالنفط، أو بماء الأكارع (١٠)، وربما أهمل المسجونون فلم يكسوا ولم يطعموا، وقد يمنعون من مقابلة أحد جاء لزيارتهم إلا من استطاع تلك المقابلة بالرشوة والعطايا (١١).

(١) د. صلاح الدين المنجد: بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، ١١٧.

(٢) لسترايج، غي لسترايج: بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد، ١٩٣٦م، ٣٤.

(٣) التتوخي: الفرج بعد الشدة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م، ٢٧٦/٢.

(٤) السابق ٢٧٦/٢.

(٥) نفسه ٣٤/١.

(٦) الأصفهاني: الأغاني ١٧٥/٥-١٧٦.

(٧) المسعودي: مروج الذهب ٢٠٠/٤.

(٨) الطبري: تاريخ الطبري ١٣١/٩.

(٩) الصابي: الوزراء ٩٠٨ وينظر: التتوخي: الفرج بعد الشدة ٤٣/١.

(١٠) الصابي: الوزراء ٢٩٨-٢٩٩.

(١١) عبدالله بن العنز: طبقات الشعراء ١٢١.

وشكا الشعراء - الذين سجنوا - مرارة السجن، وهوان الحال ، وامتألت شكواهم ألماً وحزناً، ورفضوا تلك الأوضاع لما لا قوة من جوع وعري وخوف، كما في قول أبي بكر الخوارزمي (١) :

كتابي أبا نصر إليك وحالتي	كحال فريس في مخالب ضيفم
غدوت أخا جوع ولست بصائم	ورحت أخا عري ولست بمحرم
وقعت بفخ الخوف في يد طاهر	وقوع سليك في حبال خثعم
لبست ثياب الصبر حتى تمزقت	جوانبها بين الجوى والتنعدم

ويزداد الرفض عند من يقابل إحسانهم بالإساءة ويلقون جزاء سنمار ، أمثال أبي اسحق الصابي ، الذي يقول (٢) :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم	أوفت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم	حيسي وطول تهدي ووعيدي ؟
قلدت ديوان الرسائل فاتظروا	أعدلت في لفظي عن التسديد؟
أنسيتم كتباً شحنت فصولها	بفصول درّ عندكم منضود
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم	عبد الحميد بهنّ غير حميد
انا بين إخوان لنا قد أوثقوا	بسلاسل وجوامع وقيدود
وموكلين بنا نذل لعزهم	فكأننا لهم عبيد عبيدود
والله ما سمع الأنام ولا رأوا	نقداً توكل قبلهم بأسودود
من كلّ حرّ ما جد صندريد	في كلّ وغد عاجز رعديود
قصرت خطاه خلاخل من قيده	فتراه فيها كالفتاة السروود
يمش الهويّنا ذلة لا عزة	مشي النزييف الخائف المزعوود
وتعلموا أن الولاية عندكم	عارية ليست بذات خلودود

ولم يكتف بعض الشعراء برفض السجن ، بل تعدى ذلك إلى رفض الإقامة - مجبراً - في بلد أو قطر ، وعدّ منعه من مغادرة تلك البلاد حبساً ، فالمتنبي يعدّ مصر سجناً حين منعه كافر من المسير إلى الرملة ، قائلاً (٣) :

أتحلف لا تكلفني مسيراً	إلى بلد أحاول فيه مالا
وأنت مكلفني أنبي مكاتاً	وأبعد شقّة واشدّ حالاً
إذا سرنا على الفسطاط يوماً	فلقني الفوارس والرجالا
لتعلم قدر من فارقت مني	وأنت رمت من ضيمي محالا

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٠٥/٤ .

(٢) السابق ٢٤٣/٢ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٧٥/٣ .

ويرفض الشعراء ما كان يلجأ إليه بعض المسؤولين من تعذيب السجين ، أو ضربه أو التضييق عليه أو التمثيل به ، وكلها عرفت ومورست في القرن الرابع الهجري ، فضرب بعض المسجونين وعذبوا ، وآخرون صلبوا قبل الموت ، أو بعده ، وغيرهم سلخ وهو حي ^(١) .
مما ألقى الخوف والرعب في قلوب الناس ، وقوبل بالرفض الشديد والنفمة العارمة على ممارسته ، يقول أبو جعفر محمد بن الحسين القمي ^(٢) :

أرى عمال نيسابور دهر الله في النحس
فمن يعمل بها يوماً يقع شهرين في الحبس
بها يضرب بالقلس أعز الناس في فلس

ويقول عبد الله الأصفهاني المعروف بالخوزي ^(٣) :

تركنا لخوف الخيل والترك دورنا قلله صرف الدهر كيف ترددا
دهاليزنا ضاقت لخوف نزولهم كأننا يهود ندخل الباب سجداً

ويبسط الشعراء شكواهم ، ويفصحون عن مرارتهم ، ويعلنون رفضهم ، إذا لاقوا التعذيب من حكام جهلة ، همهم الأول إخضاع الناس وإذلالهم ، وهم لا يحسنون إلا عقاب الناس والسخط عليهم ، فيما يتولون من أعمال ، أمثال الذين ذكرهم أبو الحسن علي بن الحسين اللحام الحراني في قوله ^(٤) :

ملك الديوان قيس وأبو يحيى وبطه
كلهم أخزاهم الله على الأحرار سخطه
ليس فيهم من يساوي في نفاق السوق ضرطه

ويهزأ أبو الفتح البستي ، في رفضه الظلم ، بالولاة وتعذيبهم الناس ، ويسخر منهم بمرارة في قوله ^(٥) :

ما كنت احسب أن عمراً يذنب فيخص زيد بالعقاب ويضرب
لا سيما والحكم في يد عالم بالحكم ما للعدل عنه مذهب

ويغدو الاستتار - في أجواء الظلم والفساد - رفضاً لكل ما يمارسه الظالمون ، حين لا يستطيع الناس مواجهتهم وردعهم عن غيهم ، وبهذا يكون احتفاء ابن الحجاج وانسحابه رفضاً لما يقوم به الحاكم ^(٦) :

(١) آدم مقرر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١٨٦/٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٤/٤١٠ .

(٣) السابق ٢/٢٩٨ .

(٤) نفسه ٤/١٠٦ - ١٠٧ .

(٥) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ٢٢١ .

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/٨٣ .

قلت وقد جاء حرّ شاذّا لأي معنى قد جاء هذا
قالوا لصفع العباد حتى يجعل أقفاءهم جذاذّا
فقمّت وابناي يتبعاني ننسلّ من بينهم لوذا

ويعذّ الشريف الرضي استتار الوزير أبي القاسم علي بن أحمد شجاعاً، لعدم قدرته على ملاقة الظالمين واحتمال التعذيب ، وأبياته - وإن غلبت عليها مسحة الحزن - تنبئ برفض ونقمة على الظلم والظالمين (١) :

تأبى الليلي أن تديما يؤساً بخلق أو نعيما
والمرء بالإقبال يبلغ وداعاً خطراً عظيماً
وينال بغيته وما انضى الذميل ولا الرسيما (٢)
فاذا انقضى اقباله رجع الشفيع له خصيما
وهو الزمان إذا نبا سلب الذي أعطى قديما
كالريح ترجع عاصفاً من بعد ما بدأت نسيما
ذاك الوزير وكان لي وزراً أحزّ به الخصوما
فالآن أغدو للعدي ونبالها غرضاً رجيما
حتى إذا لم يبق إلا أن يلام وأن يليما
طرح الغناء على اللنام مجانباً ومضى كريمما
لم يعتلقه الحبس ممتهانولم يعزل ذميمما
افنى العدى وقضى المنى وبنى العلا ونجا سليمما
والحرّ من حذر الهوان وحاول الأمر الجسيمما
والعاجز المأفون أقعد ما يكون إذا أقيمما

ورغم سوء حال بعض الشعراء وضعفهم ، فانهم يرفضون ظلم الحكام واستبدادهم ، بإباء وعزّة نفس ، دون أن تنكسر نفوسهم بل مع غير قليل من الصلابة والشدة ؛ يقول قابوس بن وشمكير - صاحب طبرستان - عندما عزلته حاشيته عن سلطانه ، وألقت به في غياهب السجن بإحدى القلاع (٣) :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر

(١) السابق ١٤١/٣.

(٢) الذميل: المسرع في لين. الرسيم: اثر السير في الأرض.

(٣) الثعلبي: يتيمة الدهر ٦١/٤.

فإن تكن عبثت أيدي بنا
ومسنا من تمادي يؤسه ضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد
وليس يكسف الآ الشمس والقمر
وشبيه برفض قابوس السالف الذكر ، رفض تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، وشكواه
من زمنه، وتقلباته ، ونوائبه ، ورزاياه ، وبؤس حياته ، التي حرم فيها من حقوقه ، قائلاً^(١) :
أما والذي لا يملك الأمر غيره
ومن هو بالسر المكتم أعلم
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً
لإعلانها عندي أشد وآلم
صبرت عن الشكوى حياء وعفة
وهل يشتكي لذغ الأرقام أرقم
وبي كل ما يبكي العيون أقله
وإن كنت منه دائماً اتبستم
ولهذا عبّر أبو الفتح البستي بابيات تقطر مرارة وألماً عن رفضه للوظيفة العامة ،
ناصحاً غيره ، بالابتعاد عن السلطان ، لما فيه خيره دنيا ودينا^(٢) :

يا من يرى خدمة السلطان عدته
ما أرش كدك إلا الذلّ والندم
دع الوجود فخير من وجودك ما
تبغيه عندهم الحرمان والعدم
إني أرى صاحب السلطان في ظلم
ما مثلهن إذا قاس الفتى ظلم
فجسمه تعب والنفس مزعجة
وعرضه عرضة والدين منثل
هذا إذا استوثقت أيام دولته
والصيلم الأد إن زلت به قدم

* * * * *

(١) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ؛ ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ، ٣٩٨.

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣١٧/٤.

الفصل الثالث

شعر الرفض الاجتماعي

- رفض هيمنة العرق (العرب ، العجم).
- رفض التمايز بين الفئات الاجتماعية.
- رفض بعض التقاليد الاجتماعية.
- رفض بعض الاتجاهات الأخلاقية.
- رفض بعض الظواهر الاجتماعية في سلوك الأفراد (الشراب، والقيان والغناء، ومجالس اللهو، والجشع، والكذب ، والنفاق، وتوظيف الدين واتخاذ وسيلة للترقي).

كان العرب قبل الاسلام يعيشون في تجمعات قبلية ، بعضها مستقر واغلبها مترحل، ثم أصبحوا - زمن العصر الأموي - يعيشون في مجتمع أخذت معالمه تتشكل شيئاً فشيئاً في المدن المزدهرة أو الناشئة في الحجاز والشام والعراق.

ولئن ظلت مثل المجتمع العليا في العصر الاموي، عربية بدوية، فإن المجتمع العباسي تطور فيه المثل الأعلى الحضري، واتسع العمران، وتقدم التمدن، وانتشر الترف، والتأنق في العيش، وغلب طراز الحضارة الفارسية، خاصة بعد تأسيس مدينة بغداد.

وكان العصر العباسي الأول (١٣٢ - ٢٢٢ هـ)، عصر المدن وازدهار أساليب العيش، وقد واكب هذا الازدهار، ازدهار اقتصادي، وتمازج اجتماعي تم بين العرب والعجم. وتوالت أشكال هذا التمازج، وكان أهمها التزوج بالأعجميات، والتلاقح بين أنماط الحياة الاجتماعية الموروثة، والعادات والتقاليد، وأنماط السلوك، مما أثر في الحياة العربية في القرنين، الثاني والثالث الهجريين بعامة والقرن الرابع الهجري بخاصة.

وبالرغم من مظاهر التثنت السياسي والاداري، وفترات الأزمات والفوضى، وأعمال الشعب التي كان يمارسها بعض الناس، فقد ظلت الحضارة مزدهرة والعمران يتسع بشكل ملحوظ.

وشهد القرن الرابع الهجري، ترفاً بالغاً، وتأنقاً في طرق العيش من مأكلاً وملبس ومسكن، نعمت به فئة معينة من الأغنياء والموظفين وقادة الجيش وكبار التجار، وبدا ذلك ظاهراً في أدب هذا العصر، نثره وشعره. كما شهد العصر - بالمقابل - فقراً مدقعاً، ومظاهر ضيق بالغة عند كثير من الناس، وتفاوتاً ملحوظاً، واختلالاً اجتماعياً، وتمايزاً بين فئات المجتمع، بدت مظاهره في التسول والكدية والتحايل واللصوصية، وقطع الطريق، وانعكست صورته - أيضاً - في أدب العصر، نثره وشعره.

وطبيعي لعصر سياسي واقتصادي امتاز بهيمنة الأعاجم على بعض الخلفاء، وسيطرتهم على كثير من مقاليد الأمور، وانفرادهم بحكم الدويلات المنفصلة عن الدولة الاسلامية، أن ينتج الانكفاء على الذات، واليأس، والزهد والانتفاضات، وأشكال الرفض والتمرد المتنوعة، وأن يطمع غير العرب في الانتقاض عليهم في الداخل والخارج، ويغري غير المحظوظين باتباع أي جهة معارضة، مهما كان شعارها، وأيا كان الداعي إليها.

وكان لهذا الوضع انعكاساته، داخلياً، بشورات المدن وهجمات البدو عليها وأعمال النهب والتخريب، وخارجياً، بأطماع الروم في شمال الشام، وفي تلك الأوضاع، رفع الشعراء أصواتهم، رافضين كثيراً من الظواهر الاجتماعية في مجتمع القرن الرابع الهجري، وأهم تلك الظواهر:

أولا : رفض هيمنة العرق (العرب والعجم)

عانى الناس في القرن الرابع الهجري، من التفاوت في المستويين، الاقتصادي والاجتماعي، ومن التفرق وعدم الاستقرار في المستويين، السياسي والاداري، وشعر العرب بخطر الاجناس الأخرى، التي تتسلك في إطار الدولة الاسلامية .

كان اتخاذ بعض الخلفاء نساء من جوارى الترك والروم، من أسباب تولي بعض الأعاجم المناصب الادارية العليا، وتحكم بعضهم في مصادر الثروة، إذ كانت كل سيدة تحابي من يتصل بها من الأقرباء والأولياء، وترفعهم ما استطاعت، حتى وصل الأمر الى المناصب التي لا يجوز توليتها إلا للعرب، مثل نقابة الطالبيين^(١).

ونشط الأعاجم في الحياة العامة ، فاستوطن كثير من الفرس جدة، وموانئ بلاد الشام ومصر. وكان اليهود والروم والهنود إلى جانب الفرس، أنشط تجار المملكة الإسلامية، وهم أكثر التجار غنى في ذلك العصر،^(٢) واشتغل كثير منهم في الصناعة والزراعة ، علاوة على وجودهم في الوظائف السياسية والجيش، فهيمنوا على معظم مرافق الحياة ، وأصبح حضورهم قويا، وصار وجودهم ونشاطهم مميزا عن العرب.

وأكثر الشعراء من رفض هيمنة الاعاجم، بل رفض بعضهم جنس الأعاجم عامة، قال المتنبي^(٣).

وما كل وجه أبيض بمبارك ولا كل جفن ضيق بنجيب

وتوجع ابن سكرة الهاشمي من هيمنة الأعاجم وأظهر بأسه من خلال رفض تلك الهيمنة قائلا :^(٤)

أرى حنلا وديباجا حساتا بطرف المستريب

وأعرف قصتي وأرد طرفي قلبي احر من اللهب

جنى نسبي علي وصد رزقي من الدنيا نصيبي

فوا أسفا على كسيتج قس لهفا على قوس الصليب^(٥)

ويزيد ابن سكرة الأمر توضحيا ، معلنا أن هيمنة الأعاجم مطبقة على المجتمع، حتى في الأعياد ، فيقول :^(٦)

قد أتى العيد لا أتى

فلقد أنهج المهج^(٧)

(١) عريب : صلة تاريخ الطري ٤٧.

(٢) آدم مقرر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٨٢/٢ . ٣٨٥.

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ٥١/١.

(٤) الثعالبي : بئمة الدهر ٢٢/٣.

(٥) الكسيتج : خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه تحت الز نار.

(٦) الثعالبي : البئمة ٢٣/٣.

(٧) أنهج المهج : أبلاها.

ليس فيه لهاشمي سرور ولا فرج
إنه عيد أهل قم وقاشان والكـرج
يتلاقى بياضه بقلوب من السيج

وكذلك يعلن ابن نباتة السعدي نغمته على الأوضاع الاجتماعية ، ويرفض تلك الهيمنة ،
لأنما العرب على استكانتهم وقبولهم تلك الأوضاع: (١)

حتى م نقدم والأيام تغلبنا
يا أهل بابل عزمي قبله فكري
وعندكم نعم عندي مصائبها
قالوا حنيفة شجعان فقلت لهم
مالي أغير على دهري فأسلبه
إن لم تسلني المواضي عن جماجمهم
وغيرنا يغلب الأيام بالفشل
في النائبات وسيوفي بعده عذلي
لكم وصال الغواني والصبابة لي
الشجاعة والاقدام في السدول
وفي أيديهم نفلـي
تطايرون فالتقصير من قبلـي

ويجس ابن نباتة موضع الداء، ويشخص الادواء، فيجد أن ليس للعرب إلا الرحيل عن
موطن هيمن فيه الأعاجم، ولكنه لا يستسلم إذ يعلن عزمه - مستنجدا بقومه - على استرداد
السيطرة، فيقول: (٢)

كيف السبيل الى الغنى
إن لم تدع سببا اليه
خذ من زمانك كل شيء
بالضرب يختطف الذري
كنا نظن الصدق ينفعنا
حتى سخرنا بالرجال
قالوا هربت من المذلة
ونبت بنا أرض العراق
والبخل عند الناس فطنه
القتل في البخل سنة
لا يجز عليك منه
والطعن يهتك كل جنة (٣)
ويذهب كل إحنة (٤)
فصدقونا بالمظننة
والهوان فقلت إنه
فما محناها بمحنة

(١) الثعالبي : نغمة الدهر ٢/٣٨٧.

(٢) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٢٢٥ وينظر :

النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (٧٣٣ هـ) :

نهاية الأرب من فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٢٩م ، نشر مطابع كوستاتسوماس
وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ١٠٩/٣ .

(٣) جنة : ما استترت به من سلاح وغيره .

(٤) إحنة : حقد .

غير الرحيل كفى البلاد بنقلة النجباء هجنة (١)
ولئن بقيت لأذعرن بها نفوسا مطمئنة
أشدد يديك بي الغداة فأنسي علق المظنة
أنا من مهالبة العتيك وبي من الشيطان جنة (٢)
إن لم تصيح بابلا
جرد تبارى في الأعنة
تذر الأعاجم كلهم
وقلوبهم غلف الاسنة

ويستجد ابن بناته بقومه، طالبا منهم إعادة أمجادهم إلى سالف عهدا، قائلا : (٣)

ترى الهم ليس له فرجة
أسمد النجاح أسمد الفلاح
أترعى الأعاجم ارواحكم
فسيروا إليهم بملومة
تبدد شملهم في البلاد
أم الليل ليس له من صباح؟
أسمد الرماح أسمد الصفاح (٤)
وأنتم ترعون ترب البطاح
غدوا أوائلها للرماح (٥)
وتجمعهم للقضاء المتاح

ومقابل رفض العرب هيمنة الأعاجم، رفض بعض الأعاجم هيمنة العرب، وحاولوا إحياء الدعوة الشعبية، وجنى عهد البويهيين ثمرة التناقص الاجتماعي والعنصري في مختلف العصور العباسية، وأصبحت عاصمة الخلافة مسرحا للعصبيات العرقية والمذهبية، ففي مدح أبي القاسم الزعفراني الأمير البويعي فخر الدولة، صورة من أساليب أبي نؤاس الشعبية في الدعوة إلى رفض حياة البداوة ونبذها. والافتخار بالمجد الفارسي : (٦)

لا أتبع الأعراب إن هم قوضوا
وصرير أرجاء السرير بمسمعي
فالكرخ دار اللهو أعذب مشرعا
لادرر العيش في متربع
والعيش عندي ما حييت ببرة
قد ألفت الدنيا أزمته السى
من مجهل حتى أحط بمجهل
أحلى بقلبي من صرير المحمل
من مشرع يختص دارة جلجل
بمخيم بين الدخول فحومل
في ظل مغشي الخباب مؤمل
ملك الملوك علي بن أبي علي

(١) الهجنة : اختلاط النسب.

(٢) جنة : الجنون.

(٣) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٣٤.

(٤) سعد بن زيد مناة بن تميم ، جد الشاعر.

(٥) الملمومة : الكتيبة المجتمعة.

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/٣٤٥.

ولم يعد التطرف الحاد، الذي مثله البويهيون في تشيعهم، مقصرا على العامة، بل كانت مجالس العلماء ميادين للنقاش المذهبي والجدال التاريخي في قضايا الخلافة، وأحقية الاجناس في الحكم، والعدل الاجتماعي، والمساواة بين الناس. وهذا مهيار الديلمي يرفض حكم العرب، ويقول إنهم غير جديرين بصاحب الرسالة لأنهم نقضوا عهوده: (١)

نقضتم عهوده في أهله	وحلتم عن سنن المراسم
وقد شهدتم مقتل ابن عمه	خير مصل بعده وصائم
وما استحل باغيا أمامكم	يزيد بالطف من ابن فاطم
وها الى اليوم النظبا خاضبة	من دمه مناسر القشاعم
والفرس لما اعتلقوا بدينه	لم تنل العروة كف قاصم
فمن إذن اجدر أن يملكها	موقوفة على النعيم الدائم
لا بد يوما أن تقال عثرة	من سابق أو هفوة من حازم

ومهيار الديلمي - الرافض للعروبة - لم تساوره نفسه في يوم من الأيام أن ينتسب إلى العرب أو يدين لهم بالولاء، فهو أرفع مجدا وأعلى نسبا كما يقول: (٢)

أنا من علمت قديمه وحديثه	علم اليقين وإن جهلت فسائل
قومي الملوك وخيم نفسي خيمها	أفلح بمثل أو اخري وأوانلي
ماضر عيصي في أرومة فارس	ألا يكون بخندف أو وائل
نحن الولاة العادلون ولم نزل	آثارنا حلي الزمان العاقل
ذرنا فمذ عدم الزمان رعاءنا	عدت الذئاب على السوام الهامل

ولم يقبل مهيار - في رفضه - تسوية بين الفرس والعرب، فترية فارس خير من تربة العرب، وينوساسان أشرف البشرية - رغم مجوسيتهم - وهم قومه وأهله والغالبون مدى الدهر، يقول مقارنا بين العرب والفرس: (٣)

أي مجد يضمننا وفخار	يوم انسأبنا إليه تصير
ان يفتنا الخطيب والمنبر المنسوب	قالتاج حظنا والسريـر
حسبنا أن تعلم الناس منا	والسياسات فيه والتدبير
وكفيناه أمر رستم بالحرب اذا	عدد الرجال الذكـر
والذي قد سقا من الدم ذو الأكتاف	حتى روى الثرى سابـر

(١) مهيار الديلمي، أبو الحسين مهيار بن مرزوية الديلمي (- ٤٢٨ هـ) : ديوان مهيار الديلمي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥ - ١٩٣١ م، ٣/٣٢٥ - ٣٣٦.

(٢) مهيار الديلمي : ديوان مهيار الديلمي ١٨٤/٣.

(٣) السابق ٦١/٢.

فهو غير آسف على ما تميز به العرب واختصوا به من خطابه على المنابر وبلاغة في الكلام. ويفخر بالتيجان التي ما وضعت إلا على رؤوس الأكاسرة، وهم رجال عدل وسياسة وحرب، وإن لم يكونوا خطباء وأصحاب منابر. والفرق - في نظره - واسع : (١)

شتان رأس يفخر التاج به وأرؤس تفسخر بالعمائم

ولكنه (مهيار) لما لم يحقق طموحه القومي في ظل أسياده البويهيين، فهم ما زالوا تابعين للخليفة العباسي العربي المسلم، يأتَمرون بأمره، وينظرون أمره في شرعية حكمهم - شكا غربته ببغداد، وبكى المجد الفارسي المضاع، رافضا واقعه، ممثلا تطرفا شعوبيا حادا، إذ يقول : (٢)

ان تسأليني بعد قومي كيف أوجدني الزمان
وبقيت من بعد الجماح ومقودي سلس ليان
فردا يززعزعي الأذى ويشل جاتبي الهوان
ابكيهم أثرا ومالي أن ابرهم عيان
لله منهم جدي الوضاح أو أبني الهجان
ان تنكري قومي فعندك من بقيتهم بيان

ثانيا : رفض التمايز بين الفئات الاجتماعية

لم تعد الروابط الاجتماعية في القرن الرابع الهجري، كما كانت عليه في أواخر الدولة الأموية وبداية حكم العباسيين، فقد كانت الرابطة الدينية والقبلية أهم ما يميز المجتمع في تلك الأثناء، وباتساع رقعة الدولة، واختلاط العرب بأجناس مختلفه، ضعفت الرابطة القبلية، وبدأت تتشكل علاقات اجتماعية جديدة .

وبعد قيام الدولة العباسية، وتغير كثير من أنماط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة في القرن الرابع الهجري، ظهر فرز عام بين الناس، وظهر تمايز بين فئات المجتمع، إذ اتسمت كل فئة بطوائع ومميزات أظهرتها عن غيرها.

وعند الحديث عن البنية الاجتماعية في العصر العباسي لتحديد مفاصلها الأساسية، ومراتبها الاجتماعية، لابد من الإشارة إلى صعوبة استخدام بعض المفاهيم الاجتماعية الحديثة، كالتركيب الاجتماعي، والطبقية .

(١) مهيار الديلمي : ديوان مهيار الديلمي : ٣/٣٣٥.

(٢) السابق : ٤١/٤ - ٤٢.

ومع حضور بعض المفاهيم التي تدل على التقسيم أو الترتيب الفئوي في المجتمع العباسي، إلا أن ذلك لم يكن يعني - بالضرورة - التركيب الاجتماعي بمعناه الحديث. كما لم يكن خاضعا لمعنى واحد، فقد ظهرت مصطلحات الطبقات لتعني الجماعة الحرفية، ولعل ذلك يشير إلى الفئات الاجتماعية أكثر من إشارته إلى الطبقات بالمعنى المتعارف عليه الآن. ولم يكن المرجع في تقسيم المجتمع إلى نوع العمل أو مستوى الدخل أو المركز، أو الدور الذي يؤديه الفرد في المجتمع، هو الأساس، بل كانت التقسيمات القائمة على أساس المذهب والدين والقبيلة والنسب والثروة متداخلة.

ولم يكن لكلمة (طبقة) استعمال بالمعنى المتعارف عليه الآن، غير بعض الاستخدامات الخاصة، مثل تصنيفات جماعات المثقفين، طبقات الشعراء مثلا. وعرفت بعض المصطلحات المعبرة عن فكرة الانقسام الاجتماعي، فكانت شائعة التعبير، إذ راج مفهومها (العامة) و (الخاصة). تعبيرا عن قسمي المجتمع الرئيسيين، كما عرفت تسميات أخرى، ذات دلالات معينة، مثل (العلية) و (الصفوة) و (السواد) و (السفلة) و (الدهماء) و (الغوغاء).

ولا شك في أن التمايز حاصل بين فئات المجتمع العباسي في القرن الرابع الهجري، فئمة فئات تتلون حياة كل منها بلون خاص. ولم تكن الخلافات المذهبية والعنصرية، سبب ذلك التمايز فحسب، بل كان التأثير الاقتصادي فعالا في نشوء مستويين أو فئتين من الناس. الأولى: ويمثلها الحكام والحاشية والأغنياء، بنفقاتها واسرافها، وما يصاحب ذلك من تألق في مختلف صنوف حياتها.

والثانية: وهم الفلاحون والعمال والكسبة، وقد لاقى كثير من هؤلاء عنتا ومشقة في حياتهم بسبب الفقر.

ورغم أن التقسيم الثنائي (عامة وخاصة) يحظى بقبول الجميع تقريبا، إلا أنه يمكن التمييز بين فئات ثلاث، خاصة عند الحديث عن تفاصيل كل جزء من ذلك التقسيم، وانتماءات فئات التجار والكتاب وقواد الجيش ومرد ذلك إلى أسس تتلخص في مستوى الدخل (الثروة)، والمكانة الاجتماعية (درجة القرابة من السلطان)، إذ (كان الشرف والسيادة نتيجة للمال والسيطرة السياسية) ^(١).

ويمكن - استنادا إلى الفكرة القائمة على مؤشري الثروة والسلطة - التمييز بين ثلاث فئات من الناس هي: الخاصة، والوسطى، والعامة، ولكل فئة من تلك الفئات أحوال اجتماعية ومعاشية خاصة بها.

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٨٠/١.

وموضع الشعراء في الترتيب الاجتماعي مختلف بين شاعر وآخر ، فلم يكونوا كلهم في فئة اجتماعية واحدة ، فثمة شعراء قريبون من السلطة موالون لها ، فقد ظهرت فئة واسعة من الشعراء والكتاب والعلماء ، ارتبطت حياتها برجال الدولة ، وكان ذلك القرب من الميسورين والارتباط بهم يمثل مصدرا أساسيا لرزقهم ، وحفظت كتب التاريخ والأدب شواهد كثيرة حول ارتياد الشعراء لآبواب الحكام ، وظاهرة تنازع الحكام في تجميع الأدباء والعلماء ، مما انعكس إيجابيا على ازدهار الحياة الثقافية وازدهار الإنتاج الأدبي ^(١) .

وثمة شعراء بعيدون عن السلطة غير موالين لها ، بل رافضين لوجودها أو طرائق سياستها ، رفضوا التزلف والترقي بالباطل ، فأصابهم العوز ، لأن "الكثير ممن يتخلق بالترفع والشمم لا يحصل لهم غرض الجاه ، فيقتصرون في النكسب على اعمالهم ويصيرون الي الفقر والخصاصة" ^(٢) .

وأصاب الضيق عددا من العلماء ورجال الأدب ، الذين لم يسعفهم الحظ في التقرب إلى أرباب السلطان ، وقد اضطر الأديب الفقيه عبد الوهاب المالكي أن يغادر بغداد طلبا للرزق ، وأكد لمود عيه حبة لبغداد في قوله :

"لو وجدت بين ظهرائكم رغيين كل غداة ما عدلت عن بلدكم" ^(٣) . وأكد مهيار الديلمي رفضه لواقعه بقوله: ^(٤)

قل لزماني ما شئت فاضغط قد دير الجابر الجليب

وكثيرا ما يقع التحول من فئة إلى أخرى أو من وضع إلى آخر بفعل المنصب (الوظيفة) توليا . أو تخليا .

وكان الشعراء يرفضون تغير أخلاق من تتغير حاله ، أو تبدل صفاته بتحوله من فئة اجتماعية إلى أخرى . ومثال ذلك ما انكره جحظة الشاعر من تغير أحوال ابن مقلة فقد كان بين جحظة وبين ابن مقلة صداقة قبل الوزارة ، فلما استوزر استأذن عليه جحظة ، فلم يؤذن له ، فقال ^(٥) :

قل للوزير أدام الله دولته منادمتي والخبز خشكار
إذ ليس بالباب برذون لنوبتكم حمار ولا في الشط طيار

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م ١/١٣٥ - ١٣٧ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ٣٩١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/٢٢٠ .

(٤) محصيار الديلمي ، ديوان محصيار الديلمي ٨٥/١ .

(٥) ابن الجوزي : المنتظم ٦/٣١٠ .

ورفض الشعراء الذين لم ينالوا مبتغاهم - حتى بعد تقربهم من حكام العصر - الأوضاع الاجتماعية ، ونقموا على أهل زمانهم وسخطوا عليهم ^(١) .

أذم إلى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

ويكون رفض الواقع الاجتماعي - أحيانا - بالرجوع إلى الوراء، وتفضيل الزمن الماضي على الزمن الحاضر، وإظهار الاحساس الحزين المشوب باليأس، فما مضى كان أحسن ، ومن مضوا كانوا أسعد وأكبر حظا، فالمتنبي يفضل البادية على المدينة ، والفلاة على العمران، والبداءة وأخلاقها على الحواضر وأهلها، وقد يم الزمن على حاضرة ، قائلا : ^(٢)

وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير امته من سائف الامم
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم واتيئاه على الهرم

ويكون رفض الواقع الاجتماعي - أحيانا أخرى - بتصوير إباء الفرد وشعوره بالكرامة ورفضه الضيم مهما احتمل في سبيل ذلك من العناء الشاق ، يقول أبو نصر علي بن هبة الله المعروف بابن مأكولا : ^(٣)

قوض خيامك عن أرض تضام بها وجانب الذل إن الذل يجتنب
وارحل إذا كان في الاوطان منقصة المنذل الرطب في أوطانه حطب

ويرفض بعض الشعراء أن يقاس المرء أو تحدد قيمته الاجتماعية بمظهره الخارجي، ويدلل أبو الفتح البستي على ذلك بحكمة مصدرها الطبيعة وما يجنى بها من فوائد من أصغر المخلوقات قائلا : ^(٤)

لا تحقر المرء ان رأيت به دمامة أو رثاة الحلل
فالنحل شيء على ضؤولته يشتر منه الفتى جني العسل

ثالثا : رفض بعض التقاليد الاجتماعية

انصف كثير من الأغنياء والموسرين ، في القرن الرابع الهجري، بالإسراف والتبذير، ورفضت في ذلك العصر، حقبة ذهبية ، ترف الموسرون خلالها، فاقتوا في الحياة والمعاش واللذة واللهو .

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٧٤/١ .

(٢) السابق : ١٦٣/٤ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٠٦/٣ .

(٤) النعالي : يتيمة الدهر ٣٣١/٤ .

واتصف المترفون في ذلك العصر، بالزهو والكبرياء، وتنافسوا في التزين والاناقة طمعا في نيل اعجاب اشباههم ، واسرف كثير منهم في الاقبال على الزخرفة والتزيين، وأتوا الطريف مما لم يألفه الناس ولم يعرفوه، وتمتع بعضهم باللذات الحسية وتعموا بها، مهما كان لونها ورفعتها وحقارتها.

وزها كثير من الخلفاء والامراء والوزراء في تلك الحقبة ، واستمالوا اليهم الندماء وبعض الشعراء، وانطلق بعضهم اثر اللذات يصطادون طريفيها ويتخيرون طيبيها، يحيون في قصور مزخرفة، ويعيشون في ظلال ونعيم، في بيوتهم زخارف من ذهب، وصور وتمائيل مجسمة ، وفرش مختلفات الضروب والصنوف، وبسط زركشت بالنضار وطرزت بالحرير، ويعيش بعضهم في طرب دائم ، على نغمات المزاهر والعيان، ويشربون الخمر، ويشمون العطور وروائح الازهار، ويتمتعون بجمال الجواني والغلمان، ويلبسون أفخر الثياب وأغلاها ثمنا وأغربها وشيا ، ويأكلون مما لذ وطاب مما هو بعيد عن تناول كثير من الناس، ولم يبال بعضهم - في سبيل ترفهم - أن جاءوا العجائب أو فعلوا الغرائب، فاعلفوا الفرائج الفسوق المقشر، وسقوها الحليب ، وأطعموا كلابهم الدجاج المسمن، وقدموا لحميرهم السمسم، وقضوا كثيرا من أوقاتهم في الديارات والخمارات ، واتوا كثيرا من الملذات والمستغرب من العادات .^(١)

وكان المترفون أبناء تلك البيئة التي انشأتها اجناس وثقافات وثروات ، فقضوا حياة معظمها ترف وفن، وقد نظر الناس اليهم نظرة الدهشة والاستغراب ، لانهم عاشوا حياة اجتماعية ذاقوا فيها مالم تذقه الاكثريه .

وافتن بعض الخلفاء العباسيين في اقتناص اللهو، واغرقوا في كثير من أنواعه، وآثر بعضهم اللهو على كل شيء ، فاولع بعضهم بالرياضة والمصارعة ورفع الانتقال، وأولع بعضهم بالصولجان، وغالى آخرون بالعناية بالصيد وتربية كلابه التي ألبسها بعضهم أطواقا من ذهب، ووكل بكل كلب عبدا يخدمه.^(٢) وبينما كان بعض الخلفاء يلهون كان الناس يعانون ويتألمون، وكانوا ينظرون الى تلك الحياة نظرة النقرة والسخط، وكانوا يرفضون تلك التقاليد الاجتماعية، أو على الأقل المغالاة في اتباعها، وترك أمور الرعية دون رعاية أو حفظ.

(١) ينظر:

• الجاحظ : البخلاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (?) ، ١١
• ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس (- ٦٦٨ هـ) : عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ م ، ١٤٠
الشابشتي : الديارات ، ١٤٩ (دير السوسي) ، ١٦٣ (دير مرمار)
(٢) الصابي : الوزراء ١٢٨.

ويزداد رفض التقاليد بازدياد اتباع الملهي منها، فرفض ما أتاه الخلفاء ، والأمراء من لعب بالنرد والقمار، واللهو بالشطرنج، ومكابرتهم أنها من الاداب ، كما قال الحسن بن سهل: الآداب عشرة ، ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، أما الشهرجانية فضرب العود ولعب الصوالج ولعب الشطرنج، وأما الانوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ^(١).

ويمتلىء جوف الرافضين حقدا ، وأما اذا ما رأوا انصراف بعض الخلفاء عن رعاية مصالح العامة والفقراء ، الى رعاية الحيوانات ، والاكثر منها، والقيام على خدمتها، وانفاق الاموال الطائلة على حظائرها ، والتفنن في تزيينها، واطعامها وخدمتها. ^(٢)

ويكون رفض المقلين شديدا، اذا علموا أن كثيرا من الحكام وأصحاب النفوذ يشربون الخمر، ويلذون بسماع الغناء ويأتون طرق المجون، وهم (الفقراء) لا يجدون ما يقيمون به حياتهم ، إلا من طرق التسول والكدية ^(٣).

ومما رفضه غير القادرين ذلك التأنق والتصنع في الملابس والازياء ، والمتأنقون في هذا المجال هم على الأغلب المترفون الاغنياء ذوو اليسار من الملوك والامراء والوزراء ، وافتن هؤلاء باختراع الازياء التي قلدهم بها فئة من الناس، لانها حليت في عيونهم، فاذا ما عم ذلك الزي وانتشر ، اخترع غيره، والناس يقلدونه، وهكذا يظل التبذل في الازياء مستمرا، ما دامت الفئات الاجتماعية باقية .

ومع أن الرجال قلدوا ملابس الخلفاء والوزراء، إلا أن ظاهرة التقليد تغلب عند النساء على الرجال، وقد غالت النساء في تقليد ملابس نساء الخلفاء وبناتهم وجواربهم، وتطرفت بعض النساء في ذلك العصر حتى لبسن ملابس الرجال فسمين بالغلاميات ^(٤).

وبازدياد ضعف الوازع الديني ، وضعف سلطان الدين في قصور بعض الخلفاء ، واتباعهم التقاليد الفارسية ، وتشبههم، وحواشيهم بأخلاق الفرس، وخصالهم، ازداد رفض الناس للتقاليد الاجنبية واشتدت معارضتهم لانتفاء وقار الخلفاء او ابنائهم امثال ابراهيم بن المهدي واخته عليه، سيدة المتظرفات ^(٥).

(١) ابن الجوزي ، الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (- ٥٩٧ هـ) : كتاب الأذكياء ، وقف على طبقة ونقحه قسطنطين الحمصي ، مكتبة المعاهد العلمية ، مصر ، (?) ٣٥ .

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١/ ١٠٣ .

(٣) السيوطي ، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١ هـ) : تاريخ الخلفاء ، ت محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٢ م ، ٣٨٤ ، ٣٩٤ ، ٤٠٩ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب ٣/ ٤٠١ ، ٤٠٣ .

(٥) أحمد أمين : ضحى الإسلام ١/ ١٠٨ .

وسرعان ما تسابق الناس في القرن الرابع الهجري الى الظرف الذي أضحى من تقاليد المجتمع في ذلك العصر، وقلد الناس أصحاب الظرف من الفرس وغيرهم ، وهم الذين أطلقوا لانفسهم العنان في اللهو واللذات والمسرات ، ولم يتقيدوا بتقاليد المجتمع الموروثة ، ولم يأتمروا بأعراف المجتمع ، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون حائل، ولم يمنعهم مانع ، فاقترن ظرفهم بالزندقة، لما جاهرُوا به من حرية في العواطف والافكار، وحرصوا على اظهار ما لم يألفه الناس، ولم يكن لهم به عهد فقالوا: أظرف من زنديق.

وبلاحظ أن أكثر المتظرفين كانوا من أصل فارسي، ^(١) فهم الذين بدأوا بالظرف وأخذوا بنشره، ولم يكن بد - وقد ظهر ظرفهم وشاعت أخبارهم - من أن يقبل على التطرف فئة من الناس فاصبحت الزندقة سبيلا الى الظرف، وتطفل على الزندقة بعض الناس ليعبد من الظرفاء، فقد تزندق محمد بن زياد تطرفا فقال ابن منذر فيه ^(٢)

لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف

وربما لم يحسن المترنق الظرف، ولم يستطع الرقة ومشابهة المتظرفين فيقال عنه: ^(٣)

تزندق معلنا ليقول قوم من الادباء زنديق ظريف

فقد بقي الترندق فيه وسما وما قيل الظريف ولا الخفيف

وإذا كان رفض الظرف المقرون بالزندقة شديدا على ظاهره، فلا بد أن يشتد اذا ما تحول الأمر الى المبادئ والسلوك ، فلم يكتف بعض الناس باكتساب الظرف، بل تجاوزه الى انتحال الذوق والتأدب عن طريق الظرف "قربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له، أن الزنادقة ظرفاء، وأنهم عقلاء وأن لهم البصائر في دينهم والبذل لمهجتهم، وأن هناك علما وتمييزا، وانصافا وتحصيلا، فينزوا نحوهم نزو المهر الارن، ويحن اليهم حنين الواله العجول، ويتصبب فيهم صباية العاشق المتيتم ، ويرى انه متى اتهم بهم فقد قضى له بذلك كله". ^(٤)

وكما قوبلت تقاليد الظرفاء والمتظرفين بالرفض والاستغراب، قوبلت تقاليد الطريفات والمتظرفات بالاستهجان والنقمة والرفض ايضا، فقد بالغت كثير من نساء العصر بهذا التقليد ، وصار همهن الوحيد اختراع الملابس الموشاة مما ندر وفخر وغلا ثمنه، وانقطعن للزينة والتزين والوشي ، حتى صنع لبعضهن من الوشي الرفيع ما بلغ ثمن الثوب منه خمسين الف

(١) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ١٣٧.

(٢) الأصفياني : الأغاني ١٨/١٨٧.

(٣) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ١٣٩.

(٤) السابق : ١٣٩.

دينار ^(١) وكن يعمدن إلى زركشة الملابس بأشعار الغزل زينة وتزويقا، وربما كتبن الشعر على الخفاف والنعال ^(٢) ومن ذلك ما كتبه إحداهن على وشاح قميصها: ^(٣)

أغيب عنك بود لا يغيره نأى المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل بالقلب ، ليس الشغل للبدن

وعلى طراز ردائها : ^(٤)

أقل الناس في الدنيا نصيبا محب قد نأى عنه الحبيب

ومن ذلك - أيضا - ما كتبه أخرى على وشاح قميصها: ^(٥)

إذا وجدت لهيب الشوق في كبدي أقبلت نحو سقاء القوم ابترد
هبني طفنت ببرد الماء ظاهره فمن لحر علي الأحشاء يتقد

ومثل ما كتبن على الملابس كتبن على العصائب ، اذ كتبت إحداهن على طرفي

عصابتها ^(٦)

من يكن صبا وفيا فزمامي في يديه

خذ مليكي بعناتي لا انزعك عليه

ورفض الناس سلوك المتظرفات وتقاليدهن بنشر شعورهن، أو إرساله ضفائر وذوائب وراء ظهورهن، أو جعله جدائل تتدلى على اكتافهن و كذلك تشبههن بالعلمان، اذ قصصن شعورهن، ولبسن الملابس القصار، وبرزن ارادفن وزرفن اصداغن كما قيل فيهن: ^(٧)

ظباء كالدناير سلاح في المقاصير

جلاهن الشعاتين علينا في الزناتير

وقد زرفن اصداغا كاذناب الزراير

(١) المسعودي : مروج الذهب ٣٦٦/٤.

(٢) الوشاء ، أبو الطيب محمد بن أحمد الوشاء (- ٣٢٥ هـ) : الموشى (الظرف والظرفاء) ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ١٦٢/٢.

(٣) السابق ١٦٨/٢.

(٤) نفسه ١٦٨/٢.

(٥) نفسه ١٦٨/٢.

(٦) البهائي ، علي بن عبد الله الغزولي النمطي (- ٨١٥ هـ) : مطالع البدور في منازل السرور ، مطبعة ادارة الوطن ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) ، ٢٧٨/١.

(٧) الشابشتي : الديارات ، ١٧٨ (دير الأعلى) .

ومما زاد في رفض تقاليد المتطرفات مغاللاتهن في التزين وتعمدهن إظهار محاسنهن وإخفاء عيوبهن ، (فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبية ، وكم جعلوا العين الزرقاء كحلاء ، وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه المقعقة ، وكبروا الفقاخ الهزيلة ، واعدمو الخدود شعر اللحي ، واكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة ، وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعركة ، ورطلوا الشعور الممرطة ، واذهبوا آثار الوشم والجدي والنمش والحكة ، وطولوا الشعور بوصلها من اطرافها بشعور من جنسها ، وكانوا يزيلون روائح الانف بالسعوط .. ويجلون الاسنان بالسواك .. وكن يخضبن حواجبهن واطرفهن ، ويصبغن بصبغ أحمر شفاههن ، فان كانت الجارية بيضاء فبالخضاب الاحمر وان كانت صفراء فبالاسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضد بضده).^(١)

وليس ذلك باقل من مهارة أهل عصورنا هذه ، والتي ترفض حتى من قبل بعض النساء . ومما رفض من تقاليد القرن الرابع الهجري انقطاع بعض الظرفاء للحب وسعيهم اليه ، واقبالهم على العشق سراعاً ، حتى ليخيل الى المرء أن ليس في حياتهم شيء الا الحب والعشق واللذة .

والقت الظريفات بانفسهن على الحب ، وسعين في البحث عن الحبيب ، سعيًا ، وكان هوى الظرفاء مقسما بين الغلمان والقيان ، فطائفة اغرتهم لطافة الغلمان فاحبوهم^(٢) وطائفة أخرى آثروا القيان على الغلمان (لتكامل ملاحظتهن وعجيب شكلهن ، وبديع دهن ، وملاحة سلامهن ، وذكاء روائحن ، وحلاوة كلامهن ، وحسن مداعبتهن ، ومليح مراسلتهن ، ومحسوب عتابهن ، لا سيما ان شبن هواهن بالغيرة على محبيهن ، والتدل على متعشقيهن ، فهن المالكات القلوب السالبات العقول)^(٣)

ويكون الرفض شديداً ، مقرونا بالنقمة والمرارة على تقاليد الظرفاء في حبهم الذي يدعوا الى الريبة ويسوق إلى الفجور ، اذ ان اناسا من الظرفاء استهوتهم اللذة الجنسية ، وأصبح الحب عندهم حبا شهوانيا ، فتهافتوا على اللذة ، واطلقوا لاجسادهم العنان في التلذذ ، خاصة اللذة الجنسية ، فلم يققوا عند النظرة والبسمة والحديث ، ورأوا ان الحب العذري خرافة ، وكانوا يريدون القبلة ولمس الاردا ف والبطون وقطف رمان الصدور ، ثم ما وراء ذلك ، وهم يعلنون ذلك صراحة قائلين^(٤)

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٧١/١ نقلا عن رسالة لأن عبدون البغدادي المتطبب محظوظ رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين.

(٢) الشابشتي : الديارات ، ٩٦ (دير العلت) ، ١٦٣ (دير مرمار).

(٣) الوشاء : الموشى ١٠٤/٢ - ١٠٦.

(٤) الأصفهاني : الأغاني ٣٢٣/١٣.

وكننا من طرب	يطير أو يكاد
ولهونا لذيد	لم تلهه العباد
إن تشتهي فسادا	فعدنا فساد
أو تشتهي غلاما	فعدنا زياد

وكانت اللذة عند بعضهم كل شيء في الحياة . واما الظريفات فكن يتهافتن على الرجال،

ولا يأبهن بالناس، ويواصلن الرجال ليلا، ويعطينهم ما يشتهون، وكن يتبعن أساليب وحيلاً (١)

قاتل الله عربيا	فعلت فعلا عجيبا
صبرت حتى اذا ما	اقصد النوم الرقيب
فتدلت لمحـب	فتلقاها حبيبـا
جذلا قد نال في الدنيا نصيبـا	
أي ها الظبي الذي تسحر عيناه القلوبـا	
والذي يأكل بعضا	بعضه حسنا وطيب
كنت نهبا لذئاب	فلقد اطعمت ذيب

ولنا أن نتصور كيف يكون الرفض إذا ما ذكرت الروايات عن عريب السالفة الذكر أنها

لما صارت في أحد قصور العباسيين وصلت من كانت قد عشقته ثم خرجت اليه حتى حبلت منه. (٢)

ومما رفض في مجتمع القرن الرابع الهجري عشق القيان، إذ كان لهن في العصر العباسي شأن عظيم ومنزلة عالية ، وقد جهد المغنون والنخاسون في تعليمهن العزف والضرب، ونفقيهن في العربية ، وتحفيظهن نواذر الاحاديث والاشعار، وقد برعن في اظهار الانوثة والبال، فكن مصدر غواية وفتنة، واقبل عليهن الشباب والشيوخ لاتقانهن فن العشق والغواية .

وكان عشقهن خدعة لطلب المال والهدايا ، فاذا حصلن على ما يردن من مال وثياب وهدايا، أظهرن الملل من الحبيب ، وملن الى غيره، وهكذا يفعلن لتخقيق أغراضهن (٣) فظهر زيفهن، واقترن اسمهن بالخداع والكذب، ولذا مال عنهن كل من طلب العلا، فقال (٤)

وكان أطيب من سيفي مضاجعة أشباه رونقه الغيد الإماليد

ومن النقاليد المرفوضة ، انتشار الخصيان، اذا انتشرت قبل القرن الرابع الهجري عادات شرقية قديمة ، رغم معارضتها للعقيدة الاسلامية ، وساعد على ذلك تشجيع بعض الخلفاء، وطلبهم للخصيان ومغالاتهم بهم حتى سخر الشعراء منهم: (٥)

(١) الأصفهاني : الأغاني ٧١/٢١.

(٢) السابق ٧٨/٢١.

(٣) الجاحظ : رسائل الجاحظ (رسالة القيان) ١٧٢/٢ - ١٧٥.

(٤) المتنبى : ديوان المتنبى ٤٠/٢.

(٥) الطبري : تاريخ الطبري ٥٨٦/٨.

احمدوا الله جميعا
ثم قولوا لا تملوا
يا جميع المسلمين
ربنا الق الامينا
صير الخصيان حتى
صير التتعين دينا
فاقتدى الناس جميعا
بامير المؤمنين

وازداد رفض تلك التقاليد بازدياد شيوعها في القرن الرابع الهجري، بل ان تلك التقاليد حوربت لانها أفضت الى اللواط الذي انتشر في القرن الرابع الهجري ^(١) حتى تغزل بعض الشعراء بالغلمان أمثال السلمي ^(٢) والخيزراني الذي يقول: ^(٣)

وددت اني بكفه قلم
ياخذني مرة ويلثمني
أو أنني مدة على قلمه
إن علفت منه شعرة بفمه

ومما رفض من تقاليد المجتمع في القرن الرابع الهجري كثرة الاعياد التي احتفل الناس بها، متابعة لاهل البلاد الذين دخلوا الاسلام من الاعاجم ، اذ تركهم المسلمون يتصرفون في أمورهم الدينية من غير تدخل ، واشتركوا في الجانب الاجتماعي المسلي من تلك الاعياد. فشارك الناس في أعياد النصارى وأعياد القديسين في الأديرة التي كانت اماكن يجتمع فيها اهل البطالات وطلاب اللذات .

وقد استهجن كثير من الناس كثرة الاعياد، كعيد الشعانين ويوم خميس العدى، وعيد الفصح ، وعيد دير الثعالب ، عيد القديسه اشموني، وعيد بريارة وعيد رأس السنة الفارسية ، وعيد رأس السنة القبطية ، وعيد النيروز ، وعيد المهرجان، وعيد الكوسج وغيرها ^(٤) .

وزاد الناس على الاستهجان والاستغراب، رفضهم الاحتفاء بهذه الاعياد والمبالغة في الاحتفالات واتيان اللذائذ فيها والمسرات بعيدا عن تقاليد المجتمع الاسلامي في ذلك العصر .

* * * * *

وتبعاً للحديث عن التقاليد الاجتماعية لا بد من الاشارة الى تقاليد المجتمع الادبية، اذ اعتاد الشعراء افتتاح قصائدهم بالوقوف على الاطلال ، حتى رفض أبو نواس ذلك التقليد ، واستبدل بذلك الاستهلال بنعت الخمر وذكر النعيم والقصور والرياض وغيرها في مثل قوله ^(٥).

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند
كأسا إذ انحدرت في حلق شاربها
واشرب على الورد من حمراء كالورد
أجد ته حمرتها في العين والخد

(١) الثعالبى : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ٥٦

(٢) الثعالبى : بتيمة الدهر ٣٩٦/٢.

(٣) السابق ٣٦٧/٢.

(٤) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٨٢/٢ - ٢٩٧.

(٥) أبو نواس ، الحسن بن هانئ : (- ١٩٩ هـ) : ديوان أبي نواس ، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٣ م ، ٢٧ .

وقوله : (١)

دع الاطلال تسفيها الجنوب وتبكي عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا تحث بها النجبية والنجيب
ولا تأخذ عن الأعراب لهوا ولا عيشا فعيشهم جديب
فأطيب منه صافية شمول يطوف بكأسها ساق أريب

وكما رفض أبو نواس المقدمة الطللية في نهاية القرن الثاني الهجري، رفضها بعض الشعراء في القرن الرابع الهجري، ومن ذلك ما قاله أبو بكر محمد الخالدي، عندما طلب منه معارضة بيت حسان بن ثابت (٢)

انظر خليلي ببطن جلق هل تؤنس دون البلقاء من أحد

فقال : (٣)

لا وجفون تنوس في العقْد وحسن ثغر يلوح كالبرد
لا كنت ممن يضع أدمعه بين الأناسي والنسوي والوتد
أحسن من وقفة على ظل فقر وزجر العيرانة الأجْد
كأس مدام جلا المدير بها أم الليالي وجدة الأبد
نشر بها شعلة بلا حرق ونجتليها روحا بلا جسد

وقال من قصيدة أخرى (٤)

لاتظنن في بكاء النسوي والظنب ولا تحيي كتيب الحي من كئيب
ولا تجد بغمام للغميم ولا تسمح لسرب المها بالواكف السرب
ربع تعفى فأعفى من جوى وأسى قلبي وكان إلى اللذات منقلب
سيان بان خليط أو أقام به فاتما عامر البيداء كالخرب
أبهى وأجمل من وصف الجمال ومن إدمان ذكر هوى يهوي علي قتب
مد البنان إلى كأس على سكر ورفع صوت بتطريب على طرب
حمراء حين جلتهما الكأس نقطها مزاجها بدائسر من الحبيب

(١) أبو نواس : ديوان أبي نواس ، ١١ .

(٢) حسان بن ثابت الأنصاري (- ٥٠ هـ) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦١م ، ٦٦ .

(٣) الخالديان : ديوان الخالدين ، ٥٠ .

(٤) السابق : ٢٣-٢٤ .

وشايخ الخالدي في رفض المقدمة الطللية الشاعر كشاجم الرملي إذ يقول : (١)

لا كنت ممن يضيع أدمعه بين الأتافي والقدر والوتد
جانب سقط اللوى سقوط حيا يكسى به ثوب عيشة رغد

ولكن رفض الخالدي كان وليد فكر غير ثابت ومبدأ غير راسخ ، إذ يعاود افتتاح

قصائده بالاطلال كما في قصيدته الدالية (٢)

حيا الحيا دمن العقيق وإن عفت فيه عهود أحبة ومعاهد
وبكت بكاي على رباه غمائم يجنبهن بوارق ورواعد

مما يدل على أن رفضه لتقاليد شعراء العربية هبة ثارت ثم ما لبثت أن خمدت سريعا ،

كما كان من سلفه أبي نواس .

رابعا : رفض بعض الاتجاهات الاخلاقية .

استهوت الحياة اللاهية ، في القرن الرابع الهجري ، فئات من المجتمع هي بعض فئات الموسرين من الحكام ومن يحيط بهم ، وبعض فئات التجار ومن اليهم ، وتمكنت في تلك الحياة اتجاهات اخلاقية اقتضتها ظروف الناس الذين عاشوا أوضاع التردّي السياسي ، والاضطراب الاجتماعي ، والضيق الاقتصادي ، والقلق الفردي . وتمثلت في البعد عن الاطمئنان والهدوء النفسي ، فكان في تلك الحياة من القلق والتعب النفسي أضعاف ما فيها من اللذة والاستمتاع ، وكان الناس - لكثرة الضغوط النفسية - كانوا يفرون الى المتعة هروبا مما يملأ نفوسهم من قلق وخوف واضطراب ، وهذا ما عناه ابو الفتح البستي حين أشار إلى مرض الروح ومرض الجسد بقوله : (٣)

أرى الناس قد سنوا عيادة كل من به مرض والجسم يؤذى ويكلم
وقد عطلوا مرضى النفوس وأغفلوا حقوقهم والحق أولى وألزم
ولو أنصفوا عادوهم وترحموا عليهم فإن النفس أغلى وأكرم

وفر من تلك الحياة اللاهية فئات أخرى من الناس ، أثقلتهم الضغوط النفسية الناتجة عن متناقضات العصر ، وكان بإمكانهم الوصول إلى النهو بعلمهم وأدبهم ، ولكنهم آثروا العيش بجوار الفئة المهضومة يقاسون معهم ضيق العيش ومر الحياة ، يرقبون - رافضين - كثيرا مما

(١) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ١٤٧ .

(٢) الخالديان : ديوان الخالديين ٤٣ .

(٣) د. محمد مرسى الخولي : ابر الفتح البستي ٣٠٧ - ٣٠٨ .

تخلق به أهل زمانهم ، وما اتصف به من صفات مستهجنة ومستقبة ، فمالوا الى العزلة ، وعاشوا حياة الكفاف (١)

وكانت نفوس كثير من الشعراء تفيض الما وحزنا أمام متناقضات الحياة وتقلباتها ما يرونها فيها من مأس تتمثل في كثير من الاتجاهات الاخلاقية المرفوضة ، وفي التصنع والتظاهر بما ليس موجودا في الحقيقة (٢)

فقد يكتسي المرء خز الثياب ومن تحتها حالة مضنية

كمن يكتسي وجهه حمرة وعنته ورم في الرية

ولذا لم يحسن الشعراء الظن بالناس، ووقفوا منهم موقفا حذرا، لان الناس على خلاف ماتوقع الشعراء (٣)

واني منحت الناس محض مودتي فما منحوني غير أهل ومرحب

وجربت عمرا منهم فذمته ولو قلت : عمرو كلهم لم أكذب

وكل دني ظاهر النقص منهم يرى أنه فوق الهمام المحجب

بل ان الشعراء المعتدين بانفسهم الطامحين الى السؤود، حقدوا على الناس كافة، يحقرونهم ويذمونهم، ويدعون الى حربهم وقتلهم كما هو وارد في كثير من أشعار أبي الطيب المتنبّي.

ومواجهة للاتجاهات الاخلاقية المرفوضة ، مثل : الرداءة والندالة ، والذل والخضوع والهوان ، والجبن ، والكبر ، والغرور ، والمغالاة ، والجهل ، والغباء والغدر ، والخيانة ، والعقوق ، وخلف الوعد ، والظلم ، وايداء الناس ، والكذب ، والنفاق ، والخداع ، والبخل ، والتقتير ، والطمع والجشع ، والدناءة والسرقعة ، والحسد ، واللؤم ، وسوء الطباع ، وانتشار الفحش (قولاً وفعلاً) جاء الشعر مليئاً بالحكم حاضاً على الفضائل ، داعياً الى التمسك بالقيم النبيلة والاخلاق الفاضلة ، مادحاً ومعزراً الجيد منها ، رافضاً القبيح من تلك الاتجاهات.

رأى الشعراء في الرداءة موتاً محققاً للفرد والمجتمع ، ورأوا في ركون كثير من الناس إلى الضعف والندالة انهزاماً عن معركة بناء الامة ، في واقع يشوبه الفساد والاضطراب والتشرذم والتسلط ، ونادوا بالقوة طريقاً لاعلاء الحق ، وقانوناً يحكم علاقات الناس . ودعوا الى الطموح والعمل الجاد ، وعدم الاكتفاء بالقليل . ورفضوا الركود والركون الى الذل ، فالاقوياء هم الحاكمون ولا مكان للمستضعفين في ذلك المجتمع ، وعلى المرء تحقيق آماله وطموحاته ، ورفض كل ما يصمه بالعار والذل : (٤)

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٢٤/١.

(٢) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ٣٧٦.

(٣) ابن العديم : أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد هبة الله ابن العديم (- ٦٦٠ هـ) زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٤ م. : ١٥٦/١ ، وينظر ابن نياته السعدي : ديوان ابن نياته السعدي ٢٧٧.

(٤) المتنبّي : ديوان المتنبّي ١٠٧/٤.

تغرب لا مستعظما غير نفسه ولا قابلا إلا لخالقه حكما
ولا سالكا إلا فؤاد عساجة ولا واجدا إلا لمكرمة طعما
يقولون لي : ما أنت في كل بلدة وما تبغي ؟ ما ابتغي جل ان يسمى
وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأصعب من أن أجمع الجد والفهما
إذا قل عزمي عن مدى خوف بعده فأبعد شيء ممكن لم يجد عزما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فذهبي ويا نفس زيدي في كرائها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ويعم رفض المتنبي لأهل عصره، لتكامل نظرته إلى الأمور ، إذ يرى الرداءة أمرا عاما فاشيا في عصره وجيله، عصر الركود وجيل الضحالة فقل الفضلاء ، وأصبحوا نشازا في الانحطاط العام، وهم - إن وجدوا يشقون بعقولهم ، ويجني عليهم وبالاحباط والانكفاء على الذات: (١)

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن في جيل سواسية شر على الحر من سقم على بدن
حولي بكل مكان منهم خلق تخطي إذا جئت في استفهامها بمن
فقر الجهول بلا عقل الى أدب فقر الحمار بلا رأس الى بدن
لا أفتري بلدا إلا على غرر ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أم أملاكهم أحدا إلا أحق بضرب الرأس من وثن

ويقترن رفض رداءة الناس بالزهو والغرور في مقاطع من شعر المتنبي ، بغرض الاثارة والحماس كما في قوله: (٢)

إن أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافي وسام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وبلغ ولع المتنبي برفض الرذيلة ورداءة الناس وضعف همهم أن أستهل قصائده بالرفض والتمرد ، وجعله مطالعا في أول القصائد كالنسيب عند الشعراء الآخرين ، كما في قصيدته التي مطلعها: (٣)

أحساد أم سداس في أحاد لييلتنا المنوطة بالتناد

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٠٩/٤

(٢) السابق ٢٢٣/٢ - ٢٢٤.

(٣) نفسه ٣٥٣/١

وكما في قصيدته التي بدأها بقوله: (١)

فؤاد ما تسليه المسدام وعمر مثل ما تهب اللثام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

وينبع رفض المتنبي من معاناته ومن تجربته الذاتية وخبرته ، وكثرة مواجهته للناس ، وسبر أغوارهم ، ومعرفة حقائقهم ، فكثرت في شعره ، الحكمة الداعية إلى المجد والقوة ، المنفرة من الرداءة والدناءة والنذالة ، كما في قوله: (٢)

ولقد رأيت الحادثات فلا أرى يققا .. يميت ولا سوادا يعصم
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخوا لجهالة في الشقاوة ينعم
والناس قد نبذوا الحفاظ فمطلق ينسى الذي يولى وعاف يندم
لا يخدعك من عدو دمعته وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
يؤذي القليل من اللثام بطبعه من لا يقل كما يقل ويلوم
الظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم
ومن البلية عدل من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

ويتناهى رفض المتنبي كلما تسامت همته ، وطلبه المجد والسودد ، وترفعه عن الرداءة والنذالة ، وكل الصغائر التي تفسد أخلاق الإنسان. يقول: (٣)

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادي فيه وأن نتفاتا
غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
كل ما لم يكن من الصعب في الانفس سهل فيها إذا هو كاتا

ويقترن رفض المتنبي بالعجب والاستهجان لكل من يستطيع الارتقاء وتحصيل المجد ، ولكن نقاعسه وضعفه ورداءته تقعد به عن طلب المعالي ، قائلا: (٤)

ولا أمسي لأهل البخل ضيفا وليس قرى سوى مخ النعام
فلما صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأقسام

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٦٩/٤ .

(٢) السابق ١٢٤/٤ - ١٢٥ ، واليقق : بياض الشعر .

(٣) نفسه ٢٤١/٤ .

(٤) نفسه ١٤٤/٤ - ١٤٥ .

وأنف من أخي لأبي وأمي إذا لم أجده من الكرام
عجبت لمن له قد وحد وينبو نبوة القضم الكهام
ومن يجد الطريق إلى المعالي فلا يذر المطي بلا سنام
ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام
ويتخذ أبو العلاء المعري الفخر سبيلاً إلى رفض الرداءة والنذالة ، ويعلن أن همته
عالية في السماء ، ومنزلتها أرفع من البدر والجوزاء ، وينعى على كل متخاذل نذل تقاعسه
ورداءته ، وينفي عن نفسه الذل والخمول، قائلاً: (١)

أفوق البدر يوضع لي مهاد أم الجوزاء تحت يدي وساد
قتعت فخلت أن النجم دوني وسيان التقتع والجهاد
رويدك أيها العاوي ورائسي لتخبرني متى نطق الجماد
سفاه ذاد عنك الناس حلم وغي فيه منفعة رشاد
أأخمل والنباهة في لفظ وأقتر والقناعة لي عتاد

ولشدة نعمة الشعراء على ضعف هم الناس، ورداءتهم، وسوء محتدهم ، واتصاف كثير
منهم بتلك الاخلاق، بالغ بعضهم في التعميم ، وجعل تلك الصفة سمة للناس كلهم في زمنه،
فرفض الناس جميعهم ، لأنه لم ير فيهم ما جداً واحداً وكانما الناس كلهم اندال اشرار ليس فيهم
من تجد عنده شيئاً من الهمة يرضي النفس، بل كلهم يملأون القلب حسرة ولوعة، كما في بيتي
الفضل بن إسماعيل التميمي الجرجاني: (٢)

فما في زمانك ما جد لو قد تأملت الشواهد
فا شهد بصدق مقالتي أولا فكذبني بواحد
وكما في بيتي ابن لنكك الذي جعل أهل البصرة خشياً مسنداً قائلاً: (٣)
ليس في البصرة حر لا، ولا فيها جواد
إنما البصرة أنشاب ونخيل وسماد

ويرفض ابن نباته السعدي رداءة الناس بفخره عليهم، فهو وإن حاربته الأيام ووقفت
حائلاً بينه وبين مبتغاه، إلا أنه ينسب إلى نفسه المجد والقوة والحزم والعزم والصلابة في
مقارعة الخطوب قائلاً: (٤)

(١) أبو العلاء المعري : سقط الزند ٢٨١/١ - ٢٨٦.

(٢) الباخري ، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي الباخري (- ٤٦٧ هـ) : دمية القصر وعصرة أهل
العصر ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، نشر دار الفكر العربي ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧١ م ، ٢/٢٨.

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٧/٢.

(٤) السابق : ٣٨٥/٢ - ٣٨٦.

واستفحل المجد حتى صار من شيمي
وحكمة الفلك الدوار من حكمي
كما الفصاحة في الأقوال من كلمي
صلوا لوجهي واشتاقوا ثرى قدمي
نيلا أدق من المعدوم في العدم
فرد كفي وأوما أن يسد فمي
أنا الذي ماله خل سوى الندم
تجود من دم الفرسان بالديم

ولهذا فإنه (ابن نباته) يرفض ما يغري الناسك، ولا يستطيع رده، فإذا لم يستطع الناسك
غض طرفه عن الرذيلة، فكيف بالشاعر إذن؟! (١)

وإني لأغضي الطرف عن كل منظر
وما ذاك من جهل به، غير أنني
ويرفض ابن نباته السعدي التظاهر بالمجد والعلو وطيب المحتد، إن كانت الحقيقة غير ذلك،
فالتخلق غير الأخلاق، ولا ينفع الإنسان التصنع والتظاهر بما ليس فيه: (٢)

وهل ينفع الفتيان حسن جسومهم
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى
ولذا يوصي أبو الفتح البستي باختيار الأصل الماجد واتخاذ صديقا، ورفض الأندال،
والابتعاد عنهم، قائلا: (٣)

إذا ما اصطفت امرءا فليكن
فنذل الرجال كنذل النبات
كريم النجار شريف النسب
فلا للثمار ولا للحطب

ويشكو الشريف الرضي - حزينا - حاله وقله تحصيله، ويرفض اتجاهات محيطه
الأخلاقية، ويعلن أنه وإن لم تعل منزلته فما ذاك عن ضعف همته ورداءة معدنه وقله حيلته،
بل لما لاقاه من عنت وضيم، ومحاربة الناس له والتخلي عنه: (٤)

وكان صراع الشريف الرضي مع نفسه عنيفا،، إذ رأى في نفسه خطرا داهما،
وهما مقيما، وعدوا لدودا: (٥)

والقلب أعظم ما يبلى به الرجل
النفس أدنى عدو أنت حاذره

(١) الثعالبي: يقيمة الدهر، ٣٨٧/٢.

(٢) نفسه ٣٨٧/٢.

(٣) - د. محمد موسى الخولي: أبو الفتح البستي ٢٢٦.

(٤) - الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي ١٢٥/١ - ١٢٧.

(٥) السابق ١٧٩/٢.

وحينما كان الرضى يعقد موازنه بين عدواة الناس وعدواة النفس ، كان يرى أن نفسه أكثر عدواة له من الناس جميعا :^(١)

أروم انتصافي في رجال أباعد ونفسي أعدى لي من الناس أجمعا
إذا لم تكن نفس الفتى من صديقه فلا يحدثن في خلة الدهر مطمعا

وانكفاً قلة من الشعراء على أنفسهم ، ويئسوا من إصلاح الوضع لما رأوه من تردي بعض الإتجاهات الأخلاقية وسقوطها في مجتمعهم ، فأعلن الأستاذ أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو بأسه قائلاً :^(٢)

كيف أرجو السماح أو أبتغيه في زمان عم البغاء بنيه
يولد التوأمين فيه وكل منهما ممسك بأير أخيه

وبخلاف القلة اليانسة ، أعلنت فئة ثورتها وتمردتها على مجتمعها ، ولم ترض الرداءة ديدنا لها ، ورفعت أصواتها معلنة الحرب :^(٣)

أفكر في معاقرة المنايا وقود الخليل مشرفة الهوادي
زعيماً للقتل الخطي عزمسي بسفك دم الخواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني وكم هذا التماذي في التماذي
وشغل النفس عن طلب المعالي ببيع الشعر في سوق الكساد

ورفض الشعراء الذل والهوان ، ونهوا عن الخضوع والجبن ، وما كان ذلك إلا لشجاعتهم وأنفتهم وعلو همهم وهي أخلاق تتجلى في أقوال الأعزة وأفعالهم ، وأدرك هؤلاء الشعراء - بثاقب بصيرتهم وشمولية رؤيتهم وثراء تجربتهم وعززة معرفتهم - إن الحياة صراع مستمر بين الناس ، وأن الإنسان يميل - بطبيعته إلى الشر ، وأن القيم الاجتماعية ليست سوى حيل يحتال بها بعض الناس لدفع أذى أو نيل مأرب ، فنذروا أنفسهم للمجابهة والتعالي ، في عصر لا يمكن للحر فيه إلا أن يكون متمرداً على قيم المجتمع واتجاهات أفراد الأخلاقية ومفاهيمهم المقلوبة ، فالشك في كل شيء ، كان أبرز صفات العالم والإنسان المتقدم ، والشاعر المتمرد ، وتكون النتيجة خروجاً تاماً من دائرة الانتماء والقبول إلى دائرة الرفض والتمرد .

واستمد كثير من الشعراء من تلك المبادئ شعراً وقواعد لسلوكهم ، صاغوها بأساليب مختلفة ، وألحوا عليها في كثير من قصائدهم ، كل ها ترسم خط سلوكهم الرفض للذل والهوان :^(٤)

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ، ٦٦٤/٢ .

(٢) النعالي : تنمية اليتيمة ١/١٤٠ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ١/٣٥٥ .

(٤) السابق ١/٢٠٩ .

من اقتضى بسوى الهندي حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم
ولم تزل قلة الانصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم
لا تشكون الى خلق فتشمته شكوى الجريح الى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره ولا يغرنك منهم ثغر مبتسم

وزيادة في التأكيد على رفض الذل والهوان، يدعم المتنبي ذلك الرفض بحكم منثوره في شعره، يعلن بعدها تمرده وثورة على كل هي ن وذليل قائلاً: (١)

لا افتخار إلا لا يضام مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزما ما قرض المرء فيه ليس هما ما عاق عنه الظلام
وإحتمال الأذى ورؤية جانيه غداء تضوى به الأجسام رب عيش أخف منه الحمام
ذل من يغط الذليل بعيش حجة لا جيء إليها اللئام
كل حلم أتى بغير اقتدار ما لجرح بميت إيلام
من يهن يسهل الهوان عليه ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذرعاً واستكرمتني اللئام
واقفا تحت أخمصي قدر نفسي واقفا تحت أخمصي الأنام
أقراراً أذ فوق شرار ومراماً أبغي وظلمي يرام

وإذا كان المتنبي يرفض اتخاذ الحلم قناعاً يخفي اللئام وراءه ذلهم وهوانهم، بعجزهم وعدم قدرتهم على المواجهة، فإنه يرى أن الإنسان إن لم يكن ذنباً أكلته الذئاب: (٢)
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذاعفة فلعله لا يظلم
وهو لا يقرر مبدأ نظرياً ولكنه يصور - رافضاً - واقعا عاناه ولمسه
وتأذى منه بالاحتكاك والممارسة والتعامل مع الناس، فوجد أن من لا يظلم الناس يظلم.
وبلغ الرفض بالمتنبي مبلغاً جعله يؤكد أن الرحمة غفلة، وأن المودة حيلة، ومن يرحم
الناس يظلم نفسه: (٣)

لا يخدعك من عدو دمعة وارحم شبابيك من عدو ترحم
والذل يظهر في الذليل مودة وأود منه لمن يود الأرقم

(١) المتنبي: ديوان المتنبي ٩٢/٤ - ٩٥.

(٢) السابق ١٢٥/٤.

(٣) نفسه ١٢٥/٤.

ولذا دعا الى صون الكرامة بالدم لا بالحلم: (١)

حتى يراق على جوانبه الدم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

وحض على القوة والاقدام في طلب المبتغى: (٢)

من أطاق التماس شيء غلابا

واغتصابا لم يلتبس به سؤالا

ويبنى الرفض - عند المتنبى - على أسس أحكمها تجربة الشاعر وكثرة مخالطته الناس،

وفلسفته في الحياة، وسبره أغوار النفس الانسانية، وخوضه في أعماقها . فإذا كان مراد النفوس

أصغر من أن نتعادي فيه وأن نتقانى ، وإذا لم يكن من الموت بد ، فلا بد من المغامرة ،

ورفض الذل ، ولا بد من طلب المعالي: (٣)

إذا غامرت في شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر صغير

كطعم الموت في أمر عظيم

يوى الجبناء أن العجز عقل

وتلك خديعة الطبع اللئيم

ولم يكف المتنبى برفض الذل والهوان ، بل استنهض الهمم، وحاول دفع الناس إلى

المجابهة، وأكد - جهارا - الانقلاب ضد مظاهر الفساد في المجتمع وفي الافراد ، من خضوع

وتخاذل وجبن وهوان وتقاعس عن درء الاخطار، فظهر في شعره ملامح ثورة وتمرد على

مجتمعه ، فدعا إلى الثورة: (٤)

ولا تحسبن المجد زقا وقينة

فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى

لك الهبوات السود والعسكر المجد

وصرح بنيته على التمرد والمواجهة: (٥)

ولا بد من يوم أغر محجل

يطول إستماعي بعده للنوادر

يهون على مثلي إذا رام حاجة

وقوع العوالي دونها والقواضب

كثير حياة المرء مثل قليلها

يزول وباقي عمره مثل ذاهب

إليك فني لست ممن إذا أتقى

عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

ويرفض أبو فراس الحمداني الذل ، ويعلن الحرب على كل ذليل جبان: (٦)

ومعود للكر في حمس الوغى

غادرته والفر من عاداته

حمل القناة على أغر سميـدع

دخل ما بين الفتى وقتاته

(١) المتنبى: ديوان المتنبى ١٢٥/٤.

(٢) السابق ١٤٧/٤.

(٣) نفسه ١١٩/٤ - ١٢٠.

(٤) نفسه ١٤٩/٢.

(٥) نفسه ١٥٠/١.

(٦) أبو فراس الحمداني: ديوان أبي فراس الحمداني ٦١.

لا أطلب الرزق الذليل مناله
فوت الهوان أذل من مقتاته
علقت بنات الدهر تطرق ساحتي
لما فضلت بنيه في حالته
فالحرب ترميني ببيض رجالها
والدهر يطرقني بسود بناته

ويعد (أبو فراس) الموت خيرا من الذل: (١)

قد عذب الموت بأفواهنا
إنا إلى الله لما نابنا
والموت خير من مقام الذليل
وفي سبيل الله خير سبيل

ويتصف أبو العلاء المعري بالعفاف والاقدام والحزم من أجل العز والمجد، ويرتفع-
في أفعاله- عن الصغائر من الوشائيات، ويعد بالعمل الجاد، رافضا الهوان، مبتعدا عن
القشور قائلا: (٢)

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل
أعندي وقد مارست كلخفية
إذا هبت النكباء بيني وبينكم
تعد ذنوبي عند قوم كثيرة
وإني وإن كنت الأخير زماته
وإن كان في لبس الفتى شرف له
عفاف وإقدام وحزم ونائل
يصدق واش أو يخيب سائل
فأهون شيء ما تقول العوائل
ولا ذنب لي إلا العلا والفواضل
لأت بما لم تستطعه الأوائل
فما السيف إلا غمده والحمائل

ويصدر ابن نباتة السعدي - في رفضه الذل عن حقيقة جوهرة ومعدنه الكريم، فهو
فاضل بالفطرة، والذل ثقيل عليه لا بد من الابتعاد عنه ومحاربته: (٣)

وإنا البصير بكل علم غامض
والذل أثقل من جبال تهامة
عندي وأعذب منه سم الأرقم
وإذا رأيت مذلة فأنا العمي

ويرفض ابن نباتة- أيضا - الفقر المقترن بالذل، والمخادعين الأذلة، داعيا إلى طلب

المعالي، والعيش العزيز أو الموت الكريم، شاكيا فساد قيم مجتمعه: (٤)

طلاب المعالي للمنون صديق
تسربل ثياب الموت أو حلل الغنى
وما الفقر إلا للمذلة صاحب
وتقبح منهم أوجة في عقولنا
وأصغر عيب في زماتك أنه
وطول الأماتي للنفوس عشيق
تعش ماجدا أو تعتلقك علوق
وما الناس إلا للغني صديق
وتحسن في أبصارنا وتروق
به العلم جهل والعفاف فسوق

(١) أبو فراس الحمداني: ديوانه، ٢٤٦.

(٢) أبو العلاء المعري: سقط الزند ٥١٩/٢.

(٣) الثعالبي: (يتيمة الدهر ٣٨٦/٢).

(٤) ابن نباتة السعدي: ديوان ابن نباتة السعدي ١٩٤/١ - ١٩٨.

وكيف يسر المرء فيه بمطلب
جعلنا سيوف الهند مأوى نفوسنا
إذا لم تكن هذي الحياة عزيزة
ألا إن خوف الموت مرر طعمه
وإنك لو تستشعر العيش في الردى
ولذا فإن ابن نباته يفتدي كل عزيز ماجد بأبيه وأمه، من منطلق رفضه الذل والضميم، ويرفض الحياة ذليلاً هيناً - وبفضل أن يسقى - عزيزاً - كأس الحنظل: (١)

بأبي وأمي كل ذي
نفس تعاف الضيم مره
يرضى بأن يرد الردى
فيميتها ويشيد ذكره
وفتي يعرض في صيامة عرضه للرمح نحــــره
صفوا النعيم تشوبه
يا حبذا محض السرو
ولو أتى في العيش مره
ويرفض الشريف الرضي الذل والهوان، لأن الموت خير من الحياة المقرونة بهما: (٢)
ألا لا أعد العيش عيشاً مع الأذى
لأن رفيق الذل حي كميست
تخوفني بالموت والموت راحة
لمن سل عزمي قبله مثل همتي
وإذا كان الجبن والذل بخلاً ، فإنه - وهو الذي يتصف بالكرم والشجاعة- سيبدل نفسه
رخصة في طلب المعالي، فلا بد دون الشهد من أبر النحل: (٣)

سأبدل دون العز أكرم مهجة
إذا قامت الحرب العوان على رجل
وما ذاك أن النفس غير نفسه
ولكن رأيت الجبن ضرباً من البخل
وما المكرهون السميرية في الطلى
بأشجع ممن يكره المال بالبذل
ويربأ القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بنفسه عن الذل والهوان فكانت نفسه اييه
شديدة الالباء، لا يهينها ولا يذلها فدون الذل والهوان الموت، ويرفض التوصل الى الغنى
بالخضوع ، فقيم يذل الانسان ويهون؟ أفي سبيل المال والغنى؟ بؤسا لهما، وله إن هو اقترب
في نفسه هذه الجنابة الكبرى ، وفي ذلك يقول: (٤)

على مهجتي تجني الحوادث والدهر
كأني ألقى كل يوم ينوبني
فأما اصطباري فهو ممتنع وعر
بذنب وما ذنبي سوى أنني حر

(١) ابن نباته السعدي : ديوانه ، ٤١/٢ .

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٢٠٩/١ .

(٣) السابق ٢٣٩/٢

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٤-٢٣/٤

وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وبيني وبين المال بابان حرما
ويستشعر القاضي الجرجاني كرامته، ويصور نفس العالم الحر الذي يرفض الهوان،
ويأبى أن يروى من منهل قد يصيبه منه ما يؤدي نفسه ، ويزوري الطمع المشين المقرون
بالذل ، قائلا :^(١)

يقولون لي فيك انقباض وإنما
وما زلت منحازا بعرضي جانبيا
إذا قيل هذا مشرب قلت: قد أرى
ولم أقض حق العلم إن كان كلما
ولم ابتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة
ولو ان اهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهاتوه فهان ودنسوا
ويرفض البيغاء تحمل المنن، لأنها- في نظره- ذل وهوان، والموت خير من المنن، وإذا
كان المرء يقبل - ذليلا - القليل ، دون محاولة وعمل متواصل، فلم يعتب على الزمن، ويذمه،
ويشتكي منه ؟:^(٢)

ما الذل إلا تحمل المنن
إذا اقتصرنا على اليسير فما
ويتفق أبو الفتح البستي مع البيغاء على أن كثرة إظهار الحاجات والتذلل في طلبها ذل
وهوان، وعلى المرء مجانية ذلك والتزام العفة وعدم سؤال الناس الحافا:^(٣)

دعني فلن أخلق ديباجتي
على أن ألزم بيتي وأن
منزلي يحفظها منزلي
ولست أبدي للورى حاجتي
أرضى بما يحضر من باجتي
وباجتي تحفظ ديباجتي

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ، ٢٤/٤

(٢) البيغاء ، عبد الواحد بن نصر المخرومي البيغاء (٣٩٨هـ).

شعر البيغاء ، دراسة وتحقيق د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة والنشر والترجمة،
قطر، الدوحة، ١٩٨٣م، ١٦٦.

وينظر:

القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس وشذذ الذاهن
والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي، مراجعة د. عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر،
القاهرة ١٩٩٢م ، ١٧٢/١

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٣٢/٤/٤

من هنا، جاءت الدعوة الى الصبر وإظهار التجلد والابتعاد عن التذلل في قول أبي بكر الخوارزمي: (١)

عليك بإظهار التجلد للعدى ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
ألسنت ترى الريحان يشتم ناضرا ويطرح في الميضا إذا ما تغيرا
ويرفض بعض شعراء القرن الرابع الهجري ، الكبر والغرور والمغالاة ، فهي مما يمج ويكره من اتجاهات الناس الاخلاقية في ذلك الزمن، يقول الخوارزمي: (٢)

كفى حزنا أن لا صديق ولا أخ يفيد غني ألا يداخله كبر
فلانال فوق القوت مثقال ذرة صديق ولا أوفى على عسرة يسر
وما ذاك إلا رغبة في وصاله وإلا حذار أن يلزم به العذر
ويقدر الخوارزمي خلق الاعتدال والتواضع في قوله: (٣)

لا تفرطن في حدة أعملتها فيكل ذاك الحد منك وتفتشلا
أو ما تري الصمصام والسكين إن زادا علي حد الصقال تفللا
وينهي أبو الفتح البستي عن التكبر واحتقار الناس، فالبعوضة تدمي مقلة الأسد، وتجرح - على صغر حجمها - الفيل: (٤)

لا يستخفن الفتى بعدوه أبدا وإن كان العدو ضئيلا
إن القذى يؤذي العيون قليلا ولربما جرح البعوض الفيل
ويرفض ابن الحجاج استصغار العتاب ، تكبرا وترفعنا عن الناس، ويضرب مثلا البعوض الذي يؤثر في الفيل: (٥)

إن كنت تحتقر العتاب تكبرا فالفيل يعمل فيه قرص البرغش
ولذا يدعو الخوارزمي الى احترام الناس وتقديرهم ، والنهي عن ازدرائهم والتكبر عليهم: (٦)

لما لا أجاتس دهري في تقلبه لم لا أبادل إنسانا بإنسان
لم لا أقارض ما قد قاله حسن وصلا بوصل وهجرانا بهجران

(١) الثعالبي: نيتمة الدهر ٢٤٠/٤

(٢) الوطواط : أبو أسحق برهان الدين بن يحيى بن علي الكتبي (- ٧١٨هـ)

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ، المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٨هـ - ٩٥.

(٣) الثعالبي: نيتمة الدهر ٢٤١/٤.

(٤) السابق ٣٣٣/٤.

(٥) نفسه ٥١/٣.

(٦) الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أبيك (- ٧٦٤هـ) : تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون ، دار الفكر العربي والمعدني ، (١٩٦٩م ، ٣١١.

وأكد الشعراء في القرن الرابع الهجري سنن المجتمع في رفض الجهل والغباء، ونادوا برفع لواء العقل والاعتماد عليه، وصيانتَه ، في زمن انقلبت فيه الموازين، وتغيرت فيه الأوضاع، فالعقل في المقام الأول في قول المتنبي: (١).

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
وإذا ما أجمع العقل والشجاعة في نفس الحر الأبّي كانا رأس ماله الوحيد، بهما يشق طريقه ويسود: (٢).

فإذا هما إجتماعا لنفس حرة بلغت من الغباء كل مكان
ويظهر الشعراء الجهل عدوا خصيما تسبب في نكبات العصر، وأودى بالمجتمع الى المهالك ، ويرفضون - ناقلين - جهل الرؤساء خاصة لأنه أكثر ضررا وأشد إيلاما كما في قول ابن لنكك: (٣).

لغنم جميعا من وجود لبلدة تكنفهم جهل ولؤم فأفرطاً
أراكم تعينون اللئام وإنني أراكم بطرق اللؤم أهدى من القطا
وإذا ما استطاع بعض الجاهلين الوصول الى الحكام ومنادمتهم والتأثير عليهم ، فإن العاقلين لا يخشون مخاطبة الملوك ، ودعوتهم الى إبعاد المتسلقين ، وكشف حقيقة الجاهلين ووجوب رفضهم كما في مخاطبة المتنبي سيف الدولة (٤).

أذا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل
أقي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير بطاول
لساتي بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأعجب من ناداك من لا تجيبه وأغيط من عاداك من لا تشاكل
وما النية طبي فيهم غير أنني بغيض الي الجاهل المتعاقل
ويضيق ابن لنكك وابنه ذرعا بالجاهلين ، ويرفضان التعايش مع فئة الأغبياء ويعد انهم عارا على البشرية ، يقول الأب (٥)

وعصبة لما توسطتهم
كانهم من سوء أفهامهم
يضحك ابليس اذا زارهم
صارت علي الأرض كالخاتم
لم يخرجوا بعد الى العالم
لأنهم عار على آدم

(١) المتنبي: ديوان المتنبي ١٧٤/٤

(٢) السابق ١٧٤/٤

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٠/٢

(٤) المتنبي: ديوان المتنبي ١١٧/٣

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٧/٢ - ٣٥٨.

ويقول الأبن (١)

لا تصلح الأرض ولا تستوي
من قال للحرث خلقتم فلم
إلا بكم يا بقر العالم
يكذب عليكم لا ولم يأتكم
ما أنتم عار على آدم
لأنكم غير بني آدم

وقد يمتلك اليأس نفوس الشعراء ، فيجلدون ذاتهم ، ينقلبون على قيسم مجتمعهم ، ويتحولون عن مبادئهم ، لما يرونه من مفارقات عجيبة في أزمانهم فالحياة تقبل في كثير من الأحيان على الجاهل ، وتدبر عن العاقل .. وما هي إلا محنة يمتحن بها ذور البصائر ، وهم في كل ما يرونه من اختلال واضطراب لا يطيقون تلك النواميس ، فتتطلق من أفواههم كلمات اليأس والقنوط ، وإنما هي وليدة لحظة تملك الشر فيها نفوسهم وهزت الصدمة عقولهم ، فغلب عليهم القنوط ، فأتوا ما لم يعهد عنهم ، دليلاً على عمق حزنهم وشديد معاناتهم فتأخذهم سورة الغضب ناقلين على البشر وعلى الزمان : (٢)

تصفو الحياة لجاهل أو غافل
ولمن يغالط في الحقائق نفسه
وما يصحها طلب المحال فتطمع
من أن تعيشهم وقدرك أرفع
وجه له من كل قبح برقع
قبحاً لوجهك يا زمان فاتمه

ويتحول رفض ابن لنكك إلى انقلاب على المبادئ ، ويدعو سامعه إلى السعاية والمصافعة والتلاعب والاحتيال ، لأنها طريق الوصول في مجتمع سادت فيه قيم الباطل ، وتحكم فيه الجهال ، وغاب عنه التعقل والحكمة: (٣)

يا طالبا بالعلم حظا مسعدا
إنفاق علم في زمان جهالة
كن ساعيا ومصافعا ومضارطا
أو ما رأيت ملوك عصرك أصبحوا
أشباه الحمير بحكمة
في ذا الزمان رأيت رأي مخرنق
ترجو ودهر عمى وسخف مطبق
تنل الرغائب في الزمان وتنفق
يتجملون بكل قاص أحملا تلق
موة عليهم ما قدرت ومخرق

ومع نقمة الشعراء على الجبال والجاهلين ، فإنهم لم ينسوا بعض الظواهر الإجتماعية المتولدة عنه ، فكما ، رفضوا مظاهر الجهل وانتقدوها ، حذروا من الثرثرة وأخطارها كما في قول الخبز أرزي : (٤)

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٨-٣٥٧/٢.

(٢) المتنبي ديوان المتنبي ٢٦٨/٢.

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٠/٢.

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدياء ٢٢١/١٩.

إذا ما لسان أكثر هــذره فذاك لسان بالبلاء موكل
إذا شئت أن تحيا عزيزا مسلما فدير وميز ما تقول وتفعل

ورفض كثير من شعراء القرن الرابع الهجري الغدر والخيانة والعقوق وخلف الوعد ،
وأبانوا ضررها على المجتمع . وأكثروا من فخرهم بالوفاء والصدق والإحسان وحفظ الحقوق ،
وأشاروا الى أثر الاتجاهين في حياة الأفراد والأمم .

ويتخذ بعض الشعراء النصيح والإرشاد طريقا يسلكه لإصلاح المجتمع ، قبل أن ينغمس
الفرد فيما فيه أهل زمانه ، وهم بذلك يرفضون ما ينهون عنه ويدعون الى اجتنابه ، يقول أبو
الفتح البستي :

إذا اتخذت أخا فاسبر خلاقه فإن ذا الحزم والتدبير من سبرا
ولا تعول على شخص له عمم وصورة ذات حسن تبهر القمرا
فكم فتى راق منه ظاهر حسن وكان باطنه ضد الذي ظهرا
أعدته بصروف الدهر مدخرا فكان في السبك والتحقيق مدخرا

ويدعو البستي الى الوفاء ، ناهيا عن خلف الوعد فمن لم يف كان كالشجر الذي لا
يثمر لا فائدة منه : (١)

توق خلافا إن سمحت بموعد لتسلم من هجو الورى وتعافى
فلو أثمر الصفصاف من بعد نوره وإيراقه ما لقبوه خلافا

ويرفض البستي جفاء الناس له ، ويؤلمه أن يرى الناس ينفضون عنه عقب غزله بعد
أن كانوا يخطبون وده ويتقربون اليه ، وفي ذلك يقول : (٢)

عفاء على هذا الزمان فإتـه زمان عقوق لا زمان حقوق
فكل رفيق فيه غير مرافق وكل صديق فيه غير صدوق

ورغم كثرة أصدقاء أبي نصر الروز بازي ، لم يجد من يطعمه رغيفا وقت حاجة ، يقول -
رافضا - عدم وفاء أصدقائه : (٣)

لي خمسون صديقا بين قاض وشريف
وامير ووزير وفقه وظريف
فاذا احتجت اليهم لم يفولي برغيف

(١) الثعالبي : نيتمة الدهر ٣٢٨/٤ .

(٢) السابق ٣٣١/٤ .

(٣) نفسه : ٣٢٨/٤ .

ويطلب أبو الفتح المظفر بن الحسن الدليغاني من ممدوحة قتل الغادرين لانهم افسدوا الزمان وآذوا الناس: (١)

فسد الزمان فما ترى	إلا ذنابا أو ذبابا
هذا يصول فإن يصب	لم يأل عقرا وانتهايا
ويحوم ذاك على آذاك	فلا تزال به عصابا
فابسط حسامك في الذناب	فلا تدع ظفرا ونابا
واصبب على الذبان من	عذبات مفزعك العذابا

ويشكو أبو سهل بكر بن عبد العزيز النيلي غدر الأصدقاء وخيانتهم ، ويرفض هذا الإتجاه الأخلاقي ، ويفضل قطيعة الناس على وصالهم ، لما رأى من قلة وفائهم وغدرهم (٢) .

رجوت دهرًا طويلًا في التماس أخ	يرعى ودادي إذا ذو خلة خانا
فكم ألفت وكم آخيت غير أخ	وكم تبدلت بالإخوان إخوانا
فما زكي لي على الأيام ذو ثقة	ولا رعى أحد ودي ولا صانا
فقلت للنفس لما عز مطلبها	بالله لا تألفي ما عشت إنسانا

ويمائل قول أبي سهل في شكوى الأصدقاء ورفض غدرهم ، قول ابن الحجاج: (٣)

إني بليت بأقوام مواعدهم	تزيدني فوق ما ألقاه من محن
ومن يذق لسعة الأفعى وإن سلمت	منها حشاشته يفزع من الرسن

ويصب الخباز البلدي جام غضبه على الغادرين - رافضا - نفاقهم ورياءهم: (٤)

حوشيت من صبحه خو ان	يأتي من الغدر بألوان
ولعنة الله على كل من	له لسانان ووجهان

ويتابع أبو هلال العسكري من أبقن أن المستحيل ثلاثة ، الغول والعنقاء والخل الوفي ،

ويقوده يأسه من وفاء إخوانه وأصدقائه الى القول: (٥)

ألا إنما أوى وعنقاء مغرب	وعرس وإخوان الصفاء سواء
--------------------------	-------------------------

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٨٥/٢ .

(٢) نفسه ٤٣٠/٤ .

(٣) نفسه ٥٣/٣ .

(٤) أبو حيان التوحيدي ، محمد بن العباس التوحيدي (- ٤١٢هـ) = البصائر والذخائر عني بتحقيقه والتعليق عليه . إبراهيم الكيلاني ، مطبعة الانشاء ، دمشق ، ١٩٦٤م ، ٨٢/١ وينظر :

الخباز البلدي ، أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان الخباز البلدي . كان حيا قبل ٣٨٠هـ : شعر الخباز البلدي ، جمع وتحقيق صبيح رديف ، مطبعة الجامعة ، بغداد ، ١٩٥٣م ، ٣٦ .

(٥) العسكري ، أبو الهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (٣٥٠ هـ) : شعر أبي هلال العسكري ، جمع وتحقيق ودراسة د . محسن غياض ، منشورات عويدات ، مطبعة الوطن ، بيروت ١٩٧٥م ، ٥٥ .

ويقرن المتنبي رفض الغدر وخيانة الأصدقاء بوجوب حذر الناس والإحتراس منهم: (١)

هون على بصر ما شق منظره فإتما يقظات العين كالحلم
وكن على حذر للناس تستره ولا يغررك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة وأعوز الصدق في الأخبار والقسم
ويبسط مهيار الديلمي تجربته وأهل زمانه ، ويطنب في سرده ما لاقاه منهم من غدر
وخيانة ، وقلة وفاء حتى انقلب أمنه خوفاً ، يقول: (٢)

إذا ذهب الوفاء من الزمان فكيف يعاب بالغدر الغواني
نسماح دهرنا العاصي علينا ونطلب طاعة الحدق الحسان
ونرجو الأمن حيث الأمن خوف ونحن نخاف في دار الأمان
حبيبك من بني هذي الليالي هما من طينة متصلصلان
تقلب لي صفاة أخي خمالي نكرت تقلبا في غصن بسان
واسلمني الصديق أخا وسيفا فكيف بنصر مختضب البنان
أرى الأخوان حولي ملء عيني وألقى الحادثات بغير ثاني
وافتقد الأحبة ثم أرضى كراها بالوقوف على المغاني
أقلني يا زمان غلاط ظني بأهلك فهو أبرح ما دهاني
ظهرت بآيتي في غير قومي ولم أنظر بمعجزها أواني
أرى صورا وشارات حسانا مصايد للطماعة والأمانني
فأستذري بظلم يسعسي وأستروي غماما ما سقاني
وذي قلبين : قاس يوم أشكو وآخر عنده بعض الليان
صبرت على تلون شيمتيه حمولا في البعاد وفي التداني
قد اصططح الرجال على التجافي وقد نسي التعاطف والتحاني

ولهذا يحذر مهيار الديلمي من أذى الناس ، وينصح باعتزالهم: (٣)

فلا تغررك السنة رطاب بطائنهن أكباد صواري
وعش إما قرين أخ وفي أمين الغيب أو عيش الوحاد
فباني بعد تجريبي لأمر أنست - ولا أغشك - باتفرادي

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٦٢/٤

(٢) مهيار الديلمي: ديوان مهيار الديلمي ١٥٥/٤ - ١٥٦.

(٣) السابق : ٢٥٦/١.

ويلهج لسان أبي فراس الحمداني بالوفاء ويكثر من ذكره في شعره ويرفض الغدر والخيانة ، ويعلن أنه لن يرد على الإساءة بمثلاً ، بل سيلتزم الوفاء والصدق والإخلاص :^(١)

ولما تخيرت الأخلاء لم أجد صبورا
سليما على طي الزمان ونشره
ولما أساء الظن بي من جعلته
حملت على ظني به سوء ظنه
وأني على الحالين في العتب والرضى
وكانت أعماق الشريف الرضي تنز بمرارة الخذلان، وكان غدر الأصدقاء وخيانة الناس وسوء طباعهم، يشغل فكره، يؤرقه، ويقض مضجعه، ويجعله يخرج - أحيانا - عن عادته وتقاليده، وقصيدته التي قال فيها (إذا عربي لم يكن مثل سيفه) على غير عادة الشعراء في الإبتداء بالمقدمة الطللية أو الغزلية، بدأت بتقرير انعدام العهد في أكثر الناس منذ البيت الأول:^(٢)

لأي حبيب يحسن الرأي والود
أكل قريب لي بعيد وده
وأكثر هذا الناس ليس له عهد
وكل صديق بين أضلعه حقد

وتصعد عنده حدة التشخيص والإدانة درجة عالية فيعلن :^(٣)

الناس حولك غريان على جيف
بله عن المجد إن طاروا وإن وقعوا
ويرى الرضي أن الناس هم الداء . وأن الصراع بين العاقر والمعقور صراع المفترس والفريسة هو الذي يطغى على ما عداه ، يقول :^(٤)

في كل يوم مودات مطلقه
يطيب النفس عن قطعي علائقها
محل البلاد ، ولا جار تغص به
والناس أسد تحامي عن فرائسها
كم وحدة هي خير من مصاحبة
من كشف الناس لم يسلم له أحد
قد كان انكبنها الدهر مغرورا
أني أفارق من فارقت معذورا
يضوي الفتى ويكون العام ممطورا
إما عقرت وإما كنت معقورا
ينسى الجميع ويغدو الفذ مدكورا
الناس داء فحل الداء مستورا

ويرفض الرضي ما ناله من الناس ، وهو الذي جبل على حبهم ، ولم يكن - في شجاعته وكرمه وكفاحه - إلا مناقحا ومدافعا عنهم ، ولم تكن خدمتهم عنده مجرد هواية أو عواطف زائلة ، وإنما قضية ومسؤولية ، ولكن قلة من الناس عرف فضله ، وأكثرهم - وقد خيم عليهم

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (دار صادر - ٥٩) (السامرائي ٣٦).

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٣٣٣/١.

(٣) السابق ٦٦٦/١.

(٤) نفسه ٥٢٥/١.

الجهل وغشت ضمايرهم غشاوات الكذب والتدليس - أنكروا فضله وتكروا له ، وأبعدوا عن قول الحق ، فسموا الشجاعة تهورا ، والكرم تبذيرا ، والتضحية حمقا ، واستساغوا اتهامه ، فشكا - رافضا - تبذلهم وخيانتهم وغدرهم :^(١)

أنا أكلة المغتاب إن لم أجنها
وكانما فيها الرماح أراقم
قد عز من ضنت يده بوجهه
إن كان فقر فالقريب مباعد أو
وأرى الغني مطاعنا بثرائه
يشكو تبذلي الصحاب وعاذر
من أجل هذا الناس أبعدت الهوى
ورضيت إن أبقى ومالي صاحب

ويظل الشريف الرضي - في رفضه غدر الأصدقاء وخيانتهم - يحل ثنائية التفرع بين حاجته إلى الصديق ، وبين حرمانه من وفائه . في شكوى الزمان ، وينقله انعدام وفاء الأصدقاء إلى مخاطبة الزمان الخائن ، لأن الزمان مسؤول عن ذلك :^(٢)

يا دار قل الصديق فيك فما
مالي مثل المذود عن أربي
ألين عن ذلة ومثلي من
أكر طرفي فلا أرى أحدا
من معشر أظهروا الشجاعة
بلهعن المجد غير أنهم

ولذا يظل الرضي شاردا ، يذم الزمان - لغدر أبنائه - رافضا أخلاقهم :^(٣)
وأقاتل ظني وآماليه
فأفصح من ناطق راغيه
وأولع بالغدر خلاية
لأمر أغير إنسانية

ويشكو الشعراء انتشار الشر و ويرفضون الأذى ، وخاصة من إخوانهم ، يقول الخباز البلدي^(٤)

(١) الشريف الرضي : ديوانه : ٨٥/١ .

(٢) السابق ٥٢٩/٢ . ٥٣٠ .

(٣) نفسه ٥٨٢/٢ . ٥٨٣ .

(٤) السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٩١١هـ) : الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب ، صححه وعلق عليه أحمد عبيد ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٣٦٨هـ ، ٤٨ ، ٤٩ وينظر :
• الخباز البلدي : شعر الخباز البلدي ٤٣ .

أفاعي رمال لا تقصر في لسعي ألا إن إخواني الذين عهدتهم
ظننت بهم خيرا فلما يلوتهم ظننت بهم خيرا فلما يلوتهم
ويرفض أبو علي المحسن بن القاضي التتوخي شماته الأعداء ، وهي شر أخلاقهم،
ويظهر بأسه وقوته قائلا (١)

لأن أشمت الأعداء صرفي ورحلتي فما صرفوا فضلي ولا أرتحل المجد
مقام وترحال وقبض وبسطة كذا عادة الدنيا وأخلاقها النكد
وإذا ما انتشر الشر وصار للناس ديننا وخلقا متبعا في قول أبي سليمان الخطابي
أحمد بن محمد بن إبراهيم (٢)

شر السباع العوادي دونه وزر والناس شرهم ما دونه وزر
كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع وما نرى بشرا لم يؤذه بشر
فإن أبا الفتح البستي يعلن حربه على الأشرار ويرفض أخلاقهم تلك (٣)
من مبلغ الأشرار عني أنني ما دام لي حس وعرق ينبض
أقلبيهم طراً لأنني ضدهم والصد للصد المنافر مبغض
فإذا رأوني مقبلاً فليعلموا أنني بوجه الجد عنهم معرض
ويكتفي ابن لنكك بالقليل في رفضه شرور الناس ، فهو لا يطلب منهم الخير حتى
يوصفوا بالكرم ، وإنما يكفي لوصفهم بالجد والكرم كف أذاهم وشرهم وبذا يصبحون من
الأخبار (٤)

عدنا في زماننا عن طريق المكارم
من كفى الناس شره فهو في جود حاتم
ويرفض شعراء القرن الرابع الهجري انتشار رذيلة الكذب في المجتمع، يقول البيهقي: (٥)
وأكثر من تلقى يسرك قوله ولكن قليل من يسرك فعله
وقد كان حسن الظن بعض مذهبهم فأدبني هذا الزمان وأهله
ويشكو كشاجم نفاق صاحبه وكذبه ، ويرفض إصراره وعناده على الإستمرار في إيذاء
الأقربين ، رغم ما قدمه الشاعر من نصح وإرشاد (٦)

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٤٦/٢.

(٢) السابق ٣٣٣٥/٤.

(٣) نفسه ٣٢٨/٤.

(٤) نفسه ٣٥١/٢.

(٥) البيهقي : شعر البغاء ١٤.

(٦) كشاجم : ديوان كشاجم ٢٧٣.

لي صاحب لا يجتني منه مصاحبه ثمر
 ناصحته وحملت عنه فما أثاب ولا شكر
 يشقى به قرناؤه أبدا ويسعد من شطر
 وتراه يكرم من نأى عنه ويغفل من حضر
 كالشمس تبخس مادنا منها وتسعد بالنظر
 ويرفع أبو فراس الحمداني عن أخلاق المنافقين ، ويرفض أن يأتي ما أتوه ، لأن مبداه
 قرن الأقوال بالأفعال^(١)

يا من أتانا بظهر الغيب قولهم لو شئت غاظتكم منا الأقاويل
 لكن أرى أن في الأقوال منقصة ما لم تسد الأقاويل الأفاعيل
 ويسدي أبو الفتح البستي نصحه ، داعيا إلى الحيطة والحذر من الناس - لما لاقاه منهم -
 ويقوده بأسه من صدق الأصدقاء ووفائهم إلى التعميم بإنقاء الخل الوفي في زمنه^(٢)
 لا تغبن ولا تخذعك بارقة من ذي خداع يرى بشرا وإطافا
 فلو قلبت جميع الناس قاطبه وسرت في الأرض أوساطا وأطرافا
 لم تلف فيها صديقا صادقا أبدا ولا أخا يبذل الأنصاف إن صافى
 ووفاء الأصدقاء - عند ابن نباته - أمر مستغرب مستهجن ، لأنه عاش في زمن النفاق
 والكذب: (٣)

أصبحت بين رجال كل تجربة تضل فيهم من المستبصر الفهم
 لا تبق منهم على شخص ظفرت به إن كان رأيك سل السيف في الأمم
 أذم كل خليل بات يحميني أنا الذي ماله حل سوى الندم
 طلبت صحة ود الناس واعجبا أمرا طلبت ولا يخلو من السقم
 والتزام الشاعر الخلقي ، وصدقه ، وشجاعته ، من أسباب رفضه الإتجاهات الخلقية
 المشينة في عصره ، وهذا ما نجده عند ابن نباته إذ كان ساخطا على زمانه متبرما منه ،
 يرى أن النفاق قد شاع ، وأن ما يظهره الناس من رضا ومحبة ما هو إلا نفاق وخديعة^(٤)
 شاع النفاق فما أرى أحدا يبدي الرضا إلا على رغم

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (دار صادر) ٢٤٩ (السامراتي) ١٢٢))

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٢٤/٤

(٣) ابن نباته السعدي: ديوان ابن نباته السعدي ٥٧٧/٢

(٤) السابق ٣٢٨/٢.

ويرى أن لا مكان في زمانه إلا للأغبياء الذين لا يدركون ما يحيط بهم ، أما أهل العلم
والمعرفة فهم التبعاء الأسقياء ، لأنهم ما خلقوا لهذا الزمان ^(١)

ما بال طعم العيش عند معاشر حلو وعند معاشر كالعلقم
من لي بعيش الأغبياء قاتسه لا عيش إلا عيش من لم يعلم
وهو (ابن نباته) يرفض خداع أهل زمانه وفسادهم ، ويأبى إلا أن يلاقي ذلك بهمة
قوية وعزم صادق وسيف ماض ، يقول ^(٢)

وشربت حين شربت ود معاشر ود وا من البغضاء لو شربوا دمي
شهبوا صوارمهم علي كأنهم لم يعلموا أن الصوارم في فمي
وأبيت أن ألقى الزمان وأهله إلا بماضي الشفرتين مصمم
وتفيض نفس أبي اسحق بن لنكك ألما ونقمة على أهل زمانه فيفحش لهم القول
ويشتمهم قائلا ^(٣)

يا سفلا أو قظوا بخستهم لكن عن الجود والندی ناموا
لا تكذبوا صح أنكم نعم عندكم للزمان أنعام
ومما رفض من اتجاهات أخلاقية في القرن الرابع الهجري ، البخل والتقتير والحرص ،
وتعجب الشعراء من الذين يجمعون المال في حياتهم ويحرسونه ولا ينفقونه ويخلفونه - رغم
أنوفهم - لمن سيقترن بزوجاتهم بعد وفاتهم ، وهذا جزاء من يجعل يده مغولة الى عنقه ، ويقتنر
على نفسه كما يقول بديع الزمان الهمداني ^(٤)

عجبا من رجل ذي سعة تأخذ الأيام من منسأته
يحرس المال ولا يأكله نظر البازي على مربأته
إنما يجمع ما يجمعه راغم الآف لبعل امرأته
ويرفض كشاجم الحرص لأنه مقرون بالذل ، وما طالب الغنى إلا كجامع اللحم الذي
لن يطبخ فيفسد ولا ينتفع به : ^(٥)

بالحرص في الرزق يذل الفتى والصبر فيه الشرف الشامخ
ومستزید في طلاب الغنى يجمع لحما ما له طابخ
ضیع ما نال بما يرتجي والنار قد يطفئها النافخ

(١) ابن نباته السعدي: ديوان ابن نباته السعدي ٣٢٨/٢.

(٢) السابق ٣٢٧/٢.

(٣) النعالي: بتيمة الدهر ٣٥٨/٢.

(٤) بديع الزمان الهمداني: ديوان بديع الزمان الهمداني ٤٦.

(٥) كشاجم: ديوان كشاجم ١٣٣.

ويتصور الببغاء - لسوء ما وصلت إليه حالته - أن البخل والشح قد وصلا إلى كل شيء في عصره ، حتى إلى الريح ، فهي لا تهب لبخلها ، وأن العيوب قد تكاثرت ولم يبق شيء خلا من العيب ، يقول :^(١)

أكل وميض بارقه كذوب أما في الدهر شيء لا يريب
وشاع البخل في الأشياء حتى يكاد يشح بالريح الهبوب
وكيف أخص باسم العيب شيئا وأكثر ما تشاهده معيب
ويتندر الخباز البلدي ، فيدل السامع طريقا يبعد فيها من لا يود مصاحبته وذلك بأن يطلب منه دينا دريهمات ، وهذا كفيل بإبعاده ، يقول :^(٢)

إذا استثقلت أو أبغضت خلقا وسرك بعده حتى التناد
فشرده بقرض دريهمات فإن القرض داعية البعاد
ويؤكد أبو فراس الحمداني رفض البخل من خلال فخره بنفسه ونفي كل ما يشين عنه ، قائلا :^(٣)

غيري يغيره الفعال الجافي ويحول عن شيم الكريم الوافي
لا أرتضي ودًا إذا هو لم يدم عند الجفاء وقلّة الانصاف
تعس الحريص وقل ما يأتي به عوضا من الاحاح والاحاف
إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا فتعت فكل شيء كاف
وتعاف لي طمع الحريص أبوتي ومروءتي وقناعتي وعفافي
ما كثرة الخيل الجياد بزائدي شرفا ولا عدد السوام الضافي
ويرفض الشعراء الطمع والجشع والدناءة في جمع الاموال ، ولا يقيم بعضهم للمال وزنا ، أمثال أبي الفتح البستي ، الذي أصم أذنيه عن نصيح من نصحه بادخار المال ، وإقتناء الرياش ، مؤمنا أن المال لا يعصم الانسان من الشدائد ، وأن العاصم الحقيقي - بعد الله - هو تحلي الانسان بالفضيلة والخلق الحميد :^(٤)

قالوا رضيت بدون حقك والغنى يسمو بصاحبه الى العلياء
فأجبتهم والقول مني فيصل يحكي غرار السيف وقت مضاء

(١) الببغاء : شعر الببغاء ٤٥ .

(٢) الخباز البلدي : شعر الخباز البلدي ٣٠ . وينظر : الثعالبي : التمثيل والمحاضرة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الطلو ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الباني الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ١١٤ .

(٣) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (دار الصادر ١٩١) (السامرائي ١١٣)

(٤) الثعالبي : البيّمة ٣٢٣/٤

حسبي التكثر بالفضائل إنها
فإذا تمادى معشر في مفخر
وغناي من دنيائي أشرف زينة
ولذا فإنه (البستي) يصب جام غضبه على من يتبع الطرق الدنيئة المحرمة في جمع الأموال، ويعرض بأهل زمانه وفساد أخلاقهم وتفشي داء الرشوة فلا تقضى حاجة بغير طريقها الدنيئة يقول: (١)

إذا توسلت الى حاجة
فبالرشا فهي رشاء النجاح
ولا تعمل غيرها شافعا
فكل ما دون الرشا في الرياح
ويرفض السري الرفاء السرقة، وخاصة سرقة الشعر، وقد أكثر من شكوى الخالدين، لادعائه أنهما كانا يسرقان شعره وينسيبانه لنفسيهما ، قال : (٢)
شنا على الآداب أقبح غارة
جرحت قلوب محاسن الآداب
فحذار من حركات صلي فقرة
وحذار من حركات ليثي غاب
لا يسلبان أخا الثراء وإنما
يتناهبان نتائج الآلباب
وقال فيها أيضا : (٣)

ذنبين لو ظفرا بالشعر في حرم
سلا عليه سيوف البغي مصلته
لمزقاه بأنياب وأظفار
في جحفل من صنيع الظلم جرار
وله أيضا فيها شعر، يرفض فيه سرقة بنات أفكاره وهي أعلى من المال والمتاع: (٤)
ومما رفضه الشعراء من أخلاق الناس في القرن الرابع الهجري ، الحسد والشماتة ، يقول مهييار الديلمي بصف أخلاق أهل زمانه: (٥)

وأهل زمان لا هوادة بينهم
صديق نفاق أو عدو فضيلة
إذا استؤمنوا كانوا أخب وأختلا
متى طب عاد الداء أدهى وأعضلا
ولوج على الشر الذي يرصدونه
متى وجدوا يوما الى الشر مدخلا
إذا ما رأوا عند أمرىء زاد يومه
مشوا حسدا أبيات جوعان مرملا
وفي الأرض عنهم مذهب وتفسح
فمن لي لو أسطيع أن أترحلا

(١) أبو الفتح البستي : ديوان أبي الفتح البستي ٣٤٠

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٤٥/٢

(٣) السابق ١٤٢/٢ - ١٤٣

(٤) نفسه ١٤٤/٢

(٥) ميار الديلمي : ديوان ميار الديلمي ١٩٥/٣

ويضرب الأمير شمس المعالي قابوس بن وشمكير للشامتين مثلاً إختفاء الدرر في قاع البحر وعلو الجيف على سطحه وكسوف الشمس ، من بين ما لا يفتن النجوم والكواكب، عليهم يتغطون ويرجعون عما هم فيه، يقول: (١)

قل للذي بصروف الدهر عيرنا هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف ويستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا ونالنا من تمادي يؤسه الضرر
ففي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ويرفض المتنبي حسد حساده، ويفخر بنفسه غير آية بهم، لما تعودته نفسه من احتمال الشدائد ومواجهة الرزايا،.

يقول : (٢)

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذا القول قبل القائلين مقول
وما لكلام الناس فيما يرينسي أصول ولا للقاذيه أصول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار في تجول
سوى وجع الحساد داو فباته إذا حل في قلب فليس يحول
ولاتظم عن من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتنيل
وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسوننا وتسلم أعراض لنا وعقول

ورفض الشعراء لؤم الناس وسوء طباعهم، فالمتنبي ينعي على أهل زمانه خلالهم ويرفضها ويتمنى زوالهم ليأتي قوم خير منهم: (٣)

فؤاد ما تسلية المدام وعمر مثل ما تهب اللنام
ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جث ضخام
ويحذر أبو فراس الحمداني من مقاربة اللنام - رافضا - أخلاقهم بعد أن عرفها: (٤)
أحذر مقاربة اللنام فباته ينبيك عنهم في الأمور مجرب
قوم إذا أيسرت كانوا إخوة وإذا تربت تفرقوا وتجنبوا
اصبر على ريب الزمان فباته بالصبر تدرك كل ما تتطلب

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ٦١/٤ .

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ١٠٩/٣ .

(٣) السابق ٩٦/٤ - ٧٣ .

(٤) أبو فراس الحمداني : ديوان أبو فراس الحمداني (دار صادر ٧٥) (السامراتي ٣٥) .

ويقول: (٣)

في الناس إن فتشتهم من لا يعزك أو تذله
فاترك مجاملة اللئيم فإن فيها العجز كـ _____ هـ

* * * * *

خامسا : رفض بعض الظواهر الاجتماعية في سلوك الأفراد.

أنسم سلوك بعض أفراد المجتمع الاسلامي في القرن الرابع الهجري باليأس والقنوط، واتصفوا بالخنوع والذل لما رأوه من سلبات الحياة في ذلك العصر، التي وقفوا أمامها عاجزين لا يستطيعون تبديلها ، فاستسلموا لمقاديرهم، فكان منهم ذلك اليأس المفضي إلى الانهزام والانكفاء على الذات.

ووقف بعض الشعراء أمام تلك الحالات رافضين منافحين من أجل عزة الفرد، وإشراكه في النهوض بمجتمعه نحو العزة والكرامة والحياة الفضلى ، وإخراجه من دائرة الفردية الى واقع المشاركة الفاعلة والقيام بمهامه. فإن المجتمع كالجسد الواحد إذا توقف فيه عضو عن العمل أصيبت باقي الأعضاء بالشلل وقلة الحركة.

ومعالجة لتلك الأدواء، التفت بعض الشعراء إلى القيم المثلى، وروح الأمة في صفاتها وقوة عناصرها، فاستحضروا قول عنترة: (٤)

لا تسقيني ماء الحياة بذلة لا تسقيني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيّب منزل

وهبوا يثيرون في نفوس الناس الإباء والحماس ووجوب الاقبال على الحياة وعيشها بكرامة وعز .

ومن الشعراء من شرع بحركة عقلية غلافها الشعر الحكمي التأملية، لما يمكن أن يسمى (فلسفة القوة) وحث الانسان على رفض الضعف وكل ما يعيق الحياة ، ويجعل الانسان مكتوف الى دين مسلوب الارادة. وزين أولئك النفر من الشعراء للناس الحياة الكريمة أو الموت الشريف ، لأن كليهما عز ، وبشعوا الحياة الذليلة والموت الذليل لأن كليهما ذل ، وأكدوا أن اليأس والقنوط وخوف المواجهة أو المعارضة موت، والذي يضمن الحياة هو الموت كما يقول المتنبي: (٣)

معرض عز

(١) أبو فراس الحمداني : ديوانه ، (دار صادر ٢٤٨) (سامراتي ١٢٣) .

(٢) عنترة بن شداد العبسي : أشعار عنترة العبسي ، تقديم وشرح محمد عبد المنعم خلفاوي ، نشر مكتبة القاهرة، مطبعة عاطف وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦٩ م . ٢٠٥ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ١/٣٢١ .

عش عزيزا أو مت وأنت كريم
 فرووس الرماح أذهب للغيط وأشفى لغل صدر الحقــــــــــــــــود
 لا كما قد حييت غير حميد
 وإذا مت غير فقيرــــــــــــــــود
 فاطلب العز في لظى وذو الذل ولو كان في جنان الخــــــــــــــــود

فالإنسان كائن عابر في هذه الحياة، مآله الزوال ، ولكن شرفه ومجده ومروءته فيما يترك وراءه من ذكر بعد رحيله عن الدنيا ، وما المجد الا العيش بعزة وكرامة وتصرف بقوة وشهامة يغير الدنيا إلى ما يشتهي الفرد ليأخذ منها ما يريد ثم يموت فلا ينسى .
 ويستثير المتنبى ثقة مخاطبيه ، رافضا ميلهم الى الشك والفرار ، مؤكدا ومبررا شخصيته المتمردة قاصدا الهاب حماسة الانهزاميين (١)

قفا تريا ودقي فهاتا المخايل
 ولا تخشيا خلفا لما أنا قائل
 تحقر عندي همتي كل مطلب
 ويقصر في عيني المدى المتطاوّل
 وما زلت طودا لا تزول مناكبي
 إلى أن دت للضيم في زلازل
 فقلقت بالهم الذي قلقل الحشا
 قلاقل عيس كلهن قلاقل
 غثاة عيشي أن تغث كرامتي
 وليس بغث أن تغث المآكل
 ويقول المتنبى أيضا (٢)

أي محل أرتقي
 أي عظيم أتقي ؟
 وكل ما يخلق الله وما لم يخالــــــــــــــــق
 محتقر في همتي
 كشعرة في مفرقي

ويبين المتنبى لليانسين الخائفين أن من يحاول تحقيق أهدافه هو أتعب الخلق ، قاصدا الحماس ورفض ما هم فيه (٣)

وأتعب خلق الله من زاد همه
 وقصر عما تشتهي النفس وجده

ولذا فإنه يطلب العلا والمجد عن طريق القوة والمواجهة (٤)

ذريني أنل ما لا ينال من العلا
 فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
 تريدن لقيان المعالي رخيصة
 ولا بد دون الشهد من إبر النحل

(١) المتنبى : ديوان المتنبى ١٧٤/٣ - ٧٨.

(٢) السابق ٣٤١/٢.

(٣) نفسه ، ٢٢/٢.

(٤) نفسه ٢٩٠/٣.

ويرفض البيغاء سلوك المستكينين اليائسين ، ويملي عليهم درسا في مواجهة مصاعب الحياة بقوة وشجاعة ، وألا يقتطوا من رحمة الله ، فكم ضاقت الأمور حتى إذا استحكمت حلقاتها فرجت ، وكم نجاة حصلت بسبب الإقدام والشجاعة ^(١)

لا تستكن لطوارق النوب	والق الخطوب بوجه محتسب
فدنو ما ترجوه من فرج	يأتي بحسب تكاثف الكرب
كم خائف من هلكة سببا	نال النجاة بذلك السبب

ويضرب أبو فراس الحمداني مثلا حالة عندما كان في الأسر ، فلم يضعف ولم يهن ، بل رفض الخضوع وفضل الموت على العيش الذليل ^(٢).

قد عذب الموت بأفواهنا	والموت خير من مقام الذليل
إنا إلى الله لما نابنا	وفي سبيل الله خير السبيل

ويعجب ابن نباتة السعدي من حال المتشائمين، وينعى عليهم قنوطهم ويأسهم، رافضا واقعهم، داعيا إلى العمل بشجاعة، فالعزلة والخوف لا يطيلان العمر، وفي الأرض منأى للكريم ومنزل ^(٣)

عجبا عجت لمن تضيق فجاجة	والشام شام والعراق عراق
طيان يلصق بالحصير حصيره	شر المهاد العجز والأملاق
حاول جسيمات الأمور ولا تقل	إن المحامد والعلل أرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصرا	عن غاية فيها الطلاب سباق
لا تشفقن فإن يومل إن أتسى	ميقاته لم ينفع الأشفاق

ومما رفض من سلوك الأفراد ، أيضا ، الأنانية والفردية ، وخذلان الأصدقاء ، لأنها تسد أبواب التضامن الأخوي .

وشكا بعض الشعراء هجر الأصدقاء وابتعادهم، أو نسيانهم حق الصداقة ، وحقها التلازم، والتذاكر بالمودة ، والتعاون أمام تصارييف الزمان، ولا غنى للإنسان عن معاضدة الصديق ، الذي يحفظه في حضرته وغيبته ، وخيائه ومماته، فهو طيف عابر، وكذلك زمنه، والعاجز من عجز عن اكتساب الاخوان، واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم.

ورفض بعض الشعراء فردية اصدقائهم ، وخذلاتهم، اظهروا المهم ومرارتهم من ذلك السلوك ، وحاروا في تفسير تلك الظاهرة، وظلوا يرفضونها، ويشكون الزمن، ورياء الاخوان.. يقول الشريف الرضي: ^(٤)

(١) البيغاء : شعر البيغاء ٥٢.

(٢) الثعالبى : بيتمة الدهر ٦٠/١.

(٣) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٧٢/٢.

(٤) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٣٢٩/٢.

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه
 ابى بعد طول الغمز ان يتقوما
 تقبلت منه ظاهرا متبلججا
 وادمج دوني باطنا متجهما
 والأصحاب في نظره، أصدقاء يسر وغنى، فان ذهب المال ذهبوا، وان افتقر الانسان تفرقوا: (١)
 ان كان فقر فالقريب مباعدا
 أو كان مال فالبعيد مقارب
 ويرفض المتنبى قله نفع الاصدقاء - مع كثرة عددهم ، فلا يعرف الا عند
 الحاجة: (٢)

وما الخيل الا كالصديق قليلة
 وان كثرت في عين من لا يجرب
 لحا الله ذي الدنيا مناخا لراكب
 فكل بعيد الهم فيها معذب
 الا ليت شعري هل اقول قصيدة
 فلا اشتكي فيها ولا اتعجب
 ويصل الى النتيجة المؤلمة ، بعد التجربة المريرة ، فيقول: (٣)
 اذا ما الناس جربهم لبيب
 فاتي قد اكلتهم وذاقا
 فلم ار ودهم الا خداعا
 ولم ار دينهم الا نفاقا
 ومع ما يلاقيه ابو فراس الحمداني من جحود أخيه وأنانيته، الا أنه يجاهد نفسه ويجبرها
 على حفظ المودة فيعيش في صراع مع نفسه أختار الوفاء والبقاء ، أم القطيعة والهجر، ولكنه
 يميل إلى الخير فيقول: (٤)

تقر دموعي بشوقي إليك
 ويشهد قلبي بطول الكذب
 واني لمجتهد في الحجود
 ولكن نفسي تأبى الكذب
 واتي عليك لحاري الدموع
 واتي عليك تصب وصب
 وما كنت ابقي على مهجتي
 لو اني انتهيت الى ما يجب
 ولكن سمحت لها بالبقاء
 رجاء اللقاء على ما تحب
 ويبقى اللبيب له عدة
 نوقت الرضى في اوان الغض

ووقف كثير من شعراء القرن الرابع الهجري من استغلال الانسان لآخيه الانسان موقفا
 مشرفا، فرفضوه ورفضوا ما يترتب عليه من دسائس ونميمة وافشاء للسر تؤدي كلها الى
 البغضاء والقطيعة من افراد المجتمع الواحد، وما كان ذلك السلوك يؤتى إلا من ذوي النفوس
 المريضة ، قال ابن لنكك: (٥)

(١) الشريف الرضي ديوانه ، ٨٥/١ .

(٢) المتنبى : ديوان المتنبى ١٨٠/١ - ١٨١ .

(٣) السابق ٢٠٦/١ .

(٤) أبو فراس الحمداني : ديوان ابي فراس الحمداني (دار صادر ٢٢) (السامراتي ٢٩)

(٥) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٨/١٩ .

ذئاب كلنا في زي ناس فسبحان الذي فيه برانا
يعاف الذنب يأكل لحم ذنب ويأكل بعضنا بعضا عياتا

ويقول مهيार الديلمي رافضا حسد اهل زمانه ونميتهم : (١)

تمنى رجال ان تزل بي النعل ولم تمش في مجد بمثلي له رجل
وعابوا علي هجر المطامع عفتي وللهجر خير حين يزري بك الوصل
وسمو اباي الضيم كبيرا ولا ارى حطيطة نفسي وهي تنهض ان تعلو
لئن اكلوا بالغيب لحمي فربما حضرت فخان المضغ واستؤني الاكل
وكم دونهم لي من خلاق مرة اذ اتصفوها استثمروها جنى يحلوا

ومقت الشعراء من يفشون الاسرار، لما يترتب على هذا السلوك من شحناء وبغضاء ،
ورفضوا اذاعة اسرار الناس ومن يذيع تلك الاسرار .

قال المتنبي يفخر بكتمانته، ويرفض افشاء السر: (٢)

وسركم في الحشاميت اذا انشر السر لا ينشر
وافشاء ما انا مستودع من الغدر والحر لا يعذر
اذا ما قدرت على نقطة فاتي على تركها اقدر

وقال السري الرفاء وقد أسر الى أحدهم سرا فاذا به : (٣)

ثنتني عنك فاستشعرت هجرا خلال فيك لست لها براضي
وانك كلما استودعت سرا اتم من النسيم على الرياض

وقال السري الرفاء يرفض ما اتاه صديق له، وقد أسر اليه حديثا فاذا به : (٤)

اروم منك ثمارا لست أجنيها وأرتجي الحال قد حلت أو اخيها
كان سري في احشائه نهيب فما تطيق له طيا حواشيها
قد كان صدرك للاسرار جندله ضنينة بالذي تخفي نواحيها
فصار من بث ما استودعت جوهرة رقيقة تستشف العين ما فيها

ورفض كثير من الشعراء عادة شرب الخمر، لما لها من آثار سيئة على الأبدان
والأذهان، فهي مذهبة للعقل ، مميتة للقلب، مزيلة للمروءة، يقول المتنبي، رافضا ، شربها: (٥)

(١) مهيار الديلمي : ديوان مهيار الديلمي ٦٧/٣ .

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٩٢/٢ - ٩٣ .

(٣) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ٧٦٩/٢ .

(٤) السابق ٧٦٠/٢ .

(٥) المتنبي : ديوان المتنبي ١٠٦/١ .

لاحتبي ان يملأوا
وعليهم ان يبذلوا
بالصافيات الأكوبا
وعلي ان لا اشربا
حتى تكون الباترا
ت المسمعات فاطربا

ويفضل المتنبي معاطاة السيوف في المعارك على معاطاة الخمر، لما في الأولى من علو، وما في الثانية من دنو^(١)

ألذ من المدام الخندريــــس
معاطاة الصفائح والعوالي
وأحلى من معاطاة الكؤوس
فموتي في الوغي أربي لأني
وإقحامي خميسا في خميس
رأيت العيش في أرب النفوس

ويختار (المتنبي) ندامي الحرب ويفضلهم على ندامي الشراب ، رافضا ما يأتيه ندامي الشراب من قلة العزم والكرم^(٢)

إذا ما شربت الخمر صرفا مهناً
ألا حبذا قوم نداماهم النقا
شربنا الذي من مثله شرب الكرم
يسقونها ريا وساقيهم الكرم
ويصل به رفض تلك العادة إلى أن عد شرب الخمر كفارة عن أبغض الحلال إلى الله، إذ مد له انسان يده بكأس وحلف بالطلاق ليشربنها ، فقال المتنبي : ^(٣)
وأخ لنا بعث الطلاق إنيه
فجعلت ردي عرسه كفارة
لاعلن بهذه الخرطوم
عن شربها وشربت غير أئيم
ويأتي رفض بعض الشعراء عادة شرب الخمر من منطلق ديني ، فهم لا يشربونها خوفا من الله ، وتجنباً للحرام، يقول أبو علي الحسن بن أبي الطيب الباخري مفضلاً الماء على الخمر^(٤).

لا تسقيه فباتي أيها الساقى
هذا الشراب يهيج الشر نشوته
أخاف يوم الالتفاف الساق بالساق
فميز الشر عنه واسقني الباقي
ويحذر بديع الزمان الهمداني من مغبة شرب الخمر قائلاً: ^(٥)
يا تائها في لجة السكر
أنت من البستان في وحشة .
قد جاءه السيل ولا يدري
فكيف تستأنس بالقبر

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٩١/٢ .

(٢) السابق ٤٦/٤ .

(٣) نفسه ، ٤٦/٤ .

(٤) الشعالي : تنمة اليتيمة ٣٩/٢ (ويقصد الماء بالفارسية) .

(٥) بديع الزمان الهمداني : ديوان بديع الزمان الهمداني ٨٤ .

وكانت موجه الزهد ، في القرن الرابع الهجري، لا تقل اتساعا عنها في العصور السابقة ، وبالعكس بعض الناس في زهدهم ، ففرضوا على أنفسهم العبادة ليل نهار ، وانصرفوا عن الحياة الزوجية، وامتنعوا عنها (١)

وفي ذلك مغالاة في الزهد ، لا يرضاها الإسلام، الذي لا يريد للزاهد أن يفصل عن المجتمع والحياة ، فقد اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جماعة كانوا يكفون زاهدا أموره النديوية ، لأنهم كلهم خير منه (٢)

وتحول كثير من الزهاد الى متصوفة أعرضوا عن ملذات الدنيا وطيباتها، وقنعوا من الطعام بالكسرة ، ومن الثياب بالخرفة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد ، وأقاموا في الرباطات والخانقات.

وبمرور الزمن خرج بعض الصوفية عن طريقهم الاول، وتداخل غلو كثير في طرق الصوفية ، وقد بلغ من غلو بعضهم أن جرت على لسانه كلمات تصرح بفكرة الحلول، وذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الاسلام، وآخرون اخذوا يعلنون أن لا عبره بأداء الفرائض الدينية (عمل الجوارح) وإنما العبرة بعمل القلب، فمن (بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك وحلت له المحرمات كلها من الزنى والخمر وغير ذلك، واستباحوا بهذا نساء غيرهم، وقالوا : إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قذف في نفوسنا فهو حق) (٣) وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح ، وكان ذلك سببا في ان تنشأ حرب عاصفة في القرن الرابع الهجري بين الفقهاء من جانب، والمغالين من المتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين عن الإسلام بما يشيرون من أفكار الحلول وما يتصل بها ، وبما يأخذ بعضهم به انفسهم من القعود عن اداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الحنيف .

ورفض الشعراء هذا التطرف من المتصوفة وتعلقهم بالمظاهر الخارجية من لبس الصوف وترك الفروض ، فالتصوف الحقيقي هو خشية الله والخشوع في العبادات، يقول ابو محمد طاهر بن الحسين بن يحيى المخزومي البصري: (٤)

(١) السمرقندي ، الشيخ نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي (- ٣٨٣ هـ) ، تنبيه الغافلين ، وبهامشه بستان العارفين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، (?) ، ١٢١ .

(٢) الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (- ٤٥٠ هـ) : أعلام النبوة ، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر ، مصر ، ١٩٣٥ م ، ١٦٩ . وينظر : ابن قتيبة : عيون الأخبار ١٨/٤

(٣) ابن حزام : الفصل في الملل والنحل ٢٢٦/٤

(٤) مسكويه : تجارب الأمم ٢٤٩/٦ - ٢٥٠

ليس التصوف ان يلاقيك الفتى وعليه من نسج النحوس مرقع
سود وبيض لفتت وكاته فيها غراب ابقع
ان التصوف ملبس متعارف يخش يالفتى فيه الاله ويخشع

ونعى ابو القاسم عمر بن عبد الله الهرندي على بعض المتصوفة طريقته في النسك والعبادة ، ورفض مثل غيره تمسكهم بالقشور وتركهم اللباب قائلا: (١)

تبا لقوم جعلوا دينا لدنيا مأكله
تستروا بأنهم صوفية محنبلة
وما يساوي نسكهم قمامة في مزبلة
اتخذوا شباكهم احفاءهم للاسبلة

وعلى الرغم مما اتصف به قضاء القرن الرابع الهجري وقضائه من النزاهة والاستقامة والعدل والزهدي في الدنيا ، إلا ان بعض الشوائب قد علقت به لنهم وجهت لقله من القضاة الذين رفض المجتمع تصرفاتهم امثال ابي العباس بن ابي الشوارب الذي تقلد قضاء بغداد ٣٥٠هـ.

بعد أن وافق على أن يحمل الى خزانة الامير معز الدولة مائتي الف درهم في كل سنة، وكان هذا القاضي قبح فعله قبيح الصورة وقد اتهم بحب الغلمان والشهوات والخمور (٢)

وكان الولع بالغلمان من رذائل بعض القضاة المرفوضة (٣) ومن القضاة من كان مشهورا باللواط ومنهم من كان مشهورا بالأبنة (٤) وقد اورد الثعالبي - غير آثم - في اليتيمة لبعض الشعراء ما تأنف النفس من سماعه كقول ابن العصب الملحي يذكر شهوات أحد القضاة :

لنا قاض له وجه على أخذ الرشاش عابس
ولكن له يدق الرطب واليابس

ومما رفض من سلوك بعض القضاة الكذب والتظاهر بالتدين والورع لكسب احترام الناس ، فلما صرف ابو عمرو بن عبد الواحد عن قضاء البصرة وحل محله ابو الحسن بن ابي الشواب وذلك ٣٩٩ هـ قال العصفري الشاعر: (٥)

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ٢٨٨/٢

(٢) الأبيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبيهي (٨٥٠هـ) ، المستطرف في كل فن مستظرف ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م. ٣١٩/٢

(٣) الثعالبي: يتيمة الدهر ١٢٠/٣

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٤٤/٧

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٢٠/٢

عندي حديث ظريف
من قاضيين يعزى
فذا يقول: اكرهونا
ويكذبان جميعا
بمثله يتغلى
هذا، وذلك يهنى
وذا يقول : استرحنا
فمن يصدق منا

ومما رفض - أيضا - سلوك بعض الشهود الذي كانوا القضاء يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال المقيمين الثابتين ، وكانوا دائما موضعاً للشكوى، لما يأتونه من باطل وزور ، وفيهم يقول ابو عبد الله الخوزي^(١)

ويل لمن عدله القاضي
تمضي القضايا بشهاداته
والله عنه ليس بالراضي
وهو الى النار غدا ماضي

ورفض الشعراء النظار بالدين و اظهار الورع والتقى ، خلافا للبوطن ، لتحقيق مارب دنيوية ، يقول ابو عبد الله الضرير الانبوري^(٢)

صيامي اذا افطرت بالسحب ضلة
وتركيتي مالا جمعت من الربا
رياء وبعض الجود أخزى من البخل
تعود به المرضى وتطمع في الفضل
كسارقة الرمان من كرم جارها

كما رفضوا الخرافات والتدين المشوب بالشعوذة والتجيم، فلا يعلم الغيب الا الله، يقول أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي اللغوي^(٣)

يقول المنجم لي لا تسر
فان كان يعلم اتي اسير
فانك ان سرت لاقيت ضرا
فقد جاء بالنهي لغوا وهجرا
وان كان يجهل سيري فكيف
يراني اذا سرت لاقيت شرا

ورفض الشعراء اتخاذ الدين وسيلة للعيش والكسب، او اتخاذه طريقا الى المناصب والوظائف ، والذين سلكوا تلك الطريق لا يعدو تدينهم رياء وقد اخذوا منالدين شكله لا مضمونه، متزيوا بزي المتدينين واظهروا انماطا - في اشكالهم - تدل على تقاهم ، وما هم في الحقيقة من الاتقياء ، وان اطلقوا لحاهم واحفوا شواربهم، يقول المتنبي^(٤)

أغاية الدين ان تحفوا شواربكم
ما اقدر الله ان يخزي خليفته
يا أمة ضحكت من جهلها الامم
ولا يصدق قوما في الذي زعموا

(١) الثعالبي : بئمة الدهر ٩٠/٤ - ٩١ .

(٢) السابق ٧٠/٢ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ١٥٠/٤ - ١٥١ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدياء ٨/١٩ .

ويوضح ابن لنكك تلك النماذج التي تتخذ من الدين طريقاً لجمع الثروة وسرقة أموال اليتامى والارامل، فتظهر نفوسهم على حقيقتها (إذا ما صب زيت في القنادر) وهو تعبير ظريف عن الرشوة التي اشتهر بعض رجال الدين المزيفين بتعاطيها في ذلك الزمان، والانكى من ذلك في شخصيات تلك الفئة الضالة تكفيرهم سواهم، والغاء كل علم لا يوافق اغراضهم الدنيئة: (٤)

اقول لعصبة بالفقة صالت وقالت ما خلاذا العلم باطل
أجل لا علم يوصلكم سواه الى مال اليتامى والارامل
أراكم تقلبون الحكم قلبا اذا ما صب زيت في القنادر

وكشف بعض الشعراء ما في جسد المجتمع من مثالب، تستر عليها الذين باعوا انفسهم لاصحاب القصور، وتفرغوا للنفاق والرياء والمجاملة، وقد نصبت نعمتهم على رجال الدين المرائين الذين ليس لهم من الدين الا صفة الحمقى، وهي تطويل اللحي لخداع العامة وايهامهم بورعهم وتقاهم، وهم في واقع الحال ليسوا أحسن فهما للشرعية والفقهاء من بقر المزارع، يقول ابن لنكك (٢)

لا تخذعك اللحي ولا الصور تسعة اعشار من بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيهم طالب مطر
في شجر السرو منهم مثل له رواء وماله ثمر

ويقول ابو الفتح احمد بن محمد بن يوسف الكاتب يعنى على المزيفين من اصحاب اللحي سلوكهم ورياءهم: (٣)

ولحية للشيخ ان تلقها لقيت من حامها مائقا
سلط عليها ربنا نادفا بل ناتفا بل حالقا حاذقا

ويرفض السري الرخاء ما انتها قومه ن اهل حلب في تطويل لحاهم ليحوزوا بذلك مراد نفوسهم الدينيوية ويخفوا - بإطالتها - عيوبهم، وما ذلك الا للؤمهم وسؤ طباعهم: (٤)

رأيت خيار بني مسهر تشاكل في اللؤم اشرارها
اطالوا اللحي كي يحوزوا بها مراد النفوس واواطارها
وحفوا الشوارب عن نخره تضرم ان يطفئوا نارها
وكانت ستورا على كنفهم فلم سلبوا الكنف استارها

(١) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٥٠/٢

(٢) السابق، ٤٤٠/٤ - ٤٤١

(٣) السري الرفاء: ديوان السري الرفاء ٣٠٩/٢

(٤) العبد لكانى الزوزني، ابو محمد بن عبد الله بن محمد العبد لكانى الزوزني: ٤٣١هـ «حماسة الطرفاء»، تحقيق محمد جبار المعبيد، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م ١٤٩/٢.

وليس كل من اطال لحيته يزداد فضلا، فاي علا يطلب في لحيه كانها ذنب بغل ، وأي
علا يطلب والرأس فارغة؟! يقول البيغاء : (١)

ما كل من طول عثونه	يزداد فضلا يا ابا الفضل
طولت عثونك تبغي العلا	اي علا في ذنب البغل
ولست أحصي كم رأيت امراً	الحى ولكن كوسج العقل
قد ملات لحيته صدره	ورأسه افرغ من طبل

ويظهر بعض الشعراء ما في داخلهم من صراع، ويفكرون بصوت عال، ويعلنون عما
يدور في نفوسهم في امر اللحي ، وقل منهم من يعترف بالحقيقة ، ويطلعنا على سره ، كما فعل
ابو جعفر محمد بن اسحق بن علي البحاتي الذي يقول في هجاء لحيته:

يا لحيه قد علقت من عارضي	لا استطيع لقبحها تشبيهها
طالت فلم تفلح ولم تك لحيه	لتطول الا والحمافة فيها
اني لأظهر للبرية حبها	والله يعلم انني اقلبها

وبعد الخباز البلدي التحاء بعض الناس آخر الباطل ، لانه رياء وادعاء وزيف ما بعده
زيف ، ولانه لم يلتح الا ليتخذ الدين وسيلة للترقي والكسب، يقول (٢)

انظر الى ميت ولكنه	خلو من الاكفان والغاسل
قد كتب الدهر على خده	بالشعر هذا اخر الباطل

ومن الظواهر المرفوضة في سلوك بعض الافراد ملتهم وعدم ثباتهم على حال واحدة ،
فهم سريعوا التغير، دائموا التقلب لا يثبتون على حال، حتى في الصداقة ومعاشرة الاخوان،
وهذا كشاجم الرملي، يشكو صاحبه الذي جفاه ، ويظهر عتبه عليه، لان صاحبه اطاع الوشاة
فقطعة ، ويصرح بعد الشكوى برفض مثل هذه العلاقة بين الاصدقاء ، ويعلن عزمه على
مقاطعة صديقه ، قائلا : (٣)

الى الله اشكوا اخا جافيا	يضيع فاحفظ فيه الصنيعة
اذا ما الوشاة سعو نحوه	اصاخ اليهم باذن سميعة
وتظهر لي منه في كل يوم	خلاق مستكرات فظيعة
كثرت عليه فاملته	وكل كثير عدو الطبيعة
واني لاعلم ان الملول	ليس بمرضية الا القطيعة

(١) الشعالي : تنمة اليتمة ٣/٢ .

(٢) الخباز البلدي : شعر الخباز البلدي ٥٣ .

(٣) كشاجم : ديوان كشاجم ٣٢٧ .

ومما رفض من سلوك الافراد وعاداتهم، الكسل ، اذ استهجن كثير من الشعراء ركون بعض الناس الى المنى يريدون بها تحقيق المطالب، وما نيل المطالب بالتمني، ولكن الحياة جهاد وعمل دؤوب ، يقول ابو عثمان سعيد الخالدي: (١)

نيل المطالب بالهندية البتسر لا بالاماني والتأميل للقسدر
فان عفا ظلل او ياد ساكنه فلا تقف فيه بين البث والفكر
وفي شمك المسك شغل عن مذاقته وفي سنا الشمس ما يغني عن القمر
ويقول ابو بكر محمد الخالدي (٢)

ان خاتك الدهر فكن عائدا بالتبديد والظلماء والعيس
ولا تكن عبد المنى فالمنى رؤوس اموال المفايس
ويحذر ابو بكر محمد بن العباس الخوارزمي من صحبة الكسلان ، فانها مفسده لان المرء بخيله (٣)

لا تصحب الكسلان في حاجاته كم صالح بفساد اخر يفسد
عدوى البلديد الى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
ومما رفض من سلوك الافراد ايضا البذاءة والسباب والشتم، فانها منقصة للمرء دالة على سوء باطنه، ولا بد ان يلقي الشائم من يشتمه ، فالناس لا يسبون ابا الرجل ، وانما هو الذي يسب اياه، واتخذ بعض الناس سلوك السب والشتم طريقا ليخشاه الناس ويتقوا شره كما فعل ابن الحجاج، فقد كان لسخفه ورداءه لسانه مخشي الجانب مقضي الحاجة ، مقبول الشفاعة، ولم يزل أمره يتزايد حتى حصل الاموال وصار من اهل الجاه، وقد قال حينما كتب اليه بعض الرؤساء يذكر ان سخفه جاوز التناهي: (٤)

سيدي شخصي الذي قد صار يأتي بالدواهي
انت تدري انه يدفع عن مالي وجاهي
ويذكر الخباز البلدي نتيجة السباب والشتائم و، فهي سم نافع يتجرعه الشائم وعليه الابتعاد عنه، يقول: (٥)

بالغت في شتمي وفي ذمي وما خشيت الشاعر الامي
جربت في نفسك سما فما احمدت تجرييك للسم

(١) الخالديان : ديوان الخالدين ١٢٨ .

(٢) الخالديان : ديوان الخالدين ٣٦ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٤٠/٤ .

(٤) السابق ٢١١/٢ .

(٥) الخباز البلدي شعرالخباز البلدي ٣٦ .

سادسا : رفض بعض المظاهر السلوكية لدى المرأة

ظلت المرأة في القرن الرابع الهجري موضعا للجمال حسب مقياس الافراد والجماعات، يذكرونها - كما ذكرها الاوائل - في مقدمات قصائدهم ويصورون جمالها وانوثتها ويصرحون بحبها وتأثير ذلك في نفوس الرجال من عشق وهيام ووجد .

واذا كانت المرأة مصدر الهام الرجل وقوته وسعادته احيانا فانها مصدر ضعفه وخذلانه وشقائه احيانا اخرى ، وكل يجد النتيجة حسب نظرته للمرأة، أهى عقل وروح ام جسد ولذة ؟

واذا كانت الشرائح السماوية والاعراف والتقاليد الاجتماعية والفكر الانساني قد رسمت طريق المرأة في منظومة المجتمع الذي نعيش فيه، وحددت معالم حياتها لتكون اختا وبناتا وزوجة تبني المجتمع، وتربي افراده على الخير، فاننا نجد ان المرأة قد تتحرف عن جادة الصواب وتتحدر الى ما هو ادنى من منزلتها الانسانية فتغلب عليها الشهوة الحيوانية ، فتضل هي وتضل غيرها ويكون الدمار والخراب في المجتمع .

ولتغير سلوك بعض النساء في القرن الرابع الهجري لتغير احوال المجتمع في ذلك العصر بما دخله من عناصر وثقافات اجنبية واختلاط بين الامم ، انقسم الشعراء في نظرتهم الى المرأة ، فمنهم من غلب عليه المجون واللهو ، وركض وراء لمذاذاته ، ومنهم من رفض ذلك واعلنه في شعره .

ولاحظ العرب تلك الحرية الكبيرة التي تركها رجال الأمم الاخرى لنسائهم، فكان يأمرن وينهين، وبعضهن يأتين الفجور على مرأى من ازواجهن فكانت موجه فتن النساء والغواني والجواري قوته مؤثرة في نفوس الرجال.

ولم يستهو جسد المرأة كثيرا من الشعراء ، فوقفوا منها موقفا حذرا، ولم تلهج السنتهم بما لهج به غيرهم من فسق ومجون ، فتجاهل بعضهم الهوى ورفض ما تخفيه النفوس من مشاعر ازاء المرأة ، كما فعل المتنبي اذ يقول: (١)

لهوى النفوس سريرة لا تعلم عرضا نظرت وخلت أني أسلم

وهو (المتنبي) لا يجد الوقت الكافي لحب النساء ، ويرفض أن يعطيهن وقتا طويلا ،

لأنه مشغول بما هو اعظم من حبهن: (٢)

وللخوذ مني ساعة ثم يبيننا فلاه الى غير اللقاء تجاب

ويرفض أيضا ان يكون رمية للاحاظ النساء أو حاملا لكؤوس الشراب وانما شغله

الشاعل الحرب والطعان: (٣)

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٢١/٤ .

(٢) السابق ، ١٩٢/١ .

(٣) نفسه ، ١٩٢/١ - ١٩٣ .

وما العشق الا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فتصاب
 وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناتي للزجاج ركاب
 تركنا لاطرف القنا كل شهوة فليس لنا الا بهن لعاب
 أعز مكان في الدنيا من سراج ساج وخير جليس في الزمان كتاب
 لان العاقل اذا فكر في مصير كل جمال يسلط عليه الحب، يعدل عنه الى ما يورث
 المجد السودد: (١)

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه لم يسبه
 ويرفض الحسين بن علي المروروزي تحكم المرأة لغلبة عواطفها على عقلها وميلها
 الى الهوى : (٢)

ثنتان يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وامرة الصبيان
 اما النساء فميلهن الى الهوى واخو الصبا يجري بغير عنان
 ورفض بعض الشعراء ما ظهر في ذلك الوقت من اصوات تطالب للنساء بالحق في
 المهام الكبيرة أو الوظائف العامة ، يقول ابن بسام (٣)

ما للنساء وللكتا به والعمالة والخطابة
 هذا لنا ولهن منا ان يبتن على جنابه
 ومما رفض من سلوك النساء - وعيب به ازواجهن - امتهانهن الغناء للكسب والحصول
 على المال ، يقول ابو الفتح أحمد بن محمد بن يوسف الكاتب (٤)

تزوجت ويحك عوادة ليطعمك الناس من اجلها
 لقد جنت في النوم أعجوبة ارى الكلب بانف من مثلها

(١) الممتنبي : ديوان الممتنبي ٢١٢/١

(٢) الشعالي يتيمة الدهر ٨٥/٤

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ٦٤/١

(٤) الشعالي : يتيمة الدهر ٤٣٩/٤

الفصل الرابع

شعر الرفض الاقتصادي

- * رفض الإجراءات المالية الظالمة .
- * رفض الفقر .
- * رفض بعض الظواهر التي تتعلق بأصحاب الحرف (رفض الخرفة) .
- * شعر الكدية .

شعر الرقض الاقتصادي

يظل الحديث عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، لكونهما متكاملين ، أمراً نسبياً ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بمجتمع مثل المجتمع العباسي ، إذ عرف هذا المجتمع تمازجاً بشرياً وحضارياً كبيراً ، اتضح من خلال اتساع رقعة الدولة ، ودخول عدة شعوب في رقعة تلك الدولة عن طريق الفتوح الإسلامية . وظلّت حركة التطور مستمرة مؤثرة في إحداث تغييرات في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بشكل ملحوظ ، كما أن التقلبات السياسية ، والتطورات الاقتصادية ، ساهمت في جعل الوضعين (الاقتصادي والاجتماعي) ، متلازمين ومتغيرين .

وقد عرف المجتمع العباسي تطوراً في المجالات جميعها ، فكان للاستقرار الذي شهدته الدولة الإسلامية في العقود الأولى من تأسيسها على أيدي العباسيين الأوائل ، الأثر الكبير في توطيد دعائمها ، واتساع نفوذها ، وانعكس ذلك الاستقرار في السياسة التي اتبعتها الحلفاء الأوئل في مواقفهم تجاه ما كان يهدد الدولة الفتية .

واعتمدت الدولة العباسية منذ نشأتها على وضع نظام مالي ، تشرف عن طريقه على الأراضي والرعايا التابعين لها ، كما اهتمت بالزراعة والتجارة والحرف .

ونشطت الأسواق ، وتخصص بعضها ببيع المنتجات ، فكان منها سوق العطارين ، وسوق القصابين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وشهدت التجارة نمواً كبيراً نظراً لأهمية الموقع الجغرافي الذي تمتاز به رقعة الدولة العباسية^(١) وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية .

وكانت الاسكندرية وبغداد ، اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر ، في البضائع الكمالية على الأقل^(٢) .

وتكونت فئة من التجار اشغلت في تداول السلع ، وتحديد الأسعار ، وامتازت بمعرفتها بأثمان البضائع ، وأسعار النقود ، واشتهرت بخبرتها الواسعة بالتجارة ومعرفتها بأخلاق الناس^(٣) . وأدى تطور التجارة الى تطور النظام النقدي ، والتعامل المالي ، فكان للصرافين دور هام في تسليف التجار ، وبدأت الصكوك وأوراق الدفع تحل محل التعامل النقدي والتبادل العيني المباشر ، وكان لفئة التجار اليهود دور في الحركة الاقتصادية ، إذ اشتغلوا بتجارة النقد ، وتسليف الناس ، والمراباة .^(٤)

(١) ادم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٣٧٠/٢

(٢) السابق ٣٧٤/٢

(٣) الدوري ، د . عبد العزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، مطبعة ، المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨ م ، ١٦٤

وكانت أدوار الناس وأوضاعهم تتفاوت بتفاوت مشاركتهم الفعلية في النشاطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وقد تبوأ الفلاحون والعمال قسماً كبيراً من تلك النشاطات، وظهر ذلك من خلال التفاوت في الدخل والملكية ، ومن خلال تنوع العمل في المجتمع العباسي .

وارتبط الوضع الاقتصادي في الدولة العباسية في الدولة العباسية بالسياسات الخاصة بالحكام ، فتصرفات الخلفاء العباسيين كانت تتفاوت بين خليفة وآخر ، وبين وال وآخر ، من حيث الالتزام بمصالح الرعية . وظهر التذمر في صفوف العامة ، نتيجة لتصرفات بعض الوزراء والولاة وعمال الخراج الذين تجاوزوا صلاحياتهم فأثقلوا الفلاحين والحرفيين بالضرائب .

لم يكن الاستغلال السياسي في العصر العباسي عاماً ، وكان للمبادئ التي نادى بها معارضو الدولة ، مثل العدل والمساواة ، أثر عميق في تخفيف الاستغلال ، كم كانت تلك المبادئ ركائز للرافضين من الفئات الفقيرة لتهض دفاعاً عن مصالحها ، وكانت أيضاً دعائم لكثير من تحركات العامة وثوراتهم .

وأدى الفقر وارتفاع الأسعار قبل القرن الرابع الهجري إلى الشكوى والتذمر ، فقد كتب أبو العتاهية يشكو الغلاء ويصف حالة الفقراء والمحتاجين قائلاً : ^(١)

من مبلغ عني الإمام نصائحاً متواليّة
إنني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية
وأرى المكاسب نزرّة وأرى الضرورة فاشية

وظهر التفاوت في امتلاك المال والعقار ، في القرن الرابع الهجري ، ولم يكن تصريف الثروة مرضياً ، لكثرة التصرفات الفردية ، وعدم الإشراف الكامل من الدولة ، وتركز التجارة في المدن الكبرى ، وسيطرة التجار على السلع ، وتحكمهم في الأسعار مما أدى إلى الغلاء ، واحتكار بعضهم السلع والمواد التجارية لمضاعفة الربح على حساب الفقراء من الشعب .

وأدى تحكم الأعاجم في بعض أمور الدولة ، وضعف بعض الخلفاء ، وطمع الولاة ، وانتشار اللهو والمجون والترف عند بعض الأغنياء ، إلى سوء أحوال كثير من الناس الاقتصادية الأمر جعلهم يرفضون الإجراءات المالية الظالمة ، ويرفضون الفقر ، ويرفضون الحرف التي لم تكفل لهم العيش الكريم ، فكدى بعضهم واستجدى ، من يأسهم وقلة حيلتهم في كسب قوت يومهم .

(١) أبو العتاهية ، أبو إسحق إسماعيل بن القاسم (٢١٠ هـ) ديوان أبي العتاهية ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٠م ٤٨٧ .

أولاً : رفض الإجراءات المالية الظالمة .

تميّز القرن الرابع الهجري باتّباع بعض الخلفاء والوزراء والولاة والحكام سياسة مالية ثقيلة على الناس ، مرهقة لهم ، تتمثل في الجباية والضرائب ، فقليل إن بعض المدن قد تركها أهلها وخربت لكثرة ما أنقل أهلها من ضرائب الخراج ^(١) . كما أن ضرائب المكوس كانت تؤخذ على البضائع داخل البلاد وخارجها ، وبين مدن الولاية نفسها ^(٢) .

ولاقت سياسة الحكام تلك ، وإجراءاتهم المالية ، معارضة وصلت - في بعض الأحيان - إلى الثورة والتمرد ^(٣) . وارتفعت أصوات بعض الشعراء ، رافضين ، تلك الإجراءات ، شاكين ما يلاقونه ويلقيه عامة الناس من فقر وعوز نتيجة تلك الأحكام . يقول جابر بن حنى التغلبي ^(٤) .

أفي كل أسواق العسراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم
تعاطى الملوك السلم ما قصرُوا بنا وليس علينا قتلهم بمحرّم

ومما رفض من الإجراءات المالية في القرن الرابع الهجري ، تعدد أنواع الضرائب ، إذ لجأ بعض الحكام - في أوقات حاجتهم - إلى فرض ضرائب إضافية ، لتحصيل الأموال ، مما انقل الناس وآلمهم . يقول أبو سعيد الرستمي ، مخاطباً صاحب بن عباد ^(٥) .

ما كان أجملَ في التّجملِ ملبسي وأعفَ في ظلّ القنّاعة زادي
لولا زمان أزمّتْ حالِي له نوبَ تراوح تارةً وتغادي
وأذى فراخ ضاقَ بي أوكارها وكذا البغاث كثيرة الأولاد
وأذى خراج لو سرى لأدائه غرر الليالي عدن وهي دآدي ^(٦)
أبدتْ نجومُ الليل سود نجومه فسي مفرقي فأنار بعد سواد
حصّة حصّتْ جوانب هامتي صفعاً أوافقه من المستادي ^(٧)
ووفود سوء يأنفون زيارتي من صادر أو رائح أو غادي
ورجالة مترادفون كأنما غصّتْ مدارجهم برجل جراد

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ١١٩

(٢) ادم منز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢/١٣٦، ٢٣٧

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧/١٢٨

(٤) الجوهرى : الصحاح ٣/٩٧٩

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/٣٠٩ - ٣١٠

(٦) دآدي : شديدة الظلمة

(٧) الحص : حلق الشعر ، والمستادي : طالب الأداء ، وأصله المستادي (حاشية اليتيمة ٣/٣٠٩)

من كلّ منتفش الشوارب مسمع عبد لآل ربيعة أو عـاد
صهب اللحى سود الوجوه كأنما خضبوا الرؤس بياتع الفرصاد
ما غاب عني واحد الآ ويقفـو إثره ثانٍ وآخر بادي
هذا يواجه شاري متهدداً ويقوم هذا من وراء العادي
ففرانصي من خوفهم مملوءة أبداً من الإخفاق والإرعاد
وإذا أصدر غدوة لم يرتفع عند المساء سواي في الأوراد
ما في يد النقاد من ضربي سوى ضربي ودق الجيد دون جـياد

. ويتكلم ابن الحجاج بلسان ضامن الفرائض ، والضمان عادة متبعة في القرن الرابع الهجري، إذ يضمن أحدهم صدقات ناحية أو خراجها ، بمبلغ معين ، ويشتط الضامن في تحصيل اضعاف المبلغ ، ليحوز من وراء ذلك ثروة . وكان ابن الحجاج قد ضمن فرائض الصدقات بسقي الفرات واستخلف على نواحي فم النيل خليفة ، فكتب إليه (١) :

الحمد لله وشكراً له والله أهل الحمد والشكر
يا أيها الذنب الذي اخترته خليفة ينظر في أمري
أوصيك بالأغنام شراً وهل يوصي أبو جعارة بالشر
امش إليها مشية الليث أو فاحمل عليها حملة البير (٢)
ولا تدع في النيل من إثرها إلا بقايا الصوف والبعر
انظر الى السكباغ من شمها أو مر مجتازاً على القدر
فاقبض على لحيته واحترز من حيلة في أمرها تجري
أريد ان تحصي طاقاتها وكل ما فيها من الشعر
اعمل بها لي عملاً جامعاً مستظهِراً فيه كما تدري
واحذر إذا وفيته في غد أن ينقص الكيل عن الحذر
حتى إذا جنتك سلمتها بذلك الإحصاء الى حجري
أوصيك في القوم بهذا الذي عقدته في السر والجهر
وكيف لا أوصي بهذا وقد بليت منهم ببني البظر
واضطرني جور زماني إلى معيشة تزري على الحر
والدهر قد صارت به هيضة فنحن غرقى في خرا الدهر

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/ ٣٩ .

(٢) البير : ضرب من السباع.

ويرفض أبو احمد بن أبي بكر الكاتب قسوة عمال الخراج ، وإلحاحهم في طلب الخراج ،
على فقر الناس وقلة ما يجدون ، لاقامة شؤون حياتهم يقول^(١) :
سلام الله مني كل يوم . على كتاب ديوان الخراج
يرومون البغايا في زمان عجزنا فيه عن مال الزواج
ويصف ابن الحجاج حاله ، رافضاً ، ما أتاه أحد القواد الاتراك ، عندما اراد أخذ داره^(٢) :
إن اطفالي الذين تراهم حول ناري في الليل مثل الفراش
أترى ما شملت ريح فساهم حين باكرتني وهم في الفراش
وجعيساتهم خلال الزوايا مثل ذرق الفراخ في الأعشاش
لا ترمهم واقبل نصيحة رأيي لك واحذر مغبة الغشاش
ويتألم ابن الحجاج ، ويرفض مصادرة أملاكه ، ويقول^(٣) :
انظر لهارون وقد جاءني يطمع أن يبتزني صنيعتي
جذبت قوس استي في وجهه فقرطست لحيتي ضرطتي
ويرفض ما أتاه عمال الضرائب عندما اغاروا عليه وصادروا غلته ، واصفاً ألمه
ومعاناته من تلك الإجراءات^(٤) :

سوى أن قلبي قد صرفته في شغله بالأسى عطلتي
وكانت بتكريت لي غلة فقلت بأجمعها غلتي
أغاروا على سمسلي غارة تعدت فأتضت الى حنطتي
فلا زال في نقمة كل من أزال بحيلته نعمتي
ويتندر أبو الحسن علي بن الحسن اللحام الحراني ، بالاجراءات الظالمة عندما صرف
عن وظيفته في بريد الترمذ ، وعين بدلاً منه ابن مطران^(٥) :
قد صرفنا وكل من كان قبلنا صرف
وصرفنا بشاعر نعتي ليس ينصرف
وعنى بذلك الأحمق .

* * * * *

(١) الشعالي : يتيه الدهر ٦٦/٤ .

(٢) السابق : ٤٣/٣ .

(٣) نفسه ، ٤٢/٣ - ٤٣ .

(٤) نفسه ، ٥٦ / ٣ .

(٥) نفسه ١٠٣ / ٤ .

ثانياً رفض الفقر

كانت العامة في القرن الرابع الهجري تعاني كثيراً من الضنك والضييق لكثرة الضرائب التي كانت تجبى منها ، وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك ، ما كان يتقاضاه الطبيب الذي يدور من بيت الى بيت لمعالجة العامة بأجر عن كل مريض ربع درهم ، وما كان يدفعه بعض العامة أجرة لدكان مقدارها نصف درهم (١) .

وزادت حالة العامة بؤساً وتعاسة ، وأصابهم الفقر والإملاق ، في أواخر القرن ، مما سبب في كثرة العيارين والشطار الذين كانوا يطالبون بالعدالة الاجتماعية ، وكرامة العيش ، إذ كانوا يرون فئة قليلة في الترف والنعيم ، وهم محرومون يتجرعون البؤس والمسغبة. فأثاروا الاضطرابات والفتن لسخطهم الشديد على الاغنياء والمترفين من رجال الدولة وغيرهم (٢) .

واتسم العصر بظاهرة شكوى الفقر ، وأكثر الشعراء من الشكوى ، وجاء شعرهم يصف حالهم ، ويظهر ما يعانون من ألم ومشقة ، نتيجة للأوضاع الاقتصادية التي يعيشونها ، وأبان كثير منهم عن عدمه ومعاناته ، وأثر ذلك في حياته ، وحياة أفراد أسرته . يقول أبو الفتح البستي يصف حاله (٣) :

يا قوم إني جائع والجوع من إحدى الفجائع
ولعلني فيما قضى قد كنت أشنع ألف جائع

ويصف الأحنف العكبري آلامه وآلام الفقراء أمثاله (٤) :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال
بالأماتي أقول لا بالنعاتي فغذائي حلاوة الآمال
لي رزق يقول بالوقف في الرأي ورجل تقول بالاعتزال

ويصف (العكبري) حالته ، ويرى أن أقل الدواب أحسن حالاً منه ، يقارن نفسه بالعنكبوت ، والخنفساء ، فإذا بيما حصلا ما لم يستطع الحصول عليه ، وهو من بني البشر (٥) :

العنكبوت بنت بيتاً على وهن تأوي إليه وماله في مثله وطن
الخنفساء لها من جنسها سكن وليس لي مثلها إلف ولا سكن

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ١٥٥/٢

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧/ ١٢٦ ، ١٣٩ ، ١٥٨

(٣) د محمد مرسى الخولي : أبو الفتح البستي حياته وشعره ، ٢٧٩

(٤) الثعالبي : بيتيمة الدهر ٣/ ١١٨

(٥) السابق ، ٣/ ١١٨ .

وأصاب الفقر البيغاء ، وعضته الدهر ، وأشار إلى ذلك بوضوح ، خلال مدحه لعميد الجيوش ، فقال مستغيثاً (١) :

سألت زماتي بمن أستغيث فقال استغث بعميد الجيوش
نبت بي داري وفرّ العبيد وأودت ثيابي وبعثت فروشي
وكنّ ألقب بالبيغاء قديماً فقد مزق الدهر ريشي
وكان غذائي نقي الأرز فهنا أنا مقتنع بالحشيش

ويشكو أبو بكر الخوارزمي الفقر في اثناء مدحه عضد الدولة ، يقول (٢) :

وزدت من العيال وذاك أني كتبت على لقائك من أعول
وعشت وناقص رزقي فأضحى مفاعلتن مفاعلتن فعمول
فأصبح رزقه " وافرأ " بعد تقرّبه من الممدوح .

وشكا المتنبي الفقر ، وكان أول ما عبّر عنه في أسفاره الأولى في الشام ، بمرارة وحرقة ، وقد ضمن كثيراً من مدائحه أبياتاً في شكوى الفقر ، ورقة الحال ، يلمس القارئ من خلالها رفضاً لتلك الحال المؤلمة ، يقول ممهّداً لمدح المغيـث بن بشر العجلي (٣) :

فسرتُ نحوك لا ألوي على أحد أحت راحلتي الفقر والأدبا
أذاقتني زمني بلوى شرفتُ بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا
فالموتُ أعذرُ لي والصبرُ أجملُ بي والبرُّ أوسع والدنيا لمن غلبا

ويقترن رفض الفقر عند المتنبي ، في كثير من الأحيان بذكر بخل الناس في زمنه ، والنفمة عليهم ، لقعودهم عن اكتساب الثناء واقتناء الحمد بالجود (٤) :

لم الليلي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم
أرى أناساً ومحصولي على غنم وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم
وربّ مالٍ فقيراً من مروتِهِ لم يثر منها كمّا أثرى من العدم

ولذا فإنه يعلن تمرده وثورته على الأوضاع قائلاً : (٥)

سيصحبُ النصلُ مني مثل مضره وينجلي خبري عن صمّة الصمم
لقد تصبّرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مفتحم
لأتركن وجوه الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساق على قدم

(١) البيغاء : شعر البيغاء ، ١١١ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٤ / ٢٢٣ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ١ / ١٢٠ - ١٢١ .

(٤) السابق : ٤ / ٣٩ .

(٥) نفسه : ٤ / ٤٠ .

وأَتعب خلق الله من زاد همته وقصر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله فينحلل مجد كان بالمال عقده
فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده
ويكون رفض الفقر مقروناً بالحزن والتفجع ، إذا ما كثر العيال وقلّ ما باليد ، يقول محمد بن هارون الأكتمي (١) :

يا أيها ذا استمع مقالِي فليس في قصتي ضلال
ثلاثة ما لها مثال السجن والجوع والعيال
ويقول كشاجم (٢) :

الحمد لله نال الناس حظهم وأخطأتني على استحقاقها الرتب
وعاقتني عن طلابيها أصيبيّة يأبى فراقهم الأشفاق والحدب
ولي قوادم لو أني حذف بها لأنقضتني ولكن أفرخي زغب
وللمراتب أسباب مبلّغة كما لها عن من ادراكها سبب
وما التعجب لو أني ظفرت بها بل في تنكبها اللأوى بها العجب (٣)
فإن يكن أدب من رتبة عوضاً فقد قضى ما عليه العلم والأدب

ويشكو ابن سكرة الهاشمي حاله ، ويتألم لفقد الأخوان ، معلناً سخطه وغضبه على العيش الذليل . يقول (٤) :

جملة أمري أنسي مفلس وليس للمفلس إخوان
وكلّ ذي عيش بلا درهم فعيشه ظلم وعدوان

وبسط ابن الحجاج شكواه المقرّنة بالألم والمعاناة مما يلاقيه من فقر وجوع ، وهو بلا شك - برفض الحال التي يعيش فيها - ويلقي باللوم على المجتمع الذي تخلى عنه (٥) :

ما حال من يأوي إلى منزل أرفق منه المسجد الجامع
لا يرتوي العطشان فيه ولا يلحق ما يفتاته الجائع
وسوقه كاسدة بينكم لا مشتر فيها ولا بائع

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ١ / ٣٩٤

(٢) كشاجم : ديوان كشاجم ٤٢

(٣) اللأواء : الاحتباس والشدة

(٤) الشعالي : يتيمة الدهر ٣ / ٢٥

(٥) السابق ، ٣ / ٥٦ .

ويصل الأمر بابن الحجاج إلى الخيال ، فهو لم يذق طعم الخبز ، ويعيش دون غذاء كالملائكة ، وفي ذلك آية لم يعطها الانبياء الأوائل ، يقول ملمحاً إلى رفض سياسة الدولة الاقتصادية^(١) :

اتعشى بغير خبز وهذا خبري منذ مدة في غذائي
فأنا اليوم من ملائكة الدولة وحدي احيا بغير غذائي
آيسة لم تكن لموسى بن عمران ولا غيره من الانبياء
ويصور أبو أسحق الصابي حرّ حشاه ، وما فيه من نار تلتهب ، قهراً على فقره ،
ويساوي الأمر بمعادلة لو أنها تمت لعاش سليمان معافى من البرد ، ولكن هيهات للنار التي بين
الضلوع ان تعطي الدفء والحرارة لجسم يتجمد من البرد^(٢) :

أتاني شتاء ليس عندي دثارة سوى لوعة في الصدر مشبوبة الوقد
فلو أن برد الجلد عاد إلى الحشا وفار الحشا الحران مني على الجلد
أزححت لنفسي علّتها فأعرضت عن البث والشكوى إلى الشكر والحمد
وداويت داءيّ النقيضين ذا بذا أعدل إفراطاً من الضدّ بالضدّ
ولكنني استبطن الحرّ كربة واستظهر الضرّ الشديد من البرد^(٣)
وكم تثبت الحوباء في شبح به جروح دوام من مناحسة النكد
اليماث وقع لو تكون بيذبل تضعضع ركناه تضعضع منهذّ

ويشكو أبو الحسن السلامي - رافضاً - فقره الذي يلزمه ، ويحيط به ، إحاطة الزيق بالعنق ،
ويعلن عن فقدانه كل شيء ، مستثيراً هم الناس ، لعلمهم يرحمون عزيز قوم ذل ، فإن الصديق
وقت الضيق^(٤) :

لَبَسْتُ العُدمَ حتّى صار ذيلي يضيق تقلبي فيه كزريقي
وكادحتُ المطالبَ بعد ضرّ ودارأت المعيشة بعد ضيق
فقد أوقدتُ صندوقي ثيابي وصبّ الماء في حبّ الدقيق
فهل للناس يا للناس حرّ يبيض وجه ممتحن مضيق
أريد أخي إذا ما ثل عرشي وصرت إلى المعيشة في مضيق
فأما حين يصلح بعض حالي فأن الناس كلهم صديقي

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ٣ / ٥٦ .

(٢) نفسه ٢ / ٢٩٥ .

(٣) الحوباء : النفس أو الروح .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ٤٢٦ .

ويتشابه بديع الزمان الهمذاني ومحمد بن عبدالعزيز السوسي في رفض الحالة التي وصلا إليها ، فهما لا يجدان شيئاً في بيتيهما ، وقد بلغ العوز والفقر بالأول ان ليس في بيته شيء إلا اسم البيت ، وبلغت الفاقة بالثاني أنه آمن اللصوص على بيته ، فليس فيه شيء ، يقول الاول : (١)

أصبحت في البيت بلا بيت أقلب الكفة على ليت

وصاحب البيت يريد الكرا وليس في البيت سوى البيت

ويقول الثاني من قصيدة تربو على اربعمئة بيت في وصف حاله وتقلبه في الأديان والمذاهب والصناعات (٢):

الحمد لله ليس لي بخسنت ولا ثياب يضمها تخسنت

سيان بيتي لمن تأمكه والمهمة الصححان والمرت (٣)

أمنت في بيتي اللصوص فما للص فيه فوق ولا تحسنت

فمنزلي مطبق بلا حرس صفراً من الصفر حيثما درت

إبريقي الكوز إن غسلت يدي والطين سعدي وداري الطست

يا ليت شعري مالي حرمت ولا أعطي من إن رأيت اغتظت

بل ليت شعري لما بدا يقسم الأرزاق في أي مطبق كنت

ويشعر أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي بالغربة، وهو في وطنه، لأنه فقير، بالفقر غربة، والمال وطن (٤):

الفقر في أوطاننا غربة والمال في الغربة أوطان

والأرض شيء كلها واحد والناس جيران واخوان

ويصل ابن نباتة السعدي إلى نتيجة مؤداها ، أن الحياة لا تطيب إلا للأغبياء الجاهلين الذين لا يملكون عقلاً ، يرون فيها مصائبهم ، ويدركون بها معاناتهم وآلامهم . فالحياة لا تحلو إلا للجاهل ، وهي مريرة على العاقل . يقول : (٥)

ما بال طعم العيش عند معاشر حلوة وعند معاشر كالعقَم

من لي بعيش الأغبياء فباته لا عيش إلا عيش من لم يعلم

وهذا شبيه بقول ابن المعتز (٦):

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

(١) بديع الزمان الهمذاني : ديوان بديع الزمان الهمذاني ٤٧ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣ / ٤٢٦ .

(٣) المهمة : الفقر والصحراء ، الصححان : الأرض الجرداء ، المرت : الأرض بلا نبات.

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢ / ٧١ .

(٥) السابق ٢ / ٣٨٢ .

(٦) نفسه ٢ / ٣٨٢ .

ويقول المتنبي (١):

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
ورغم مدافعة كثير من الناس للفقير ، واستعانتهم بأعمال ، أو حرف ، يقومون بها على
العيش ، إلا أن الفقر لازمهم ، ولقوا في حياتهم العوز والهوان ، فهذا السري الرفاء يصف حاله ،
ويشكو فقره قائلاً : (٢)

ينبيك عن صحة أخباري	عسري من العشق وإيساري
وسوقة أفضلهم مرتد	نقصاً ففخري بينهم عاري
وكانت الإبرة فيما مضى	صائنة وجهي وأشعاري
فأصبح الرزق بها ضيقاً	كأنه من ثقبها جاري

وهذا أبو هلال العسكري " كان يُبَزَّرُ احترازاً من الطمع والدناءة والتبذل " (٣) ولكنه عانى
من الفقر ، وشكاه ، رافضاً ما آلت إليه حالته ، قائلاً : (٤)

العين تذرِفُ والفؤاد يذوبُ	والوَجْدُ يحضُرُ والعزاء يغيبُ
ولقلة الكرماء أنت مضيق	ولكثرة الجهال أنت غريب
تالله لم تخطئك أسباب الغنى	إلا لأنك عاقلٌ وأديبُ
فاصبر فقد عزاك عن ذرك الغنى	أن ليس يدركه أغرٌ نجيبُ
عابوا قطوبي أن تعذرَ مطلبي	أرأيتَ بديراً ليس فيه قطوب
وشحوب جسمي من مواصلة السرى	هل من هلالٍ ليس فيه شحوب
ولقد يدلُّ على كمال كرامتي	أنِّي إلى قلب الكريم جيبُ

وبعد عبيد الله بن محمد بن أبي الجوع قوت يومه من اللذات . فإذا كانت ملذات الأغنياء
في الأطعمة الفاخرة والشراب والغناء والقيان والرياش والقصور وغيرها ، فإن لذة عبيد الله
الخبز ، ومع هذا فهو لا يجده فيتجرع الغصص قائلاً : (٥)

أرى اللذات تغبر بي يمينا	على رغمي وتغبر بي شمالا
فأجرع دونها غصصاً لأنني	أشاهدها وما أعطيت مالا

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٢٤ / ٤

(٢) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ٢٨٩ / ٢

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ١٣٥ / ٣

(٤) أبو هلال العسكري : شعر أبي هلال العسكري ٦١

(٥) النعالي : يتيمة الدهر ١ / ٣٩٧

ولم تكن روح الشكوى المبتوثة في كثير من أشعار القرن الرابع الهجري بسبب سوء الحالة الاقتصادية فحسب ، وإنما هي تعبير عن آلام العصر وأحزانه وما فيه من حرمان وبؤس ، وقد تمنى بعض الشعراء ، من شدة بؤسهم ، أن يكونوا بمنزلة حيوانات الأغنياء المترفين ، فهي أحسن حالاً منهم ، وأكثر نعima ، ولا يصيبها الفقر ، ولا تأتيتها الحاجة من بين يديها أو خلفها . يقول ابن الحجاج - وقد رأى كلاب عز الدولة بختيار تطعم لحوم الجدا: (١)

فيا مولاي رافقتي بكلبٍ لآكل كل يوم مع رفيقي

ويقول الأحنف العكبري : (٢)

تري العقيان كالأذهب المصفى تركب فوق انقار الدواب
وكيسي منه خلوا مثل كفي أما هذا من العجب العجائب

وبلغت الشدة عند بعض الناس حداً ، خامرهم الشك معها في أرزاقهم ، وأقدارهم المكتوبة من تلك الأرزاق ، وامتلك اليأس نفوسهم ، ولم يعد للأمل مكان في قلوبهم ، وضعف يقينهم ، فنبت منهم كلمات دالة على ضعف إيمانهم . يقول ابن لنكك ، رافضاً رزقه ، لائماً الأقدار : (٣)

لم يبق حرٌ إليه يُختلفُ بل كل ندل عليه مختلف (٤)

يا فلُكاً داراً بالندالة والجهل إلى كم تدور يا خـ

فعاقل ما يبلى أملُهُ وجاهل باليدين يقتـرف

ونسى القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني - في لحظة يأس - أن رزقه في السماء ، وأن أهل الأرض لو اجتمعوا لن يستطيعوا نفعه أو ضرره ، إذا لم يكن ذلك مكتوباً من الله عز وجل ولكنه لشدة ما به أفرد المعونة لأهل الأرض قائلاً : (٥)

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع فقلت: ولكن مَطْلَبُ الرزق ضيق

إذا لم يكن في الأرض حرٌّ يعينـني ولم يك لي كسبٌ فمن أين أرزق

ورفض أبو الفرج علي بن الحسين بن هندو السعي في مناكب الأرض طلباً للرزق لأنه ينس من الحصول على أكثر مما حصل عليه ، يقول (٦):

جَرَى قَلَمُ الْقَضَاءِ بما يكون فسيان التحرك والسكون

جنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ ويُرزقُ من غشاوته الجنين

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٥٧/ ٣

(٢) السابق ١١٩/٣

(٣) نفسه ٣٥٠/٢

(٤) النذل : الخادم والوسخ

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٣/٤

(٦) الثعالبي : نعمة اليتيمة ١٤٢/١

وتمنى بعض الشعراء الموت ، وفضلوه على الحياة ، إذ لم يستطيعوا توفير المقومات الأساسية للعيش ، ومن هؤلاء المهلبى الوزير ، فقد كانت حالته قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة " وكان يقاسي منها قذى عينه وشجى صدره ، فبينما هو ذات يوم في بعض أسفاره مع رفيق له من أصحاب الجراب والمحراب ، إلا أنه من أهل الأدب ، إذ لقي في سفره نصيباً واشتهى اللحم ، فلم يقدّر على ثمنه ، فقال ارتجلاً : (١)

ألا موتٌ يباعُ فأشتريه فهذا العيشُ ما لا خير فيه
ألا موتٌ لذيقِ الطعم يأتِي يخلصني من العيشِ الكريه
إذا ابصرتُ قَبْرًا من بعيدٍ وددتُ لو أنني مما يليه
ألا رَحِمَ المهيمَنُ نفسَ حرٍّ تصدّق بالوفاةِ على أخيه

وإذا كان بعض الجاهليين وأد بنته خشيةً الاملاق والعار ، فإن بعض شعراء القرن الرابع الهجري قتل نفسه ، لما كان يعانيه من هموم وآلام ، فلما فقد أبو أحمد بن أبي بكر الكاتب الرياسة والمال ، استكثر من إنشاد بيتي منصور الفقيه : (٢)

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَسْرَفُوا فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ
مِنْهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وفراق كلِّ معاشر لا يَنْصِفُ
وقال في معناهما : (٣)

من كان يرجو أن يعيش فإتني أصبحت أرجو أن أموت فأعتقنا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عرفت لكان سبيله أن يعيشنا

وواظب - في آناء ليله ونهاره - على قراءة الآية { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ } (٤) فقال بعض أصدقائه : إنا لله ، قتل أبو أحمد نفسه ، فكان الأمر على ما قال ، فشرّب السم فمات .

وإزاء تناقضات الحياة ، وغرابة أوضاعها ، وكثرة ضغوطها ، وقفت قلة من الشعراء - لعدم قدرتهم على الصبر أو المواجهة - حائرين لا يستهدون طريقهم ، وعاشوا في صراع نفسي عنيف ، فران على قلوبهم وغطتها غشاوة الجهل والإثم ، فلم يستبينوا أمرهم ، واحذتهم العزة بالاثم ، وتمكن الشيطان من قلوبهم وعقولهم إذ وجدهم فريسة سهلة ، وضالة مستسلمة ، فلم يكتفوا برفض الواقع ومواجهة الناس ، أو الثورة والتمرد ، على الأوضاع ، بل أخذ رفضه شكلاً مريباً ومنحى ضالاً ، فتجاوزوا .

(١) الثعالبي : نيتمة الدهر ٢٢٣/٢٢ - ٢٢٤

(٢) السابق ، ٦٩/٤ .

(٣) نفسه ، ٦٩/٤ .

(٤) الآية (٥٤) من سورة البقرة

رفض أفعال العباد إلى رفض أفعال رب العباد ، واستهجنوا تلك الأفعال ، ورفضوا ما أمروا به ، ردة فعل شيطانية على ما هم فيه ، يقول الخباز البلدي (١) :

يا قاسم الرزق لم خانتني القسم ما أنت متهم قل لي من أتهم ؟
إن كان نجمي نحساً أنت خالقه فأنت في الحالتين الخصم والحكم

ويقول أبو الحسن محمد بن أحمد الافريقي المتيّم (٢) :

تلوم على ترك الصلاة خليلتي فقلت اغربي عني ناظري انت طالق
فوالله لا صليت لله مفلساً يصلي له الشيخ الجليل وفائق
وتاش وبكتاش وكنباش بعده ونصر بن ملك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذي له سراديب مال حشوها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً لان له قسراً تدين المشارق
لماذا أصلي؟ اين باعي ومنزلي وأين خيولي والحلي والمناطق ؟
وأين عبيدي كالبدور وجوهمهم وأين جواري الحسان العواتق ؟
أصلي ولا فتر من الأرض يحتوي عليه يميني ؟ إنني لمنافق
تركت صلاتي للذين ذكرتهم فمن عاب فعلي فهو احمق مائق
بلى ان عليّ الله وسع لم ازل اصلي له ما لاح في الجو بارق
فان صلاة السيء الحال كلها مخارق ليست تحتهن حقائق

كبر مقتاً عند الله كلمة تخرج من افواههم ، وما دروا أن المؤمنين أشد بلوى ، فقد أوصلهم غيهم إلى الكفر والالحاد وعصيان الخالق فيما أمر

ثالثاً : رفض بعض الظواهر التي تتعلق بأصحاب الحرف

تعددت - في القرن الرابع الهجري - وسائل الكسب ، وازدهرت الزراعة والتجارة ، وتطورت الصناعة ، وكثرت المهن ، وانخرط كثير من الناس في الاعمال الحرفية ، ووجدت أسواق خاصة بكل حرفة .

وبجانب الاشتغال بالحرف، اتقن بعض الناس نظم الشعر واشتهروا به، ولم يك أولئك الحرفيون، على قدر من السعة والغنى والجاه، بل أصابهم الفقر، ولم يرتقوا الى مصاف الولاة والحكام والقواد وكبار الموظفين والتجار الأغنياء، فوقفوا على ابوابهم مادحين يستعينون بهم على قضاء حاجاتهم ، وما ذلك إلا لضيق عيشهم ، ولأن حرفهم لم تؤمن لهم وسائل العيش المريحة .

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٢١٣/٢ .

(٢) السابق : ١٥٧/٤ .

وأثرت الحرف في أصحابها، فهم إن تركوها لم يجدوا ما يقتاتون به وعاشوا عيشة ضنكى، وإذا انقطعوا لها ولازموها شغلتهن عن الدعة والراحة والرفاهية التي ينعم بها كثير من الناس في مجتمعهم . علاوة على أن الحرف يطرقها الكساد كثيراً ونفاق نتاجها لا جدوى له ، ولا يحظى صاحب الحرفة بطائل من المال ، وأصحاب الحرف يبذلون ماء وجوههم ورقهم وعبوديتهم بأقل قليل لكل مشتر ، فقير أو غني ، مسلم أو ذمي ، وبذلك يبتعدون عن الشهامة والانفة وعلو الهمة . وعانى كثير من الشعراء الحرفيين من أوضاعهم ، وكانوا يتألمون ويشكون ، لسوء ما وصلت إليه أحوالهم ، وجاء شعرهم معبراً عن تلك الحالة ، ومنهم من ملأه الغيظ على حرفته - سبب فقره - فرفض تلك الحرفة ، وأظهر تدمره ، كما فعل السري الرفاء ، عندما كتب إليه صديق له يسأله عن خبره وهو بالموصل في سوق البزازين يطرز، فأجابه :^(١)

يكفيك من جملة اخباري	يسري من الحب وإعساري
في سوقة إفضله مرتد	نقصاً ففضلي بينهم عاري
وكانت الإبرة فيما مضى	صائنة وجهي وأشعاري
فأصبح الرزق بها ضيقاً	كأنه من ثقبها جاري

فقد أحس السري بضيق العيش ، وأنه إنما خلق لكي يكون شاعراً لا لكي يكون رفاء، فلم تكن حرفته تدر عليه الا كفافاً من العيش يسد به رمقه ، واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرفو والتطريز الى حرفة الادب والشعر ، واشتغل بالوراقة ، فكان ينسخ ديوان كشاجم، إذ كان معاصروه يقبلون عليه ، ويعيش مما يأخذ من أجره نسخه :^(٢)

وكما تظلم السري الرفاء وشكا حرفته ورفضها ، تظلم أبو الحسن علي بن الحسن اللحام الحراني ، وشكا حرفته ، قال لما تقلد عمل الأخصاء :^(٣)

قد صار هذا الاخصاء رسماً	علي كالرسم في المظالم
وصرت أدعى به كأني	ولدت في طالع البهائم

ويرفض أبو الفتح البستي الحرفة ، ويدعو إلى رفضها ، اذا لم يكن لها مردود مادي جيد، فما نفع الاشتغال دون جدوى ؟ يقول البستي :^(٤)

معاناتك الاشغال من غير طائل	عناء فأورد واستبين سنن الرشد
ورفه على النفس التي قد كدتها	ونقصتها في غير جدوى ولا ردة
إذا لم يكن للكدر على الفتى	فاجمامه الاطراف خير من الكد

(١) الثعالبي : بتيمة الدهر ١١٧/٢ .

(٢) السابق ، ١١٨/٢ .

(٣) نفسه ، ١٠٣/٤ .

(٤) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي حياته وشعره ٢٤٦ .

ويقارن كشاجم الرملي بين الوظائف العامة والصناعة ، فيرى أن الوظيفة خير من الحرفة ، لأنها تدر مالا أكثر ، وصاحبها ذو وجهة ومكانة ، وعلى الصانع أن يبذل ماء وجهه في معاملة الناس ويخضع لهم ، ليحصل على رزقه ، وينصح أصحاب الوظائف - ابقاء على وظائفهم - أن يحترموا رؤساءهم ، ويبذلوا المال لهم ، ويصلوهم بالهدايا ، ويصادقوا القضاة ليأمنوا شرهم ، فإنهم أن استثيروا شهدوا على الموظف بالخيانة وسوء الإدارة ، فيكون عزله وصرفه من الوظيفة بعد ساعة ، يقول كشاجم الرملي :^(١)

رأيت تتابع الاعمال اجدى	على العمال من فضل الصناعة
فمن يك اكثر العمال بذلاً	لمال فهو أوجههم شفاعه
فإما كنت في عمل فصانع	بمرفقه وان تلم ارتفاعه
ووفر حصه الاتباع تامن	بذاك من العلاقة والتباعه
وخذ في جمع مال الصلح لا في	إقامة حجة لك في جماعه
وسامح ذا المعونة واعتقده	ليحسن عنك يوما ما دفاعه
وصادق ذا القضاء ولا تثره	فيشهد بالخيانة والاضاعه
وكن في كل ذاك على يقين	بأن الصرف يحدث بعد ساعة

ولم تكن حرفة الوراقة احسن حالاً من الحرف الأخرى إذ عاش اصحابها في فقر ، ولذا شكوا الحياة ورفضوا تلك الحرفة ، ومن أولئك أبو حاتم الوراق ، الذي ورق بنيسابور خمسين سنة ، قال بعدها:^(٢)

إن الوراقة حرفة مذمومة	محرومة عيشي بها زمن
إن عشت عشت وليس لي أكل	أو مت مت وليس لي كفن

ويقول أبو نصر بن أبي الفتح كشاجم الرملي ذاماً حرفة الكتابة:^(٣)

غبط الناس بالكتابة قوماً	حرموا حظهم بحسن الكتابة
وإذا أخطأ الكتابة حظ	سقطت تأوها فصارت كآبة

ولم تكن حرفة التأديب مرغوبة وكثير من الذين اشتغلوا بها كانوا كارهين لها مرغمين عليها ، وحتى الذي " امترج الأدب بطبعه ونطق الزمان بلسان فضله " ^(٤) عمل مؤدياً ، لأن

(١) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ٣٢٥.

(٢) الثعالبي : بتيمة الدهر ٤/٤٤٢ .

(٣) السابق ٢٨٩/١ .

(٤) الثعالبي : تنمة اليتيمة ٢٢/٢.

الزمان أحوجه الى التأديب على كراهيته إياه وتبرمه به لارتفاع محله عنه ^(١) يقول أبو يوسف يعقوب بن أحمد بن محمد: ^(٢)

إني بليت بحرفة بؤساً لها من حرفة
هي حرفة لكنها مقرونة بالحرفة

وكان الفقر نصيب كثير من علماء القرن الرابع الهجري ، وكانت الحاجة ملازمة لهم ملتصقة بهم ، وربما كان ذلك لأن الامارة بعيدة عنهم فينسوا منها ، ولم يشتغلوا بالتجارة والصناعة لأنهما يستلزمان المهانة واتباع الحيل الدنيوية ، والعلماء يأنفون من ذلك فابتعدوا عنهما متعللين بالأمانى الكاذبة ، فوقعوا في الفاقة والفقر ، فأبو عمر المطرزي "كان أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين ، قد منعه اشتغاله بالعلوم عن اكتساب الرزق فلم يزل مضيقاً عليه" ^(٣) وكان أحمد بن فارس اللغوي فقيراً ، يتمنى المال فيقول: ^(٤)

يا ليت لي ألف دينار موجهة وأن حظي منها فلس فلاس
قالوا: فمالك منها؟ قلت تخدمني لها ومن أجلها الحمقى من الناس

ويقول: ^(٥)

إذا كنت في حاجة مرسلأ وأنت بها كلف مغرم
فارسل حكيماً ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

واكثر الشعراء والعلماء من لوم أهل زمانهم على تقصيرهم ، فلم يمدوا لهم يد العون ولم يعينوهم في أوقات شدتهم ، وربما كان ذلك لأنهم أحسنوا البظن بهم على ما يجدون في انفسهم من طيبة ومروءة وشهامة ، ولكن الناس خبيوا ظنونهم ، لأنهم يركضون وراء المال والمناصب ، ولا يقيمون للعلم وأهله وزناً يذكر ، وبخاصة في عصر طغت فيه المادة على المبادئ ، وعم الفساد واهتضم حق الشريف ، وهذا أبو هلال العسكري ، كان شديد التبرم بمهنته ، كثير الشكوى من الزمن ومن الناس ، ولم يكن قانعاً بعمله في التجارة ، وبما يدره عليه من رزق لا يراه مغنياً له ، فرفض حرفة التجارة وكثر تذمره منها . يقول: ^(٦)

(١) الثعالبي ، تنمة اليتيمة : ٢٢/٢ .

(٢) نفسه ٢٢/٢ .

(٣) أبو الفداء : تاريخ أبي الفداء تحت عام ٣٤٥ هـ .

(٤) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٩/٢ .

(٥) السابق ٩/٢ .

(٦) أبو هلال العسكري : شعر أبي هلال العسكري ٨٤ - ٨٥ .

جلوسي في سوق ابيع واشتري دليل على أن الأنام قروء
ولا خير في قوم تذلل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
وتهجوه عني رثاة كسوتي هجاء قبيحاً ما عليه مزيد

وشكا الشعراء سوء حظهم ، وأرجعوا سبب فقرهم وسوء حالتهم إلى احترافهم حرفة الأدب. وصار الأدب - في نظرهم - مجلبة للهم والفقر والغم . ونصحوا غيرهم بالابتعاد عنه ، بعد أن جربوه ، ولكنهم لم يستبينوا الصواب إلا متأخرين ، وكانوا في مقتبل أعمارهم ابتعدوا عن الاعمال والتجارة لأنهم أكثروا من التفكير فيها ، وقلبوا الأمور على كل وجوها فكثرت عندهم احتمالات الربح والخسارة ، وبكثرة الاحتمالات نشأ عندهم فتور وتوان عن العمل ، فاختاروا الأدب الذي اوصلهم إلى الفقر . يقول أبو الفتح البستي :^(١)

للناس في محن الزمان مراتب ولكلهم فيها نصيب راتب
وكان أوفرهم إذا استقرتهم منها نصيباً شاعر أو كاتب
فأقل عتبك والعتاب معاً فلم يسعد بأعتاب الزمان معاتب

ويقول أبو جعفر محمد بن اسحق بن علي البحاثي ، رافضاً حرفة الأدب، داعياً غيره إلى رفضها :^(٢)

إني أقول وخير القول اصدقه والصدق يحمل أحياناً على الكذب
لا تجمعن ابداً علماً ولا ادباً وجد في طلب الاموال واغترب
في المال زين وفخر إن ظفرت به والبؤس والنحس والادبار في الادب

ويسف بعض الشعراء في شكاوهم من الفقر ، ومما جنت عليه حرفة الادب ، ويعاتب أهل زمانه ، ويعتب على زمنه ، بألفاظ فيها قبح وإسفاف من شدة غيظه وما تمور به نفسه من آلام . ولعل الناس تخلوا عنه لما عرفوا فيه من سوء السلوك وقبح الطباع . والناس لا يعينون من يأتي الرذائل ، وإنما ينقصونهم اقدارهم لأنهم ينغمسون في الملذات ، ويطلبون عون الناس من أجلها . فهذا ابن لنكك يرصد دهره العجيب الذي يقف بالمرصاد لكل من اصاب حظاً من الادب والثقافة . فيقول :^(٣)

عجبت للدهر في تصرفه وكل افعال دهرنا عجب
يعائد الدهر كل ذي ادب كأنما ناك أمه الادب

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٢٢٥/٤ .

(٢) الشعالي : نعمة اليتيمة ٣١/٢ .

(٣) الشعالي : يتيمة الدهر ٣٤٨/٢ .

وبعدها ينتجون . فاذا حالقهم الحظ صاروا كبارا منعمين ، والا ظلوا بالفقر والحاجة مقترنين .
ولذا يعجب ابو اسحق الصابي من حرفة الادب ، ويصور فعلها بماله ، وفعلها به هو نفسه ، اذ
اودت به الى الهلاك ، مؤكدا ان الادب والذهب لا يلتقيان ، فهما عدوان لدودان ، مثل
الضب والنون ، ياكل الاول منهما الثاني ولا يبقى له اثر . يقول الصابي: (١)

قد كنت اعجب من مالي وكثرته وكيف تغفل عنه حرفة الادب
حتى انتنت وهي كالغضبي تلاحظني شذرا فلم تبق لي شيئا من النشب
فاستيقنت انها كانت على غلط فاستدركته وافضت بي الى الحرب
الضب والنون قد يرجى التقاؤهما وليس يرجى التقاء اللب والذهب

ويرى ابو المكارم المطهر بن محمد البصري في الشعر للسادات وارتفاعا لهم ، لانه
يسري بذكرهم ويطوف بامجادهم . ويرى ايضا ان في الشعر هونا للشعراء ، وذلا وفقرا لهم .
لانه لا يأتيهم بشيء ، ولا يعود عليهم بنفع . فقال: (٢)

رايت الشعر للسادات عزا ومنقبة وصيتا وارتفاعا
وللشعراء هونا وانخفاضا ومجلبة لذل واتضاعا
ولان في الشعر هونا للشعراء ، يجلب لهم الذل والضعف ، رفضه ابو سعيد الرستمي،
واعلن تركه في قوله : (٣)

تركت الشعر للشعراء اني رايت الشعر من سقط المتاع

رابعاً : شعر الكدية

تطلق تسميات (المكدون) او (بنو ساسان) ، على الذين يسألون الناس مالا او متاعا
اخر من متع الدنيا ، سواء اكان ذلك طعاما ام مالا ام شرابا ام لباسا . وهم طائفة متسولة دأبت
على هذه الطريقة واتخذتها وسيلة للرزق وكسب العيش .

والكدية : الارض الصلبة ، واستعير ذلك للطالب المحث والمعطي المقل ، قال تعالى:
{افرايت الذي تولى . واعطى قليلا واذى } (٤)

وجاء في اللسان : " ويقال اكدي أي الح في المسألة ، وانشد :

تضمن فنعفيها ان الدار ساعفت فلا نحن نكديها ولا هي تبذل (٥)

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/٢٩١ .

(٢) الثعالبي : تنمة اليتيمة ١/١٨ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/٣١٩ .

(٤) الآية (٣٤) من سورة النجم .

(٥) ابن منظور : لسان العرب ١٥/٢١٦ .

ويخاطب أهل زمانه - رافضاً حرفة الأدب - قائلاً : (١)

يقولون لي أصبحت في العلم واحداً وفي الشعر والأدب ما لك ثاني
فقلت صدقتم أيها الناس أنني كذاك ولكن في حرّ أم زمان

ويعزي أبو هلال العسكري نفسه - أحياناً - عما أصابها من فقر، ويسليها بأن ذلك حظ الأديب النابه النجيب، وأنه لو كان جاهلاً غيباً لادرك أسباب الغنى ما ادرك أولئك. وفي ذلك يقول : (٢)

ونقلة الكرماء أنت مضيع ولكثرة الجهال أنت غريب
فاصبر فقد عزاك عن درك الغنى أن ليس يدركه أغر نجيب

ويقول أيضاً : (٣)

لو تم شيء من الدنيا لذي أدب لانساف مال إلى علمي وآدابي
فتم جاهي عند الناس كلهم وطاب عيشي في أهلي وأصحابي

ولعل فقر العلماء متأت من اهتمامهم بالقيمة المعنوية للإنسان، والكمال الروحي، فلا قيمة للإنسان عندهم إلا بالتحلي بالمعارف والاطلاع على الحقائق والوقوف على أسرار العلوم والآداب وبقائنها، وهذا أبعدهم عن السعي لتحصيل القيمة المادية، والكمال الشكلي من جاه ومال وأملاك. فعاشوا فقراء تلازمهم الحاجة طوال حياتهم، يشكون الفقر ويرفضونه. ومع أن أبا هلال العسكري عزا نفسه وسلاها عما أصابها، إلا أنه عاود التذمر والشكوى، ورفض ما جره القرطاس والحبر والقلم عليه من الفاقة وسوء الحال. قال : (٤)

إذا كان مالي مال من يلقط العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعي بالاصالة والحجا وما ربحت كفي على العلم والحكم
ومن ذا الذي في الناس يبصر حالتي فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم

ويرفض بعض الشعراء حرفة الأدب لأنها متلفة للمال، وقارنوا بين حالهم، قبل الحرفة وبعدها، فإذا الأدب نار تأكل ما عندهم، فأيقنوا أن سر الفقر في حرفة الأدب نفسها، لا في تكسب صاحبها بها، أو اشتغاله بما ينتجه منها. ولعل ذلك متأت من أن أصحاب الحرف الأخرى كالتجارة والصناعة يحوزون المال مبكرين فيمجرد اشتغالهم في التجارة مثلاً، تدر عليهم ربحاً ويحوزون المال، أما العلماء والأدباء فانهم يمضون شطراً من أعمارهم في تعلم القراءة والكتابة، وتحصيل العلم والأدب وتصوره واخذه عن الشيوخ، ومن ثم تحقيقه والانتفاع به،

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ، ٣٤٨/٢.

(٢) أبو هلال العسكري : شعر أبي هلال العسكري ١٧

(٣) السابق ١٧

(٤) نفسه ١٧.

فالكدية : اللاحاح ، او بذل الجهد في تحصيل الشيء من المال والمتاع اليسير . ولذا سمي الشحاذون اصحاب الكدية ، لانهم يبدلون ماء وجوههم ويلحون في المسألة كثيرا .

وسمي المكدون ايضا الساسانيين ، نسبة الى ساسان ، احد ملوك الفرس ، او ابن احد ملوكهم ، وقد امتهن الرعي وسؤال الناس بعد ان غلب على ملكه . او سموا بذلك نسبة الى بقايا امراء بني ساسان ، بعد ان تفرقوا في البلاد ودلوا بعد الفتح الاسلامي . (١)

وثمة اسباب ادت الى وجود هذه الظاهرة ، ولعل ابرزها العاملين : السياسي والاقتصادي . وهما متداخلان لا ينفصلان ، فيصاحب الاستقرار السياسي رخاء اقتصادي ، ويلزم التدهور السياسي اختلال واضطراب في موازين الحياة الاقتصادية .

ونيجة لسياسة بعض امراء الدويلات الاقتصادية عاشت فئة من الناس فقيرة ، ونعمت فئة اخرى بالغنى والحياة المترفة ، وفرضت الفئة الحاكمة سيطرتها على مقاليد الامور ، مستغلة ما بحوزتها من اموال وعقارات ، نعمت به فئة الاغنياء .

وعاشت هذه الفئة الغنية التي كانت تمثل جزءا قليلا من المجتمع حياتها المترفة وغناها الفاحش على حساب الفئة الفقيرة الكادحة التي كانت تمثل السواد الاعظم من المجتمع . وقد ذاقَت هذه الفئة الاخيرة ، بسبب جشع بعض الحكام ، مرارة البؤس ، والام الفقر المدقع ، واحتقرت بلهيب شظف العيش الحارق ، بعد ان اتقلت كواهلهم بالضرائب الفاحشة التي كانت تتعرض لها من السلطة وحاشيتها خاصة اذا نفذت خزائنها من الاموال ، ونضبت ببيتهم من الجواهر الثمينة ، فلا يجدون متفسا يملأون به خزائنها ويعيدون اليها وفرتها الا بمال الشعب البائس الفقير . فاحبوا بذلك "الوسائل الاقتصادية القديمة التي جرت العادة باللجوء اليها لامتناع ثروة الناس" (٢) يضاف الى ذلك ان بعض الحكام لا يرون غضاضة ان هم صادروا الناس اموالهم عنوة ، واخذوا - بحكم نفوذهم وقوتهم - ما يملكه الافراد من عقارات . فعندما طلب القرامطة الحديد من سيف الدولة " لم يكن منه الا ان يقطع ابواب الرقة واخذ الحديد بديار مضر ، حتى انه صادر صنوج الباعة والبقالين ، فلما كتبوا اليه مستغنين عن الحديد المطلوب ، اخذه القاضي ابو حصين ، وصنع منه ابوابا لداره " (٣)

ولم تكن الضرائب والمصادرات التي اتعبت الناس وارهقت حياتهم ماديا وجسديا ونفسيا ، بل كان الى جانبيهما الغلاء الفاحش الذي كانوا يعيشون فيه ، بسبب سوء الحالة الاقتصادية وقلة المواد الغذائية في بعض الاجيان ونضوبها من الاسواق احيانا اخرى ، ولجوء التجار - الذين استنفدت ارباحهم الجباية والضرائب - الى فرض اسعار خيالية على السلع بصورة تعجز الفئة

(١) توسع في سبب التسمية ، يوسف الشيباني : اصحاب الكدية ، الساسانيون ، قصيدتان ومقامة ، دار البصائر ، دمشق ، ١٩٨٤ م ، ٧-١٦

(٢) ادم متر : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٢٠٧/١

(٣) مسكويه : تجارب الامم ٢٠٣/٢

الفقيرة عن شرائها لأطعام نفسها وسد حاجاتها. ولذلك عم الفقر والجوع، وطاف الناس في الشوارع يطلبون لقمة العيش، بعد أن عجزوا عن توفيرها. ففي سنة ٣٣٤ هـ "اشتد الغلاء ببغداد حتى أكل الناس الميتة والكلاب والسنائير ، وأخذ بعضهم ومعه صبي قد شواه ليأكله ، وأكل الناس خروب الشوك ، فأكثروا منه، وكانوا يلقون حبه ويأكلونه ، فلحق الناس أمراض وأورام في أحشائهم وكثر فيهم الموت، حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم" (١). وفي سنة ٣٧٣ هـ زادت الأسعار في هذه السنة زيادة مفرطة ، ولحق الناس مجاعة عظيمة ، وبلغ الكر في رمضان ثلاثة آلاف درهم ، وضج الناس وكسروا منابر الجوامع ومنعوا الصلاة في عدة جمع ، ومات خلق من الضعفاء جوعاً على الطريق (٢).

ومقابل هذا الفقر المدقع والموت الداهم ، كان في بغداد ومدن الدولة الإسلامية الأخرى فئة تنعم بالعز والغنى والترف ، فئة نالت الحظوة عند الخلفاء والوزراء ، من الولاة والأمراء والشعراء والمغنين والملهين والندماء ، لا تعرف شيئاً عن فئة الفقراء ، ولم تذق ما ذاقه أولئك من جوع وشظف عيش ، وبينما كان أولئك المترفون يهنتون بعيش ناعم ، كان المعوزون يعانون الفقر والم السؤال فكانت بغداد : (٣)

تصلح للموسر لا لأمريء يبيت في فقر وأفلاس

ورفع الفقراء أصواتهم شاكين باكين ، يصفون ما بهم من عوز ، قال ابن الحجاج : (٤)

سيدي عبدك في الزيت فر من الموت الى الموت

حالي واقطاعي خراب فقد فررت من بيتي الى بيتي

وفي تلك الأوضاع السيئة ، ظهرت فئة كبيرة من الشعب أطلق عليها اسم أهل الكدية أو الساسانية رأيت أن حياتهم في حرج شديد ، وحتى حياة بعض الأغنياء والتجار والعلماء والأدباء ، فالأغنياء يصادرون والتجار ترهقهم الضرائب ، وبعض الأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون ، إلا إذا اتصلوا بأمير . فأخذت تلك الفئة تجوب البلاد وتتنقل في الأمصار متخذة التسول والكدية وسيلتها للحصول على المال ولقمة العيش التي عجزت واخفقت في تأمينها عن طريق الأعمال . وتجدر الإشارة الى أن أناساً آخرين - غير الفقراء حقيقة - كانوا يتظاهرون بالفقر ويلتجئون الى الكدية ، لينجوا من اعباء الحياة الثقيلة ، بدافع الكسل والتواني . فصارت الكدية فيهم عادة لا يستطيعون تركها ، يقول بديع الزمان الهمذاني : (٥)

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٢١/٧

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ١٥٠/٧

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان (بغداد) ٦٩٣/١

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٥٧/٣

(٥) بديع الزمان الهمذاني : ديوان بديع الزمان الهمذاني ٣٤.

لا يغرنك الذي انا فيه من الطرب
 انا في ثروة تشق لها بردة الطرب
 انا لو شئت لاتخذ ت سقوفا من الذهب
 انا طورا من النبيت وطورا من العرب

ويقول ابو ذر البلخي كاشفا هؤلاء الناس: (١)

تفاقر كي يخفي على الناس امره وللناس ابصار على الغيب نافذة
 فابلق دهاء الناس في كل بلدة بأنا وان كنتم دهاء جهابذة

فدهاء الهمذاني ومكره معروف ومكشوف ، واخلاقه لا تزايله ، فلم يدع المسكنة ، ولم يكف عن السؤال ومصانعة ذوي اليسار ، حتى بعد ان حسنت احواله ، واصبح في نعمة وثروة طائلة . وهو (الهمذاني) صريح في الاعلان عن اخلاقه ، وفلسفته التي تصور سخريته بالحياة ، ورفض ادوارها ، فسحر بادبه من اولئك المترفين ، وعرف الطريق الذي يصل منه الى قلوبهم ، واكتشف كيف ينفذ بفته الى خزائهم ليستل بالحيلة والدهاء ما كدسوه فيها من الكنوز والثروات ، وذلك بان يقصد مجالسهم ثم يعرض عليهم علمه ، وغرر ادبه ، حتى يحملهم على الاعتراف بعقريته وذكائه ، وحينئذ يتشوق المجتمعون الى معرفة شخصيته المجهولة ن فلا يعرفهم بشخصه ، ولكن يعرض عليهم فقره وحاجته ، ويشكو اليهم سوء الحال ، وكثرة العيال ، حتى ترق قلوبهم ، فيتسابقون الى اعطائه ، ويتنافسون في الاغداق عليه ، ثم يولي هاربا حتى لا يفتضح امره ، ولا تعرف شخصيته ، لتتاح له فرصة مماثلة . وتلك هي صورة المكدين المحتالين ممثلة في صورة بديع الزمان وسلوكه ، وهي الصورة التي خلعتها على بطل مقاماته (ابي الفتح الاسكندري) . وايا كان حال هؤلاء المكدين ، وسواء اكان الفقر حقا ام وسيلة لابتزاز المال ، فقد تفنن المكدون في السؤال ، وبرعوا في دروبه وحيله ، ونهجوا فيه طرقا واساليب مختلفة ، لانهم وجدوا في هذه الحيل سبيلا الى الغنى ، كما وجد المنعمون المترفون النعيم في قصور الخلفاء ، واعتمدوا على ارث متراكم من صنوف الحيل كان الجاحظ من قبل قد تنبه لها ونبه عليها ، فقد سرد في وصف خالويه المكدي للمكدين عددا من حيلهم ، وبين طرفا من اسرارهم فقال : " وهذا خالويه المكدي وكان قد بلغ من البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها احد ... قالوا له اتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا اعرفهم ولم يبق في الارض مخطرائني ، ولا مستعرض الاقضية ولا شحاذا ولا كاغاني ، ولا بانوان ، ولا قرسي ، ولا عواء ، ولا مشعب ، ولا مزيدي ، ولا اسطيل الا وكان تحت يدي ، ولم يبق في الارض كعبي ولا مكدن الا وقد اخذت العرافة عليه . " (٢)

(١) الثعالبي : نيتمة الدهر ٩٣/٤ .

(٢) الجاحظ : البخل ٣٧ ، ٣٨ .

وانتشرت ظاهرة الكدية في القرن الرابع الهجري ، وصار لها ادبها الخاص ، وما مقامات الهمداني ومقامات الحريري الا نتاج تلك الظاهرة ، التي عبر فيها الناس عن نكوصهم وياسهم ، بل ورفضهم لاوزاعهم .

وعبر شعراء الكدية عن ذلك الياس والانكفاء على الذات، والادبار عن كل القيم الاجتماعية، والاعراف والتقاليد المتعارف عليها ورفضها بشدة والتحول الى اللامبالاة وعدم المسؤولية.

ويعد ابن الحجاج والعكبري والخزرجي وخير من يمثل حركة الكدية من الناحية الشعرية في القرن الرابع الهجري ، وخير من يمثل حياة تلك الفئة المتسولة واللوان كدهم .

وبلغ من استهتار ابن الحجاج ورفضه انه : " كان في اكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف ولا يبني جل قوله الا على سخف " ^(١) وفصائده " مع انتظامها في سلك الملاحاة والبلاغة " ^(٢) الا انها " مفصحة عن السخافة مشوبة بلغة الخلديين والمكدين واهل الشطارة " ^(٣) . قال يصف شعره : ^(٤)

فان شعري ظريف من بابة الظرفاء
الذ معنى واشهى من استماع الغناء

وقال ايضا : ^(٥)

وشعري سخفه لا بد منه فقد طبنا وزال الاحتشام
وهل دار تكون بلا كنيف فيمكن عاقلا فيها المقام

وقال يستجدي الناس ، ويصف حاله : ^(٦)

يا سادتي قول ميت في مثل صورة حي
لم يبق في الحرج شيء اتأذنون بشيء

وقال يصف فقره ، وعدم قدرته على شراء اللحم ، فقد جفاه اللحم - على حبه له -

فأصبح القصاب عدوا له . ويستعدي الناس على شقيقه الذي جفاه طالبا منهم اعادته ، قائلا : ^(٧)

ارى القصاب قد اضحى عدوي لشؤم البخت والملح صديقي
فلو اني افتصدت لما وجدتم سوى الحلتيت داخل باسليقي
جفاتي اللحم وهو شقيق روحي فمن يعدى على ذلك الشقيق
كان اللحم في صوم النصارى توهمني ابن عم الجاثليق

(١) (٢) (٣) للثعالبي : بئيمة الدهر ٣٠/٣ .

(٤) السابق : ٣١/٣ .

(٥) نفسه ٣٣/٣ .

(٦) نفسه ، ٥٧/٣ .

(٧) نفسه ، ٥٧/٣ .

وكتب لبعض الوزراء وقد اراد عمارة مسناة داره - ويعلن ضيقه وبرمه بأذى زوجته وكثرة احتياجاتها ، ويصفها انها دائمة الغم قليلة السرور ، لا تستطيع صبرا على حاله الفقيرة، ويطمئنها ان سيده سيعينه على عمارة مسناة داره ، يقول : (١)

حفي فما أنت بمعدورة ولا على نصحك مشكورة
اذك كم يصدع قلبي به وانما قلبي قـارورة
في كل شيء انت يا هذه وغمومة بي غير مسرورة
حتى مسناتي التي اصبحت وهي خراب غير معمورة
ايتها المرأة لا تقلقي من قبل ان تستعملي الصورة
لي سيد اضحيت عناياته على مسناتي موفـورة
مني انا لا شيء ومن سيدي الاجر والصناع والنـورة

وكتب الى بعض الرؤساء يلتمس عمامه : (٢)

يا من له معجزات جود توجب عندي له الامامة
مالي اذا ما الشمال هبت قامت على راسي القيامة
اظن هذا من اجل اني في البرد امشي بلا عمامة

ويعلن ابن الحجاج عدم قدرته على دفع اجرة تطهير ابنه ، ويستعين بابي قرة على تلك

المهمة التي عزم عليها ، ويستدر عطف الممدوح وشقيقته : (٣)

يا سيدي دعوة من لم تزل تعديه بالجوذ على دهره
ان لي ابنا امس خلفته في منزلي كالفرخ في وكره
والعزم بي قد جد يا سيدي في شهرنا الادنى على طهره
فقوني اني ضعيف القوى على الذي انويه في امره
فانت ستر الله في وجه من اصبح ذاك الطفل في ستره

وقال يطلب مشروباً : (٤)

يا سيدي عشت لي وبعدي وارض نعليك صحن خدي
عندك يا سيدي نبذ وليس لي منه رطل دردي (٥)
تروى واطمأ وذاك بين الاحرار ضرب من التعدي
وقد تناهى امري الى ان بكرت من منزلي اكدي

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ٥٨/٣ ، والمسناة : احباس للمياه

(٢) السابق ، ٥٩/٣ .

(٣) نفسه ، ٦١/٣ .

(٤) نفسه ، ٦٢/٣ .

(٥) الدردي من الزيت ونحوه : ما تبقى راسبا في اسفل الاتاء من الكدر .

وطاف العكبري والخزرجي - كغيرهما من الساسانيين - البلاد ، وتقل في الأمصار ،
 واستخدما حيل المكدين نفسها ، معتمدين على وسائلهم في ابتزاز اموال الناس وحثهم على افراغ
 ما في جيوبهم ، وهم لا يشعرون ان من يقف امامهم يقصد اختلاسهم ، والاحتيال عليهم .
 وقضى هذان الشاعران حياتهما بين التسول والتكدي والاحتيال على مجتمع عصرهم ، وخلفا لنا
 ثروة من شعر الكدية تصور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تحياها بعض فئات
 الشعب في القرن الرابع الهجري ، كما انها تمثل اتجاها جديدا في الشعر العربي له الفاظه
 الخاصة به ، وله لغته المستقلة واصطلاحاته وتعبيراته التي لا يفهمها الا من دخل معترك حياة
 هذه الفئة وعاش اساليبهم ومشى طرقهم واطلع على اسرارهم .

والاحنف العكبري من اوائل المكدين واشهرهم في عصره ، قال عنه صاحب بن عباد:
 " لو انشدتك ما انشدني الاحنف العكبري لنفسه ، وهو فرد بني ساسان اليوم بمدينة السلام ، وحسن
 الطريقة في الشعر ، لأمتلأت عجا من ظرفه ، واعجابا بنظمه " (١)
 ووصف العكبري في شعره الكدية واسرارها ، والمكدين واحوالهم ، زكيف يرتعون في
 الارض كما يشاؤون واني يريدون : (٢)

على اني بحمد الله في بيت من المجد
 باخواني بني ساسان اهل الجد والجد
 لهم ارض خراسان فقاشان الى الهند
 الى الروم الى الزنج الى البلغار والسند
 اذا ما اعوز الطرق على الطراق والجند
 حذارا من اعدائهم من الاعراب والكرد
 قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا غمد
 ومن خاف اعدائه بنا في الروع يستعدي

فالابيات تكشف عن اهل الكدية او جماعة التسول والاحتيال على الناس وكانوا يشكلون
 جزءا كبيرا من فئات المجتمع ، دفعتهم ظروف الحياة القاسية الى رفض مجتمعهم ، والانخراط
 في هذا الطريق دون استحياء او خجل من هذه المهنة . وتكشف ايضا عن ان هؤلاء القوم كانوا
 يرفضون الاوضاع الى درجة انهم لا يرون عيبا ان هم افتخروا بشرف مهنتهم وصرحوا للملا
 بكديتهم ووسائل ابتزازهم للاموال ، فيم يشابهون قطاع الطرق وان اختلفوا معهم في الوسيلة ،
 ولكن الهدف واحد ، وهو الحصول على الاموال .

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ١١٧/٣

(٢) السابق ، ١١٧/٣ - ١١٨ .

ولهذا اشار العكبري في البيت الاخير الى ان اصحاب الثروة اذا وقع احدهم بأيدي قطاع الطرق ورغب في التخلص منهم ، فيكفية القول انه مكذوب .
 ويفخر العكبري بمحاريقه ، وحيله التي استطاع - من خلالها - الحصول على الرزق ، وهذا دليل على رفضه الطرق المشروعة في تحصيل المال ، ورفض اساليب المجتمع في الكسب والعيش ، يقول : (١)

قد قسم الله رزقي في البلاد فما يكاد يدرك الا بالتفاريق
 ولست مكتسبا رزقا بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخاريق
 والناس قد علموا اني اخو حيل فلست اتفق الا في الرساتيق (٢)

ويكشف العكبري عن نقمته على الاثرياء ، ويرفض ما هم عليه من ترف ، ملمحا الى ما هم فيه من بؤس وشقاء ، معلنا ثورته على الاغنياء المتحكمين الذين شبههم بالخنازير: (٣)

رايت في النوم دنيا من مزخرفة مثل العروس تراءت في المقاصير
 فقلت جودي فقالت لي على عجل اذا تخلصت من ايدي الخنازير

وأبو دلف الخزرجي ، شاعر " كثير الملح والظرف ، مشحوذ المدية في الكدية ، خنق التسعين في الاطراب والاعتراب ، وركوب الاسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجرب (٤) " مدوخوا البلاد بكثرة تنقلاته : (٥)

وقد صارت بلاد الله في ظعني وفي حلي
 تغايرن بلبثي و تحاسدن على رحلي
 فما انزلها الا على انس من الاهل

ونظم الخزرجي قصيدة رائية حاكي فيها دالية العكبري السالفة الذكر ، مفصلا فيها اصناف المكدين واحوالهم ، واصفا فيها وسائلهم التي كانوا يعتمدون عليها بارغام مستمعهم للاستجابة لمطالبهم ، مشيرا الى حياة الغربة والشقاء والفقر والحرمان التي كان يحياها مع قومه الساسانيين ، موردا العديد من الالفاظ والمصطلحات والتعبيرات التي ابتدعتها تلك الفئة المكدية .
 وفتح أبو دلف قصيدته بغزل تقليدي ، ثم يعلن تذمره من الدهر وشكواه من الزمن ، متحدثا عن المصائب والآلام التي كانت تعترض مسلكه في غربته متقلبا في البلاد يقول : (٦)

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ١١٨/٣ .

(٢) المخاريق : الالاعيب والتمويه القائم على الكذب والاحتيال .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ١١٨/٣ .

(٤) السابق ، ٣٥٢/٣ .

(٥) نفسه ، ٣٥٢/٣ .

(٦) نفسه ٣٥٤/٣ وما بعدها

جفون دمعها يجري لطلول الصد والهجر
 وقلب ترك الوجد به جمرا على جمر
 لقد ذقت الهوى طعمين من حلو ومن —
 ومن كان من الاحرار يسئلو سلوة الح—
 ولا سيما في الغربية اودي اكثر العم—
 تعريت كغصن البان بين الورق والخض—
 وشاهدت اعاجيبا والوانا من الدهر
 فطابت بالنوى نفسي على الامساك والفطر

ويؤكد الحزرجي نسبه الى فئة المكدين ، معلنا بلا خجل او حرج علو مكانة الساسانيين واصالتهم :^(١)

على اتي من القوم البهائيل بني الغ—
 بني ساسان والحامي الحمى في سائف العصر
 تغربنا الى انا تناعينا الى شهر
 فظل البين يرمينا نوى بطنا الى ظهر
 كما قد تفعل الريح بكثب الرمل في البر
 فطينا نأخذ الاوقات في العسر وفي اليس—
 فما ننفك من صمى وما نفتقر من متر
 فأحلى ما وجدنا العيش بين المكد والخم—

وبعد ذكر روابط الاخوة والصدافة التي بينه وبين الساسانيين ، يستطرد الشاعر مفتحرا بقوه الذين جابوا الارض والبحر باقدام خيولهم يأخذون الجزية من الناس حتى بلغوا فيها من الصين الى مصر والنغرب ، لا تخيفهم قوة ولا يابهون بما يترضهم من حوادث ، فالدنيا ملك لهم ، لا يستطيع احد ثنيهم عن عزائمهم ، يقول :^(٢)

فنحن الناس كل الناس في البر وفي البحر—
 اخذنا جزية الخلق من الصين الى مصر
 الى طنجة بل في كل ارض خيلنا تس—ري
 اذا ضاق بنا قطر تزل عنه الى قطر
 لنا الدنيا بما فيها من الاسلام والكفر

(١) النتعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٥/٣

(٢) السابق ٣٥٥/٣

وبعد وصف حالة الساسانيين ، يتحدث ابو دلف عن اصناف هذه الطائفة وانواعها ، مشيراً الى حرفهم وحيلهم الشيطانية وخرافاتهم وشعوذاتهم ومخاريقهم وما الى ذلك من الرموز والاصطلاحات التي يستخدمونها في لغة الكدية ولا يفهمها غيرهم .

ومن اصناف الساسانيين جماعة تعرف بالعشيريين الذين يتتاقفون على دوابهم كالغزاة ، ومنهم المصطبانيون ، وهم قوم يزعمون انهم خرجوا من الروم وتركوا اهلهم رهائن عندهم فطافوا البلاد ليجمعوا ما يكونهم به ، ومنهم المطراش الذي يستغل يده المقطوعة فيكد عليها ، ومنهم المدرجون ، وهم الذين يقعدون وينامون في الطرقات والسكك والاسواق على طريق المارة ومدرجة الرياح فتعلوهم غيرة التراب حتى يرحموا ويعطوا ، ومنهم القناء الذي يقرأ التوراة والانجيل ويوهم انه يهوديا او نصرانيا فاسلم : (١)

ومنا العشريون	بنو الحملة والكر
ومنا المصطبانيون	من يسزق بالاسر
ومنا كل زمكدان	غدا محدوب الظهر
ومنا كل مطراش	من المكلوذة التر
ومنا كل قناء	على الانجيل والذكر

ومن اصنافهم من يسقي الماء ، ومنهم من يحمل قوسا عربية يستجدي بها ، ومنهم الطفشل الذي علق لسانه وتشبه بالعراة ، ومنهم من يقف على ابواب المساجد مستجديا بعد انتهاء الصلاة ، ومنهم الدشدش الذي يضع في استه شبه حشو كحقنة ، وينام على الطريق ويخرج من استه كالدشيشة ، ومنهم الرشرش الذي يرش بوله على الناس ، ومنهم القشش الذي يخرج رجه فيتأذى منه المصلون ، فيعطونه ليخرج من بينم ، ومنهم اليزنق الذي يتقب في بدنه تقبا وينفخ فيه حتي يتورم جسمه ، ومنهم اليخنق الذي يخنق نفسه حتي يتورم رأسه ، واليزلق وهم العراة ، ومنهم المستعشي وهو الذي يدور على ابواب الدور فيما بين العشائين ويستجدي ، وينعر حتي يأخذ من كل دار كسرة ويرجع بها : (٢)

ومن ساقى الولا بالماء او قوس ابي حجر
ومن طفشل او زنكل او سطل في السبر
ومن زقى الشغائات غداوات وبالعصر
ومن دشدش او رشرش او قشش يستدري

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٣/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٢) السابق ، ٣/ ٣٥٩ - ٣٦٠ .

ومن يزنق او يخنف او يذلف بالدبر
ومنا كل مستعش من النقارة الكدر

وأفاض الخزرجي في تعداد أصناف الساسانيين ، واطال في وصف حيلهم ومكائدهم ،
ووصف اساليب تفاسمهم للارزاق التي يحصلون عليها ، وكيفية ادخارهم كسر الخبز التي
يجمعونها في اكياس كبيرة ، واصفا ملابسهم وثيابهم الرثة ورقعهم البالية.

* * * * *

الفصل الخامس

شعر الرفض الوجودي:

- رفض الزمان
- رفض المكان
- رفض الشيب والكبر
- موقف الشعراء من المرض والموت

رفض الزمان

أصاب الضيق عددا من العلماء والشعراء الذين لم يسعفهم الحظ في التقرب إلى أرباب السلطان ، واضطر بعضهم إلى التنقل في ديار الإسلام طلبا للعيش الكريم ، واتخذ بعضهم الآخر الكدية سبيلا إلى تحقيق متطلبات الحياة . وعبر الشعراء عن الشكوى والضيق وما أصاب الناس من عسر ، حتى أصبح ادعاء الفقر أمرا مشروعاً ، للخلاص من الضرائب والمصادرات ووشايات الوشاة ، وقد عد الأستاذ أحمد أمين العامل الاقتصادي ، عنصراً أساسياً في نشوء أدب الشكوى من سوء الحال والحظ وتقلبات الدهر .^(١) وأصبحت شكوى الدهر ، ورفض الزمان ، وذمه ، مرض العصر . فقلما نجد شاعراً في القرن الرابع الهجري لم يذم الزمان ولم يشك مصائبه .

ومع معرفة الشعراء بأحوال السلطان وسوء تدبيره وتقلباته ، ألا أنهم حملوا الحظ والدهر الآلام كلها ، والفواجع التي كانوا يحسونها ويعيشونها ، فذموا الزمان ، وشكوه ، ومنهم من رفض ما تأتي به الأيام من المصائب والويلات .

ونظر بعض الشعراء إلى أبناء دنياهم ، فوجدوهم شاكين باكين من الأيام ومصائبها . وهم - رغم كثرة شكواهم وأحزانهم - تعجبوا من هذه الظاهرة ، واستغربوا شكواهم من الزمن ونقمتهم عليه ، يقول مهييار الديلمي :^(٢)

ما أكثر الشاكين من دنياهم	قلبت شعري هذه الدنيا لمن ؟
وقد قلبت الناس في حالاتهم	فما وجدت راضياً عن الزمن
قد جعلوا الشكوى طريق بخلهم	يعتذرون في النعيم بالمحن ^١

ووعى بعض الشعراء الحقيقة وجاهر بها ، وصرح أن العيب ليس في الدهر ، بل في أناسه ، فهم أحق بأن يهجوا وليس الدهر ، فأناس هذا الدهر ذئاب ، يأكل القوي منهم الضعيف كما يقول ابن لنكك :^(٣)

نعيب زماننا والعيب فينا	ولو نطق الزمان إذا هجانا
ذئاب كلنا في زي ناس	فسبحان الذي فيه يرانا
يعاف الذئب يأكل لحم ذئب	ويأكل بعضنا بعضاً عياناً

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ١٢١/١ وما بعدها

(٢) مهييار الديلمي : ديوان مهييار ٤٩/٤ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٨/١٩ .

ونتيجة للظروف الاجتماعية القاهرة التي اصطلح على تسميتها بالدهر ، اتسعت الفجوة بين احلام الشعراء ، وواقعهم ، فانسحق بعضهم تحت وطأة الدهر القاسي ، الذي هو بالمحصلة النهائية حاكم ظالم ، وظروف اقتصادية سيئة ، ووضع اجتماعي قائم على الكبت ومصادرة الحريات ، ولم يبق أمام الشعراء ألا الرفض والاحتراق الداخلي ، وينعون حظوظهم ، ويفضون افعال الدهر ، يقول ابن لنكه :^(١)

ان أصبحت هممي في الافق عالية فان حظي ببطن الارض ملتصق
كم يفعل الدهر بي ما لا أسر به وكم يسيء زمان جائر حنق
كم نفحة بي علي الايام من ضجر تكاد من حرها الايام تحترق

ويحمل الشعراء الزمان وزر مصائب الناس ، وينسبون اليه سبب تغير احوالهم ، فهو السبب في ذل الاحرار عند ابن لنكه في قوله :^(٢)

يا زمانا البس الاحرار ذلا ومهانة
لست عندي بزمان انما انت زمانة^(٣)
كيف نرجو منك خيرا والعلی فيك مهانة
أجنون ما نراه منك يبدو ام مجانة^(٤)

و هو (الزمان) السبب في رفعة اذئاب الناس على الاحرار الكرماء ، كما في قول ابن لنكه ايضا :^(٥)

زمان رأينا فيه كل العجائب و اصبحت الاذئاب فوق الذواب
لو ان على الافلاك ما في نفوسنا تهافتت الافلاك من كل جانب

و ينعى ابن لنكه على الزمان فعائلته ، و يرفض مفارقاته ، فالذي يسود الناس هو الجهول الاحمق ، و من اراد السيادة والراحة والغنى ، فما عليه الا ان يكون جاهلا بلا عقل :^(٦)

زمان قد تفرغ للفضول يسود كل ذي حمق جهول
فان احببتم فيه ارتياحا فكونوا جاهلين بلا عقول

ويرفض ابن لنكه ثقل مصائب الدهر ، و يصرح ان الدهر لم يترك حرا الا و اصابه بمصيبة وجار عليه . يقول :^(٧)

(١) الثعالبی : يتيمة الدهر ٣٤٩/٢ .

(٢) السابق ، ٣٤٧/٢ - ٣٤٨ .

(٣) زمانة : المرض المزمن .

(٤) المجانة : من المجون ، و هو العبث و التلهي .

(٥) الثعالبی : يتيمة الدهر ٣٤٨/٢ .

(٦) السابق ٣٤٩/٢ .

(٧) نفسه ٣٤٩/٢ .

جار الزمان علينا في تصرفه و أي دهر على الاحرار لم يجز
عندي من الدهر ما لو ان ايسره يلقي على الفلك الدوار لم يدر

و مفهوم الزمان ، عند بعض الشعراء ، كمفهوم المكان ، الزمان نسبي ، وفقا لحالة الانسان ، فمن لم يستطع تحقيق اهدافه و لم يحصل على مطالبه ، يرى الزمان تمردا و سعة امام الخاملين . و يراه حاجزا كبيرا امام القادرين . لكنهم بقدرتهم ، يستطيعون تخطيه ولا انتصار عليه بالانجاز الكبير . كما يمكنهم تحديه و رفض صعوباته ، و رفض ما في اطاره من مصائب ، و يعلنون الحرب عليه كما في قول المتنبي :^(١)

و لو برز الزمان الي شخصنا لخضب شعر مفرقه حسامي

و ما الذي يريده الشاعر من زمنه ؟ انه يريد من زمنه استقامة الاحوال " والزمان لا يبلغ هذا من نفسه لانه اربعة فصول ، كل فصل ضد الآخر ، او انه يطالب الزمان ان يخليه من الازدحام ، و الزمان ليس يبلغ هذا من نفسه ، فان الليل و النهار ضدان " فيقول (المتنبي) :^(٢)

اريد من زمني ذا ان يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

و لهذا لم يكتف المتنبي برفض الزمن ، بل دعا غيره الى رفضه و الثورة عليه . يقول :^(٣)

لا تلق دهرك الا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يدوم سرور ما سررت به و لا يرد عليك الفائق الحزن

ولا فرق بين الزمان و اهلته عند من يرفضون مساوىء الناس . فيرون في الزمان سبب المصائب . ذلك ان الدنيا هي الحياة ، و الحياة هي الناس ، و الناس يعيشون في زمان و مكان محددين ، فاذا ما وقف الشاعر من اهل زمن موقفا رافضا انعكس ذلك الموقف على زمنهم ، فيصيب الشاعر نغمته على الزمن . يقول ابو علي الفضل بن محمد بن الحسين الطبرسي :^(٤)

لقد ضقت ذرعاً من عجائب ذا الدهر يوافق نذلاً ثم يسطو على حر

ترى الحر فيه معسراً ليس عنده و لو بلغ المجهود غير اذى الفقر

و كل لنيم في رخاء و نعومة كذاك امور الدهر تجري على القدر

على ذاك ان الحر يلقي افتخاره و رفعتة في الفضل لا اليسر و العسر

و كم معسر فيه الفضائل جمة و كم موسر لا فضل فيه مع اليسر

و كان من بعد همة بعض الشعراء ، و سعيهم الى المجد ، و اخفاقهم في

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٤/٥٥ .

(٢) السابق ٤/٢٣٤ .

(٣) نفسه ٤/٢٣٤ .

(٤) نفسه ٤/٢٣٤ .

(٥) الثعالبي : تنمة اليتيمة ٢/٤٢ .

تحقيق ما يريدون ، سخطهم على الزمان و أهله ، حتى حسبوا الدهر حرباً عليهم ، و الناس كلهم عدواً لهم ، حتى الآكام حانقة عليهم . يقول المتنبي في قصيدة انشأها بعد فراق بدر بن عمار ، و يهجو في آخرها ابن كروس :^(١)

فقل في حاجة لم اقض منها على شغفي بها شروى نقير
و نفس لا تجيب الى خسيس و عين لا تدار على نظير
و كف لا تنازع من اتاني ينازعني سوى شرفي و خير
و قلة ناصر جوزيت عني بشر منك يا شر الدهر
عدوي كل شيء فيك حتى لخت الأكم موغرة الصدور

و يؤكد المتنبي في ابیات اخرى اصراره على ادراك مطلوبه ، بملازمة الحرب بعد ان رفض ما اذاقه الزمن من الويلات و المصائب . يقول :^(٢)

أذاقتني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش و انتحبا
و ان عمرت جعلت الحرب والدّة و السمهري اخاً و المشرفي ابا
بكل اشعث يلقي الموت مبتسماً حتى كان له في قتله اربا
فالموت اعذر لي و الصبر اجمل بي و البر أوسع و الدنيا لمن غلبا

و يرفض الشاعر الزمان اذا لم يجد ما يريده فيه ، فالمتنبي يعتب على الدنيا و يلعنها ، بعد ان مدح علي ابن منصور الحاجب و لم يجزه على مدحته الا ديناراً واحداً . فرأى في الدنيا حرباً على الانسان الطموح الفاضل . يقول :^(٣)

لحي الله ذي الدنيا مناخاً لراكبه فكل بعيد الهم فيها معذب
الا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها و لا اتعذب

و يجسد المتنبي خطوب الدهر و يرفضها ، لأنه يواجهها وحيداً دون معين ، وهي تنشب فيه مخالبتها لتفتقرسه ، فعاش رفيق الحزن و الهم . و لما استعان بدنياه لم يجد سوى المصائب و الفقر . يقول :^(٤)

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما أنشبن في مخالبا
أوجدتني ووجدن حزناً واحداً متناهياً فجعلنه لي صاحبا

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٤٢/٢ - ١٤٣

(٢) السابق ١٢٠/١ - ١٢١ .

(٣) نفسه ، ١٨٠/١ - ١٨١

(٤) نفسه ، ١٢٤/١

و نصبنني غرض الرماة تصييني محن أحد من السيوف مضاربا
أظمتني الدنيا فلما جنتها مستسقياً مطرت علي مصائبها
و حبيت من خوفي الركاب بأسود من دارش فغدوت امشي راكبا
حالا متى علم ابن منصور بها جاء الزمان الي منها تائبا^(١)

و اذا كان غير المتنبى يكره الفراق و يذمه بل و يرفضه ، فان المتنبى لا يرى في
الدهر شيئاً محموداً . لأن الأشياء كلها ، في اطار زمنه الرديء - حسب رأيه - مكروهة و
مرفوضة . فيذم زمانه كله ، و لا يخص الفراق دون غيره . يقول :^(٢)

أما الفراق فاته ما أعهد هو توعمي لو أن بيناً يولد
من خص بالذم الفراق فاتني من لا يرى في الدهر شيئاً يحمد

و يتحدى المتنبى الزمان ، و يرفض مصائبه ، و يعلن في ابیات من شعره أنه قوي لا
يستطيع الدهر تغييره ، و أنه شجاع يقود اصحابه اذا ما خفيت عليهم الطرق ، لا يعبأ بالمتاعب
و المصاعب . يقول :^(٣)

يغير مني الدهر ما شاء غيرها و أبلغ أقصى العمر و هي كعاب
و اني لنجم تهتدي بي صحبتي اذا حال من دون النجوم سحاب
غني عن الاوطان لا يستفزني الي بلد سافرت عنه ايساب

و لا يحفل المتنبى بمصائب الدهر ، لأنه لا ينفع الحذر و لا المبالاة ، فقد كثرت
مصائب الدهر عنده لتواليها عليه ، فصار اذا رماه الدهر بخطب من خطوبه ، لم يصل قلبه ، فلا
موضع للصابة ، لتراحمها فيه ، و تكاثرها عليه :^(٤)

رماي الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
و هان فما ابالي بالرزايا لأنني ما انتفعت بأن أبالي

ويرفض المتنبى اتهامه بالضعف ، يطلب من لأمه في الفقر : لا تلمني ، و لم الدهر الذي
اتلف مالي . و من مظاهر رفضه في هذا الموضع ، أنه لا يترجى حصول الأشياء بالأمان ، وإنما
يسعى الى تحقيقها بالعزيمة الصادقة و البأس الشديد ، يدفع عن نفسه شدائد الدهر و مصائبه :^(٥)

(١) الخوص : الخوصاء : الناقة الغائرة العينين من الاعياء . الركاب : جمع الابل ، الدارش : ضرب من الجلود .

و المعنى : بدلت من خوص الركاب بخف اسود من رديء الجلود ، و أنا ماش راكب .

(٢) المتنبى : ديوان المتنبى ٣٨٤/١ .

(٣) السابق ، ١٩٠/١ .

(٤) نفسه ، ٩/٣ - ١٠ .

(٥) نفسه ٣٩/٤ .

ليس التعلل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقبال من شيمي
و ما أظن بنات الدهر تتركني حتى تسد عليها طرقها همي
لم الليلي التي أختت على جدتي برقة الحال و اعذرني و لا تلم

وبعد تأكيد المتنبي أن جوهر العيش وبهجته هما الصحة والشباب، فإذا هما وليا عن المرء ولي، يرفض فعل الدنيا، وإن كان ساراً، لأنها ستعقبه بغم أشد من الفرح، و لأن ما تأتي به من مسرات سيؤول الى أحزان. "قال الدنيا مثل رجل وهب لرجل شيئاً، فلما فرح به، أخذه منه، فكان أسفه عليه أكثر من فرحه به"^(١)، ومع ذلك فالدنيا محبوبة عند أهلها على كثرة غدرها. يقول: ^(٢)

آلة العيش صحة و شباب فإذا وليا عن المرء ولي
أبدأ تسترد ما تهب الدنيا فيأليت جودها كان بخلا
فكفت كون فرحة تورث الغم و خل يغادر الوجد خلا
و هي معشوقة على الغدر لا تحفظ عهداً و لا تتم وصلا
كل دمع يسيل منها عليها و بفك اليمين عنها تخلي
شيم الغانيات فيها فلا أدري لذا أنت الناس اسمها أم لا

وذم الزمان والشكوى من تقلباته، ورفض مصائبه، ما هو -في واقع الحال- إلا ذم للظروف الاجتماعية التي تسمح بوقوع ذلك الظلم على الأفراد، و لكن الشعراء نقموا على الزمان، وحملوه تبعات مشاكلهم، فرفضوه، فهو لايساوي قيراطاً واحداً في نظر ابن لنكك في قوله: ^(٣)

لا مكث الله دنيانا فقيمتها ليست تفي عند ذي عقل بقيراط
دنيا تأبت على الأحرار عاصية و طاوعت كل صفعان و خراط

و يعزم ابن لنكك، إذ يتحدث بلسان الجماعة، فمصائب الدهر لم تقتصر عليه وحده، بل شملت الجميع، فيرفضها بلسان الجماعة قائلاً: ^(٤)

نحن و الله في زمان غشوم لو رأيناه في المنام فزعنا
يصبح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهم أن يهنا
و يقول: ^(٥)

نحن من الدهر في اعاجيب فنسأل الله صبر أيوب
أفقرت الأرض من محاسنها فابك عليها بكاء يعقوب

(١) المتنبي: ديوان المتنبي ١٣١/٣

(٢) السابق ١٣٠/٣ - ١٣١

(٣) الثعالي: يتيمة الدهر ٣٤٩/٢

(٤) السابق ٣٤٩/٢

(٥) نفسه ٣٤٩/٢.

و يمهّد بعض الشعراء لرفضهم الزمان ، بوصف حالتهم ، و الإشارة الى كثرة مصائبهم و سوء عيشهم ، يقول ابن نباتة السعدي :^(١)

خليلي قد لجّ الزمان و لجّ بي مراراً بأحداث الزمان تعوق
فقولا للأتواع المصائب أقصري تعلمت ما يكفي الفتى و يفوق
فان كنت بري تطلبين فاته من البر في بعض الأمور عقوق
و يقول :^(٢)

في كل يوم لنا يا دهر معركة هام الحوادث في أرجائها فلق^(٣)
خطي من العيش أكلّ كله غصص مر المذاق و شرب كله شرق^(٤)
ما للزمان يجاري في تمهله بذ العيون فلم تعاق به الحدق^(٥)

ثم ينتقل الشاعر في خطابه الى معاتبة الدهر ، و مساءلته عن سبب حقه، و كثرة مصائبه ، يقول ابن نباتة :^(٦)

أسائل هذا الدهر مم حقوده علي و فيما خطبه لي ظالم
أصحب فيه الذل و العضب صارم وأركب فيه الخسف و الطرف سالم^(٧)
و من حكم النهد الطمر و سيفه و همته في دمه فهو حاكم^(٨)
عجبت من أني عجبت تعجبي أمن نوب الأيام يعجب حازم ؟
حمت جنبه الأفكار عن كل مرقد فليس ينام الليل و الخلف نائم
و ما زلت أقري وارد الهم مصدراً اذا سار منه راحل حل قـادم
الى أن تركت الهم خزيان نادماً يحاذر مني ما تروم المـراوم
و يقول ابن نباتة متسائلاً :^(٩)

يا دهر هل عاديت فيمن سادا مثلي و هل جاورت فيمن جادا
انا أناس ترحم الأمجادا أكثر من رحمتنا الحسادا

(١) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ١٩٩

(٢) السابق ٢٣٤

(٣) الفلق : الداهية ، و الأمر العجيب

(٤) الشرق : الغصيص بالماء و الريق

(٥) بذ : فاق و غلب.

(٦) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٢٦٨ .

(٧) العضب : السيف القاطع . الخسف : الظلم و الاذلال . الطرف : الكريم من الخيل

(٨) النهد : الفرس الجسيم المشرف ، ينهد الى معالي الأمور . الطمر : المستعد للوثب و العدو

(٩) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٦٥

ثم يعلن الشاعر - بعد المساءلة - ذمه للزمان ، و يظهر مساوئ الدهر ، قائلاً: (١)
 أدم الزمان الى حامديه فقد ركبوه جموحاً عثوراً
 رأيت له همة تستثير رماً طويلاً و باعاً قضيـــــراً
 و كنا لدى الروع أسد العرين نغشي من الدارعين النحورا
 اذا جازنا ذم صرف الزمان تركنا هواه عليه اميراً
 و يقرن الشاعر الدهر بالمصائب و الرزايا ، و يذكر معاكسة الدهر له . قائلاً: (٢)
 سقامٌ ما يصاب له طبيب و أيام محاسنها عيوب
 و دهرٌ ليس يقبل من أديب كما لا يقبل التأديب ذيب
 يحب على المصائب و الرزايا فلا كان المحب و لا الحبيب
 و يشكو ابن نباتة زمانه ، لأن ليلاليه تأخذ من الانسان و لا تعطي ،
 و لأن الجد و الاجتهاد فيه كالقعود و التواني ، فلا فرق بين المجتهد و الكسول: (٣)
 و تأخذ من جوانبنا الليالي كما أخذ المساء من الصباح
 أما في أهلها رجل لبیب يحس فيشتكي ألم الجراح
 أرى التشمير فيه كالتواني و حرمان العطية كالنجاح
 و من لبس التراب كمن علاه فلا تخضعك انفاس الرياح
 و كيف يكد مهجته حريص يرى الأرزاق في ضرب القداح
 و يعلن ابن نباتة تبرمه و سخطه من دهره لكثرة رزاياه و مساوئه قائلاً: (٤)
 برمت من الحياة و أي عيش يكون لمن مطاعمه الخبال؟ (٥)
 و لو أني أعد ذنوب دهري لضاع القطر فيها و الرمال
 ثم يرتقي الشاعر (ابن نباتة) في خطابه الى اظهار سخطه و نقمته على الدهر ،
 ورفضه لزمانه ، و ما يتأتى من ذلك الزمان .

يقول: (١)

تضاعل الدهر حتى ضاع في همي و استفحل الهم حتى صار من شيمي
 ما يشبع الدهر يا هند ابنة الحكم من غير لحمي و لا يرويه غير دمي
 و لو أراق دماء الناس كلهم و لم يدع لهم لحماً على وضم

(١) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٧٠.

(٢) الثعالبي : بيتمة الدهر ٣٨٣/٢.

(٣) السابق ٣٨٤/٢.

(٤) نفسه ٣٨٣/٢.

(٥) برمت : مللت . الخبال : الفساد .

(٦) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٥٧٥/٢ - ٥٧٦.

ان الليالي و الأيام لو عقلت جرين في الخلق عن رمحي و عن قلبي
 ما زلت أعطف أياماً فتمنحني نيلاً أدق من المعدوم في العدم
 وأستكين لها طوراً و أرهبها فلا تزيد مقالاتي على الصمم
 حتى تخوف صرف الدهر بادرتي فرد كفي و اوما أن يسد فمسي
 و يكون رفض الشاعر لزمانه شديداً اذا كانت تجربة الشاعر مريرة، و اذا كانت
 الغصص تلازمه حتى نهايات حياته ، يقول ابن نباتة :^(١)

لو لي على الأيام ناصر فيما تجر من الجرائر
 لمنعتها ظفر الجبان و حنية البطل المغاور
 يا دهر ما تمحي ذنوبك بعد شيبتي بالمعـاور
 تهب المنى هبة الجواد و أنت بالآمال ساخر
 تطوي و تنشر دائباً لا كنت من طاو و ناشر
 و أرى تغير هذه الشعرات أعدت ما تجـاور
 نصب المفاصل و التعضن^(٢) في محيل اللون دائر^(٣)

✓ ويرفض بعض الشعراء الزمن لأنهم يرون فيه خصماً لدوداً، فالشريف الرضي يرى في
 الزمن فجبة أهل البيت، لأنه شهد دماءهم المتناثرة على ارض كربلاء، وهو الزمن الذي شهد
 نفي أبيه، وسجنه، ومصادرة أملاكه، وهو الزمن الذي يسوس فيه الأمور العلوج والسفهاء، فيما
 يتعرض فيه أهل الرئاسة الحقيقية للمحن والمصائب. ورغم أن الزمن مزدوج تارة، كما يقول:^(٤)

كل شيء من الزمان طريف و الليالي مغاتم و حتوف
 الا أن لعبة الزمن ثابتة :^(٥)

عادة للزمان في كل يوم يتنأى خلّ و تبكي طول
 فالليالي عون عليك مع البين كما ساعد الذوابل طول

و الشريف الرضي شقيّ بزمه الذي يرفضه ، شديد التحسس بالماضي ، و هو مهذور
 الطموحات . و يرى في زمنه عدواً لم ينصره يوماً ما ، بل أحاطه بالخذلان . فقال:^(٦)

(١) ابن نباتة السعدي ، ديوان ابن نباتة السعدي ، ٥٣٥/٢

(٢) النصب : الأعياء و التعب .

(٣) التعضن : التشنج .

الدائر : الهالك .

(٤) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٢٥/٢ .

(٥) السابق ١٨٧/٢ .

(٦) نفسه ١٨٩/١ .

فمالي طول الدهر أمشي كأنني
إذا قلت قد علقت كفي بصاحب
لفضلي في هذا الزمان غريب
تعود عواد بيننا وخطوب
و يقول: (١)

يقولون نم في هدنة الدهر آمناً
هل الحرب إلا ما ترون نقيصة
فقلت و من لي أن يهادتني الدهر
من العمر أو عدم من المال أو عسر
ثراء و لا يبقى على وافر وافر
و يرفض الشريف الرضي زمنه لأنه مخادع . و هو، وإن استجاب - أحياناً - إلى
دعوة الداعين إلى مسامرة الدنيا ، فإنه يراها ، مهما دخل في مداراتها، مخادعة ، حتى في
زخرفها العلني و متاعها الفريد . و يشدد - رافضاً - على عدم الاتخاذ بها قائلاً: (٢)
هيهات يا دنيا و برقك صادق أرجو فكيف إذا و برقك كاذب ؟

و مهما أوتي الشريف الرضي من قوة لارغام نفسه على مسالمة تصارييف الزمان ، فإن
النجاح لم يكن بالمستوى المأمول ، بل دون ذلك بكثير . و كثيراً ما حمل شعرة رداً على نفسه،
وهو في حوار مع نفسه ، يذكرها بضرورة توفر الناصر و المعين على الدهر ، و لن يجني
من محاربة الزمان شيئاً . لأنه في تلك الحرب يبقى قليل الناصر . فيقول: (٣)

سالم تصارييف الزمان فمن يرم
من كان يشكو من رشاش خطوبه
حرب الزمان يعد قليل الناصر
فلقد سقاني بالذنوب الوافر
و لم يكتف الشريف الرضي رفض الزمن و مصائبه ، بل رفض مقالة الذين طلبوا منه
مماشاة الدهر . فرد عليهم قائلاً: (٤)

يقولون ماش الدهر من حيث ما مشى
و ما واثق بالدهر إلا كراقب
فكيف بماش يستقيم و أظلمع
على فضل ثوب الظل و الظل يسرع
و قالوا : تعلل ! إنما العيش نومة
و لو كان نوماً ساكناً لحمدته
يقضى و يمضي طارق الهم أجمع
و لكنه نوم مروع و مسقزع

و مما زاد في كره الشريف الرضي للزمن ، سوء حظه الذي حالقه ، مثلما حالف ذوي
الفضل الذين أزررت بهم الدنيا ، فرفض زمنه و لم يتوقف عن مهاجمة سوء الحظ و نكد الدنيا ،
محملاً الدنيا - نفسها - مسؤولية سوء الحظ الذي جعله الزمان له و لأسرته قيداً ، حتى صار
تراثاً مأساوياً ضخماً . يقول: (٥)

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ، ٥٣٨/١ .

(٢) السابق ، ٨٥/١ .

(٣) نفسه ، ٤٨٠/١ .

(٤) نفسه ٦٦٧/١ .

(٥) نفسه ٥٧٨/٢ .

و من عجب صدود الحظ عنا
أسف بمن يطير الى المعالي
الى المتعممين على الخزايا
و طار بمن يسف الى الدنيا

ويقول: (١)

ما الذنب للمزن جازتني مواطره
ويخلص الرضي الى نتيجة مؤلمة ، الى عهر الدنيا وابندالها ، وانعدام العدالة فيها .
ولذا يرفضها غير آسف عليها . قائلاً: (٢)

وجرى الزمان على عوائد كيده
وخللق الدنيا خللق مومس
في قلب آمالي وعكس رجائي
للمنع آونة وللإعطاء
طوراً تبادلك الصفاء وتارة
تلقاك تنكرها من البغضاء
وتداول الأيام يبلينا كما
يبلي الرشاء تطاوح الأرجاء (٣)

ويرفض أبو الفتح البستي زمانه ، لأنه يسخو بالمحن على أشراف الناس وفضلائهم. في الوقت الذي يحابي فيه السفله والأندال . يقول: (٤)

تُعس الزمانُ فان في احسانه
وتراه يعشق كل نذل ساقط
بُغضاً لكل مقدم ومفضل
عشق النتيجة للأخس الارذل
ويقول: (٥)

لا تعجبين لدهر ظل في صبيب
وأنقد لأحكامه أنى تقادُ بها
أشرافه وعلا في اوجه السفلى
فالمشتري السعد عال فوقه زحل
ويؤكد أبو الفتح البستي ما جاء في البيتين السابقين قائلاً: (٦)
الدهرُ سلمٌ لكل نذل
خارت لذي حكمة وارب
لكنه للكريم حرب
فخطه غمة وكرب
همته للسماك سمك
وخده للتراب ترب

وينشر بعض الشعراء خلاصة تجاربهم في حياتهم ، ويعلمون شكواهم من الدهر ، رافضين ، حقد زمانهم وعناده . يقو ابوالفرج البيغاء: (٧)

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٣٥٣/٢

(٢) السابق ٢٧/١

(٣) تطاوح : ترامي . الأرجاء ، الواحد رجا : حافة البئر .

(٤) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ، حياته وشعره. ١٢٠

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣١٥/٤

(٦) السابق ٣٢٧/٤

(٧) البيغاء : شعر البيغاء ٨٨ .

ولقد صحبت الدهر صحبة عارف
وخبرته فرأيت ذنبي عنده
من البلية ان تداوي حقد من
ويقول: (١)

صحبت الدهر في سهل وحزن
فلم أرَ مذ عرفت محل نفسي
ولم تتضمن الدنيا لحظسي
حملت على السوابق ثقل همي
وشمت بوارق الامال دهرها
ولم أرَ كالجياذ اصح ودا
نكلفها عزائنا فتكفي
رسا في تربة العلياء أصلي
وليس علي غير الجد فيما
فان احرم فلم احرم لعجز
وجربت الامور وجربتني
بلوغ غنى يساوي حمل من
منال مسرة الابحـزن
وشاهدت العواقب صفو ذهني
فلم اظفر على ظمأ بمزن
اذا عدل الودود الى التضيي
ونستدني الحظوظ بها فتدني
وأينع في بروج العز غصني
سعيت له لأستغني وأغني
وان ابلغ فنفسي بلغتنني

وبعض الشعراء ، كأبي بكر الخوارزمي ، متقلب الاهواء ، يكره بقدر ما يحب ، ويهجو بقدر ما يمدح ، وربما كانت الظروف المحيطه به هي السبب في هذا التقلب ، من تجوال في البلاد ، وعدم استقرار ، وتقلب في معيشته بين قصور الاغنياء الى حرمانه من تلك المعيشه ، هذا الى تغير حالته الماليه ، من غنى في حالة رضاء حاميه ، الى فقر لغضب حاميه عليه ، ومصادرة أمواله ، نتيجة تقلب الأحوال السياسيّه ، فحاول أن يساير دهره قائلاً: (٢)

لم لا أجاتس دهري في تقلبه لم لأبادل انساناً باتسان
ولكنه لم يستطع ، فأعلن سخطه ونقمته على الدهر ، ورفض دهره ، لأنه سبب المصائب والمتاعب ، فقال: (٣)

أي خير يرجو بنو الدهر في الدهر وما زال قاتلاً لبنيه
من يعمر يفجع بموت الأخلا ء ومن مات فالمصيبة فيه

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٦٥/١

(٢) هند حسين طه : الأدب العربي في اقليم خوارزم ، منشورات وزارة الاعلام ، الجمهوريه العراقيه ، دار الحريه للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ١٥٦.

(٣) العاملي ، بهاء الدين محمد بن حسين العاملي (١٠٣١هـ) : الكشكول ، تحقيق طاهر احمد الزاوي ، دار احياء الكتب العربيه ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهره ، ١٩٦١ ، ٨٦/٢.

ودعا غيره الى رفض ما يأتي به الدهر ، وان كان خيراً ، معللاً ذلك بأن عادة الدهر الاساءة حتى في خيره . يقول :^(١)

لا تشكر الدهر لخير سببه فاته لم يتعمد بالهــــــــــــبه
وانما أخطأ فيك مذهبه كالسيل اذ يسقي مكاتاً خر به
والسم يستشفي به من شربه ما أثقل الدهر على من ركبه
حدثني عنه لسان التجربة ما أهون الشوكة قبل الرطبة

ويذم مهيار الديلمي الزمان ، ويشكو حظه ، ويتساءل عن طريق نيل الحظوظ دون الخنوع ، رافضاً الذل والمهانة . يقول :^(٢)

أيا سكر الزمان متى تفيق ويا سعة المطالب كم تضيق ؟
وياتيل الحظوظ أما اليها بغير مذلة لفتى طريق ؟
أكل فضيلة كانت عليها تعين هي التي عنها تعوق ؟
قضى عكس الزمان الحق ألا يفوق بحاله من لا يموق^(٣)
ولا يحمي رقيق العيش فيه سوى حرا له وجه صفيق
قضاء ضل رشد الرأي فيه وكاذب دونه الظن الصدوق

ويتوج مهيار الديلمي رفضه الزمان ، بتركه ونفوره منه ، والتخلي عنه لمن يحرصون عليه ، والابتعاد عنه ، لأنه يخالف الذين يطلبون الزمان ، فهم يذلون في الطلاب ، وقد استعبدتهم الزمان ، و هو حر عزيز لا يقبل الضيم . يقول :^(٤)

تركتك يا زمان قلبي فدعني اذا أنا لم أردك فلا تردني
أنفر عنك ممتعضاً أبياً و تصحبني بقلب مطمئن ؟
و كان الذل أن ترضى و آبي وأهدم في هواك و أنت تبني
رواؤك بالجمال لغير عيني و وعدك بالجميل لغير أذني^(٥)
وهبتك للحريص عليك لما بلوتك في القساوة و التجني
و كنت الذنب مأكولاً أخوه على ما كان من حذر و أمن
أقلني عثرتي في حسن ظني بأهلك أو برعيك لي أقلني

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٤٠/٤

(٢) مهيار الديلمي : ديوان مهيار الديلمي ٢٩٩/٢

(٣) يموق : يحقق

(٤) مهيار الديلمي : ديوان مهيار الديلمي ١٤٨/٤ - ١٤٩ .

(٥) الرواء : حسن المنظر .

كفرت صحابتي و خفرت سلمى فنحرك و السنان و أنت قرني^(١)
تحد لي النيوب ان افترقتا متى ما كنت مأكولاً فكلني
و من بنيك بالأرحام قطعاً فأم بنيك أم لم تلدني
بعاد بيننا أبداً و فوت بعاد الفضل من خرق و أفن^(٢)
أذلهم الطلاب و عز وجهي و ضامهم الثراء و لم يضمني
أحبوا المال فاعتبدوا ملوكاً و ما كل العبيد عبيد قن^(٣)
تنفخت الحظوظ لهم فظنوا ورام البطن يسمن و هو يضني^(٤)

وما شكوى الزمان ، و رفض مصائبه ، الا رفض لقسوة الحياة و اضطراب الأحوال السياسية و الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية ، و ما رافق ذلك من خطوب و مأس و محن ، انعكست على حياة الناس . اذ تولد بداخلهم الحقد و السخط و النقمة على الأوضاع الفاسدة . فلما أرادوا التعبير عن أسباب آلامهم و بواعث سخطهم ، و رفضها ، " لم يستطيعوا أن يكونوا صرحاء في مواجهة الظالمين و الطغاة ، بظلمهم و طغيانهم خوفاً من البطش و التتكيل ، لهذا تجاهلوا مصدر الفساد الحقيقي ، و كنوا عنه بالزمان أو الدهر أو الدنيا^(٥) لأنها الجهة التي لا يخشى بأسها و بطشها .

و لهذا جعل الشعراء - خشية بطش الحكام و حسابهم - الزمان رمزاً يرفضونه ويشكون سوء حالهم فيه ، و يعلنون مواقفهم المعارضة ليجدوا شيئاً من راحتهم النفسية بعد ثورة النفس المهمومة و لوعة القلب المكثوم .

و يرسم لنا الخبز أرزي صورة عن حالة العصر ، و تبدل الزمان بأحوال الناس ، وكيف عزفوا عن لذاتهم الى بث الهموم و شكوى الزمان . بقوله :^(٦)

و كان الصديق يزور الصديق لشرب المدام و عزف القيان
فصار الصديق يزور الصديق لبث الهموم و شكوى الزمان

(١) خفرت : غدرت .

(٢) الخرق : الحمق ، الأفن : ضعف الرأي .

(٣) القن : العبد الخالص العبودية .

(٤) الحظوظ : الجدود ، الورام : الورم .

(٥) محمود غناوي الزهيرى : الألب في ظل بني بويه ، مطبعة الأمانة .

مصر ، ١٩٤٩ م ، ٢٤٣ .

(٦) ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (٨٧٤ هـ) :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٢ م ، ٢٧٧/٣ .

فأصبح الزمان رمزاً لمحنة الشعراء ، يشكونه و يرفضونه ، بمشاعر حزينة ، لينفوسوا عن همومهم ، و يعبروا عما في داخلهم من سخط و نقمة ، لانتشار الظلم و اضطراب الأمور ، و فساد النظم ، و تدهور الأوضاع ، و اختلاف موازين الحياة ، و ما عاناه مجتمعهم من بؤس و حرمان و فقر . فكانوا بشكواهم الزمان يتمردون عليه ، و يحاربونه ، و كأنه أصبح قضيتهم الرئيسية .

يقول أبو هلال العسكري : (١)

خليلي باع الدهر بالعرف ضيق	على كل ذي عقل وبالفكر واسع
وواقع نعماء عن الحر طائر	وطائر بلواه على الحر واقع
متى ما يصيبني بالقوارع طرفه	أصابته هماتي وهن قوارع
وهمات مثلي للخطوب جوالب	كما أنهن للخطوب دوافع
تريك اشتعلاً بالنجوم طوالعا	وهن إذا لاحت نجوم طوالع
تخاوفي الأيام فهي تخيفني	وللنكس تهديد إذا ريع رائع
ولو كن في عيني لما قذيت بها	فكيف ترى أني إذا صلت خاشع
أنطلع منها في ديار طوالع	بسوء وهماتي عليها طالع
يقارع مني بأسلا ذا حفيظة	يقوم إزاء النصر حتى يقارع
وما ضاع مثلي حيث حلت ركابه	بلى حيث ضاع المجد مثلي ضائع
ومثلي مخضوع له غير انه	إذا كان مجهول الفضائل خاضع
ومثلي متبوع على كل حالة	فإن ينقلب وجه الزمان فتابع

واكثر المعاني المشتركة عند الشعراء ، تحميل الزمان وزر ذلك التناقض العجيب في الحياة ، في جهل الخطوة للناس وشرذمتهم ، فينالون ما يشاءون ، ويحظون بالمناصب والمال والجاه ، بينما يحرم الكرام والأحرار من تطلعاتهم ، ويقف الزمان خصماً عنيداً أمام مطامحهم . ويمثل السري الرفاء هذه المعاني في رفضه وتذمره ، لكنه يتلافى التعبير الصريح ، فيتخذ من شكوى الدهر والتذمر منه ورفضه رمزاً لسياقات أوسع من دلاله دهره . يقول : (٢) :

يا دهر صافيت اللئام مساعداً	لهم وجانب الكرام معانداً
فغدوت كالميزان يرفع ناقصاً	فينا ويخفض لامحالة زائد

(١) أبو هلال العسكري : شعر أبو هلال العسكري ، ١١٨ .

(٢) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ، الجزء الثاني ، تحقيق ودراسة د. حبيب حسين الحسيني ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، دار الرشيد للنشر ، مطابع دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١ م . ١٣٦/٢ .

ويصب بديع الزمان الهمذاني جام غضبه على الزمان ، ويرفض فعاله ، لأنه لا يستطيع التصريح - خوفاً - برفض حكام زمانه . قائلًا :^(١)

قبحا لهذا الزمان ما أربه	في عمل لا يلوح لي سببه
ماذا عليه من الكرام فما	تظهر الا عليهم نوبه
ألم يجد في سواكم سعة	فما يسوى برأسه ذنبه
لا يعرف الضيف أين منزله	ولا يرى المجد أين منقلبه
ما لي أرى الحر ذاهبا ذنبه	ولا أرى النذل ذاهبا ذنبه
من شاء أن لا يناله زمن	فليكن العرض جل من يهبه
أراحنا الله منك يا زمنا	أرعن يصطاد صقره حز به
يا ساغبا جائع الجوارح لا	يسكن الا بفاضل سغبه
يا ضرما في الآتام متقدا	والجود والمجد والندى خطبه
يا صائدا والعلا فريسته	وناهبا والجمال منتهبه
فألدهر نونان لا يدوم على	حال سريع بالناس مطربه

وتبلغ النقمة بالهمذاني حدا ، تجعله يرفض القيم والاخلاق ، ويأس من الزمان اهله ،

فيدعو الناس الى التقلب وعدم الالتزام . قائلًا :^(٢)

ويك هذا الزمان زور	فلا يغرنك الغرور
بروق ومخرق وكل وأطرق	واسرق وطلب لمن تزور
لا تلتزم حالة ولكـن	در بالنيالسي كما تدور

فالمصانعه والمداهنه والكذب والنفاق والتقلب بين المذاهب ، لم تكن مذمومه في نظر الهمذاني الرافض ، ولم تكن الصفات كلها رذائل ، لأنه كان يؤمن جهارا ، وجعله فلسفته وأساس سلوكه في حياته .

ويمتلك القاضي التتوخي جرأته ، ليشير إلى التناقض القائم في ذلك العصر ، الذي جار على الأحرار ، حتى انقلبت فيه الأمور والموازين ، فأصبح العصر ، فأصبح الرأس ذنباً ، وتساوى الشريف والدني ولذا فهو يعجب لذلك التناقض العجيب ، فيذم الدهر ، ويشكو ، بل يرفض فعاله ، ويسأله لعله يجد عنده حكماً عادلاً فيعيد الأمور الى نصابها :^(٣)

أما للدهر من حكم رضى	يدال به الشريف من الدني
فتستعلي الرؤوس على الذنابي	وينتصف الذكي من الغبي

(١) بديع الزمان الهمذاني : ديوان بديع الزمان الهمذاني ٣٩-٤١ .

(٢) السابق ٨١ .

(٣) التتوخي : الفرج بعد الشدة ٥/٥٠ .

ولا يجد الشاعر تميم بن المعز ، غير الله سبحانه وتعالى ، ملاذا لشكواه ، لينصفه من الدهر ، الذي تعاضم في ذنبه عليه . ويستغيث الشاعر بربه من ظلم دهره ، بروح الناقم على الدهر ، اليانس من عدله واستقامته :^(١)

يادهر ما ذنبي إليك وقد تعاضم في ذنبك

بيني وبينك في الذي أوليتني ربي وربك

وأكثر ما كان يؤلم الشعراء ، أنهم يرون الأعاجم والجهال قد تسلموا مقاليد الحكم ، واكتتروا الأموال ، ونعموا بما استطابوا من الملذات ، ويلتفتون الى أنفسهم ، والى مجتمعهم ، فيتحسسون واقعهم ووضعهم المعاشي الصعب ، وقد سدت أمامهم منافذ الرزق ، فتتحول الالام بداخلهم الى ثورة عارمه على الزمان ، تترجم بشعر يقطر نعمة وغضبا ، ويرفض مجريات ذلك الزمان كلها . يقول كشاجم :^(٢)

أبى الدهر الا فعلاً خسيساً وصرفاً يبدل نعماء بوسا^(٣)

وكنت أرى وجهه ضاحكاً فأبدلني منه وجهاً عبوسا

وشيبني حادثات الزمان وأحدثهن تشيب الرؤوسا

ونازعني الدهر ثوب الشباب فنازعني منه علقاً نفيساً^(٤)

تعاتبني ان اطلت الجلوس وعن عذر ما اطلت الجلوسا

وقد يمكث السيف في غمده مصوناً ويستوطن الليث خيساً^(٥)

وينظر الشاعر الى الدنيا ، فيرى أن ترف العيش أصبح لمن كانوا خدماً ، وللأغبياء

الذين لا يعملون شيئاً ، بينما سادة القوم لامكان لهم فيها :^(٦)

أخدم من كان لي خادماً واتبع من رأني رئيساً

جفوت النديم اذن والدمام وأصبحت بعدك أؤدي الجليسا

كأني لم أعُد في مقنّب أقل بحد الخميس الخميساً^(٧)

(١) تميم بن المعز : ديوان تميم بن المعز بن النضر ٨١

(٢) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ٢٨٠

(٣) صرف الدهر : نواتيه.

(٤) نازعه : خاصمه وجاذبه . العلق : النفيس من كل شيء .

(٥) الخيس : موضع (مكان) الأسد

(٦) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ٢٨٠

(٧) المقنّب من الخيل : ما بين الثلاثين الى الأربعين ، تجتمع للغار . قل القوم : هزمهم .

ولذا يقاطع كشاجم دنياه ، ويصرف عنها وجهه ، ويبغض ما فيها ، رافضاً الانقياد والخضوع والاستسلام ، بعد خبر الدنيا ، فلم يجد فيها صفواً لشارب . يقول :^(١)

سأصرف عنك يا دنياي وجهاً وأبغض منك ما قد كنت أهوى
بَلَوْتُ مشارباً لك مترعات على ظمأ فلم أر فيك صفواً

ويظل الدهر موضع نقمة الشاعر ، لأنه يحس أن دهره يحاربه ، ويبغضه حقه ، ويظلمه ، ويلقي وزر حقه عليه ، ولكنه لا يستسلم أمام صروفه ونوائبه ، فالنفس الأبية لا تجد غير التحدي والصمود طريقاً للوقوف بوجه الدهر . فأبو الحسن محمد بن الشيخ بن طلحة ، يأبى القعود أمام نوائب الدهر ، ويرفض الذل والخنوع .
قائلاً :^(٢)

وللدهر أنياب ضواح ضواحك إلي وأسياف قواض قواضب
سأضرب في أقصى البلاد وإني إلى الأمير الأقصى من المجد ضارب

ويرفض أبو علي تميم بن معد ، قسوة زمانه وتلونه ، وظلمه . فالدهر ناصر الجهول ، حرب على الحر اللبيب . وهو إذا أعطى حيناً ، يأخذ أضعاف ما أعطى أحياناً أخرى ، وهو - أيضاً - إذا صفا مرة ، يكدر مرات كثيرة .
يقول أبو علي :^(٣)

يا دهر ما أقساك من متلون في حالتك وما أقلك منصفاً
أتروح للنكس الجهول ممهداً وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفاً ؟
فاذا صفوت كدرت شيمة باخل وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضيك وإن صفوت لأتني أدري بأتك لا تدوم على الصفا
زمن إذا أعطى استرد عطاءه وإذا استقام بدا له فتحرفاً
ما قام خيرك يا زمان بشره أولى بنا ما قل منك وما كفى

ولأن الشاعر خبر الزمان وتأكد من ديدنه ، فإنه لا يأبى لخطوبه ، ومصائبه ، وإنما تزيده تلك الخطوب صلابة وقوه ، فعلاوة على رفض أبي علي تميم بن معد لأخلاق زمانه ، وغدره ، وتلونه ، فإنه ينصح غيره بالصبر على تلك الأخلاق ، ومواجهة الشدائد ، فلا بد من الفرج بعد الضيق ، وما بعد العسر إلا اليسر ، يقول :^(٤)

(١) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ٣٥

(٢) النعالي : تنمة اليتيم ١٩/٢

(٣) النعالي : يتيمة الدهر ٣٦/١

(٤) السابق ٤٤٠/١

ويزيدني كل الخطوب تعظماً
وعلمت أخلق الزمان فلم أضق
وكما يميل الدهر من اعطائه
وكما يكر لمعشر بسعادة
فاذا رماك بشدة فاصبر لها
ويتعالى أبو اسحق الصابي فوق جراحه ، ويواجه الدهر ، بكل ما أوتي من عزم ،
ويرفض الاستسلام للخطوب ، ويصور نفسه في معركتها مع الزمن ، صورة زاهية مشبعة
بالشجاعة والتحدى ، رافضاً الظهور بمظهر الضعف والاستكانة . يقول :^(١)
كأن الدهر من صبري مغيظاً فليس تغبني منه الخطوب^(٢)
يحاول أن تلين له قناتي ويأبى ذلك العود الصليب
ألاقي كل معضلة نأد بوجه لا يغيره القطوب^(٣)
وأعتق العظيمة ان عرتني كأن قد زارني منها حبيب
وبين جوانحي قلب كريم تعجب من تماسكه القلوب
تلوح نواجذي والكأس شربي وأشربها كأني مستطيب^(٤)
ففوق السر لي جهر ضحوك وتحت الجهر لي سر كنيب
سأثبت ان يصادمني زماني بركنيه كما ثبت النجيب
وأرغب ماتجيء به الليلي ففي أثنائه انفرج القريب
ويسلك بعض الشعراء طريق الهزل منفذا لرفض ما يأتي به الزمن . فابن الحجاج
يصف حالته البائسة قائلاً :^(٥)

ما حال من يأوي الى منزل أرفق منه المسجد الجامع
لا يرتوي العطشان فيه ولا يلحق ما يفتاته الجائع
وسوقه كاسدة بينكم لا مشتر فيه ولا بائع

فقد آل عيشه الى الفقر والسوء ، وهي حالة يمكن اتخاذها دليلاً على حالة البؤس التي
شملت حتى الموسرين في العيش من المجتمع ومن كان يتقرب من الحكام وحاشيتهم ، فكيف
بالناس الذين أغلقت في وجوههم قصور الأغنياء ، وسدت عليهم أبواب الرزق ؟!

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ، ٢٩١/٢

(٢) تغبني : تزورني

(٣) النأد : الشديدة الوقع .

(٤) النواجذ : الأضراس .

(٥) الشعالي : يتيمة الدهر ٥٦/٣

ولهذا يشكو بن الحجاج كدر عيشه ، ويشكو زمانه ، ويرفض ظلمه قائلاً: (١)

الى كم يخاسسني دائماً زماني المقبح في عثرتي
تخيفني ظالماً غاشماً وكدر بعد الصفا عيشتي
وكننت تماسكت فيما مضى فقد خاتني الدهر في مسكتي
الى منزل لا يوارى اذاً تحصلت فيه سوى سواتي
مقيماً أروح الى منزل كقبري وما حضرت ميتتي

ولا يتردد ابن الحجاج في تسجيل ما يجري من نهب ومصادرة في ذلك العصر ، بجرأة وشجاعة ، وهو يشكو زمانه ، ويرفض ما حوى من الأعاجيب ، فينقل لنا بذلك شكلاً من أشكال الظلم الذي يمارسه الحكام ، فيصادرون ما شاء لهم ، كلما احتاجوا الى المال كي ينفقوه على ملذاتهم . يقول: (٢)

عجبت من الزمان وأي شيء عجيب لا أراه من الزمان
أتاخذ قوت جردان عجاف فتجعله لأوعال سمان

وبالجرأة نفسها يصف ابن الحجاج حال المرء كيف أصبح يعيش في وطنه سجيناً ، وإن كان غير مقيد ، فيقول بروح لا تخلو من الظرف: (٣)

أيها السائل عن حالي أنا المضروب زيد
وأنا المحبوس لكن ليس في رجلي قيد

ولأن شكوى الزمان أصبحت نشيداً في فم معظم شعراء العصر ، فقد وقر في أذهان بعضهم أن لا فائدة من تلك الشكوى ، وسيبقى الزمان يؤلم أهله ، ويضحك منهم ، وهم يكون . فقال الخوارزمي: (٤)

ومتى شتمت الدهر تشتم صابراً تبكي ويضحك ذلك المشتوم

* * * * *

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٥٢/٣

(٢) السابق : ٥٢/٣

(٣) نفسه : ٢٣٤/٤

(٤) نفسه ، ٥٤/٣

رفض المكان

حفل قاموس الشعراء منذ القديم ، بذكر المكان ومفرداته . وأكثروا من تردد ذكر الأرض والديار وأسماء الأماكن في شعرهم ، لأنها ترتبط بهمومهم ، وتثير أشواقهم ، وأحزانهم ، وحنينهم إلى أماكن لهُوهم ، ومراتع صباهم ، وذكرياتهم ، ومغامراتهم مع من يحبون ، فتبعث الأسى والحزن والشكوى في نفوسهم ، ان هم فارقوها .

ويتضح اهتمام الشعراء بالمكان ، من خلال المقدمة الطليئة التي شكلت حضوراً بارزاً في الشعر العربي ، فكانت القصائد تفتتح بالطلل والبكاء على الديار ، حتى عُد هذا التقليد منهجاً عند ابن قتيبة ، حدد فيه جمال القصيدة ، بقوله : "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما أبتدأ بذكر الديار والدنس والآثار ، فبكى وشكا ، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاغين عنها لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث ، حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به اصغاء الأسماع إليه" (١)

وظلت هذه الظاهرة تلقانا في مقدمة القصيدة العربية على امتداد العصور ، وأصبحت سنة متبعة ، من الصعب الخروج عليها ، حتى عدت القصيدة المجردة من هذا المطلع " بترء ، كالخطبة البترء و القطعاء ، و هي التي لا تبدأ فيها بحمد الله عز وجل على عاداتهم في الخطب" (٢) . و على الرغم من أن معظم الشعراء العباسيين عاشوا متحضرين ، و لم يعانون من البراح و الحنين ، مثل الشعراء الجاهليين ، إلا أنهم نهجوا على منوال الأقدمين في الوقوف على الطلل ، و شكوى الديار ، و نشأت هذه المقدمة عندهم "مرتبطة بالبيئة و نوع الحياة و الحضارة فيها ، و أنها ظلت موصولة بها ، و متطورة معها ، و بذلك لم تتحول إلى تقليد فني فارغ من المشاعر و الأفكار ، كان على الشاعر أن يحرص عليه و يتمسك به على كره منه ، فقد ظل هذا التقليد مرتبطاً بالبيئة ، نابضاً بالحياة . كما عمل الشعراء على أن تستمر للأشكال الموروثة منه حيويته ، و أن تبقى موصولة بحياتهم معبره عن تجاربهم" (٣)

(١) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) : الشعر و الشعراء ، تحقيق

احمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٦ م ، ٧٤/١ - ٧٥

(٢) ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن ابن رشيق القيرواني (٤٥٦ هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجليل للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ م ، ٢٣١/١ .

(٣) د . حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٤ م ،

و لكن الشكوى في المقدمات الطللية اتسمت بالتخفيف من المظاهر البدوية ، في القرن الرابع الهجري ، و انصب اهتمام الشعراء على رقة الألفاظ ، و الصور الجميلة ، وأهملوا المعاني التي ترسم مشاهد الأرتحال و الظعن ، و اهتموا بالمعاني التي يثيرها الفراق، والأماكن القفرة في نفوسهم ، فالوأواء الدمشقي - مثلاً - يتذمر ، و يشكو المكان، و يخاطب الطفل في محاورة باكية ، لكنه لا يصف الأطلال ، كما كان يفعل الجاهليون ، بقدر ما يشير الى ما تثيره تلك الأطلال في نفسه من حزن و أسى : (١)

أربع البلى اني اليك لشاكي و اني على وجدي عليك لباكي
و ما ذاك من بقيا عليك و انما لعشيق بكائي فيك حب هلاكي

وتشابه شعراء الجاهلية وشعراء القرن الرابع الهجري في النقل، والابتعاد عن أماكن سكناهم، أولئك رحلوا طلباً للماء والكلأ، وهؤلاء تنقلوا اما طلباً للرزق، أو هروباً من واقع مؤلم. اذ دفعت الظروف السياسية المضطربة في القرن الرابع، بعض الشعراء الى هجر أوطانهم، لنفورهم من الظلم والبؤس والحرمان، الا أنهم - رغم ذلك - ظلوا منشدين لأرضهم، متعلقين بأوطانهم، مهما بعدوا ، وقست عليهم الظروف ، و تقلبت بهم الأيام . فالغربة التي عاشوها، هي غربة المشاعر الذاتية، و غربة المجتمع الذي يتحكم فيه أقوام دخلاء غرباء عنهم. وبحكم تلك الظروف وضغوطها، عاش الشعراء غربتهم النفسية التي بدت قسوتها عليهم حادة عميقة ، فتحولت أناتهم و آلامهم الى تلك الشكوى العنيفة الصارخة ، والى رفض أماكن اقامتهم الجديدة، فأطلقوا من شكواهم و رفضهم بمواقفهم السياسية المعبرة عن الأسى والاحتجاج. و من الشعراء الذين تناولوا الغربة ، و تذمروا من بعض الأمكنة ، أو رفضوها في شجرهم ، المتنبي ، اذ تقاربت عنده معاني الغربة و صورها ، و اكتظت بالتذمر و الشكوى المفعمة بلواعج العاطفة و الاحساس المرهف . و يكاد يتكرر في رفض المتنبي ، غربته وأمكنته ، موضوع واحد ، هو رحيله الدائم ، و تنقله من مكان الى مكان ، و من بلد الى آخر ، حاملاً همومه و آماله و طموحاته : (٢)

ألفت ترحلي و جعلت أرضي قنودي و الغريري الجلالا (٣)
فما حاولت في أرض مقاماً و لا أزمعت عن أرض زوالا

(١) الوأواء الدمشقي ، أبو الفرج محمد بن احمد الغساني (٣٩٠ هـ) : ديوان الوأواء الدمشقي ، (تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٥٠ م ، ١٧١ .

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٢٤/٣ - ٢٢٥ .

(٣) القنود : جمع قنود و هو خشب الرحل . الغريري : المنسوب الى غرير ، و هو فحل من الابل كان في الجاهلية تنسب اليه كرام الابل . الجلال : العظيم .

و ظل يجاهد الدهر ، و يغالب الأيام في غربته ، طامعاً ، مؤملاً بالمجد و الثروة التي
تعيد للعرب كرامتهم ، فاذا عجز شكا آماله الضائعة ، و طموحاته التي لا يسعفه الزمان
ببلوغها: (١)

بم التعلل لا أهل و لا وطن

و لا نديم و لا كأس و لا وسكن

أريد من زمني ذا أن يبلغني

مل ليس يبلغه من نفسه الزمن

و كانت طموحاته تكبر مع الأيام التي يصارعها ، ليكبر معها رفضه كل مكان لا يجد

فيه نصيراً ، كلما شعر باليأس و الاحباط: (٢)

أهم بشيء و الليلي كأنها

تطاردني عن كونه و أطارده

وحيد من الخلل في كل بلدة

إذا عظم المطلوب قل المساعد

و يبرز رفض المتنبي الذي ينطوي على احساسه جلياً واضحاً ، خلال مكوته في

مصر ، و شعوره بالغربة ، وسط العبيد المماليك ، الذين يتسلطون على العرب الأصلاء ، فيستبد

به الحزن و السخط ، و يستغرب - بدافع غيخته على العرب - انقيادهم .

الى حكم أولئك الموالي ، حتى التبس عليه الأمر ، فاختلط الأحرار بالموالي ، و أصبح

الحر في مصر غريباً كاليتيم: (٣)

أما في هذه الدنيا كريم

تزول به عن القلب الهموم

أما في هذه الدنيا مكان

يسر بأهله الجار المقيم

تشابهت البهائم و العبدي

علينا و الموالي و الصميم

و ما أدري اذا داء حديث

أصاب الناس أم داء قديم

حصلت بأرض مصر على

عبيد كأن الحر بينهم يتيم

و تلازم المتنبي فكرة العروبة اينما حل ، في ترحاله و غربته ، حتى اذا عصفت به

الغربة في أرض لا يجد فيها أثراً للعروبة ، ألمه ذلك ، و جعله يتحسر رافضاً ذلك المكان

قائلاً: (٤)

مغاتي الشعب طيباً في المغاتي

بمنزلة الربيع من المكان

و لكن الفتى العربي فيها

غريب الوجه و اليد و اللسان

فلا يمكن أن ينسى - في غربته - وشائج الارتباط بأمته ، و لذلك كان شعر المتنبي

صورة صادقة ، ناطقة بأهدافه ، يستلهم فيه معاناة الناس و مكابدهم .

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٣٣/٤ - ٢٤٣ .

(٢) السابق ٢٧٠/١ .

(٣) نفسه ، ١٥١/٤ - ١٥٢ .

(٤) نفسه ، ٢٥١/٤ .

وتبرز فكرة رفضه مكان الذل و الهوان ، جليلة واضحة ، في شعر كثير من شعراء القرن الرابع الهجري ، إذ يتحول المكان عندهم الى باعثة معاناة قاسية ، يكون على صيغة رفض الإقامة في دار الخنوع و الهوان ، فالسري الرفاء يدعو للرحيل عن دار يظلم فيها الانسان ، قائلاً: (١)

قوض خيامك عن دار ظلمت بها و جائب الذل ان الذل يجتنب
و ارحل اذا كانت الأوطان مضية فالمندل الرطب في أوطانه حطب

و أبو فراس الحمداني يدعو الى الرحيل عن بلاد يلحق فيها الانسان كره و ظلم و ريبة.
قائلاً: (٢)

دع الوطن المألوف رابك أهله و عد عن الأهل الذين تكاشروا (٣)
فأهلك من أصفى و ودك ما صفى و ان نزحت داراً و قلت عشائر
و لا ضير - في نظر أبي الفتح البستي - على الانسان الحر الأبى ان تنقل و كثرت
أسفاره ، فالحر ، مثل الشمس ، ذو مكانة عالية اينما حل: (٤)

لئن تنقلت من دار الى دار و صرت بعد ثواء رهن أسفار
فالحر حر عزيز النفس حيث ثوى و الشمس في كل برج ذات أنوار
و ينفر الشريف الرضي من بغداد متغرباً ، بعد تسلط الأجانب عليها ، و يتجه الى
البادية في مكة و الحجاز ، حيث الحياة العربية الصافية ، لأن نفسه الأبية ، ترفض الاستكانة
للظلم و الذل ، فيعزف عن الإقامة في بغداد قائلاً: (٥)

ليلي ببغداد لا أقر به كأني فيه ناظر الرمد
ينفر نومي كأن مقلته تشرح أجفاتها على ضمد (٦)

و تبرز غربة الرضي الروحية في احساسه ضائعاً و هو في وطنه الذي استباحه
الأجانب ، فيمثل له المكان باعثة للمعاناة ينفر منه و يرفض الإقامة فيه ، فتدفعه معاناته الى
ماضي العرب المجيد ليتشبث به ، و يستحضر بطولات العرب الأصلاء ، وسط ذلك الخليط من
الأقوام التي قدمت الى أرض العرب و عاثت فيها فساداً: (٧)

(١) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ١٩.

(٢) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ، ١٠٥ (دار صادر) - ٧٩ السامرائي

(٣) تكاشروا : يريد أنهم يتظاهرون بالابتسام ، و البغض كامن في قلوبهم .

(٤) د. محمد موسى الخولي : أبو الفتح البستي ، حياته و شعره ، ١٠٥ .

(٥) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٣٠١/١ .

(٦) تشرح : تخاط . الضمد : العصابة يشد بها الجرح .

(٧) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٢٦٠/٢ - ٢٦١ .

مقام يدنس عرض الأبي و يلعب بالقلب الحول ^(١)
 و لو كنت ذا همّة حرة لرحلني الضيم عن منزلي
 و كيف تقلب ذي همّة و قد نر بالقرن الأطول ^(٢)
 آآبي ، و لا حد أسطوبه و أين الابهاء من الأعزل
 ترى الجاهلية أحمى لنا و أنأى عن الموقف الأرذل
 فلولاً الإله و تخوافه رجعنا الى الطابع الأول

و علق الدكتور احسان عباس على الأبيات بقوله : انه " أشار الى الجاهلية اشارة سريعة موحية ، فقال : اننا لو كنا في ظلال الجاهلية لكنا اكثر ثورة على الحال الراهن ، ولولا خوف الله لطلبنا الجاهلية " ^(٣)

و لا يكاد يتغرب الرضي عن وطنه حتى يحن اليه بدافع احساسه العربي الصميم ، لكن نفسه تظل متأرجحة بين النقمة على الوطن و رفض الاقامة فيه ، و بين الحنين اليه والعودة للاقامة فيه ، يقول : ^(٤)

و بالعراق وطري يا بعد ما لاح لنا
 أشناقهم و مريخ الى زرود بيننا ^(٥)
 يا ويح لي من شجني أما مللت الشجنا
 رحلني عن وطني اني ذممت الوطن

و يستحضر ابن نبأته تلك المعاني ، فيشكو الاقامة في العراق ، مؤكداً تمزقه النفسي في أديم و جهه المشوه في ظل التسلط الأعجمي ، يقول معلناً سخطه و نقمته : ^(٦)

لحا الله الجزيرة من بلاد و لا حيا محياها بمزن ^(٧)
 فان بها يقيني عاد شكاً و أصدق من يقين الناس ظني

(١) القلب الحول : البصير بتقلب الأمور و تحويلها .

(٢) لز : شد . القرن : الحبل .

(٣) د. احسان عباس : الشريف الرضي ، دار بيروت للطباعة و النشر ، و دار صادر للطباعة و النشر ، بيروت ، ١٩٥٩ م ، ٢٢٨ .

(٤) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ، ٤٨٢/٢ .

(٥) مريخ : رملة البادية . و زرود : موضع فيها .

(٦) ابن نبأته السعدي : ديوان ابن نبأته السعدي ، ١٨٨ - ١٨٩ .

(٧) لحا : قبح و لعن .

دعا حوذانها ابلي فقالت
و تهتف بي ألا تمتاح أهلي
فضمي ياتصيبين الحواني
فلو في القبط جنتك رهن عشر
و لا استسقيت فيك سوى العوالي
بلاد ما رأيت بها صديقاً
و يبين (ابن نباتة) سبب رفضه الإقامة في العراق ، و رحيله الى الشام ، قال ،
مخاطباً سيف الدولة :^(٥)

انا برمنا بالعراق و أهلها
و سمت بنا همم اليك طريقها
عزمات قلب ما يقفن على هوى
و اذا تسائلنا العلى عن قصدنا
و قال يذم العراق و أهلها :^(٦)

بلاد أنفس الأحرار فيها
يجوز بها و ينفق كل شيء
كضرب القاع تروى بالنسيم
سوى الآداب طراً و العلوم

و كثيراً ما يكون رفض الأمكنة ناتجاً عن تجارب الشعراء الحاصة ، و مرورهم
بخبراتهم الشخصية ، فلكل واحد منهم همه الشخصي ، و معاناته الفردية ، فأبو عثمان سعيد
الخالدي ، ينقم على بغداد لأنه لم ير فيها حراً و فياً ، فيدعو عليها بالخراب قائلاً :^(٧)

بغداد قد صار خيرها شراً
أطلب و فتش و احرص فلست ترى
صيرها الله مثل سامرا
في أهلها حرةً و لا حراً

(١) الحوذان : نبت يرتفع قدر الذراع ، له زهرة سمراء .

(٢) تمتاح : تسقى .

(٣) الحواني : جمع حانة ، و هي محل بيع الخمر .

(٤) رهن عشر : حبس الناقة بين الوردتين ، و هي ثمانية أيام ، لأنها ترد اليو العاشر .

الهرماس نهر يصب في الفرات . الشن : القرية .

(٥) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ، ١٩٢ .

(٦) برم : سنم و مل و ضجر .

(٧) المائق : الأحقق .

(٨) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٩٢/٢ .

(٩) السابق ، ٢٠٧/٢ و ينظر :

الخالديان : ديوان الخالديين ١٢٧

و يشكو ابن لنكك رياح البصرة ، فاذا هبت الشمال ، حملت معها روائح أزهار البساتين ، و اذا هبت الجنوب حملت معها الروائح الكريهة ، يقول : (١)

نحن بالبصرة في لونٍ من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال بين جنات و ريف
فاذا هبت جنوب فكأنا في كنيسف

و يشكو أبو أسحق الصعابي ثلوث مياه البصرة ، فهي غير صالحة للشرب ، وغير صالحة أيضاً للاستعمال المنزلي ، فتغير لون مياه البصرة و طعمها و رائحتها جعله يرفضها ، و يتحسر على الإقامة في بغداد ، قائلاً : (٢)

لهف نفسي على المقام في بغداد و شربي من ماء كوز بثلاج
نحن بالبصرة الذميمة نسقى شر سقيا من مائها الأترج
أصفر منكر ثقيل غليظ خائر مثل حقنة الخولنج
كيف نرضى بشربه و بخير منه في كنف أرضنا نستنجي

و يصف الحسن بن محمد بن بابل حاله في مصر ، و قد علا جسمه الشحوب و شاب شعره و جفاه النوم حزناً و ألماً . ثم يحن الى الرصافة قائلاً : (٣)

ألا ما لجسمي قد علاه شحوب و ما بال قلبي ضامرته كرب
و ما بال أحشائي توقد لوعة و ما بال رأسي قد علاه مشيب
و ما ذاك الا أن رمتني يد النوى و أني في أرجاء مصر غريب
أراعي نجوم الليل لا آنف الكرى كأني على رعي النجوم رقيب
إذا ما دعوت الدمع يوماً أجابني وإن رمت دعوى الصبر ليس يجيب
و ان رمت كتمان الذي بي من الأسى جرى هائل من مقلتي سكوب
و هل أردن يوماً مياه رصافة و هل يصفون لي عيشها و يطيب
و هجا أبو أحمد بن أبي بكر الكاتب بخارى ، و ذمها ، رافضاً الإقامة فيها . يقول : (٤)

لو الفرس العتيق أتى بخارى لصار بطبعه فيها حمارا
فلم تر مثلها عيني كنيفاً تبوأه أمير الشرق دارا

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٥٧/٢ .

(٢) السابق ٢٦٨/٢

(٣) نفسه ٦٤/٢

(٤) نفسه ، ٧٠/٤ .

و يتضرع أبو منصور العبدوي الى ربه عز وجل ، أن يبدله مكاناً غير بخارى ،
لضيقها و ننتها ، فهي جيفة الأرض :^(١)

إذا ما بلاد الله طاب نسيمها و فاحت لدى الأسحار ريح البنفسج
رأيت بخارى جيفة الأرض كلها كأنك منها قاعد وسط مخرج
فيا رب أصلح أهلها و انف ننتها و الا فعنها رب حول و فخرج

و يصف أبو قاسم الزعفراني معاناته بجرجان ، و يذكر علته بها ، وتأذيه بهوائها وبراغيثها
وبقها ، يقول ، رافضاً الإقامة في جرجان ، ويستأذن صاحب بن عباد للعود الى أصفهان :^(٢)

و قد أصبحت بعدك في بليد درية كل داهية نأدي^(٣)
و لولا أن سيدنا به لم تكن جرجان تثني من قيادي
أقمت بها أعالج كل بؤس من الاعلال لا العيش المهاد
تحدثني بحمي لو تبدت بخبير ألحقها بالبوادي
ملازمة اذا لسعت شقياً فكل زمانها وقت العداد
تعاونها علي سموم صيف بلفح من نظاه و اتقاد
و ذبان اشردها فتأبى و ترجع كالمرغم ذي الكياد
كأني حين أطردها و تأبى أفرق بين ذي سغب و زاد^(٤)
و يا ويلى من الليل الموافي فاني حين يطرق في جهاد
له جيش براغيث و بقى يطل علي اطلال الجراد
و لي فرش هي الميدان فيه براغته و خمشي في طراد
و بقى فعله في كل عضو فعال النار في يبس القتاد^(٥)
عصائب ينتحين على عروقي بعوج كالمباضع في الفصاد
فتروى ثم ترجع عاطفات علي و هن كالهيم الصوادي^(٦)
و أنقف بعضهن و في حشاها دمي فأنال ثأراً من أعادي^(٧)
تفرق بين جنبي و الحشايا و تجمع بين جفني و السهاد
و أظهر في صباحي كل يوم بوجه مجدر قلق الوساد
و ادمن حك ما تركت بجسمي فيحسبني جربت ذوو عنادي

(١) النعالي : يتيمة الدهر ، ٧٠/٤ .

(٢) نفسه ٣٥٠/٣ - ٣٥١ .

(٣) الدرية : بفتح الدال : ما يتعلم عليه الطعن . النأدي : النازلة .

(٤) السغب : الجوع .

(٥) القتاد : شجر صلب ، شوكه كالابر .

(٦) الهيم : الابل العطاش .

(٧) النقف : كسر الهامة عن الدماغ ، و المراد أخذها و قتلها .

و يعلن ابن سكرة الهاشمي نغمته على جرجان و أهلها ، لأنهم لا يكرمون الغريب .
يقول : (١)

لا قدست أرضاً أقمنا بها قريبة من طبرستان
ليست خراسان و لكنها تقرب من أرض خراسان
لا سقيت جرجان من وابل قطراً و لا ساكن جرجان
قوم اذا حل غريب بهم مات من الشوق الى البان

و يتلجج بعض الشعراء بين حب المكان و كره أهله فيعلنون أنهم يحبون المكان ،
ويقتلون أهله ، و يرفضونهم ، لصفات فيهم ، مثل اللؤم و الذل و الخمول .

يقول أبو الحسن العبدلكاني في قرية بهداذين ، من قرى زوزن : (٢)

أشرف ببهداذين من قرية عن شائعات العيب في حرز
لكنها من لؤم سكانها حطت الى الذل من العز
ما ان ترى سوى خامل جلف دنى أصله كز
لا تعجبوا منها و من أهلها فالسوس لا ينكر في الخز

* * * * *

و من الأمكنة التي رفضت رفضاً شديداً في شعر القرن الرابع الهجري ، السجن . وقد
ساعدت الظروف السياسية التي شهدتها العصر ، و التعسف الذي استهدف امتحان مصائر الناس ،
و كثرة الحروب ، على بروز شعر رفض السجن و الشكوى من الأسر في ذلك الزمن .

وحفز السجن أو الأسر الشعراء ، و أيقظ ملكاتهم الشعرية بشعر الرفض و الشكوى الذي
صور ما يقاصونه من آلام و معاناة ، بشعور صادق فياض ، و انتابت الشعراء مجموعة
عواطف وانفعالات تقوى وتضعف ، حسب نفسيات كل منهم ، و مدى قسوة الظروف عليه داخل
سجنه ، و لذلك فان رفضه السجن في أغلبه تصوير و انعكاس نفسي لحالة الشاعر السجين .

و المتنبي واحد من أولئك الشعراء الذين سجنوا لمواقفهم السياسية ، و قد سجن لأنه
صاحب قضية ظل ينادي بها من أجل أمته ، و لأنه الرافض للظلم .

و لم يعبأ المتنبي - أول أمره - بالسجن ، و ظل محتفظاً بكبريائه ، على الرغم من
قسوة الظروف عليه ، فلازمته صورة الاباء و العزة في سجنه ، و تحمل - على مضض -
إهانة السجن ، يظهر ذلك في مخاطبته سجنه في القصيدة التي يقول في مطلعها : (٣)

(١) الثعالبي : بئمة الدهر ١٦/٣

(٢) الثعالبي : نعمة اليتيمة ٣٣/٢ .

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٨٠/٢ .

أهون بطول البقاء و التلف و السجن و القيد يا أبا وكف

و عندما يطول عهده بالسجن ، و يتقل عليه ، و يضيق به ذرعاً ، - بعد أن سلب حريته ، فظل معطل الإرادة مستكين الهممة ، و هو السياسي الطامح - لا يجد ازاء قلة حيالته غير النعمة و الشكوى المرة ، يصف من خلالهما محنته ، و حالته ، و انقطاع الرجاء به بعد أن دب اليأس اليه :^(١)

أمالك رقي و من شأنه	هبات اللجين و عتق العبيد
دعوتك عند انقطاع الرجاء	و الموت مني كحبيل الوريد
دعوتك لما براني البلاء	و أوهن رجلي ثقل الحديد
و قد كان مشيهما في النعال	ففقد صار مشيهما في القيود
و كنت من الناس في محفل	فها أنا في محفل من قرود

و في رفض الصابي و شكواه في السجن ، نجد صوراً قلقة حائرة ، تتأرجح بين اتجاهات نفسية متضادة ، فهو ضعيف يائس مرة ، و هو ثائر أبى النفس مرة أخرى ، و هذا عائد - بطبيعة الحال - الى الظروف التي يقاسيها داخل سجنه . فان ضعف ، خاطب رؤساءه بما يريد منهم ، مستندراً عطفهم ، لاخلأ سبيله ، فيقول :^(٢)

يا أيها الرؤساء دعوة خادم	أوفت رسائله على التعديـد
أيجوز في حكم المروءة عندكم	حبسي و طول تهددي و وعيدي ؟
قلدت ديوان الرسائل فاتظروا	أعدلت في لفظي عن التسديـد ؟
فتفضلوا و تعطفوا و هبوا لنا	عفواً قديم حفاظ و حقـود

و ان تسلل اليأس و التشاؤم الى نفسه ، و أصبحت حياته لا تطاق ، تمنى الموت الذي يجده سهلاً ما دام يعيش مر العيش :^(٣)

إذا لم يكن للمرء بذ من الردى	فأسهله ما جاء و العيش انكد
و أصعبه ما جاءه و هو راتع	تطيف به اللذات و الحظ مسعد
فان أك شر العيشتين أعيشها	فاتني الى خير المماتتين أقصد

و كان الصابي يلتجئ الى الله سبحانه و تعالى ، ليشكو محنته ، و يستعين به على ما يقاسيه في سجنه :^(٤)

ليس لي منجد على ما أقاسي من كروبي سوى العليم السميع

(١) المتنبي ، ديوان المتنبي ، ١/٣٤٥ - ٣٤٦.

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/٢٤٣.

(٣) نفسه ، ٢/٢٩٥.

(٤) نفسه ، ٢/٢٩٢.

وتتظافر في شكوى الصابي صور من الثورة والتمرد، بما يظهر ألم وحزنه وجرأته، فهو يمزج -في رفضه- سوء حاله، ودم سجانيه، والفخر بنفسه وقدرتها على تحمل الأذى، فيعرض واقعه و آلام واقعه، و ينفجر غضباً و سخطاً، و يتحرق أسى و مرارة لما هو عليه من اهمال وهوان، مع ما له من مواهب ومعارف ومطامح، فتتحول الشكوى الى رفض، وتقترب من الفخر، و تؤلف مظهراً حزيناً من مظاهره . يقول ، شاكباً و مفتخراً ، و واصفاً سجانه :^(١)

كتبت أفيك السوء من محبس ضنك و عين عدوي رحمة منه لي تبكي
و قد ملكتني كف قط مسلط قليل التقى ضار على الفتك و الافك
صليت بنار الهم فازددت صفوة كذا الذهب الابريز يصفو على السبك

و يتجلى تمرد الشاعر و جرأته في وصف سجانيه باشنع الصور لقبح صورهم في نفسه، و في وصف أصحابه من المساجين ، بما لا يخلو من نقد سياسي لاذع ، يقول :^(٢)

أنا بين اخوان لنا قد أوثقوا بسلاسل و جوامع و قيود
و موكلين بنا نذل لعزهم فكأننا لهم عبيد عبيد
و الله ما سمع الأثام و لا رأوا نقداً توكل قبلهم بأسود^(٣)
من كل حر ماجد صنديد في كل وغد عاجز رعيد
وتعلموا أن الولاية عندكم عارية ليست بذات خلود

وكان أبو فراس الحمداني ، يمثل الالباء والعزة في شكوى السجن في القرن الرابع الهجري ، فلم يضعف أمام أعدئه في أسره ، على الرغم من الظروف التي حاقت به في سجنه وغربته عن أهله ووطنه . وقد احتفظ بكبريائه ، وأبت نفسه الذل عند اشتداد النوائب، وهموم الأسر ، لكنها لم تجد ضيراً في الشكوى التي خلطها بالفخر ، ليوحى أن الأسر لم ينل منه :^(٤)

مصابي جليل والعزاء جميل وظني بأن الله سوف يدبيل^(٥)
جراح وأسر واشتاق وغربة أحمل ، اني بعده لحمول
واني في هذا الصباح لصالح ولكن خطبي في الظلام جليل
ما نال مني الأسر ما ترياته ولكنني دامي الجراح عليل
جراح تحاماها الأساة مخوفة وسقمان : باد منهما ودخيل
وأسر أقاسيه ، وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ٢٩٣/٢

(٢) نفسه ٢٤٣/٢

(٣) النقد : السفلى من اونس .

(٤) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (٢٣٢ دار صادر) (١٣ السامرائي).

(٥) يدبيل : يتداول الأمر .

وإذا كان أبو فراس الحمداني يلم في أغلب قصائده الشاكية بمعاني الفخر ، فقد تستبد به - وهو في غمرة الامة وجراح أسره - مواقف الاباء ، ليصب لعنته على سجانيه، فلا يرى فيهم سوى كلاب يتحكمون به :^(١)

الى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب
تمر الليالي ليس للنفع موضع لدي ولا للمعتفين جناب
وأكثر شكوى أبي فراس التي يغالبها العتاب ورفض القوافي ، كانت موجهة الى ابن عمه سيف الدولة ، مطالباً بمفاداته واسترداد حريته :^(٢)

دعوتك للجفن القريح المسهد لدي وللنوم القليل المشرد
وما ذاك بخلاً بالحياة واتها لأول مبذول لأول مجتد^(٣)
ولكنني أختار موت بني أبي على صهوات الخيل غير موسد
أناديك لا أنني أخاف من الردى ولا أرتجي تأخير يوم الى غد
ولكن أنفت الموت في دار غربة بأيدي النصارى الغلف ميتة أكمد
ومن أصدق ماجاء من شعر أبي فراس الوجداني ، شكواه للحمامة الباكية ، التي حشد لها عواطفه الفياضة بالحسرة والألم والمعاناة ورفض ذل الأسر ، فناجها نجوى شجيرة باكية ، بعد أن تمثلت له رمزاً للحرية والانطلاق ، وأثارت بهديلها الحزين جراحات الأسر وهمومه:^(٤)

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا ، هل بات حالك حالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك منك الهموم ببال
أتحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالي
تعالى تري روحاً لدي ضعيفة تردد في جسم يعذب بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سال
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غال

* * * * *

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (٢٥ دار صادر) (١٣ السامرائي)

(٢) السابق ٨٢ (دار صادر) ٤٧ (السامرائي)

(٣) المجتدي : الطالب

(٤) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (٢٣٨ دار صادر) (١٢٧ السامرائي)

رفض الشيب والكبر :

يعد الشيب والكبر من أكثر العوامل المثيرة للشجن عند الانسان ، لأنه يحس معهما بهرمة ، وذهاب نضارته ، ودنو أجله .

وغالباً ما يقترن الشيب بالشيخوخة ، فيكون الانسان ازاءها محكوماً بذهاب نضارة الشباب ، والضعف ، والوهن ، والعجز ، واكتئاب النفس ، وغيرها من أمراض الشيخوخة.

ووقف الشعراء من الشيب موقفاً متشائماً ، متبرمين ، نافرين منه ، يرفضونه ويكون شبابهم ، ويتفجعون إلى أيامهم الخوالي ، ويتمنون عودتها . يقول المتنبي :^(١)

ضيف ألم برأسي غير محتشم والسيف أحسن فعلاً منه باللمم
أبعد بعدت بياضاً لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم
ويقول صاحب بن عباد :^(٢)

أناخ الشيب ضعفاً لم أرده ولكن لا أطيق له مردا
رداء للردى فيه دليل تردى من به يوماً تردى

وضمن بعض الشعراء رفضهم الشيب ، نقمتهم على الدهر ، مرددين أن الدهر قد شيبهم قبل الأوان ، وهم في ريعان الشباب ، لشعورهم بكثرة مصائبه ، وقسوة الظروف عليهم ، لذا كانوا يلقون باللوم على دهرهم متحسرين . يقول كشاجم الرملي :^(٣)

كايدني دهر في طرقي بشيبة ألبسني عارها
ويقول ابن الحجاج :^(٤)

أعصر شبيبتي قف لي قليلا أناشدك المودة أن تحولا
فديتك يا شبابي أنت مالي أراك مكللاً نضواً عليلا
تولى حسنك المفقود عني وحول رحله الا قليلا
وقالوا الشيب يكسبه جلالاً معاذ الله بل خطباً جليلا

وكان بعض الشعراء أكثر صراحة في القاء اللوم على الدهر الذي شيبه ، وأعلن سخطه ونقمته على لياليه التي فرقته عن يحب ، وجمعته بمن يكره ، وهو الشيب . وبذلك جمع بين رفض الشيب والدهر معاً ، يقول الشريف الرضي :^(٥)

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٤/٤ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٧٨/٣ .

(٣) السابق ، ١٤٦/٣ .

(٤) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ٢٠٠ .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٩٥/٣ .

قل لليالي قد ملكت فاسجحي ولغيرك الخلق الكريم الأسجح ^(١)
 ان ساء فعلك في فراق أحبتي فلسوء فعلك في عذاري أقبح
 ضوء تشعشع في سواد ذوابتي لا أستضيء به ولا أستصبح
 ويقول ، رافضاً ، قسوة ظروفه ، وفعل زمانه به : ^(٢)

ألان جوانبي غمز الخطوب وأعجلني الزمان الى المشيب
 وينقم بعض الشعراء على حوادث الدهر ، لأنها سبب شيبه ، يقول أحمد بن محمد بن
 عبد ربه ، رافضاً ما تجيء به الحادثات ، بكياً على أيامه الأول : ^(٣)

شبابي كيف صرت الى نفاذ وبدلت البياض من السواد
 وما أبقي الحوادث منك الا كما أبقت من العمر الرآدي ^(٤)
 فراقك عرف الأحزان قلبي وفرق بين عيني والرقاد
 كأتي منك لم أربع بربع ولم أرتد به أحلى مراد
 سقى ذلك الربا وبلى الثريا وغادى نبتة صوب الغوادي ^(٥)
 زمان كان فيه الرشد غياً وكان الغي فيه من رشاوي
 فكم لي من غليل فيك خاف وكم لي من عويل فيك بادي

ويحمل ابن نباته السعدي الدهر ، وزر شيبه ، لأنه يحول بين المرء واماله ، ويقف
 حائلاً في وجه من يريد تحقيق طموحاته ، يقول _ موحياً _ بما يجيش في نفسه من مطامح ،
 رافضاً فعل الدهر : ^(٦)

يا دهر ما تمحى ذنو بك بعد شيبتي بالمعائر
 تهب المنى هبة الجوا د وأنت بالآمال ساخر

ويقترن الشيب ، عند بعض الشعراء ، بالذل . وهو نذير شؤم وهوان . فاذا ولى
 الشباب أصبح المرء ذليلاً عاجزاً ، لا حيلة له . يقول أحمد بن محمد بن عبد ربه : ^(٧)

ولى الشباب وكنت تسكن ظله فانظر لنفسك أي ظل تسكن
 وأنة المشيب عن الصبا لو أنه يدلي بحجته الى من يعلن

(١) اسجحي : يسري وسهلي ، والخلق الأسجح : اللين السهل .

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ١٠٢/١

(٣) النعالي : بتيمة الدهر ٧٨/٢

(٤) الرآدي : الليالي الشديدة الظلام .

(٥) الويل : المطر ، وصوب الغوادي : مطر السحاب .

(٦) ابن نباته السعدي : ديوان ابن نباته السعدي ٥٣٥/٢

(٧) النعالي : بتيمة الدهر ٧٨/٢

ويقول ، مقارنا بين شبابه وشيبه ، معلنا عجزه ، وقلة حيلته ، مما هو فيه :^(١)

بدا وضح المشيب على عذاري وهل ليل يكون بلا نهار
شريت سواد ذا بياض هذا فبدلت العمامة بالخمار
وما بعت الصبا بيعاً بشرط ولا استثنيت فيه بالخيار

ويقول السري الرفاء ، رافضاً تلك الصورة التي آل إليها بعد أن عكستها المرأة :^(٢)

عرض المشيب لعارضي فرادني ذلاً وزاد ذوي المحاسن تيتها
وأرتني المرأة يوماً صورتسي فطفقت أبصق للسماحة فيها^(٣)

ويقف أبو الفتح البستي أمام آلام الشيخوخة ، وضعف القوة ، موقفاً رافضاً ، ويرى أن لا فائدة من البقاء في هذه الحالة ، رغم أن الانسان يزداد تمسكاً بالحياة . ويصف البستي تلك المشاعر المتناقضة في النفس بقوله :^(٤)

أرى المرء يرجو أن يطول بقاءه ليدرك ما يهوى بطول بقاءه
وأية جدوى في البقاء وقد وهت قواه وأقوى قلبه من ذكائه
إذا نبا حسن وكلت بصيرة فطول بقاء المرء طول شقائه

ويتكرر ذكر المرأة في شعر رفض الشيب ، فيرفضه بعض الشعراء ، لنفور المرأة ممن شاب ، وابتعادها عنه ، مما يحرمهم ودها ، لصدودها عنهم . فالشريف الرضي ، يتوجع من الشيب ، لأن طلوعه ينفر النساء منه ، ويتحسر على أيام الشباب ، ويكيها لأنها انقضت سراعاً ، وذهبت الى غير رجعه :^(٥)

لو دام لي ود الأوانس لم أبل بطلوع شيب وابيضاض غدائر
لكن شيب الرأس ان يك طائعا عندي فوصل البيض أول غائر
وهاً على عهد الشباب وطيبه والعرض من ورق الشباب الناضر
وهاً له ما كان غير دجنة قلصت صبابتها كظل الطائر^(٦)

والرضي من أكثر الشعراء الذين ردّدوا شكوى الشيب ورفضه ، لأنه غزاه مبكراً ، وكيف لا يغزو الشيب شعر الرضي؟ وقد شهد نوازل الزمان ، وقاسى من طول المعاناة التي لا تعرفها الا النفس المتجرعة للهم الثقيل ، والمليئة بالأمل والطموح . وقد أفصح عن ذلك بقوله :^(٧)

لو شاب طرف شاب أسود ناظري من طول ما أنا في الحوادث ناظر .

(١) النعالي : تيمية الدهر ، ٧٨/٢

(٢) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ، ٧٧٠/٢

(٣) السماحة : القبح

(٤) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ، حياته وشعره ، ١١٥ .

(٥) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٤٧٩/١ - ٤٨٠ .

(٦) قلصت : انقضت . الصباية : بقية الماء ، استعارها لبقية الدجنة ، وهي الظلمة .

(٧) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٤٣٦/١ .

وفي رفض الرضي الشيب ، وشكواه منه ، معان ثرة ومتعدده ، فيصوره بصور توحى
 باحساسه النافر والمتشائم منه ، فمرة يرى فيه النذير للمنية والمصير المحتوم :^(١)
 وأرى المنايا ان رأيت بك شيبية جعلتك مرمى نبلها المتواتر
 ومرة يراه العدو الخطير الذي لم ينازل عدوا مثله :^(٢)

كفئائي من مشيب	ما لقائي من عدوي
فوق فودي عيوبي	موقد نار أضاءت

وتهبأ الشيب لبعض الشعراء ، وهم في سن الشباب ، فشكوه ورفضوه ، لأنه أفقدهم ذلك
 الثوب الأنيق الذي كانوا يلبسونه . فكان ظالما ، وشر جار . ورأوه رؤية تتطوي على معان
 توحى بالظلم وضخامة المعاناة في أنفسهم . يقول أبو فراس الحمداني :^(٣)
 عذيري من طوابع ألبسه أنيق أجر ذيله بين الجواري
 وثوب كنت ألبسه أنيق أجرة ذيله بين الجواري
 ومازادت علي العشرين سني فما عذر المشيب الي عذاري
 وما استمتعت من داعي التصابي لقد جاوزت منك شر جار
 وورد على الشريف أمر أهمه وأقلقه ، فرأى شيبا في رأسه وسنه ثلاث وعشرون سنة .
 فقال :^(٤)

عجلت ياشيب إلى مفريقي	وأي عذر لك أن تعجلا ؟
فكيف أقدمت على عارض	ماستغرق الشعر ولا استكملا
كنت أرى العشرين لي جنة	من طارقات السيب ان أقبلا
فالان سيان ابن أم الصبا	ومن تسدى العمر الأطولا
يا زائرا ما جاء حتى مضى	وعارضا ما جاء حتى انجلى
وما رأى الراؤون من قبلنا	زرعا ذوى من قبل ان يسبلا ^(٥)
ليت بياضا جاءني اخرا	فدى بياضا كان لي أولا
وليت صباحا ساء ضوؤه	زال و ابقى ليله الأليلا

وبلغت قسوة الشيب على بعض الشعراء مبلغا صوروه معها صورة مقلوبه في
 شكواهم ، فوصفوه بالسواد ، لأنه مثل الحزن والكآبه . يقول الرضي :^(٦)

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ، ٤٨٠/١

(٢) نفسه ٥٧/١ - ٥٨

(٣) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ١٦٧ .

(٤) الثعالبي : نبتة الدهر ١٤٠/٣

(٥) ذوى : ذبل . أسبل : بدت سنابله

(٦) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٥٨٢/١

لوى عني الخدود من الغواني وقطع دوني الحديق المراضا
فصار بياضه عندي سوادا وكان سواده عندي بياضا
ويقترن رفض الشيب ، عند بعض الشعراء ، بذكر الخضاب ، وبتف الشعر الأبيض ،
وقد حبذوا ذلك ، وطلبوه ، لأن الشيب ممقوت ، وهو نذير شؤم وذل ، وإخفاؤه يريح النفس
ويبعد عنها القلق . يقول الصابي معززا ذلك ^(١) :

يقول الناس لي في الشيب عز يزيد به جلال المرء ضعفا
ولولا أنه ذل وهون لما احتكم المزين فيه نتفا
ويطلب كشاجم المساعدة لاقتلاع شيبه ، بعد أن أعياه حربها ، يقول ^(٢) :
أخي قم فعاوني على نتف شيبية فأني منها في عذاب وفي حرب
إذا ما مضى المنقاش يأتي بها أنت وقد أخذت من دونها جارة الجنب ^(٣)
كجان على السلطان يجزي بذنبه تعاق بالجيران من شدة الرعب
ويبرر عبدان الاصبهاني الخضاب ، ويرد على من عابه قائلا : ^(٤)

في مشيبي شماعة لعداتي وهو ناع منغص لحياتي
ويعيب الخضاب قوم وفيه لي أنس إلى حضور وفاتي
لا ومن يعلم السرائر مني ما به رمت خلة الغايات
إنما رمت أني أغيب عني ما ترينيه كل يوم مراتي ^(٥)
فهو ناع إلى نفسي ومن ذا سره أن يرى وجوه النعاة
وكما رفض الشعراء أثر الكبر المتمثل في الشيب ، رفضوا أثره المتمثل في الصلح ، وقد
جعله بعضهم أثرا من أثار نوائب الدهر ، ونتيجة من نتائج قسوة الظروف في ذلك العصر يقول
أبو اسحق الصحابي في ذلك : ^(٦)

نقد أخافت جدتي الحادئات ومن عاش في ريبها يخل
وبدلنني صلعا شاملا من الشعر الفاحم الأغسق ^(٧)
وقد كنت أصلع من عارضي فقد صرت أصلع من مغرقي

(١) الثعالبي : بقيمة الدهر ٢٩٨/٢

(٢) كشاجم الرملی : ديوان كشاجم الرملی ٥٤

(٣) نقش : أخرج الشوك من رجليه ، وما يخرج به منقاش

(٤) الثعالبي : بقيمة الدهر ٢٩٦/٣

(٥) يريد مرأتي .

(٦) اخلقت : أبلت . جدتي : فتوتي وشبابي .

(٧) الأغسق : الأسود

ويقول الصابي أيضا ، بروح لا تخلو من الدعابة :^(١)

لما دهنتي السنون بالصلع	وقل مالي وضاق متسعي
حاسبت عن لمتي مزينها	حساب شيخ للحزم متبع ^(٢)
قلت له اقنع عن قسط نابتها	بالربع مما به عملت معي
واعمل على أنها مزارعة	شكوت فيها شكاة متضع
فاحفظ خراج الذي أصبت به	واستوف مني خراج مزدرع ^(٣)

* * * * *

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/٢٩٩

(٢) اللمة : الشعر الذي يعلو الرأس

(٣) احطط : خفف عني

موقف الشعراء من المرض والموت

يشكل المرض - بما يسببه من أوجاع ووهن وقلق - عبئاً نفسياً ، يضاف إلى هموم الشعراء ، فيكون باعثاً على الشكوى ، التي تبوح بالآلم النفس ، وأسأها ، ومعاناتها ، بأصدق العواطف .

والمرض قدر من الله ، عز وجل ، يصيب الإنسان ، فيتألم منه ، ويشكو أوجاعه ، ويظهر ضعفه ، وقلة حيلته ، وخوفه ، وفزعه من عواقبه . ويتمنى زواله ، ويرجو الشفاء والعافية والبرء مما أصابه . وبهذا فإن الشعراء لم يرفضوا المرض ، ولم يتمردوا عليه ، ولم يعلنوا عليه ثورة أو مواجهة ، إنما شكوه شكوى حزينة مؤلمة ، فيها حسرة ومرارة ، وقد يظهر قليل منهم ، سخطه ونقمته على قدره ، فيخرج عن جادة الصواب ، غير عابئ بما سينال من عقاب .

ومن مظاهر تلك الشكوى ، وصف المرض ، وحال الجسد ، الذي أصابته الأسقام ، وأثرها على الشعراء ، حتى ليقترّب هذا الوصف من التأويل الوجداني لوقع المرض ، وأثره في النفس البشرية ، وما يسببه من عجز يشل الحركة ، لا سيما إذا اقترن المرض بالشيخوخة ، التي - غالباً - تسبب ضعف قوة الإنسان . فالصابي - مثلاً - يجد في وجع المفاصل ، أيسر ما يلقاه من الأوجاع ، بعد أن أدركته الشيخوخة ، وأصابته العلل ، يقول : (١)

وجع المفاصل وهو أيسر ما لقيت من الأذى

جعل الذي استحسنته والبأس من حظي كذا

والعمر مثل الكأس يرسب في أواخره القذى

ويصف أبو هلال العسكري ، فعل الحمى به ، وأثرها عليه ، قائلاً : (٢)

واخبر إني رحت في حلة الضنى	ليالي عشرا ضامها الله من عشر
تنفضني الحمى ضحى وعشيّة	كما انتفضت في الدجن قادمنا نسر
تذرّ عليّ الورش في وضح الضحى	وتبدله بالزعفران لدى العصر
إذا انصرفت جاء الصراع مشمراً	فأربى عليها في الأذى والشرّ
وتجعل أعضائي عيوناً دوامعاً	تواصل بين السكب والسجم والهمر
فتحسبه طلا على أقحوانة	وعهدي به يحكي حياً على خم
ولما تمادت عدت منها بحمية	كمن ترك الرمضاء وانفلّ في الجمر
وما منها إلا بلاء وفتنة	وضرّ على الأحرار يا لك من ضرّ

(١) النعالي : يتيمة الدهر ٢/٢٩٩ .

(٢) أبو هلال العسكري : شعر أبي هلال العسكري ١٠٥ .

ويبث بعض الشعراء رؤسائهم شكواهم ، علّهم يجدون عندهم عوناً على ما هم فيه من بلاء ، فأبو بكر الخوارزمي يبعث بقصيدة إلى الصاحب بن عباد ، يصف فيها الحمى ، قائلاً (١) :

ولو أبصرت في أرجان نفسي عليها من أبي يحيى ذمام^(٢)
ولي من أم ملدم كل يوم ضجيج لا يلذ له منام^(٣)
مقبلة وليس لها ثنايا معانقة وليس لها التزام
كان لها ضرائر من غذائي فيفضبها شرابي والطعام
إذا ما صفاحت وجهي غدا ألفاً وأمسى وهو لام
إذا لرأيت عبدك والمنايا تصيح به : تنبه ، كم تنام؟
وما استبكاك من بعدي أسير يرص عظامه الحق العظام
ولا ترجع ثكلي خلف نعش "أحمول على النعش الهمام"^(٤)
ولا ترديد صب وهو باك "سقيت الغيث أيتها الخيام"^(٥)
ولولا فقد وجهك لم أعبس على ضيف يقال له الحمام
فما في العيش لولا أنت طيب ولا في الموت لولا أنت ذام^(٦)

ويتقل المرض على النفس - أيضاً - عندما يقترن مع هموم أخرى يعانيتها الإنسان ، كالشيب ، والإفلاس ، ولذا تصبح النفس أكثر غماً ، وأكبرهما ، يقول الصنوبري (٧) :

الشيب عندي والإفلاس والجرب هذا هلاك وذا شؤم وذا عطب

ويشكو أبو أحمد عبدالرحمن بن الفضل الشيرازي ، همه وعلته ، للصاحب بن عباد ، وقد أصابه النقرس في شيخوخته قائلاً (٨) :

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٢١٧/٤ - ٢١٨ .

(٢) أبو يحيى : يقال لقابض الأرواح ، كما يقال للحبشي : أبو البيضاء ، والأعمى : أبو البصير .

(٣) أم ملدم : الحمى . ضجيج : الضجعة : المرض والرقدة ، والضجعة والضاجع : الكثير الأضجاع ، الكسلان اللازم للبيت ، لا يكاد يخرج منه ، فهو مقيم به لعجزه .

(٤) البيت فيه تضمين للنابعة ، وصدر البيت : ألم أقسم عليك لتخبرني .

• النابعة الذبياني : ديوان النابعة الذبياني ، تحقيق المحامي فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ٢١٤ .

(٥) البيت فيه تضمين لجرب ، وصدره : متى كان الخيام بذي طلوح .

• جرير بن عطية الخطفي : ديوان جرير ، تحقيق أكرم البستاني ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٠م ، ٤١٦ .

(٦) ذام : أي ذاماً له .

(٧) الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) : محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، (٩) ، ١ / ٢ / ٤٣٤ .

(٨) الشعالي : يتيمة الدهر ٣٢٧/٢ - ٣٢٨ .

إلى الله أشكو ضنى شَفَنِي وكم قبلة من ضنى قد شفاني
وسقماً ألح فما لي بما أحاط برجلي منه يدان
تراني وقد كنت ثبت الجنان إذا الليل جنّ سليب الجنان
أقطع أناءه بالأنين وأرقب للصبح وقت الأذان
أنقل في موضع موضع فحيث حللت نبا لي مكاني
أؤمل روحاً فيأتي النهار بأضعاف ما بت فيه أعاني
أقول أقل فلا أستطيع من ألم ملحف غير وائي ^(١)
ارجي تفضي ما أشكويه من مرض بتقضي الزمان
وإني قد جزت حدّ الكهول وناهزت ما عمّر الوالدان
فمن ليلة أرونا نية ويوم بما ساءني ارونائي ^(٢)
وجرمت ستين شمسية فسدت علي طريق الأماني
وأوهت عراي وهدت قواي وليس لما يهدم الدهر باتي
وإن كان لا يهتدي صرفه إلى أجل منسب غير دائي ^(٣)
وكنت على ثقة أنه إذا شاء أبرأني من برائي
فيا من له الخلق والأمر منْ بعافية منك تشفي ضمائسي

وربما أثار المرض أشجان بعض الشعراء وآلامهم ، فيبوحون بمطامحهم ، وتطلعاتهم في الحياة ، مستغلين هذا الجانب للتدليل على معاناتهم النفسية . ومثل هذا في شعر المتنبي ، الذي جمع في شكواه بين سقام الجسد ، وسقام النفس المهمومة المتطلعة إلى آمالها في طلب الملك ، حتى ليكاد هذا الأمر يسيطر على وجدانه ، ويغلب على أوجاع جسده ^(٤) :

قليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي
عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كان بها حياء فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنْها فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسّلتني كأنا عاكفان على حرام

(١) ماحف: ملح ومتجد.

(٢) الأرونائي: نسبة إلى الارونان ، وهو الصعب من الأيام ، والشديد في كل شيء .

(٣) المنسأ: المؤخر .

(٤) المتنبي : ديوان المتنبي ١٤٥/٤ - ١٤٦.

ثم يخاطب علته ، مفتخراً ، أنها قد جرحت رجلاً مجروحاً من كثرة ملاقاته الحروب ،
حتى لم يبق في جسده مكان لطعن السيوف ولا السهام ^(١) :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
جرحت مجروحاً لم يبق فيه مكان للسيوف ولا السهام

وتقترن شكوى المرض بشوى الدهر عند أي فراس الحمداني ، لأن الدهر كان سبباً في
علته وتأخيره عن مجلس سيف الدولة ، فجاءت شكواه تجسيداً لعلاقات الوفاء والمحبة والود
الأخوي، يقول في ذلك ^(٢) :

لقد نافسني الدهر بتأخير عن الحضرة
فما ألقى من العلة ما ألقى من الحسرة

وإذا كانت العاطفة صادقة في شكوى أبي فراس ، فإن حراراتها مفقودة في شكوى
التهامي، الذي يشكو المرض ليتخذ منه عذراً يدفع به لوم اللانمين ، يقول التهامي في شكواه ^(٣) :

جسمي نحيل يا صاح بالحب والحب ذا من صايب الرب
ناران : نار بالطب ان ظهرت تخفي ونار تخفي عن الطب
مولاي مهلاً فليس يجمل ان اعتب في غير موضع العتب
اغزر من ماء دمعتي فاذا ينست منه احر من قلبي
حرمت من لبسة الثياب فقد عريت الآ من لؤلؤ رطب
الى قوله ^(٤) :

فما على ما شكوت محتمل للعتب فاصفح ولتعف عن ذنبي

ولإحساس بعض الشعراء بالضعف أمام المرض ، توجهوا الى الدهر يشكونه
ويرفضون ما يأتي به من مصائب . فكأن الدهر بخسهم حقهم ، ، وغبنهم في الهموم التي ألمت
بهم او نزلت باحبّتهم، يقول الواواء دمشقي ^(٥) :

يا صروف الدهر جسيمي أي ذنب كان ذنبي
طرقتني نائبات الدهر في اعلال حبي
علة عمت وخصت في حبيب ومحب

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ، ١٤٧/٤ .

(٢) ابو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (١٤٩ دار صادر) (٩٩ السامرائي) .

(٣) التهامي ، أبو الحسن علي بن محمد التهامي (-٤١٦هـ) : ديوان التهامي ، تحقيق د. محمد عبدالرحمن
الربيع ، مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٩٨٢م ، ١٠٥-١٠٦ .

(٤) السابق ١٠٦ .

(٥) الواواء دمشقي : ديوان الواواء دمشقي ٥٦-٥٧ .

رب في كفيه ما من حبه رب بقلبي
فهو يشكو حر حب واشتكائي حر حب

ويظهر السري الرفاء صبره وجلده على علته ، لكن ما يرهقه عادة أعدائه ، فيعتبر عن معاناته بالشكوى التي تفصح عن حاله (١) :

أصبر على مترادف الضراء ففعل ذلك مؤذن بشفاء
ما حال من لعب السقام بجسمه ظلماً ففضّ نفسه الأعضاء حظر الطبيب عليه طبيب
غذائه وأباحه مكروه كل غذاء

ويعوده أعداؤه وأشد من مرض المريض عيادة الأعداء
وإذا ثقل المرض على ضعاف النفوس ، فإنهم لا يطيقونه ، ويتصرفون تصرف من في غيهم يعمهون ، فيظهرون نعمتهم ، ويعلنون سخطهم ، وقد يصل بهم الأمر الى رفض المرض ، والشك فيما صحّ من اعتقادهم ؛ يقول الثعالبي عن عبيدالله بن أحمد البلدي النحوي : " لم أسمع ذكره ، وشعره إلا من أبي الحسن المصيصي الشاعر ، وكان قد عاشره واستكثر منه ، فحكى لي ، أنه كان أعور ، فاعتلت عينه الصحيحة ، حتى أشرف على العمى ، فقال : واستغفر الله من كتبه :

إن قلت جوراً فلا تلمني بأن ربّ الوري المسيح
أراك تُغمي وذاك يُبيري فهو إذا عندي الصحيح " (٢)

وهذا قليل ، بل نادر ، في شعر القرن الرابع الهجري ، إذ ابتعد الشعراء عن مثله ، لما فيه من كفر وإشراك بالواحد الأحد .

* * * * *

ووقف الشعراء - أمام الموت - موقف العجز والدهشة والحزن ، فعلى الرغم من إيمانهم - كغيرهم - بالموت قدراً محتوماً ، ينزله الله على الإنسان ، لينتقل إلى حياة أخرى ، كما يحاسب فيها على أعماله في الدنيا ، إلا أن الحزن ظلّ قاسمهم المشترك الأول ، يحسونه ازاء الحدث المؤلم ، لتتقارب أفكارهم ، ويتشابه حديثهم عنه . ولعل مرّد ذلك طبيعة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث ، فهي متقاربة إن لم تكن واحدة .

وكان الموت - وما زال - يلقي ظلالاً من الحزن والفجعة في قلوب الشعراء ، يدفعهم إلى البكاء والشكوى ، وإظهار الحزن والتفجع ، لفقدتهم الأقارب والأحبة . فضلاً عن تذكّره نهائيتهم المحتومة ، وبخاصة في عصر اشتدّ بقسوته عليهم ، فالظروف العامة جعلت حياة الناس مهددة بأسباب الموت ، كما أن التناقص والجوع والبؤس وامتّهان

(١) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ١٠ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/ ٢١٤ .

مصائر الناس ، أضافت أعباء نفسيه جديدة على الشعراء ، دفعتهم الى القلق ، والخوف من مصائرهم ، فكانوا في رثائهم موتاهم ، كأنهم يرثون أنفسهم . يقول الشريف الرضي في رثاء ابن جني (١) :

كأنني إذا تبعت آثار غارب بعيني، لم أنظر إلى ضوء شارق
كأننا قذى يرمي به السيل كلما تطاوح ما بين الربي والأبارق
كأنني بعد الذاهبين رذيلة تزجى وراء الماضيات السوابق (٢)
ولا ريب اني مبرك في مناخهم وأنني بالماضين أول لاحق

ومهما اختلف الشعراء ، أمام جبروت الموت ، وتفاوتت قدرتهم على تحمل الحزن ، فانهم اتفقوا على عجزهم أمامه وهو موقف يعكس نفسياتهم نحوه . ولذا شكا بعضهم الموت بطابع حكمي تأملي ، فالشريف الرضي ، الذي كان أحسن شعراء عصره تصرفاً في المراثي (٣) ، وكانت مراثيه تفصح عن رأيه في دنياه ، وتشهد أنه كان يشعر أن نهايته قريبة ، وأن متاعه في الحياة قليل (٤) ، ينطلق الى هذه النظرة من الموت ، الذي يعصف بالكرام وباللئام من الناس (٥) :

عجزنا عن مراغمة الحمام وداء الموت مغرئ بالأثام
وما جزع الجزوع وإن تناهي بمنتصف من الداء العقام
وأين نحور عن طرق المنايا وفي أيدي الردى طرف الزمام
هي الأيام تاكل كل حي وتعصف بالكرام وباللئام
وكل مفارق للعيش يلقي كمالقي الرضيع من الفطام

وعلى الرغم من مثول حقيقة الموت في أذهان الشعراء ، إلا أنهم - في حالات الحزن الشديدة - يبدون كأنهم يبدون الخروج من دائرة القضاء والقدر في شكوى الموت ، فينقمون عليه لأنه يفاجئ الناس ، ويفنيهم ، ولذا وصمه المتنبي بالغدر قائلاً (٦) :

غدرت يا موت كم أفنيت من عدد بمن أصبت وكم اسكت من لجب

واستطاع المتنبي توظف شكواه من الموت ، في مواقف تعكس نظرتة الى الناس ، وحكام عصره ، بما يوائم طموحه وآماله ، فهو في رثائه أبا شجاع فاتكا ، يجسد نظرتة تلك ، فيرى أن الحياة تصفو للجاهل والغافل من الناس ، بينما يموت امثال أبي شجاع (٧) :

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٦٣/٢ - ٦٤ .

(٢) الرذية : التي أثقلها المرض .

(٣) الثعالب : بتيمة الدهر ١٤٤/٣ .

(٤) د. زكي مبارك عبقرية الشريف الرضي ٢١١/٢ .

(٥) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٣٨٩/٢ .

(٦) المتنبي : ديوان المتنبي ٧٨/١ .

(٧) السابق ، ٢/ ٢٧٥ ، ٢٩٦ .

تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع
قبحاً لوجهك يا زمان فاته وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الأوكع^(١)

وحفل حديث الشعراء عن الموت ، وشكواهم منه ، بالحديث عن البكاء والدموع .
فصوروا عبراتهم صوراً مختلفة ، وكانهم يجدونها مقياساً لتجسيد معنى الوفاء ، وتأكيد الحب ،
فراحوا يبالبغون في البكاء على الميت ، ويصفون غزارة دمعهم . ومنهم من شكا قصور الدمع ،
لأن دمعته الذي سكبته على الميت لم يكف لإشفاء غلله . يقول الشريف الرضي^(٢) :

ألوي حيازيمي عليك تحرقاً
فيا شمل نبي لا تزال مبدداً
وأشكو قصور الدمع فيك وما رقا
ويا جفن عيني لا تزال مؤرقاً
فقد كنت أستسقي الدموع لثملها
وما جم دمع العين إلا ليهرقا

ويبعث الموت الهم الشديد والحزن الدائم في نفوس الشعراء ، إن كان الميت من أقرب
الناس إليهم . ولذلك نستشف في شكواهم العواطف الجساشة الصادقة ، والشعور الفياض بالأسى ،
والإحساس بعظم الفاجعة وهول المصيبة . وفي مثل هذه المعاناة يقول الشريف الرضي :

ألا يا لقومي للخطوب الطوارق
وللدهر يعري جانبي من أقاربي
وللعظم يرمى كل يوم بعارق
ويقطع ما بيني وبين الأصدقاء
وتريني الليالي ضوؤه في مفارقي
لفقد الصفايا وانقطاع العلاق
وللنفس قد طارت شعاعاً من الجوى
لها كل يوم موقف مع مودع
نجوم من الإخوان يرمي بها الردى
مقاربها فوت العيون الروامق

فالموت انتزع من الشاعر صديقاً او قريباً او حبيباً ، كانوا أعواناً له ومؤيدين لخطاه
وطموحه ، فكان فقدهم باعثاً قوياً للشكوى التي تكتسي بمرارة الأسى واللوعة^(٣) :

ما لي أودع كل يوم ظاعنا
وأروح اذكر ما أكون لعهد
فرغت يدي منه ، وقد رجعت به
تشكو القذى عيني ، فيكثر شكوها
لو كنت آمل للوداع لقاء
فكأنني استودعه الأحشاء
أيدي النوانب والخطوب ملاء
حتى يعود قذى بها أقذاء
داء يمض فلا أداوي الداء
جربتهم فتكلتهم أحياء
فرقته فدفتته أعضاء
إلا يكن جسدي أصيب فاتني

(١) الأوكع : من الوكع ، وهو عيب في اليد والرجل ، ويكون في العبد . ويقال : الأوكع : الأحمق .

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٦٣/٢ - ٦٤ .

(٣) السابق ، ٣٤/١ .

وتكون العواطف أكثر شجواً وأسىً عند موت أحد الوالدين أو أحد الأبناء، فتتجلى عواطف الشعراء الحزينة في الرثاء ، لقرب عهد الرائي بموت من يثبه ، ولا يجد الشاعر غير الدموع ينثرها بين ثنايا أبياته ، معدداً صفات الفقيد وخصاله ، متحسراً عليه ، يقول أبو فراس الحمداني في رثاء والدته (١) :

أيا أماه كم هم طويل	مضى بك لم يكن منه نصير
أيا أماه كم سرّ مصون	بقلبك مات ليس له ظهـور
أيا أماه كم بشرى بقربي	أتتك ودونها الأجل القصير
إلى من أشتكي؟ ولمن أناجي	إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأي دعاء داعية أوقى	بأي ضياء وجه أستنير
نسلى عنك أنا عن قليل	إلى ما صرت في الأخرى نصير

وهكذا يكون لإحساس الشعراء، ومشاعرهم ، أثر بالغ في شكواهم وتوجعهم ، وظهور مواقفهم من الموت ، وليس بدافع عدم الإيمان بالله ، وإنما لفقدهم اتزانهم النفسي ، بفقد أحبّتهم وأقربائهم ، فيظهر حزنهم وألمهم ، وقلقهم جلياً واضحاً في شعرهم الحزين الباكي.

* * * * *

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني (١٦٣ دار صادر) (٦٧ السامرائي).

الفصل السادس

السّمات الفنّية

* التجربة الشعريّة

* البناء الفنّي

* اللغة والأسلوب

* الصور الشعريّة

* الموسيقى الشعريّة

من المفيد ، قبل الشروع في دراسة الجوانب الفنية في شعر الرفض في القرن الرابع الهجري ، ان نشير إلى اننا لا نستطيع ان نحكم على هذا الشعر حكماً دقيقاً ، لأننا لا ندرس شعر شاعر واحد، وإنما ندرس أبياتاً ، او مقطوعات ، جاءت مفردة ، او مجتزأة من قصائد ، لم ينظمها قائل واحد ، ولا يجمعها مكان محدد ، او زمن معين ، أو غرض واحد، بل جاءت في ظاهرة ملحوظة ، في شعر قرن من الزمان ، عند أكثر من شاعر ، وفي امكنة متباعدة ، وأزمنة متفاوتة ، واغراض متعددة.

التجربة الشعرية

أرجع القدماء مصدر إلهام الشعراء الى قوة مؤثرة ، ظنوا انها تكمن في الجن ، فربطوا بين وادي عبقر والشعر ^(١) ، وكان المعتقد ان للشعراء شياطين يسكنون في هذا الوادي ، وهم الذين يلهمون الشعراء شعرهم ، فالمكان والشيطان والشاعر ، ثالث يوتي أكله شعراً. ويجوز ان يكون المكان (وادي عبقر) . هو رؤية الشاعر ، وعالمه الريح الفسيح، بما فيه من تجارب وخبرات ، والشيطان هو التجربة والمعاناة . واذا كانت تجربة الشاعر قوية مؤثرة ، خرجت إلى الوجود شعراً معتبراً ، فقالوا قديماً : جاءه شيطانه.

واذا كانت التجربة ضعيفة ، لا تحرك عواطف الشاعر ، كان الشعر هزياً ضعيفاً. ومما يؤثر في شاعرية الشاعر ، تجربته ، وثقافته ، وشخصيته ، وكلما كانت التجربة محفزة مؤثرة ، كانت رؤية الشاعر واسعة ، وعميقة ، ودقيقة ، تعطي شعراً معتبراً ، وبهذا يختلف شعر الشاعر نفسه - باختلاف التجربة ونوعها ، فيو (الشاعر) في الشدائد والمعارك والصعاب ، غيره وهو بين دنٍ وغانية .

وقد يستطيع بعض الناس تمثّل التجربة ونقلها ، دون ان يعيشها ، ولكنهم لا يستطيعون الوصول إلى نتاج كما يستطيع اصحاب التجارب انفسهم ، فمن ذاق طعم الجوع لا كمن عاش في خياله ، ومن وطئ النار لا كمن شاهد من وطنها .

وقد خبر معظم شعراء القرن الرابع الهجري ظروف مجتمعاتهم واحواله السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وعاشوا خيرها وشرّها ، وعانى كثير منهم مرارة التجربة ، الناتجة عن تردي بعض جوانب تلك الظروف ، ففاضت افواههم شعراً رافضاً لسلبات تلك الأحوال .

(١) ابن منظور : لسان العرب ٥٣٥/٤ ، قال : " عبقر : موضع بالبادية كثير الجن . قال ابن الأثير : عبقر : قرية تسكنها الجن فيما زعموا - فكلماً رأوا شيئاً فانتأ غريباً مما يصعب عمله ويدقّ أو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه اليها " . وينظر :

* البغدادي ، ابن نايقا البغدادي (-٤٨٥هـ) : الجمان في تشبيهات القرآن ، تحقيق د. مصطفى الصاوي الجويني ، نشر منشأة المعارف ، مطبعة الجزيرة ، الإسكندرية ، ١٩٧٨م ، ٨٣-٨٥.

ومما عزز ذلك ، سعة ثقافتهم ، اذ عاشوا في عصر الازدهار الفكري والأدبي ، مما مكنهم من وضع خبراتهم ومشاعرهم ورؤاهم في ألفاظ وقوالب لغوية مناسبة لتجاربيهم ، ومعبّرة عنها ، فنقلوا المعاناة من مكنها - في بطونهم - إلى الواقع المعلن الذي يطلع عليه الناس .

ويمكن القول :، إن معظم شعر الرافض في القرن الرابع الهجري قد عبّر عن معاناة قائله ، ووصف ألهم ، وصوّر احساسهم ، بصدق وأمانة ، وإن اختلفت تجارب أولئك الشعراء ، باختلاف افكارهم ، وعاطفتهم ، ومواهبهم ، وارثهم الثقافي ، ومحصولهم اللغوي . ومن ذلك ما نراه في رفض أبي فراس الحمداني نظرية حقّ العباسيين في الخلافة ، منطلقاً من تشييعه ، معبراً عن معاناته ، وإحساسه بظلم العباسيين وضيق حق بني علي رضي الله عنه ، يقول : (١) :

يا للرجال أما لله منتصف من الطغاة ؟ أما للدين منتقم
بنو علي رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم
ويقول ، نافياً حقّ العباسيين في الخلافة ، رافضاً حكمهم ، ناعياً عليهم سيطرة الأعاجم على مقاليد أمورهم ، داعياً إلى تخليهم عن فخارهم (٢) :

ثم ادعاه بنو العباس إرثهم وما لهم قنم فيها ولا قنم
أبلغ لديك بني العباس مأكلة لا تدعوا ملكها ملاكها العجم
خلّوا الفخار لعلمين إن سنلوا يوم السؤال وعمّالين إن عملوا
ومن ذلك - أيضاً - ما عبّر به أبو اسحق الصابي عن تجربته في تولي ديوان الرسائل وعزله عنه ثم سجنه ، فقد قوبل احسانه بالاساءة ، فخاطب الرؤساء متسائلاً عن العدالة في سجنه (٣) :

يا أيها الرؤساء دعوة خادم أوفت رسائله على التعديد
أيجوز في حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهدي ووعيدي
ويصور لهم تجربته في اثناء توليه عمله ، ويؤكد نزاهته وعدالته ، طالباً منهم استقصاء ذلك لمعرفة إن كان قد ظلم في اثناء توليه العمل ، مصوراً ألمه ومعاناته لإنكارهم فضله بعد ان كان يحبّر لهم الرسائل والكتب ، فصار مصيره السجن ، مقيداً بالسلاسل والقيود ، يعيش عيش الذل والعبودية ، قائلاً (٤) :

قلدت ديوان الرسائل فانظروا أعدلت في لفظي عن التسديد؟
أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول درّ عندكم منضود

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ، ٢٥٥ (دار صادر).

(٢) السابق ٢٥٥ .

(٣) الثعالبي : بتيمة الدهر ٢/٢٤٣

(٤) السابق ٢/٢٤٣

ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد
انا بين إخوان لنا قد أوثقوا بسلاسل وجوامع وقيود

ويشبه الصابي - في صدق تجربته ، ومعاناته ، وإحساسه بالظلم في سجنه - أبو بكر الخوارزمي ^(١) ، والمتنبى ^(٢) ، وأبو جعفر القمي ^(٣) ، وعبدان الأصفهاني ^(٤) ، وأبو الحسن الحرّاني ^(٥) ، في اشعارهم التي رفضوا بها السجن ، وعبروا فيها عن سخطهم وألمهم ومعاناتهم وتجاربهم المريرة .

ومن الذين عبروا عن تجاربهم ومعاناتهم ، أبو الفتح البستي ؛ فقد كثرت شكواه ، وكثر رفضه كثرة تستلفت النظر . فلما اتضعت منزلته - بعد عزله - شكّا ، وذكر السلطان - في رفق - بنفسه وبسوابقه ، وبخدمته ، وبما كان يمدحه من اشعار طافت أرجاء البلاد . يقول ^(٦) :

سَيِّدِي أَنْتَ لَا تُخَلِّ بِخَلٍّ لم يكدّر لورد ودك شرباً
وتذكر سوابقي إن فيهنّ لسرح الآمال مرعى وأباً
ربّ شعر لما مدحتك فيه سار في العالمين بعداً وقرباً
فكأنّي أودعته فلك الشمس فعمّ البلاد شرقاً وغرباً

ولكنّه لما لم يجد أذنّاً صاغية من الأمير ، عاود الشكوى ، ورفض واقعه ، مقارناً بينه وبين الآخرين ، ومتسائلاً عن سبب حرمانه ، معلناً أنّ ذلك الحرمان لم يكن بسبب العجز أو النقص أو العيب ، فهو صادق الوعد غير كذوب ^(٧) :

وإذا ضمت الكفاية قوماً في مضمّ البيان لم يلحقوا بي
فلماذا حرمت من غير عجز ولماذا عوقبت من غير حوب
ولماذا أخرت من غير نقص عن أناس هم عياب العيوب
صادق الوعد والوعيد جميعاً ولسان الحكيم غير كذوب

ويزداد ألم الشاعر ، وتزداد حرقة ، ويعبر عن واقعه وتجربته ، رافضاً قرار عزله ، معارضاً ساسية الأمير . فقد عزله دون ذنب ، فلم يخن رؤساءه ، ولم يقصر في حقهم . وتزداد

(١) الثعالبي : نتيمة الدهر ، ٢٠٥/٤ .

(٢) المتنبى : ديوان المتنبى ٣/ ٢٧٥ .

(٣) الثعالبي : نتيمة الدهر ٤/ ٤١٠ .

(٤) السابق ٣/ ٢٩٨ .

(٥) نفسه ٤/ ١٠٦-١٠٧ .

(٦) د. محمد مرسي الخولي : أبو الفتح البستي ، حياته وشعره ، ٢٢٢ .

(٧) السابق ٢٢١-٢٢٢ .

المرارة والمعاناة ، عندما يُعزل المخلص الأمين الجاد عن عمله ، ويبقى من هو على غير تلك الصفات في مكانه . يقول البستي (١) :

عُزِلْتُ ولم أعجز ولم أك خائناً وذلك لانصاف الوزير خلاف
حذفت وغيري مثبت في مكانه كأتى نون الجمع حين تضاف

وتمثلت نفس البستي أسى وحزناً ، وبخاصة لأنه لا يعرف له ذنباً جناه ، أو تقصيراً ارتكبه ، فيعتبر عن رفضه ان جرد من نفسه شخصاً يحدثه ويبث إليه شكواه ، معلناً ، انه وصاحبه قد جعلاً اجنبيين وهما لم يرتكبا ذنباً ، وقد عزلا رغم اتصافهما بالأمانة والعدل والفضل . يقول (٢) :

جعلنا أجنيين بلا جرم ولا تبـل
وأقصينا وما خنا وما زغنا عن العدل
فقل لي يا أبا السؤدد والهمة والفضل
إلى كم نحن في ضيق وفي عزل وفي أزل

ويحز في نفس أبي الفتح البستي ان يرى الناس ينفضون من حوله بعد عزله ، بعد ان كانوا يخطبون وده ، ويتقربوا منه ، ويتألم كثيراً لما يراه من سلوك الناس ، ويرفض تصرفاتهم ، معلناً سخطه ونقمته على الزمن ، وعلى المنافقين ، قائلاً (٣) :

عفاء على هذا الزمان فاته زمان عقوق لا زمان حقوق
فكل رفيق فيه غير مرافق وكل صديق فيه غير صدوق

ويعلن البستي على الملأ خلاصة تجربته ، ويصف لهم مرارتها ، غير مكتف برفض عمل السلطان ، وانما يطلب سامعه ان يرفض ذلك العمل ، فيقول ، وهو في أوج غضبه وألمه ومعاناته (٤) :

يا من يرى خدمة السلطان عذته ما أرش كذاك إلا الذل والندم
دع الوجود فخير من وجودك ما تبغيه عندهم الحرمان والعدم
إني أرى صاحب السلطان في ظلم ما مثلهن اذا قاس الفتى ظلم
فجسمه تعب والنفس مزعجة وعرضه والدين منثلم

وكل ذلك رفض لمرارة التجربة التي مر بها ، وتعبير عن واقع مؤلم عاشه الشاعر .

(١) د. محمد مرسي الخوري : ابو الفتح البستي حياته وشعره ٢٧٨ .

(٢) نفسه ، ١١٩ .

(٣) نفسه ، ٢٨٥ .

(٤) نفسه ٣٠٦ .

ومن الذين نقلوا تجاربهم - شعراً - بصدق وأمانة ، أبو الطيب المتنبي ، إذ رأى في
الذلّ والرداءة موتاً محققاً للفرد والمجتمع ، فأكثر من السفر طالباً المجد ، مصوراً أحاسيسه ،
رافضاً الإقامة في دار الخنوع ، قائلاً^(١) :

تغرّب لاستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حكماً
ولا سالكاً إلا فؤاد عجاجة . ولا واجداً إلا لمكربة طعماً

داعياً نفسه إلى نبذ ملذات الدنيا ، محرماً عليها قضاء أوقاته في طلب الشهوات ، معلناً
أنه يستغل ساعات حياته كلها في طلب المجد والعزة والكرامة^(٢) :

كذا أنا يا دنيا إذ شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كارئها قدما
فلا عبرت لي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

ومثل المتنبي - في صدق تجاربه - شعراء كثرة ، منهم : ابن نباتة السعدي^(٣) ، وابن
سكره الهاشمي^(٤) ، وكشاجم الرملي^(٥) ، والبيغاء^(٦) ، والخباز البلدي^(٧) ، وابن لنكك^(٨) ،
وغيرهم لا يتسع المقام لذكرهم .

ويصدق أبو احمد عبدالرحمن الشيرازي في وصف علته ، ويصور معاناته وأحاسيسه
احسن تصوير ، فيشكو إلى الله علته ومرضه الذي ألح في هزاله وضعفه ، ويصف حالته ،
وتقلبه في فراشه مما يجد من ألم ومعاناة ، قائلاً^(٩) :

إلى الله أشكو ضنى شفتي وكم قبلة من ضنى قد شفاني
وسقماً ألح فما لي بما أحاط برجلي منه يدان
تراني وقد كنت ثبت الجنان إذا الليل جنّ سليب الخبان
اقطع آناؤه بالأنين وأرقب للصبح وقت الأذان
أنقل في موضع موضع فحيث حللت نبا بي مكاتي

ويستمر في وصف آلامه ومعاناته إلى أن يصل في النهاية إلى طلب الشفاء من الله عزّ
وجلّ.

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٠٧/٤

(٢) السابق ١٠٧/٤

(٣) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٢٢٥

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢٢/٣

(٥) كشاجم الرملي : ديوان كشاجم الرملي ١٣٣

(٦) البيغاء : شعر البيغاء ٤٥

(٧) الخباز البلدي : شعر الخباز البلدي ٣٠

(٨) ياقوت الحموي : معجم الأدياء ٨/١٩

(٩) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٢٧/٢ - ٣٢٨

ومن الملاحظ ان معظم شعر الرفض يعبر عن قلق قائله ، وان ثقافة اصحابه ، وعمق تجاربهم يجعل ذلك الشعر مؤثراً في الآخرين ، وهو الأمر الذي اراده الشعراء لنقل سامعيهم من مرحلة التأمل إلى مرحلة الفعل .

وليس من المغالاة القول ان معظم شعر المتنبي ينم عن قلقه ، ويحدث أثراً فاعلاً في نفوس سامعيه ، فهو ينشر خلاصة تجربته ، داعياً السامع للاستفادة منها ، كما في قوله (١) :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر	وحيداً ، وما قولي كذا ومعى الصبر
تمرست بالآفات حتى تركتها	تقول: أمانت الموت أم دعر الذعر
واقدمت إقدام الآتي كأن لي	سوى مهجتي أو كان لي عندها وتر
دع النفس تأخذ وسعها قبل بينها	فمفترق جاران دارهما العمر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة	فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

فتجربته مع دهره صعبة ومريرة ، ولكنه بقي سالماً رغم كثرة مصائبه ، فاستمر في اقدامه وجهاده في طب المعالي ، لما وفر في ذهنه ان النهاية المحتومة لا تأتي إلا في وقتها المحدد ، فلم التواني والخنوع؟!

ويتميز شعر الرفض بقدرته على نقل إحساس قائله وانفعالاتهم ، إلى سامعيه ، وهي ميزة لا تتأتى إلا لفن نابع من تجربة واقعية وإحساس صادق . وقد اتسم ذلك الشعر بواقعية التجربة الشعرية ، اذا اشتق الشعراء موضوعات شعرهم من تجاربهم الخاصة في حياتهم ، ومن بيئتهم الاجتماعية التي عاشوا فيها ، فكانت مادة شعرهم حياة الناس الذين يعيشون بينهم ، وليس حياة الناس المترفين ، وكانوا يتكلمون عن ألسنة الناس ، ويصدرون عن احساسهم وانفعالاتهم .

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٤٨/٢

البناء الفني:

اهتم النقاد العرب ببناء القصيدة الفني، وعنوا بتوافق أجزائها، وتماسكها - معنى ومبنى - والتحام تلك الأجزاء لتكون وحدة فنية واحدة. يقول ابن طباطبا: "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً ينسق به أوله مع آخره على نحو ما ينسقه قائله، فإن قَدَم بيت على بيت دخله الخلل، ويجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف" (١).

ونفذ الحاتمي إلى داخل النص الشعري، مشيراً إلى وحدة القصيدة بقوله: "مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وبأينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة، تتمنون محاسنه، وتعفي معالمه، وقد وجدت حذاق المتقدمين، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقضي بهم على محجة الاحسان، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال، وتأتي القصيدة في تناسب صدرها وأعجازها، وانتساب نسيبها بمدحها، كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة لا يفصل جزء منها عن جزء" (٢).

وعند النظر إلى شعر الرفض في القرن الرابع الهجري، نجد أنه لم يكن ذا بناء فني واحد مطرد، فثمة القصيدة المستقلة التي أفردت لغرض الرفض، وهي تتفاوت طولاً وقصراً، بتفاوت قدرات الشعراء وطبيعة موضوعاتهم، وقد تتحول عند بعضهم إلى مقطوعة لا تتجاوز البيتين أو بضعة أبيات. وثمة شعر الرفض الذي جمع الشاعر بينه وبين فنون أخرى في قصيدة واحدة، وهي السمة الغالبة.

ومن الملاحظ أن معظم شعراء القرن الرابع الهجري، لم يعلنوا رفضهم في قصائد طويلة مستقلة، وإنما صاغوه في قصائد ومقطوعات قصيرة، إما مستقلة بذاتها، أو في إنشاء القصائد التي قالوها في أغراض متعددة. ومن الذين أفردوا قصائد مستقلة لهذا الغرض: المتنبي، وأبو فراس الحمداني، والشريف الرضي، والأحنف العكبري، وأبو دلف الخزرجي، وأبو العلاء المعري. وجلّ الآخرين رفضوا من خلال مقطوعات مستقلة تارة، أو مُتضمّنة في قصائد تارة أخرى.

(١) ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (-٣٢٢هـ): عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م،

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٧/٣

ومن قصائد الرفض المستقلة، وهي التي قصرها اصحابها على الرفض، وانفردت بمعالجة موضوع واحد فحسب، قصيدة المتنبي التي مطلعها (١) :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

وظهر فيها قلق الشاعر، ومعاناته وألمه، ودعا فيها -أيضاً- إلى طلب العلى، ومواجهة الموت بشجاعة، لأنه النهاية المحتومة، وانتقد التخلف بالجبن، وحرّض الآخرين على رفض الذل، وطلب منهم الاتصاف بالأخلاق الحميدة. ومن تلك القصائد، أيضاً، قصيدة المتنبي التي مطلعها (٢) :

صحب الناس قبلنا ذا الزماتا فعناهم من أمره ما عانا

وقد تضمنت تأملات الشاعر في مصير الانسان، وحياته، وتأثير الزمن فيه، فأكد غلبة الزمن - ومعاناة الانسان المملة لها، وجاءت القصيدة - شكلاً - في ثلاث وحدات؛ يتجلى في الأولى الوصف والتحليل، ويظهر في الثانية.

الحاح الشاعر على قضية تبعية الناس في عصره لمن سبقهم في المعاناة والشقاء، ويبرز في الثالثة خطاب الشاعر، ومحاولة التأثير على السامعين، في خطاب قصد منه اتباع طريق المجد والابتعاد عن الذل والخنوع.

وأفرد أبو فراس الحمداني قصيدته التي مطلعها (٣) :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي

للإعلان عن رفضه، وإظهار قلقه. ووصف معاناته مما يلاقيه في أسره. كما أفرد أبو العلاء المعري قصيدته التي مطلعها (٤) :

ورائي اماماً والأمام وراء أنا أنا لم تكبرني الكبرياء

لرفض الذل والمهانة، والتعامل مع الجاهلين، وحسد الحساد، وتمادي بعض الناس عليه لإيذائه. وقصر الأحنف العكبري قصيدته التي مطلعها (٥) :

على اني بحمد الله في بيت من المجد

على رفض الأوضاع الاقتصادية، وبيان معاناة المتسولين، وتبرير أعمالهم، وبيان أسرار مهنتهم. وخصّ أبو دلف الخزرجي، الكدية، وحياة المكدين، وحيالهم، وطرق اكتسابهم المال، وتصوير ما يجول في خواطر بني ساسان من ألم ومعاناة وضيق، بقصيدته الدالية التي مطلعها (٤) :

جفون دمعها يجري نطول الصّد والهجر

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١١٩/٤.

(٢) السابق ٢٣٩/٤.

(٣) أبو فراس الحمداني: ديوان أبي فراس الحمداني ٢٣٨.

(٤) المعري : سقط الزند ٣٩٢/١.

(٥) النعالي : يتيمة الدهر ١١٧/٣.

(٦) السابق ٣٥٤/٣.

وكثر المقطوعات الشعرية التي اختصت بالرفض في دواوين الشعراء وكتب التاريخ والأدب ، ونظرة سريعة في كتاب اليتيمة ، تنبئ عن انتشار تلك الظاهرة في شعر القرن الرابع الهجري .

وجاء شعر الرفض - قسماً من أقسام القصيدة - على ثلاثة أوضاع - مرة في أولها ، متصداً بقية أغراضها ، وأخرى في وسطها ، ضمن بقية الأغراض ، وثالثة في نهايتها ، خاتمة لأغراض القصيدة ، ونهاية لأجزائها .

ومما جاء - من شعر الرفض - في مفتاح القصائد ، قول المتنبي ، مقدمة لمدحه في علي بن إبراهيم التنوخي ^(١) :

أحاذ أم سداس في أحاد لئيلتنا المنوطة بالتنادي

وقوله - مطلعاً - لمدح المغيث بن علي العجلي ^(٢) :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب النمام

وقوله - تمهيداً - لذكر الحمى ووصف مقامه في مصر ^(٣) :

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعالة فوق الكلام

أعلن الشاعر - في الأولى - نغمته ورفضه في التسعة أبيات الأولى ، انتقل بعدها إلى المدح بثلاثين بيتاً . وعبر - في الثاني - عن رفضه في السبعة أبيات الأولى . تلاها بأربعة وعشرين بيتاً في مدح الممدوح . واستغرق الرفض - في الثالثة - العشرين بيتاً الأولى من القصيدة ، جاء بعده وصف الحمى ووصف مقام الشاعر في مصر في اثنين وعشرين بيتاً .

ومما جاء من رفض في أثناء القصيدة ، رفض الشريف الرضي الشيب ، وشكواه من الموت ، في قصيدته التي مطلعها ^(٤) :

ولقد اكون من الغواني مرة بأعز منزلة الحبيب الأقرب

اذ بدأها بالغزل العذري في أربعة أبيات ، ثم رفض الشيب وظهر نغمته ببيتين ، تلاهما بأربعة أبيات شكاً فيها الموت ، وتكالب المصائب عليه وعلى قومه .

ومن ذلك أيضاً رفض المتنبي مصائب الزمان ورداءة أهل عصره ، في قصيدته التي يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكي ، ومطلعها ^(٥) :

لك يا منازل في القلوب منازل أفقرت انت وهن منك أو اهل

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٥٣/١

(٢) السابق ٦٩/٤

(٣) نفسه ١٤٢/٤

(٤) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ١٨١/١

(٥) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٩٤/٣

اذ رفض متع الحياة . ومصائبها في اربعة ابيات ، جاءت بعد الوقوف على اطلال الحبيبة الذي استغرق احد عشر بيتا .

ومن الرفض الذي جاء في ثانيا القصيدة ، أيضاً ، رفض أبي العلاء المعري مصائب الدهر ، وخداع مجتمعه ، في قصيدته التي مطلعها (١) :

أعن وخذ القلاص كشفت حالا ومن عند الظلام طلبت مالا

رفض فيها صفة الخداع ببيتين ، وشكا مصائب دهره بثلاثة ، بعد ان خاطب نفسه ، وعدد صفات ممدوحه ، باربعين بيتا .

ومن الرفض الذي اختتمت به القصائد ، رفض المتنبي حسد جاسديه ، في قصيدته التي مطلعها (٢) :

ضيف ألم برأسي غير محتشم السيف احسن فعلاً منه باللمم

ورفضه النفاق والخداع ، واتخاذ الدين وسيلة للترقي ، في قصيدته التي مدح بها سيف الدولة . ومطلعها (٣) :

أيدي الربيع أي دم أراقا وأبي قلوب هذا الركب شاقا

اذ بلغ عدد ابيات الرفض - في القصيدة الأولى - عشرين بيتاً جاءت بعد عشرة ابيات في النسب ، وانتهت الثانية بسبعة ابيات رفض الشاعر فيها بعض اخلاق اهل عصره ، وسبق ذلك الرفض بتسعة ابيات في النسب ، واربعة وعشرين بيتاً في المدح .

والحديث عن وحدة القصيدة - بناء على ما سبق . لا يأخذ جانباً واحداً في شعر الرفض ، لأن وجود موضوعات متعددة في قصيدة واحدة ، لا يفقدها عنصراً أساسياً ومهماً هو الوحدة العضوية ، التي يعرفها الدكتور محمد غنيمي هلال بقوله : " ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع ، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك .

في ترتيب الصور والأفكار ترتيباً به تتقدم القصيدة شيئاً فشيئاً ، حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على ان تكون اجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدي بعضها الى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاير " (٤) .

وقد تتبعثر الوحدة الموضوعية في بعض القصائد ، وتبدو الصورة الكلية منقطعة الأوصال ، لأنها تنفقد إلى الترابط والانسباب الفكري ، فقد ينتقل الشاعر - في اوج انفعاله - من غرض الى اخر .

(١) المعري : سقط الزند ٢٥/١

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٤/٣

(٣) السابق ٢٩٤/٢

(٤) د. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، (٩) ، ٣٧٣

ومن الملاحظ ان طول بعض القصائد التي تضمنت رفضاً ، لا يفقدها الوحدة النفسية والشعورية ، على الرغم من افتقادها للفكرة العامة التي تجعل منها بنية فكرية متماسكة ، بمعنى ان القصيدة تعتبر - باجمعتها - عن حالة وجدانية وعاطفية ، اكثر من تعبيرها عن وحدة موضوعية ، فلم ينظم الشاعر قصيدته " وفقاً لتقاليد فنية يطيعها وحدها ، وانما كان يصدر عن دوافع وحالات نفسية تملي عليه ان يأخذ بهذا النهج أو ذاك " (١) فالرابطة التي تصل بين اغراض القصيدة عاطفة واحدة ، قد تتصف هذه العاطفة بالحب أو الحزن أو البغض . ففي قصيدة المتنبي التي قالها يرثي جدته لأمته ، تسيطر عليه عاطفة الحزن ، وتوجهه من بداية القصيدة ، اذ يقول في المطلع ، معلناً حزنه ودهشته واستغرابه (٢) :

ألا لا أرى الأحداث حمداً ولا ذماً فما بطشها جهلاً ولا كفها حلماً
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى يعود كما ابدى ويكري كما ارمى
ثم ينتقل إلى رثاء جدته فجأة (٣) :

لك الله من مفجوعة بحبيبها قتيلة شوق غير ملحقها وصما
ويستغرق هذا الرثاء ثمانية عشر بيتاً ، جاء خلالها بيتان في ذم الليالي ورفض مصائبها ، وشكوى الموت وهما؛ البيت الثامن (٤) :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهنتي لم تزدني بها علما
والبيت السابع عشر (٥) :

وكنيت قبيل الموت استعظم النوى فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
ويعلن الشاعر تحديه وكبريائه في البيتين (٦) :

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالفه حكماً
ولا سالكاً لا فؤاد عجاجة ولا واجداً إلا لمكرمة طعماً

ثم يرفض الذل والهوان في بقية أبيات القصيدة ، وقد سيطرت عليه منذ بداية القصيدة عاطفة الحزن والتشاؤم ، فكان للعاطفة والعامل النفسي دور في تحديد نوعية القصيدة ووحدتها ، " والواقع اننا نستطيع ان نتخذ من التوتر عند الشاعر أساساً دينامياً لوحدة القصيدة ، فهو يساهم بنصيب كبير في تحديد الهدف والطريق اليه " (٧) .

(١) حياة جاسم : وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي ، منشورات وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية ، دار الحرية للطباعة ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٢م ، ١٦٢ .

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ١٠٢/٤ وما بعدها .

(٣) السابق ١٠٢/٤ .

(٤) نفسه ١٠٤/٤ .

(٥) نفسه ، ١٠٦/٤ .

(٦) نفسه ، ١٠٧/٤ .

(٧) د. مصطفى سويف : الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، منشورات جماعة علم النفس التكاملية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٠م ، ٣٠٦ .

ويمكن النظر إلى وحدة الموضوع في القصائد التي تضم رفضاً، من خلال قدرة الشاعر على التعبير عن خلجاته الوجدانية، وصدق مشاعره . ولا بد أن تثير قصيدة من هذا النوع لونا واحداً من المشاعر أو الأحاسيس ، فتكون الوحدة الموضوعية فيها نتيجة التجربة الصادقة ، ووليدة الحالة الشعورية عند الابداع والانتقال من غرض إلى آخر في مثل تلك القصائد طبيعي، ما دامت هناك عاطفة واحدة تشد الأغراض إلى بعضها .

وتوجد هذه الظاهرة عند من يملكون القدرة على التعبير عن عواطفهم ومشاعرهم في رفضهم ، فكان المتنبي " اعظم الشعراء تعبيراً عن تجربته وحياته ، وبقدر ما كانت عاطفته معبرة عن هذه التجربة ، بقدر ما كان يوفر لقصائده الوحدة الشعورية الحقة " (١) . وتلاحظ الوحدة الشعورية في العديد من قصائد المتنبي التي ضمت رفضاً ، منها على سبيل المثال - قصيدته التي قالها في هجاء كافور (٢) :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

فالمقدمة تشكل جزءاً لا يتجزأ من القصيدة ، لأنها ذكرت حدثاً حرك شعور الشاعر ، وهو العيد الذي هباً للشاعر مناسبة ليعمق الدلالة على واقع نفسيته ويشيع شعوره في القصيدة منذ بدايتها . وهو غير مبهج في العيد ، بل متشائم مكتئب ، لأن العيد جاء والشاعر بعيد عن أحبته وأهله ، فيتذكرهم في غربته وهو جنب كافور ، ويحزن لفراقهم ، ويندم على غربته . ثم يستعرض آماله (٣) :

لولا العلى لم تجب لي ما أجوب بها وجناء حرقاً ولا جرداء قيود (٤)

ويصف ما لقيه من محن ، ويشكو دهره ، ويرفض مصائبه (٥) :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي	شيئاً تتيمة عين ولا جيد
يا ساقيني أخمر في كؤسكما	أم في كؤسكما هم وتسهيذ
أصخرة أنا ؟ ما لي لا تحركني	هذي المدام ولا هذي الأغاريد
إذا اردت كميت الخمر صافية	وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها	أني بما آتا بك منه محسود

ثم يعلن سخطه ونقمته على كافور ، ويرفض حكمه ، ويلوم قومه على توانيهم وتهاونهم ، داعياً إلى اقضاء كافور عن الحكم لأنه لا يصلح له .

(١) د. عبدالفتاح صالح نافع : لغة الحب في شعر المتنبي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، ١٩٨٠م ، ٣٤٥ .

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٩/٢

(٣) السابق ٣٩/٢

(٤) الوجناء : الناقة الصلبة الشديدة ، الحرف : الضامرة ، الجرداء : الفرس ، القصير الشعر ، القيود : الناقة الطويلة الظهر .

(٥) المتنبي : ديوان المتنبي ٤٠/٢ .

وقد بدأ الشاعر قصيدته حزينا، ناقماً على الدهر الذي أوهنه وحطم طموحه ، حتى ألب عليه الخطوب التي أفقدته احساسه بالمتعة ثم التفت إلى كافور الذي كان احد اطراف مأساته ، بعد ان كشف كذبه وغدره ، فصب عليه جام غضبه وهجاه هجاء لاذعاً ، وكل ذلك كان يقطر نعمة وغضباً وكرهاً.

وهكذا استطاع الشاعر التعبير عن واقع نفسه بقصيدة متلاحمة الأجزاء ، على الرغم من انقسامها إلى ثلاثة اقسام متباينة هي : العيد، والافاق ، وهجاء كافور . فنحن من خلال الصور الجزئية التي جمعت بن خيبة امل الشاعر ونقمة وسوء حالته النفسية ، والصراع الداخلي بين الافاق والأمل . وفي القصيدة اضافة إلى وحدة الشعور ، وحدة المغزى الذي نظر اليه الشاعر واراد ايصال حقيقته الى السامع (١) .

ومثل ما قيل عن قصيدة المتنبى السالفة الذكر ، يمكن ان يقال عن معظم قصائد الشريف الرضي ، فالوحدة الموضوعية في قصيدة الرضي واضحة ، تدل على نضوج الفكرة وعمق التجربة في نفسه ، وقصيدته متاغمة الأركان مترابطة الأوصال شعورياً ، فمراثيه التي يستهلها بقوله (٢) :

أي دموع عليك لم تصب وأي قلب عليك لم يجب

تكون من ثمانية وثلاثين بيتاً ، شملت وصف حزنه ، وبكائه على فقده ، وشكوى الموت ، ورفض مصائب الدهر ، وشكوى الشيب ، وإحساسه بالموت . لكن الوحدة الموضوعية واضحة فيها من خلال الوحدة الشعرية التي تحققت بتداعي الصور الجزئية والأفكار المنسجمة عن الشيب والكبر والموت ، فانتظم خيط الحزن أبيات القصيدة من أولها حتى نهايتها . وتنمثل الوحدة الموضوعية في القصائد التي قصرها اصحابها على الرفض والشكوى ، جلية واضحة ، اذ تولى تلك القصائد وحدة خالصة تركز على موضوع واحد هو الرفض ، وتتوزع تلك القصائد على محاور مختلفة وفي اغراض كثيرة منها السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

وأما المقطوعات الشعرية القصيرة التي تكثر في دواوين الشعراء وفي كتاب اليتيمة ، فلا حاجة للتدليل على توافر الوحدة الموضوعية فيها ، لأنها - من البدهي - ألا تستوعب إلا فكرة واحدة أو وحدة واحدة من المشاعر ، لسرعتها وإيجازها ، ولأنها أكثر استيعاباً من غيرها ، للحظات غضب الشعراء وحزنهم وتجاربهم الشعرية ، فلا غرو ان يكتف الشعراء غضبهم أو حزنهم ، في أقل ما يمكن من الكلام ، لأنهم غير مشغولين بالبحث عن اغراض اخرى تستوجب زمناً أطول من الزمن الذي يعلنون فيه نقمتهم وغضبهم على ما يرفضون .

(١) ينظر تحليل الدكتور إحسان عباس لإحدى قصائد المتنبى ، وما لاحظته فيها من وحدة مغزى ، في كتابه : فن الشعر ، دار الثقافة ، بيروت ، (٩) ، ٢١١ .

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ١٥١/١ - ١٥٢ .

اللغة والأسلوب

شغل النقاد العرب بقضية اللفظ والمعنى . منذ عهد مبكر ، واهتموا بالعلاقة بينهما ، وتباينت آراؤهم في تفضيل احدهما على الآخر ، مع إجماعهم على ان الطرفين لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر .

وقد اشار الجاحظ إلى تلك القضية بقوله : " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك " (١) .

وقسم ابن قتيبة الشعر - على أساس اللفظ والمعنى - أربعة اقسام (٢) ، وعدد ثعلب صفات اللفظ الجيد (٣) ، الذي يريد به " السهل الممتنع " (٤) . واهتم نقاد القرن الرابع الهجري بتلك القضية ، فتناولها ابن طباطبا (٥) ، وقدامة بن جعفر (٦) ، وابو هلال العسكري (٧) . والقاضي الجرجاني (٨) .

والحديث عن اللفظ والمعنى - كائنين مستقلين أو منفصلين - امر غير مستحب ، فغرض اللفظ خدمة المعنى ، وهو - مفرداً - لا يحمل قيمة جمالية ، والعبرة في طريقة التركيب وأشكال التعبير وقوالب الصياغة . فالكلمة بجارتها ، واللفظة باختها ، والسياق يتحكم في إظهار المعاني الكامنة ، واللفظ جسم روحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم لمعنى واختل بعض اللفظ ، كان نقصاً للشعر وهجنة عليه (٩) .

(١) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، المجمع العلمي العربي ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ٤/١ .

(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٦٤/١ .

(٣) ثعلب ، أبو العباس احمد بن يحيى ثعلب (-٢٩١هـ) : قواعد الشعر ، تحقيق د. رمضان عبدالنواب ، دار المعرفة ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ٦٧ .

(٤) د. عبدالواحد حسن الشيخ : قضايا النقد الأدبي والبلاغة عند اللغويين في القرن الثالث الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨٠م ، ٤٨٠ .

(٥) ابن طباطبا ، محمد بن احمد بن طباطبا العلوي (-٣٢٢هـ) : عيار الشعر ، تحقيق عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ٢٠ .

(٦) قدامة بن جعفر ، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (-٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ٢٨ ، ١٨ .

(٧) أبو هلال العسكري ، الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ، (-٣٩٥هـ) : كتاب الصناعتين ، تحقيق علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٢م ، ٥٧-٥٨ ، ٦٣-٦٤ .

(٨) الجرجاني ، القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (-٣٩٢هـ) : الوساطة بين المتبني وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ٣٣ .

(٩) ابن رشيق القيرواني ، ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني (-٤٥٦هـ) : العمرة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجبل ، بيروت ، ١٩٧٢م ، ١٢٤/١ .

وعند الحديث عن ألفاظ شعر الرفض ومعانيه في القرن الرابع الهجري ، لا بد من الإشارة الى تأثير الحضارة فيهما ، اذ انتقل المجتمع العباسي - بفعل الحضارة - من البداوة إلى المدنية ، وصاحب هذا الانتقال تغيرات في نمط الحياة اليومية ، وفي المستويات العقلية ، والفكرية ، والأدبية ، فانساق أدباء العصر إلى التعبير عن الحياة الجديدة وفقاً لمتطلبات ذلك العصر ، بلغة وأساليب تتواءم مع معطيات الحياة الجديدة ، وما فيها من مؤثرات .

وخضعت لغة الشعراء في القرن الرابع الهجري ، لتأثير العصر فيهم ، وتكوينهم الثقافي ، وأذواقهم ، وتجاربهم الشعرية . وظلّ للغة الأدبية المتوارثة عبر القرون ، كثير من النفوذ ، والأنماط التقيدية في شعر كثير منهم .

ويمكن القول ان لغة شعر الرفض في القرن الرابع الهجري ، اتخذت وجهتين عامتين ؛ اتسمت الأولى بسهولة الفاظها ، وبساطة اسلوبها إلى حد اقترنت معه - أحياناً - من لغة الحياة العامة ، وبخروجها عن حدود الفصيحة ، واتسمت الثانية بتمسكها ، بالأسلوب القديم ، فسلكته ممثلة الأسلوب الأدبي الرفيع ، في طرائقها وتعبيرها وفخامة الفاظها ، وقد احتوت - مع ذلك - نيار الحضارة لسمته اللينة السهلة .

ومن اليسير الوقوف على هذين المستويين اللغويين في ذلك الشعر ، وذلك لتنوع اغراض الشعر ، وتعدد الشعراء .

ولان لكل فن شعري ، أساليب ولغة تختص له دون غيره ، كما أشار الجرجاني إلى ذلك بقوله : " ولا أمرك باجراء انواع الشعر كلّ مجرى واحداً ، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل ارى لك ان تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتب كلّ مرتبة وتفيه حقّه فتلطّف اذ تغزّلت ، وتفخّم اذا افتخرت ، وتتصّرف للمديح تصرف موافقة ، فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن لمدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه " (١) فمن الطبيعي ان يكون لشعر الرفض لغته الخاصة الواضحة السهلة الموحية بالغضب ، بعد ان هجر كثير من الشعراء الألفاظ الغريبة ، ومالوا إلى التعبير عن الفكرة ، وأولعوا بتبسيط لغتهم ، وجعلها في متناول ادراك عامة الناس ، فلقد " وجد شعراء القرن الرابع الهجري أنفسهم مجبرين على صياغة شعرهم في قوالب لغوية بسيطة ، واساليب تعبيرية قريبة من عقول الجمهور ومستواهم الادراكي " (٢) .

(١) الجرجاني : الوساطة بين المتبني وخصومه ٢٤ .

(٢) د. نبيل خليل أبو حاتم : اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري من خلال بتمية الدهر ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدوحة ، ١٩٨٥م ، ٣٥٩ .

ومن المعروف ان الناس يتخاطبون باللغة التي يفهمونها ، وقد اشار أبو هلال العسكري إلى ذلك بقوله : " اذا كان موضوع الكلام على الافهام ، فالواجب ان تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس ، فيخاطب السوقي بكلام السوق ، والبديوي بكلام البدو ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب " (١)

ووجد من شعراء القرن الرابع الهجري الذين طرّقوا الرفض في شعرهم ، أميين ، كالخبز أرزي . الذي كان يخبز وينشد أشعاره ، والناس يزدحمون عليه لاستماع شعره وحفظ كلامه لقرب مأخذه وسهولته (٢).

ومما يميز شعر الرفض - في لغته وأسلوبه - عن الفنون الشعرية الأخرى ، الوضوح والسهولة ، فلا ترتقي لغته - عند بعض الشعراء - إلى لغة الفخر أو المديح الفخمة التي تهتم بفخامة الألفاظ وضخامة العبارة . وانصرف كثير من الشعراء إلى الموضوع ، واهتموا بايصال الفكرة ، والتعبير عن المعاناة والحرمان بالفاظ سهلة بسيطة ، ولعل مراد ذلك انشغال الشاعر بمعاناته وانفعالاته الحادة التي يريد التعبير عنها ليجد متنفساً له من همومه وآلمة التي تلازمه ، فهو في جو لا يتيح له التألق في اللفظ . ولذا مال شعر الرفض إلى السهولة والبساطة ، وبخاصة عند الشعراء الشعبيين الذين لم يعتنوا بلغتهم أو اساليبهم ، مما أدى إلى تسرب الفاظ عامية إلى شعرهم ، واقترابه - أحياناً - من النثر ، ولغة الحياة العامة المتداولة ، كما في قول الواساني (٣) ، يرفض ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في دمشق (٤) :

يا خليلي اقصر عن ملامي وارثيا لي من نكبتى وارحماني
ومتى ما ذكرت دعوة اولاد البغايا والعاهرات الزواني
فاتنفا لحيتي وجزا سبالي وبنعل الكنيف فاستقبلاني
ما الذي سافقتي لحيني ؟ إلى حتفي وما غالني ؟ وماذا دهاني ؟
من عذيري من دعوة او هنت عظمي وهنت بهولها اركاني

وكما في قول أبي الحسن الحراني يرفض غرور تميم بن حبيش وتعاليه وطيشه (٥) :

يا تميم بن حبيش كل ذاك الطيش أيش
إنما أنت وكيل الباب لا صاحب جيش
قد تبظرت وقدماً كنت في أنكد عيش

(١) أبو هلال العسكري : كتاب الصنائع ٣٩ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٦٥/٢ .

(٣) هو أبو احمد القاسم الحسين بن الحسن بن واسان ، المواساني الدمشقي ، من شعراء اليتيمة ، توفي سنة ٣٩٤ هـ . (اليتيمة ١/٣٣٥ ، معجم الأدياء ٩/٢٣٣) .

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٤٠/١ .

(٥) السابق ١٠٧/٤ .

ولم يكتف بعض شعراء الرقص بالفاظ شعبية معدودة، متناثرة في القصيدة أو المقطوعة الشعرية ، بل تجاوزوا ذلك ، فأصبحت لغتهم الشعرية أقرب إلى الحديث العامي منه إلى الشعر المنظوم ، كقول أبي الرقعمق من قصيدة له في مجلس قام فيه جلساؤه بالصفع، يقول ^(١):

عجب ما مثله عجب	فعلوا بي غير ما يجب
قرقرت تطني فواحنني	ذقن من بالسبح يحتضب
هرباً من شرها هرباً	فعسى ان ينفع الهرب
ذهب الناس فما احد	يشتهي ان تنفخ القرب

وبجانب وجود بعض الألفاظ العامية ، والميل إلى الشعبية ، استعمل بعض الشعراء الألفاظ ماجنة في شعرهم ، وغلفوها - أحياناً - بطابع دعابي ، ليكون أكثر متعة وقبولاً عند السامع، ومعظم الذين استعملوا تلك الألفاظ ، من الفقراء الذين قست عليهم الحياة ، وشعروا بالضيق، فطرقوا ما يروق لهم من الأفكار الرافضة ، والألفاظ الماجنة النافرة ، تعبيراً عن رفضهم، وضيقهم ، وبرمهم بالحياة ^(٢) .

واستعمل بعض الشعراء الفاظاً نابية ، تأنف النفس من سماعها ولا يقبلها الذوق في الحديث العادي ، فكيف بالشعر ؟ ^(٣) .

ولم يكتف بعض الشعراء باستخدام الألفاظ العامية، بل اضافوا الكثير من الألفاظ ومصطلحات المكدين في شعرهم ، وهي الفاظ ومصطلحات عرفت معانيها جماعة الكدية ، وقد اشتهر بتلك اللغة شاعران هما: أبو الاحنف العكبري ، وأبو دلف الخزرجي، وتعد قصيدة أبي دلف الخزرجي، المعروفة بالساسانية، الوثيقة الحقيقية لشعراء الكدية في هذا القرن، فقد ضمنها صاحبها كل ما كان يدور بين الساسانيين من ألفاظ ومصطلحات يصعب - على غيرهم - فهمها وحل الغزها ^(٤) .

وافتقد بعض شعر الرقص الشعبي ، رونقه وجماله ، وجودة أدائه ، فهو كالحديث العادي، اذ تمر المقطوعة الشعرية كلها دون ابداع، وتخلو من الجمال والعمق والرصانة ، وتبتعد عن موهبة الشاعر، وقوة ابداعه الفني ، وتعتمد المباشرة في الاداء ، يقول محمد بن عبدالعزيز السوسي واصفاً فقره ، رافضاً حالته ^(٥):

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ١/٣١٨ .

(٢) ينظر على سبيل المثال شعر ابن الحجاج في اليتيمة: ٦١/٣، ٥٦/٣، وشعر ابن لنك البصري في اليتيمة أيضاً ٣٤٩/٢ .

(٣) ينظر على سبيل المثال ، ابیات ابن لنك : وإن زماناً انتم رؤساؤه ... (اليتيمة ٢/٣٥٠) .

من مخبري عنه فاني سائل .. (اليتيمة ٢/٣٥٢) .

فرغت ولم تكن (فرغت فرامت .. (اليتيمة ٢/٣٥٤) .

(٤) تنظر القصيدة في اليتيمة ٣/٣٥٤ - ٣٧٣ .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/٤٢٦ .

الحمد لله ليس لي بخت ولا ثياب يضمنها تخت
سيان بيتي لمن تأمله والمهمة الصححان والمرت
أمنت في بيتي اللصوص فما للص في فوق ولا تحت
فمنزلي مطبق بلا حرس صفر من الصفر حيثما درت
إبريقي الكوز ان غسلت يدي والطين سعدي وداري الطست

فلم يقدم الشاعر في أبياته السابقة أي لون من ألوان الإبداع الفني ، واعتمد المباشرة في وصف حالته ، ولم يكن همه تجميل لغته وتحسين أرائه ، وإنما كان همه شرح حالته السيئة كي يشاركه السامع الاحساس بظروفه القاسية .

وعلى الرغم من شيوع الاتجاه الشعبي في شعر الرفض ، إلا أن الشعر التقليدي الذي مال فيه شعراؤه صوب المعجم اللغوي القديم بقي محافظاً على مكانته الفنية وفخامة عباراته وجزالة الفاظه وجودة سبكه . وكان شعر المدح والفخر ، والثناء ، هو الشعر الأكثر استخداماً لهذه الوجهة الغوية ذات المعجم البدوي القديم . وقد جاءت مقطوعات الرفض التي يتضمنها هذا الشعر ، منسقة - لغة وأسلوباً - مع باقي أجزاء القصيدة ، التي أثبت الشعراء - من خلالها - قدرتهم الفنية وموهبتهم الفكرية في محاكاة القدماء ففي لغتهم وأسلوبهم التعبير . يقول ابن نباتة السعدي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني :^(١)

ومستقل للشام عزمي وربما سبقت إلى الوراء القطا وهو سادك^(٢)
لعمرك ما خلفت في أرض بابلي هوأي ولا ضاقت علي المسالك
أبي الضيم لي أن أقبل الضيم صارم وقلب إذا سيم الدنية فاتبك
وكف بفعل الخير والشر ثرة وسن على ما أحدث الدهر ضاجك
يود الردي لي معشر ينفوسهم وإن سلخوا الفج الذي أنا سالك
وإني لأغضي الطرف عن كل منظر يصب إليه الناسك التماسك
وذاك من جهل به غيراني عيوف لأخلق الألام تارك

ويظهر للقارئ أن الأبيات السابقة تشابه في لغتها وأسلوبها شعر الجاهليين ، علاوة على أن الشاعر بدأ قصيدته بالنسيب ثم وصف راحلته التي ركبها إلى سيف الدولة ، وتخلص بعد ذلك إلى المدح ثم إلى الرفض .

ويظهر اتباع نهج القدماء في الجزالة والفخامة في غير موضع من شعر ابن نباتة السعدي ، فقصيدته التي قالها عند اجتيازه بنصيبين قبل سيره إلى سيف الدولة ، تدل على ذلك ، إذ افتتحها بقوله :^(٣)

لحا الله الجزيرة من بلاد ولا حيا محياها بمزن

(١) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٧٢ .

(٢) السادك : سدك سداً فهو سدك . والسك : المولع بالشئ .

(٣) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ١٨٨ .

وبين سبب رفضه الإقامة في تلك البلاد قائلاً:

دعا حواذانها إبلي فقالت ألا : لا - اشتري عشباً بمن^(١)

وتهتف بي ألا تمتاح أهلي أهلك؟ ليت أُمي لم تلدني^(٢)

وهو في أبياته لا يحيد عن الألفاظ الجزلة والعبارات الفخمة . مثل تمتاح ، والقيظ ،
والهرماس ، وشن ، واستسقيت ، والعوالي ، وببيض الهند ، والضرب ، والطعن ، والنصل .

وجاء شعر الرفض - لغة وأسلوباً - على أيدي فئة من الشعراء اعتنوا باختيار -
ألفاظهم وإظهار قدرتهم الفنية مع تمثل روح العصر الذي يعيشون فيه ، ومن هؤلاء المتنبي ،
وابو فراس الحمداني ، والشريف الرضي ، والخالديان ، وابو الفتح السني ، وابو اسحق الصابي ،
والسري الرفاء ، وغيرهم ممن اشتهروا في القرن الرابع الهجري ، وكانت أشعارهم تتسم بجمال
اللغة وفصاحة الألفاظ ، ونقاء العبارة ، ووضوح الأفكار وحسن السبك ؟ ، ومثانة الأسلوب ،
وجمال الصياغة ، ويقف المتنبي وابو فراس الحمداني والشريف الرضي في مقدمة الفئة المبدعة
التي اتسم شعرها بالبراعة ، والقدرة على الرفض بأساليب والفاظ تمكنهم من تصوير تجاربهم ،
ونقل معاناتهم ، بصدق ووضوح .

واستطاع المتنبي التحكم بالأساليب اللغوية ، وتطويعها لخدمة المعاني والأغراض الفنية ،
فكان في لغته " كالملك الجبار يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجريء يهجم على ما
يريد لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع " (٣) . وقد رسم لنفسه مذهباً اشبع فيه رفضه
باللهجة الحماسية ، فأكثر من أوصاف الحرب ، وذكر أدواتها ، يقول (٤) :

الطير جائعة لحم على وضم

ايمك الملك والأسياف ظامئة

المجد للسيف ليس المجد للقلم

ويقول (٥) : حتى رجعت وأقلامي قوائل لي

وكان من عشقه للحرب ، وتحمسه لها ان جعل ألفاظها تمتزج مع ألفاظ الغزل ، ليظهر

تأثره بها ، وتغزله بأفعالها من خلال رفضه .

وهذا المذهب في استعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب مما لم يسبق إليه ،

وتفرد به ، وأظهر فيه الحذق بحسن النقد ، وأعرب عن جودة التصرف والتلاعب بالكلام (٦) .
ومن ذلك قوله (٧) :

(١) الحوذان : نبت يرتفع قدر الذراع له زهرة سمراء .

(٢) تمتاح : تسقي .

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة ١٣٣/١ .

(٤) المتنبي : ديوان المتنبي ٤٣/٤ .

(٥) السابق ١٥٩/٤ .

(٦) الثعالبي : نبيمة الدهر ١٩٣/١ .

(٧) المتنبي : ديوان المتنبي ١٤١/٢ .

عذيري من عذاري من أمور سكن جوانحي بدل الخدور
ومبتسمات هيجوات بعصر عن الأسياف ليس عن الثغور

فجاء بالألفاظ : عذاري ، جوانح ، خدور ، ثغور ، بجانب لفظتي الأسياف وهيجوات .
ويتميز شعر الرفض عند أبي فراس الحمداني بجمال الألفاظ ، ومثانة الأسلوب . وجزالة
اللغة ، فكان شعره - وما يزال - مؤثراً في الافهام ، لقدرة الشاعر على استخدام اللغة المبينة ،
وتطويع معانيها وألفاظها وأصواتها لخدمة أغراضه ، يقول في إحدى روميّاته (١) :

وقال أضحائي الفرار أو الردى فقلت : هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعينني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير في دفع الأذى بمذلة كما ردها يوماً بسوائه عمرو

ويلمس القارئ - من خلال الأبيات السابقة - الفخامة في الأسلوب ، وجزالة الألفاظ ،
وترابطها ، وترتيبها ترتيباً يؤدي إلى إيقاع موسيقي هادر ، فالشاعر حزين ، لكنه قوي ، يرفض
الذل ، ويرفض مقالة الذين صغروا في عينه ، فصغّر اللفظ الذلّ عليهم ، وهو يصدر عن فكر
وثقافة وحكمة تنبئ بها كلّ عبارة من عبارات الأبيات السابقة .

ومزج أبو فراس - في رفضه - مفردات الحماسة بمفردات الغزل ، فهو عندما يرفض
الفراق ، يرجو الشهادة ، لأنه يعدّ الفراق جهاداً في ساحات الوغى (٢) :

وإذا ينست من الدنوّ رغبت في فرط البعاد
أرجو الشهادة في هواك لأن قلبي في جهاد

وتظهر موهبة الشريف الرضي وعبقريته الشعرية ، في أسلوبه ، ولغته ، واستطاع
تطويعها لخدمة غرضه . ففي قصيدته التي قالها يوم القبض على الخليفة الطائع ، استطاع التعبير
عن المصيبة ورفضها ، وإبان عن ألمه وحزنه ، وأظهر قوة نفسه وعظمتها ، في آن واحد ، يقول (٣) :

من لي ببلغة عيش غير فاضلة تكفني عن قذى الدنيا وتكفيني
قالوا أتقتنع بالدون الخسيس وما قنعت بالدون بل قنعت بالدون
إذا ظننا وقدرنا جرى قسدر بنازل غير موهوم ومظنون

وشاعت الألفاظ الحماسية في شكوى الشريف الرضي ورفضه ، فلغته " لغة حرب
وجلجلة ، حتى في غير مجال الحرب " (٤) لأنه أراد ترجمة رفضه وثورة نفسه الحزينة
الطامحة ، بذكر أوصاف الحرب وأدواتها (٥) :

(١) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ١٦٠

(٢) السابق ٩٧

(٣) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٤٤٦/٢ .

(٤) محمد جميل شلش : الحماسة في شعر الشريف الرضي ، المكتبة العالمية ، بغداد ، ١٩٨٥م ، ٢١٢

(٥) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٦١/١ .

متى أراني ودرعي غير مُحَقَّبَةٍ أجز رمحي وسيفي غيرُ مقروبٍ (١)
ونثر في رفضه أيضاً ألفاظاً تتناسب مع لهجته الحماسية، مثل الدم، والحمى، كما في قوله (٢) :

يا برق إن صُبَّتَ الحمى فلا تَصُبْ إلا بِدَمٍ
على ديار معشر خاتوا العهود والذمم

وتتجلى في شعره روح البداوة القريبة من العفوية، فيعبّر عن رفضه بلغة مبيّنة لمعاناته النفسية، متمثلاً فيها روح العروبة الخالصة (٣) :

إلى كم الطرْفُ بالبيداء معقود وكم تشكى سُرَايَ الضمَرِ القودُ
تعلّة لي، بعدَ القرب، توكّيةً عن المقامِ وبعدَ النومِ تسهيدُ
يا دارَ ذلٍّ لمن فارقتِ قعدته والعزُّ أولى بمن علقتِ يا بيد

وكثر. في شعر الرفض الألفاظ الموحية التي تنطق بما في نفوس الشعراء، وتترجم انفعالاتهم، وتثير بمعانيها عواطف السامعين، وتزيد من تأثرهم بمعاناة قائلها، فتتردّد ألفاظ الشقاء، والحزن، والغم، والجزع، والفراق، والألم، والأوجاع، والموت، والخوف، والظلم، والاختناق، وغيرها مما يزيد من الحزن والانقباض النفسي.

ونهج بعض الشعراء في رفضهم - نهج (الحكاية) أو (السرد)، لقرب ذلك من القصة، ولما له من تأثير في نفوس السامعين. ووجد من اتبع هذا النهج متفصلاً يتيح له الإطناب في عرض ظلامته وتبرير رفضها، وبخاصة إذا ما عولج ذلك الشعر بروح الدعابة، وهو ما يخفف من أحزان العامة والأمها. يقول الواصلاني (٤) :

سرقوا جبتي وسيفي وسكيني وخفي وجوربي وراتبي
ثم لما انتهت بهم شدة الكظة خروا صرعى على الأذقان
هوما أعة كتهويمه الخائف في غير أرضه الفزعان
ثم قاموا ليلاً وقد جنح النسر ومال السماك والفرقندان
يصرخون الصبوح يا صاحب البيت فأبكوا عيني وراعوا جناتي
سحبوني من جوف بيتي على وجهي كأني أدعى إلى السلطان
بقلوب أشد حراً من الجمر وأقسى من الصفا الصوان
قلت رقوا لذلك الطفل ميمون ولا تؤتموه يا إخواني
ما تفي أكلة بقتل غريب ذي عيال ناء عن الأوطان
علقوني بفرد رجل إلى السقف وعذبت ليلتي بالدخان

(١) محقبة : موضوعة في الحقيبة . المقروب : الموضوع في قرابه

(٢) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٢٧٧/٢.

(٣) السابق ٢٦٩/١.

(٤) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٧٤/١.

ويغلب على رفض بعض الشعراء أسلوب الوصف ، يعبرون به عن افكارهم ، ويصفون من خلاله سوء حالهم وفقدهم ، فابن الحجاج عندما يرفض واقعة الفقير ، يلجأ إلى الأسلوب الوصفي ، يرسم لنا من خلاله صورة منزله الذي يعيش فيه ، قائلاً (١) :

إلى منزل لا يوارى اذا تحصلت فيه سوائتي
مقيماً أروح إلى منزل كقبري وما حضرت ميتتي
إذا ما الم صديقي به على رغبة منه في زورتي
فرشت له فيه بسط الحديث من باب بيتي إلى صفتي

وتخير بعض الشعراء أساليب تخدم اغراضهم ، وتحقق أهدافهم ، لإكساب رفضهم الوضوح ، والقوة ، والتأثير ، وحرصوا على وقع ألفاظهم وأساليبهم في نفوس سامعيهم ، فاستخدموا على سبيل المثال - أسلوب الاستفهام والنداء - وقد ساقوا تلك الأساليب وفقاً للموجات النفسية والأطوار الوجدانية التي تنتابهم . فيرفض السلمي الفقر وسوء الحال بالتساؤل قائلاً (٢) :

فهل في الناس يا للناس حرّ يبيض وجه ممتحن مضيق ؟

ويتساءل ابن نباتة السعدي بنبرة خطابية حادة وموحية بالاضطراب والحيرة قائلاً (٣) :

متى أرجو مسالمة الهموم وآمل صحة الجسم السقيم

واستطاع المتنبي في سياق ذلك - ان يوظف الاستفهام في قوام العبارة الدالة على النعمة والضيق ، ويعكس خيبة امله ومعاناته والمناداة بحياة أفضل ليتجاوز واقعه الذي يرفضه ، كقوله (٤) :

فما لي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شقوق الأراقم

وقوله (٥) :

حتّام نحن نساري النجم في انظلم وما سراه على خفّ ولا قدم

واستخدم الشعراء أسلوب النداء ، لوقعه المباشر في النفس ، ولتأكيد أثر المنادى إن كان غير غافل ، فتميم بن المعزّ ينادي الدهر ليجسد منه عاقلاً ، يعاتبه ، وينسب إليه القدرة على الضرّ ، قائلاً (٦) :

يا دهر كم يشتد حربك ويكرّ بالنكبات خطبك

(١) الشعالي : يتيمة الدهر ٣/٥٤-٥٥.

(٢) السابق ٢/٤٢٦.

(٣) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ١/٤٤٧.

(٤) المتنبي : ديوان المتنبي ٤/١١١.

(٥) السابق ٤/١٥٥.

(٦) تميم بن المعزّ : ديوان تميم بن المعزّ ٨١.

ويقوى تأثير أسلوب النداء اذا تحول الخطاب إلى محاورة النفس وبيان الآمها وشجونها، كما في قول أبي بكر الخالدي (١) :

يا نفس موتي فقد جذّ الأسى موتي ماكنت أول صباً مبخوت

وأكثر أبو فراس الحمداني من أسلوب النداء الذي وجهه توجيهاً خطابياً مباشراً في حالات حزنه والإحساس بالألم الشديد (٢) .

واتبع كثير من الشعراء أسلوب النفي في رفضهم لما يقرره هذا الأسلوب من تباین بين نمطين ؛ نمط قائم برفضه الشاعر ، وآخر يريده ويسعى إلى تحقيقه ، فالشريف الرضي يرفض جور الزمان ، وقلة الإخوان ، وسوء أحواله ، ويريد عدل الزمان ، ووفاء الخلّان ، ونخوة الأصدقاء ومروءتهم ويسر الحال ، قائلاً (٣) :

جار الزمان فلا جواد يرتجى للنائبات ، ولا صديق يشفق

وطغى عليّ فكلّ رجب ضيق إن قلت فيه وكل حبل يخنق

ومن ذلك أيضاً مقارنة أبي الرقعمق بين ليله الذي يرفضه وبين الليالي الأخرى التي ينعم بها أصحابها بعين عن الخوف والمعاناة ، يقول (٤) :

ليلي بتيس ليل الخائف العاتي تقنى الليالي وليلي ليس بانفاتي

وتجدر الإشارة إلى خروج بعض الشعراء على المقاييس اللغوية والقواعد النحوية، إما لإيجاد نسق جديد من التراكيب اللغوية كما هو في شعر المتنبّي الذي "نبذ المقاييس المنطقية الخارجية لتصبح انعكاساً للصورة النفسية الداخلية التي تعبر عن حالة الشاعر الشعرية والروحية معاً، أو للضرورة الشعرية عند الآخرين .

ومن أمثلة ذلك : عطف الإسم " أيسر " على الفعل " أحيا " في قول المتنبّي: (٥)

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

واشتقاق إسم التفضيل "أسود" من فعل زائد عن ثلاثة أحرف (٦) في قول المتنبّي (٧)

(١) الخالديان: ديوان الخالدين ٣١

(٢) ينظر مثلاً قصيدته الرومية في ديوانه ص ٢٣٨ .

(٣) الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي ٨٣١٢

(٤) الثعالبي: : يتيمة الدهر ٣٣٣/١

(٥) أيمن محمد زكي العشماوي: قصيدة المذبح عن المتنبّي وتطورها الفني ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م، ٢١٨

(٦) ابن عقيل، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي (٧٦٩هـ): شرح ابن عقيل ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (٩)، ١٧٤/٢

(٧) المتنبّي: ديوان المتنبّي ٣٥/٤

أبعد بعدت بياضا لا بياض له لأنت أسود في عيني من الظلم
ومخاطبة الجماعة باسم الإشارة الدال على المفرد في قول الشريف الرضي: (١)
لأي حبيب يحسن الرأي والود وأكثر هذا الناس ليس له عهد
وتسهيل الهمزة في قول ابن لنكك
ونحن والله في زمان غشوم لو رأيناه في المنام فرعنا
يصبح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهم أن يهنا

(١) الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي ٣٣٣/١

(٢) الثعالبي: نتيجة الدهر ٣٤٩/٢

الصورة الشعرية

تعدّ الصورة الشعرية ركناً مهماً من أركان فن الشعر وجماله، وهي ميدان تبرز فيه مقدرة الشاعر الابداعية، إذ يتخذها طريقة للتعبير عن تجربته، ووسيلة لنقل فكرته وعاطفته معاً، إلى قرائه وسامعيه^(١).

وهي (الصورة الشعرية): "تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها"^(٢)، ويعبر بها عما يجول في خاطره معتمداً التجسيد لا التصريح لأن الصورة الفنية تركيبية عقلية تنتمي في جوهرها إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع"^(٣).

ومن أسس ابداع الشاعر، اعتماده على الصور الفنية التي ينسجها خياله، وما يضيف عليها من شعوره وإحساسه الصادق المؤدي به إلى الانفعال والنفوذ إلى معان انسانية وجمالية؟، يصوغها صياغة مؤثرة ومعبرة، تحفز الوجدان وتحرك العواطف.

واهتم شعر الرفض في القرن الرابع الهجري - بتصوير الواقع، وأضفى الشعراء على صورهم كثيراً من همومهم والأمهم ومعاناتهم، فنقلوا أحاسيسهم من خلال الرفض السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الذاتي.

ومن جميل تصويرهم المعتمد على "إحساس الشاعر تجاه ما يرفضه، قول ابن لنكك في وصف حكام زمانه^(٤):

ذهب الذين يعاش في أكنافهم	وبقيت في خلف بلا أكناف
بطيالس وقلانس محشوة	تباشرون بقلّة الانصاف
ما شئت من حلل وفره مراكب	أبواب دورهم بلا أجواف

فهو يلغي الأشخاص، لأنهم لا قيمة فعلية لهم في نظره، والقيمة للطيالس والقلانس، التي يمكن ان تحشى بأي شيء، وما هم إلا -تلك الأشياء التي يمكن ان تكون مادة صالحة للحشو فقط، ولا يؤثر إن كانت الصورة قائمة على تشبيه أو استعارة، إنما هي صورة معبرة عن فراغ حكام الزمان حسب رأي الشاعر، وإمكان الاستعاضة عنهم بأي شيء، فلو حشيت القلانس بالقش ووضعت على بعض الدمى لما تغير الأمر، ولا نكتشف ان القلانس محشوة بأدميين إلا في عجز البيت حين ترد لفظة "يتعاشرون"، وهي الإشارة الوحيدة الى انهم احياء، ثم

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م، ٢٤٢.

(٢) د. علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الأنلس للطباعة والنشر والتوزيع، (٢)، ١٩٨١م، ٣٠.

(٣) د. عز الدين اسماعيل: التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، (٢)، ٦٦.

(٤) الثعالبي: يتيمة الدهر ٣٤٩/٢ - ٣٥٠.

يوضح البيت الثاني جمال الصورة ، بتأكيد الخواء والفراغ في منازل هؤلاء الناس وكأنهم غير موجودين بها ، وذلك في الحقيقة تصوير لنفسية الشاعر ونظرته إلى حكام عصره ، أكثر منه تصويراً لواقع الحكام .

وجاءت صور كثيرة من شعر الرفض ، عفوية بسيطة وغير متكلفة ، لانشغال أكثر الشعراء بالتعبير عن حالاتهم وحاجاتهم ، والاتيان بالمعنى القريب في أبسط تعبير ، وتقرير مباشر . ولعل ذلك يفسر قلة عناية بعض الشعراء بصورهم الشعرية وعدم بلوغها المستوى الفني المطلوب ، ويمثل هذه الفئة الشعراء الشعبيون الذين جاء رفضهم بألفاظ وعبارات مباشرة ، كما في قول ابن الحجاج يرفض الفقر (١) :

وإني بين قوم ليس فيهم	فتى ينهى إلى المك اختلافي
فلحمني ليس تطبخه قدوري	وحوتي ليس تقلبه المقلالي
ومائي قد خلت منه حبابي	وخبزي قد خلت منه سلاي (٢)
أفكر في مقامي وهو صعب	وأصعب منه عن وطني ارتحالي

ومال بعض الشعراء إلى التعبير عن همومهم ورفضهم تعبيراً مباشراً ، وافصحوا عن وجدانهم . ونزعوا نزعة نفسية ، فكان شعرهم نابعاً من التجارب النفسية والعاطفية ، فصبغوا شعرهم بصورها .

كما فعل أبو فراس الحمداني في قصيدته التي قالها وقد ثقلت جراحه ، وهو سير وبعثها إلى أمه (٣) :

مصابي جليل والعزاء جميل وظني	بأن الله سوف يدل
وقصيدته التي قالها حين بلغه أن أمه ذهبت من منج إلى حلب تكلم سيف الدولة في مفاداته فرجعت خائبة (٤) :	

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها

واستطاعت فئة من الشعراء تقديم عرض فني - في رفضهم - مفعم بالصور الأنيقة التي أضفوا عليها من شعورهم وأحيلتهم ، ما تزودوا به من ثقافة ومعرفة ، وما امتازوا به من موهبة وبراعة فنية في رسم الصور المتعددة ، فجاءت صورهم معبرة عن معاناتهم ، ناطقة بشكواهم ، موحية بمساعدهم وعواطفهم . لأن أهمية الصورة " في الطريقة التي تتعرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى وتؤثر به " (٥) .

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٥٤/٣ .

(٢) الحب : ما يوضع فيه الماء .

(٣) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ١٣٤ (السامرائي) .

(٤) السابق ١٣٢ .

(٥) د. جابر أحمد عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ٣٩٨ .

وأعانت الصنعة الشعرية والصور البيانية كثيراً من الشعراء على صياغة أفكارهم وإثراء خيالهم وبذلك عدت الصورة "ميدان العمل الذي تظهر فيه مقدرة الشاعر، ويبرز تمكنه من الصنعة" ^(١)، ويلاحظ أن شعر الرفض - وانصراف الشعراء إلى الاهتمام بالأفكار بشكل مباشر.

وجاء التشبيه - في كثير من شعر الرفض - أداة لرسم الصور وتوضيح الأفكار والتعبير عن التجربة الشعورية، فهو وسيلة ضرورية لبيان حقيقة التجربة التي يعانيها الشاعر ويوضح الجوانب الخفية منها. ^(٢) فيختار

الشاعر الصور الشعرية المناسبة لوضعه النفسي، ليحسن تجسيد مشاعره بصدق ودون مغالاة، وليكون تشبيهه موفقاً ومقبولاً. فالشريف الرضي، عندما يبكي الشباب، ويرفض الشيب، يختار الصورة المناسبة، فيصور سرعة ذهاب الشباب بغيمة سوداء انقبض ظلها سريعاً كظل الطائر، لتستوعب هذه الصورة حزن الشاعر والآمه ^(٣):

وآهأله ما كان غير دجئة والغض من ورق الشباب الناضر

وآهأله ما كان غير دجئة قلصت صبايتها كظل الطائر

وقد اكسبت لفظه "دجئة"، وهي الغيمة السوداء "الصورة جمالاً، فرمزت إلى سواد الشعر الذي مرّ عهده سريعاً كظل الطائر.

ويصور التهامي شدة حزنه على ابنه، بتشبيه فقده بفقد الماء - أساس الحياة - في البلد القفر، ليدل على تعلقه المفرط، وحزنه الشديد ^(٤):

إلى الله أشكو ما أحنّ وإني فقدتك فقد الماء في البلد القفر

وبرع المتنبي في رسم صوره وبث الحركة فيها، وأظهر مقدرة التصوير المعبر والمحاكي لواقعه وحياته ^(٥):

أهم بشئ والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان في كل بلدة إذا عظم المطلوب قلّ المساعد

(١) د. عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦م، ٢١٦.

(٢) د. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ٤١٥.

(٣) الشريف الرضي: ديوان الشريف الرضي ٤٧٩/١ - ٤٨٠.

(٤) التهامي: ديوان التهامي ٣٤١.

(٥) المتنبي: ديوان المتنبي ٢٧٠/١.

فالتشبيه رمز لحركة الشاعر الدائمة ومعاناته القاسية ، جسدها الشاعر في صورة الترحال والغربة والسعي الدائب الذي لم يثمر ، فعل وقوف الدهر بوجه مطامحه ، وبهذا اكتسبت الصورة لونين من المعاناة : مشاق التنقل والغربة ، ثم الحيرة والإحباط .

وأبرز أبو سليمان المنطقي خوفه ، وقدمه على كل مشاعره ، عندما شبه الشيب بأعلام المنايا ، والكفن الذي ينذر بالأجل المحتوم ، ليوحي بوطأة هذا الداء على نفسه (١) :

بكيت على مفارقة الشباب وأيام البطالة والتصاي
بياض الشيب أعلام المنايا نشرن نذيره لك بالذهاب
هو الكفن الذي يبلى وشيكا ويأتي بعده كفن التراب

واستعان الوأواء الدمشقي و بالتشبه به ، لتكثيف المعنى ، وحشد الإحساس بالانفعال ، وشدة المعاناة ، في بيت واحد ، يشبه فيه طول ليلة بطول يوم الفراق ، ويشبه فيه - أيضاً - ظلام الليل بلون صدود الأحبة ، بقول (٢) :

وليل مثل يوم البين طولاً كأن ظلامه لون الصدود

واستعان كثير من الشعراء بالاستعارة لتجسيم معاناتهم وتشخيصها ، وحرصوا على أن يكون لاستعارتهم وقع في نفوس سامعيهم يقارب شدة ألمهم وضيقهم . يقول أبو فراس الحمدا ني - مصوراً سجانیه - (٣) :

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب

فأضفى صفات غير إنسانية على سجانیه واستعار لهم لفظه " كلاب " ليصور الإحساس الكامن بالإساءة والعدوان في رفض السجن وذله .

ويختار المتنبي استعاراته الموحية ، لينقل السامع الى أجواء معاناته والآمه (٤) :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصاً من بعد ما انشبن في مخالبا
ونصبني غرض الرماة تصيني محن أحد من السيوف مضاربا
أظمتني الدنيا فلما جنتها مستسقى مطرت علي مصائبها

فللخطوب مخالب تشبها في جسم الشاعر ، والمحن أشد من السيوف ، والدنيا تظمي وتمطر المصائب ، وكل ذلك يوحي بتأزم حالة الشاعر وخرج موقفه .

ويستعير ابن نباتة الألفاظ الموحية بالألم والحزن والضيق ، لوصف معاناته ، في قوله (٥) :

تكدرت المودة والإخاء ومات الوصل واعتل الصفاء

(١) أبو حيان التوحيدي : المقابسات ٢٩٩ .

(٢) الوأواء الدمشقي : ديوان الوأواء الدمشقي ٨٦ .

(٣) أبو فراس الحمداني : ديوان أبي فراس الحمداني ، ١٣ (السامرائي) .

(٤) المتنبي : ديوان المتنبي ١/١٢٤ .

(٥) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٦٠٦/١ .

ومثله قول السلمي ، إذ استعار البكاء للمزن قائلاً :

وكيف أزوركم والمزن تبكي على داري بأربعة سجام

ويستعير بعض الشعراء كلمات موحية بمرارة الزمن وقسوته ، ويضمنونها رفضهم ، لبيان أحزانهم ومرارة شكواهم ، ومن ذلك قول المتنبي (١) :

أذاقتني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتخباً
وقول الواواء الدمشقي (٢) :

رماني الزمان بسهم الفراق فَشَتَّتْ شَمْلِي ولم يَجْمَعَا

وكنى الشعراء في رفضه ، للإيحاء بأفكارهم وللتعبير عن رفضهم ، ومالوا في كنيائهم الى السهولة والوضوح ، يقول الشريف الرضي رافضاً الذل (٣) :

مَلَكْتُ مَقَامِي غَيْرَ شَكْوَى خَصَاصَةٍ وَإِنِّي لِأَمْرٍ مَا أَمَلْتُ مَقَامِي

نزاعاً عن الدار التي انا عندها كثير لُبَاتَاتٍ طَوِيلٌ غُـرام (٤)

صَرِيْعٌ هُمُومٌ يَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّنِي لَمَّا أَخَذْتُ مِنِّي صَرِيْعٌ مَذَام

نَوَائِبُ أَيَّامٍ نَسْرَنَ خَصَائِلِي مَغَالِبَةٌ حَتَّى عَرَقَنَ عَضَامِي (٥)

فكثير لُبَاتَاتٍ ، وطويل غرام ، وصريع هموم ، ونسرن خصائلي وعرقن عظامي ، كنيائات تصور المرارة التي يحسها الشاعر .

ومن مליح الكناية ما قاله ابن نباتة في رفض الفقر ، إذ جمع مع نيين متضادين هما ، الحلو والعلقم ، بأسلوب التساؤل ، يقول (٦) :

ما بال طعم العيش عند مع اشتر حلو ، وعند معاشر كالعلقم ؟

واستعام كثير من الشعراء - في رفضهم - با لمحسنات البلاغية لرسم صور معاناتهم وزيادة تأثيرها في النفوس . يقول السري الرفاء مصوراً التناقضات في دافعه (٧) :

يا دهر صافيت اللثام مساعداً لهم وجانيت الكرام معانداً

فغدوت كالنيران يرفع ناقصاً فينا ويخفض لا محالة زائداً

فطابق الشاعر بين (اللثام) و (الكرام) في البيت الأول ، وبين (يرفع) و (يخفض) وبين (ناقصاً) و (زائداً) في البيت الثاني ، فقابل بين الألفاظ ليصور تناقضات زمانه وحجوره ، والتعبير عن شعور الشاعر تجاه ذلك .

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٢٠/١

(٢) الواواء الدمشقي : ديوان الواواء الدمشقي ١٤١ .

(٣) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٤١٩/٢ .

(٤) اللبانة : الحاجة .

(٥) نسرن : من نسر البازي الطائر : متف لحمه . خصائل : حاجات .

(٦) ابن نباتة السعدي : ديوان ابن نباتة السعدي ٣٥١/١ .

(٧) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ٩٧ .

ويعكس المتنبي قلقه ومعاناته بتصوير المتناقضات التي يعانيها ، يقول مقارناً بين الواقع وما يتمنى (١) :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام في بأن أرى بغيضاً تنائي ، أو حبيباً تقـسـرب
فهو يرفض عمل الأيام التي أولعت بتقريب من يبغض ، وإبعاد من يحب فطابق بين
(الهجر) و(الوصل) نوبين (بغيضاً) و(حبيباً) وبين (تنائي) و(تقرب) .
وأضفى الجناس على صور كثير من شعر الرفض جمالاً في العرض ، وتويعافي
الأسلوب ، وإيقاعاً موسيقياً مكرراً ، ليترك أثراً ملحوظاً في نفس السامع . وقد جاء ف يكثر
من شعر الرفض مقبولا غير متكلف . كما في قول الواواء في مرض حبيبة (٢) :

طرفتني نائبات الدهر في اعلال حبي
علة عمت وخصت في حبيب ومحب
رباً في كفيه ما من حبه دب بقلبي
فهو يشكو حرَّ حبِّ واشتكائي حرَّ حُبِّ

وكما في قول أبي الفتح البستي (٣) :

عفاء على هذا الزمان فاته زمان عقوق لا زمان حقوق
فكل رفيق فيه غير موافق وكل صديق فيه غير صدوق

وقد يأتي الجناس متكلفاً في بعض شعر الرفض ، يتعمده الشاعر ، فيشعر القارئ
أن همَّ الشاعر إظهار براعته اللفظية ، وليس إظهار معاناته ، فيصبح ممجوجاً ، لا يقبله الذوق ،
ومن ذلك قول محمد بن محمد بن جبير السجزي (٤) :

يا ماكرأ بي وبخلاته مهلاً فما المكر من المكرمات
عليك بالصحبة فهي المنى تحيا فتحييك إذا المكر مات
وقول أبي الفتح البستي (٥) :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار فلا تبالِ أصدوا عنك أو زاروا
لهم لديك إذا جاؤوك أوطار فإن قضاها تنحوا عنك أو طاروا
أخلاقهم فتجنبن أوعار ووصلهم ماتم للمرء أو عار

(١) المتنبي : ديوان المتنبي ١٧٦/١-١٧٧.

(٢) الواواء الدمشقي : ديوان الواواء الدمشقي ٥٧.

(٣) د. محمد مرسى الخولي : أبو الفتح البستي حياته وشعره ٢٨٥.

(٤) النعالي : يتيمة الدهر ٣٤١/٤.

(٥) السابق ٣٢٤/٤.

وجاء التقسيم في بعض شعر الرفض عنصراً تجميلياً غرضه إظهار المعنى وتوضيحه بالشكل الأنيق، والجمال الإيقاعي. والحلية اللفظية، كما في قول أبي فراس الحمداني (١) :

أيضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سال

وقد يظهر الشاعر - بالتقسيم - درجة تساؤله، فيعتني به بجانب اعتناؤه بالتصريح، كما في قول أبي هلال العسكري (٢) :

العين تذرف والفؤاد يذوب والوجد يحضر والعزاء يغيب

ونقلة الكرماء أنت مضجع ولكثرة الجهال أنت غريب

وكما في قول المتنبي (٣) :

قليل عائدي سقم فؤادي كثير حاسدي صعب مرامي

عليل الجسم ممتنع القيام شديد السكر من غير المدام

ومما زاد بعض شعر الرفض جمالاً، واكسبه حسناً، تلك الصور البلاغية المتمثلة في الاقتباس من القرآن الكريم، بقصد تقوية المعنى، وتوضيح الصورة. ومن ذلك قول الخباز البلدي (٤) :

ألا إن إخواني الذين عهدتهم أفاعي رمال لا تقر في لسعي

ظننت به خيراً فلما بلوتهم نزلت بواد منهم غير ذي زرع

فاقتبس معنى قوله تعالى: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم) (٥) ومنه قول أبي القاسم الدنيوري (٦) :

لو كنت أعلم أنني والد ولداً يكون لا كان في عيني كالرمد

فلا أسر على طول الحياة به جنب نفسي كي أبقى بلا ولد

كم قد تمنيت لو أن المنى نفعت ولا مرد لحكم الواحد الصمد

وقلت لو أن قولي كان ينفعني يا ليت أني لم اولد ولم ألد

إذ اقتبس من قوله تعالى: (اللهم الصمد لم يلد ولم يولد) (٧)

(١) أبو فراس المداني : ديوان أبي فراس الحمداني ١٢٧.

(٢) أبو هلال العسكري : شعر أبي هلال العسكري ٦١.

(٣) المتنبي : ديوان المتنبي ١٤٥/٤-١٤٦.

(٤) الخباز البلدي : شعر الخباز البلدي ٣٤.

(٥) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ١٤٠/٤.

(٧) الآيتان ٣، ٢ من سورة الاخلاص .

وتضمن بعض شعر الرفض أبياتاً أو أنصاف أبيات من المشهور من الشعر ، كما في قول أبي فراس الحمداني (١) :

أيا قومنا لا تنبشوا الحرب بيننا	أيا قومنا لا تقطعوا اليد باليد
فيا ليت داني الرحم بيني وبينكم	إذا لم يقرب بيننا لم يبعد
عداوة ذي القربى أشدّ مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند
وكما في قول ابن الحجاج (٢) :	

بنفسي كل مهضوم حشاها	إذا ظلمت فليس لها انتصار
ولكني طربت الى خليل	سمحت ببذله ولي الخيار
فلما أن مضى في حفظ	من لا يضيقه وشطّ به المزار
ندمت ندامة الكسعي لما	غدت منه مطلقة نوار
فعيني ما تجفّ لها دموع	وقلبي ما يقرّ له قرار

(١) أبو فراس الحمداني ٦١، وينظر البيت الثالث في ديوان طرفة بن العبد ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦١م ، ٣٦.

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ، ٨٨/٣ ، وينظر البيت الرابع في ديوان الفرزدق ، همام بن غالب التميمي (١١٠هـ) ، عني بجمعه عبدالله اسماعيل الصاوي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الصاوي ، مصر ، ١٩٣٦م ، ٣٦٣/١.

الموسيقى الشعرية

تُحدثُ الموسيقى - باعتبارها أبرز عناصر الشعر، وهي التي تميزه من النثر - (١) انغماساً تساعد على انكشاف حالة الشاعر النفسية والتعبير عن تجربته الشعورية، " فالألم الذي يعبر عنه بالصوت، يؤثر فينا على وجه العموم، تأثيراً روحياً أبلغ من تأثير الألم الذي يعبر عنه بقسمات الوجه وحتى الحركات " (٢).

وظهر أثر العوامل الحضارية والبيئية في موسيقى القصيدة العربية منذ القرن الثاني الهجري، إذ شاع الغناء، ومال الشعراء إلى البحور القصيرة - في القرن الرابع الهجري (٣) - لملاءمتها ذوق العصر، وإيقاعها السريع المؤثر (٤). وجاء كثير من شعر الرفض على الأوزان القصيرة السريعة الدالة على حالات الشعراء النفسية والعاطفية، يقول الخباز البلدي في طول الليل (٥):

قلت والليل له الويل مقيم غير ساري
أعظم الخالق أمر الخلق في شمس النهار
فلقد ماتت كما مات عزائي واصطباري

فقصر تفاعيل مجزوء الرمل وتتابعها تصور اضطراب الشاعر وألمه. ويقول الصابي مرضه (٦):

وجع المفاصل وهو ليسر ما لقيت من الأذى
جعل الذي استحسنته واليأس من حظي كذا
والعمر مثل الكأس يرسب في أواخره القذى

فعكست التفاعيل المتجانسة في مجزوء الكامل وموسيقاها المناسبة حزن الشاعر ويأسه.

وقد راوح شعراء الرفض بين الأوزان القصيرة والطويلة.

(١) د. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ٢١.

(٢) علي الجندي: الشعراء وإنشاد الشعر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ٩٢.

(٣) د. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ١٠٦.

(٤) د. نبيل خليل أبو حاتم: اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري ٣٨٠.

(٥) الخباز البلدي: شعر الخباز البلدي ٣٣.

(٦) الثعالبي: يتيمة الدهر ٢/٢٩٩.

ففظموا على البحر الطويل^(١)، والبسيط^(٢)، والكامل^(٣)، والخفيف^(٤)، والوافر^(٥)، والمتقارب^(٦)، مما يدل على مقدرتهم في إظهار تباين عواطفهم وتطويع الأوزان الشعرية لاستيعاب تلك العواطف .

ومن أمثلة ذلك ما فعله المتنبي من تناغم بين حالته الشعورية وموسيقى شعرية في رفضه نوائب الدهر وحسد حساده، قائلاً^(٧) :

وما ليل بأطول من نهار يظلّ بلحظ حسّادي مشوباً
وما موت بأبغض من حياة أرى لهم معي فيها نصيباً
عرفت نوائب الحدثان حتى لو انتسبت لكنت لها نقيباً

فالتوازن حاصل بين موسيقى بحر الوافر ووحداته الإيقاعية، وبين حالة الشاعر النفسية الحزينة. وأعطى التكرار تميزاً موسيقياً لشعر الرفض ، إذ ساهم في تأكيد المعنى وتقرير حقيقته، "فهو الحاح على جهة هامة في العبارة يعني بها الشاعر أكثر من عنايته بسواها ، ويسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ، ويكشف عن اهتمام المتكلم بها ، وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيمة"^(٨)

فذكر (الأم) وتكرار مناداتها في رثاء أبي فراس الحمداني لأمه يبعث الحزن والأسى، ويؤكد إحساس الشاعر بالأم^(٩) :

ليبك كل مسكين فقير اغثيته وما في العظم رير
أيا أماه كم هم طويل مضى بك لم يكن منه نصير
أيا أماه كم سرّ مصون بقلبك مات ليس له ظهور
أيا أماه كم بشرى بقربي أتتكم ودونها الأجل القصير

وتكرار (ضاق) و(ذرعاً) و(واقفاً) و (أخمصي) في بيتي المتنبي ، أعطى موسيقى شعره نغماً دالاً على ما يحس به مراره ، يقول^(١٠) :

(١) الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/٢٩٥ .

(٢) الخالديان : ديوان الخالدين ٣١، الثعالبي : يتيمة الدهر ٣/١١٨ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ٤/٢٣٦ .

(٤) السابق ٢/٢٩٢ ، ٣/٥٦ .

(٥) نفسه ٤/٢٣٤ ، ٤/٣٧٩ .

(٦) نفسه ٢/٢٩٨ .

(٧) المتنبي : ديوان المتنبي ١/١٤٠ .

(٨) نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٦٥م، ٢٤٢ .

(٩) أبو فراس الحمداني ٦٧ .

(١٠) المتنبي : ديوان المتنبي ٤/٩٤ .

ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذرعاً زماني واستكرمتني الكرام
واقفاً تحت أخمصي قدر نفسي واقفاً تحت أخمصي الأنام

ووفق بعض الشعراء - في رفضهم - في اختيار قوافي شعرهم ، فقد استطاع الشريف
الرضي بقافية الهاء أن يعكس خلجاته النفسية ، وإحساسه بالأسى والانفعال ، يقول (١) :

أين الوجوه أحبها وادّ لو أني فداها
أمسي لها متفقداً في العائدين ولا أراها

واها ، ولولا ان يلوم اللامون لقلت آها

فاقتران الألف بالهاء ، جعل منها صوت ندبة أشبه بنغمته التأوه لا المصاحب للحزن
الشديد والألم المقيم .

واستطاع المتنبي بقافية القاف أن يصور قوة نفسه وعزتها في قوله (٢) :

ولقد بكيت على الشباب ولّمتي مُسَوِّدَةً ولماء وجهي رونقُ
حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بما جفني أشرقُ

وجاءت ظاهرة التصريع في بعض شعر الرفض - كقول السري الرفاء (٣) :

إلام يروم الحاسدون نضالي وإيماتهم في الرمي دون شمالي

وقول المتنبي (٤) :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من القطن

وقوله أيضاً (٥) :

صحب الناس قبلنا ذا الزماتا وعناهم من شأنه ما عنانا

وجانس بعض الشعراء في قوافيهم ، وهو (الجناس) مستحسن إن تضخّر له الاعر

الألفاظ الرقيقة، والمعنى الملائم، والجرس الموسيقي المناسب، كما في قول أبي الفتح البستي (٦) :

إلى الله أشكو اتصال الخطوب وصرف زمان بلينا به

وقد كان يبسم عن ثغره فأصبح يكشر عن نابيه

وقوله أيضاً (٧) :

ياذا الذي ركب الفساد وعنده أني أسود إذا ركببت فسادا

أضللت رأيك عامداً أو ساهياً من ذا الذي ركب الفساد فسادا

(١) الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي ٥٦٧/٢

(٢) المتنبي : ديوان المتنبي ٣٣٦/٢ .

(٣) السري الرفاء : ديوان السري الرفاء ٢٢١ .

(٤) المتنبي : ديوان المتنبي ٢٠٩/٤ .

(٥) السابق ٢٣٩/٤ .

(٦) الثعالبي : يتيمة الدهر ٣٢٦/٤ .

(٧) السابق ٣٢٤/٤ .

الخاتمة

وخلاصة البحث أن شعر الرفض، فن يرتبط بالحياة، ويعنى بتصوير جوانب هامة منها، ويكشف عن الكثير من الحقائق التي قد يغفلها التاريخ.

والرفض هو التعبير عن معارضة الرفض لواقعه، والإفصاح عن عدم الرضا والمخالفة. وقد صاغ شعراء القرن الرابع الهجري رفضهم شعراً، عبّروا به عن أفكارهم وآرائهم، وعلاقتهم بجوانب الحياة المختلفة، وموقفهم من تلك الجوانب.

وكان لتفاعل شعر الرفض مع ظروف الحياة العامة، ومسايرته واقع العصر الذي عَجَّ بكثير من المتناقضات، وحدث فيه كثير من الاضطرابات، التي تبعث على القلق والمعاناة والحيرة والسخط والنقمة، أن جسّد صور الحياة المختلفة، وعكس ما في نفسيات الشعراء، وصور واقع مجتمعاتهم.

ووجه مشاهير الشعراء شعر الرفض توجيهاً طبعوه بطابع يتوازى وأمانيتهم القومية، وطموحاتهم في الحياة. فجاء شعرهم فيضاً من أحاسيسهم ومشاعرهم المعبّرة عما فيهم من سخط وألم ونقمة، وما يريدونه من تغيير لواقعهم، ورفضه، والثورة عليه. وارتفع شعرهم من آهات باكية حزينة إلى فن شعري مفعم بلهجة التحدي والحماس، للتأثير في نفوس أبناء أمتهم، والمناداة بما هو أفضل من واقعهم.

وثمة دواع للرفض في مجالات حياة المجتمع في القرن الرابع الهجري؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية، عرض البحث لأهمّها.

ففي المجال السياسي، برز ضعف الدولة الإسلامية، وانقسامها، وضعف بعض الخلفاء، وانحسار النفوذ العربي، وسيطرة الأعاجم على الحكم، وغلبتهم على مقاليد بعض الأمور، وقيام

الفنن والاضطرابات، وشيوع التشيع، وتطرف كثير من الشيعة ومغالاتهم في معتقداتهم. وسوء الأحوال الأمنية.

ورفض الشعراء الواقع السياسي، وصوّروا تنازع الفئات المتناحرة على الخلافة، وآرائهم في أحقيتها، وفتنوا إلى ما كان يهدد العالم الإسلامي من احتلال داخلي، وخطر خارجي.

ورفض بعض الشعراء سوء تدبير بعض الحكام، وإهمالهم أمور رعيّتهم، وانغماسهم في ملذاتهم وشهواتهم، وسيطرة النساء عليهم، وتحكمهن في سياسة الدولة وتدبير الأمور. ورفضوا - أيضاً - مظاهر فساد بعض موظفي الدولة، وتقديم المصلحة الفردية على المصلحة العامة.

ورفض الشعراء تحكّم الأجانب في أمور الدولة، وظلم بعض الحكام، وسوء تصرفهم، وانقطاعهم عن الناس، وإغفالهم أمور العامة، وقبولهم الرشاوى، فكثُر العزل، وتمت مصادرة الأموال، وعذّب المصادرون، وامتنحوا في أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

وفي المجال الاجتماعي، برز التناحر بين العرب والعجم، ورفض كلّ منهم سيطرة الآخر عليه، فرفض العرب هيمنة العرق الأعجمي وسيطرته عليهم، ورفض العجم حقّ العرب في تلك السيطرة، وتذمروا من ذلك بحركة شعبية تهدف إلى إقصاء العرب عن مقاليد الأمور.

ورفض كثير من الشعراء التمايز بين فئات المجتمع، فقد عاش الناس في مستويات مختلفة متفاوتة، نتيجة لتفاوت مقدّراتهم المالية، وظهرت نقمة الفقراء على الأغنياء، وأبدى الشعراء تذمرهم وسخطهم على ذلك التفاوت الطبقي.

كما ظهر في المجتمع الإسلامي آنذاك بعض التقاليد الاجتماعية والاتجاهات الأخلاقية، بفعل الحضارة وتأثير غير العرب. فاستُهجِن القبيح منها ورفض. وعيب على بعض أفراد المجتمع سلوكهم المخالف لقيم الأمة وتقاليدها وعاداتها، فرفض كثير من الشعراء مجالس اللهو والشراب، وما اتصف به بعض الناس من الجشع والكذب والنفاق والغدر والتظاهر بالدين

واتخاذها وسيلة للترقي وكسب المال. وعاب بعض الشعراء على المرأة بعض تصرفاتها ورفضوا ما جاءت به من سلوك مخالف لمعتقدات المجتمع وسننه وأعرافه.

وفي المجال الاقتصادي، فرضت كثير من الضرائب على الناس، وصودرت بعض أملاكهم وأموالهم، وخصّ بعض الحكام والمتنفذين أنفسهم بموارد الدولة المالية، واتصفوا بالجشع، وطمعوا في جمع الأموال وتحصيلها بطرق غير مشروعة، وشرّعت إجراءات مالية ثقيلة على الناس، وحازت فئة قليلة المال وتنعمت به، وأصاب الفقر فئات أخرى، فعرضتهم الجوع وآلمهم الفقر. فتذمر الشعراء من الأوضاع الاقتصادية، ورفضوا كثيراً من الإجراءات المالية الظالمة، ورفضوا الفقر، وصوروا معاناتهم وآلامهم.

وظهر شعر الكدية، إذ اتجهت فئة من الناس إلى الاستجداء والحيلة في طلب الرزق، وقالوا شعراً وصفوا به تلك الظاهرة، وصوّروا حياة المكدين وطرائق عيشهم ولغتهم وحيلهم في جمع المال.

وفي المجال الذاتي، استغلّ الشعراء ما اتصل بهمومهم للكشف عن بؤسهم وحزنهم، فشكوا الزمان، ورفضوا ما يأتي به من خطوب ومصائب، واتخذوا بعضهم رمزاً للحكام يصبّون عليهم جام غضبهم، ويرفضونه لمرارة تجربتهم فيه.

ورفض بعض الشعراء أمكنة بعينها، نتيجة لما لاقوه فيها من مصاعب ومصائب، أو نتيجة لنقماتهم على أهلها، فانعكس ذلك عليها، فرفضوها، ناقلين على الظروف التي أجبرتهم على الإقامة فيها.

ورفض بعض الشعراء السجن، وأظهروا مرارته، وما يلاقيه المسجون من عنف وويل، وما يقاسيه من هموم وأحزان.

وأكثر أبو فراس الحمداني من شكوى الأسر ورفضه، وابدع قصائد سميت بالروميات، قالها وهو في أسر الروم.

ورفض كثير من الشعراء الشيب والكبر، وعدوهما نذيري شؤم وطريقاً إلى النهاية، وشكوا ضعفهم وهزالهم، وتغير أحوالهم.

ووقف الشعراء أمام المرض والموت، موقف الحزن والضعف، فلا بد من الموت، ولا مناص من النهاية المحتومة.

وغُلف بعض شعر الرفض، بطابع السخرية والفكاهة، للترويح عن النفوس المكتئبة، ولكنه كان في حقيقته يختزن الكثير من الألم والحزن والنقمة على ما أفررت ظروف العصر من محن ومصائب.

وجاء شعر الرفض معبراً عن تجربة أصحابه، يصور دواخلهم، ويحكي هموم الناس ومعاناتهم، وينقل أحاسيسهم، ويعكس صور آلامهم وآمالهم، بلغة سهلة وبأسلوب رشيق، مال فيه بعض الشعراء - أحياناً - إلى الشعبية، واقترب من لغة الحياة اليومية.

وظهرت لغة الكدية، ذات المصطلحات الخاصة بالمكدين.

وكانت صور شعر الرفض مستمدة من الواقع، معبرة وموحية بآلام الشعراء وشقائهم، مبرزة رفضهم.

وأخيراً، فإن شعر الرفض، فن أصيل يرتبط بالحياة، لما عني به من تصوير لجوانبها، وكشف كثير من حقائقها. وقد تفاعل ذلك الشعر مع الحياة، وسائر واقع العصر، فرسم صورة الناس ومجتمعهم، وأبان عن خواطر أصحابه وآرائهم.

ABSTRACT

“Rejection in the Poetry of the Fourth Hijri Century” .

By: Atef Salamah Al-Dweikat

Supervisor = Prof. ABD AL-JALEEL ABD AL-MOHDI

Rejection , is an expression to show the rejecter's disagreement and his dissatisfaction to his situation affairs . In fact many poets of the fourth Hijri century expressed their rejection to the political , economic and social disadvantages of their time , they also expressed their feeling of boredom of some places and of their own special cases .

There are some reasons for this rejection , they are : the weakness and disintegration of the state , the weakness of some caliphs , the decrease in the Arab Authority , on the other hand , the domination of the foreigners over authority. Other reasons are, their control over some affairs , the rising of riot and uneasiness along with the deterioration of security, poverty , high prices , bad monetary procedures and the spread of some habits and traditions that were contrary to the Islamic Society and its values .

Many poets rejected this bad political case , they also highlighted disputes upon Caliphship and rejected the bad way in which the governors handled so many cases besides their oppression and administration corruption , they also rejected the governor's domination over the state affairs and their concentration on their own special interest .

Poets also rejected disputes between the Arabs and the foreigners, in addition to the class discrimination among society fraction .

People lived in different levels due to the differences in their economic capabilities which caused a great hatred among the poor towards the rich , so poets expressed their rejection to this class discrimination .

Poets rejected some social traditions and moral attitudes blaming so many persons for their conduct which was contrary to the tradition , habits and values of the nation so they rejected evil, treasury , cheating and not telling the truth and others .

Poets also expressed their rejection to the great amount of taxes , taking money illegally, the unfair financial procedures along with high prices and poverty .

They showed their own concerns so they rejected the time and its consequences, and they rejected some places because of the hardship that they faced there, or because of their hatred to the people of such places .

They rejected the prison and showed its bitterness, besides their rejection to gray hair and old age , they complained from diseases . Also they treated death as a case of sadness and weakness showing their pain and surprise .

Poetry of rejection expressed the special experiences of its poets , showing their personalities and telling their concerns and pains . It also describes their case and the way of living as kudi's poets did .

Poetry of rejection is also an art that is closely connected with life because it pays so much attention to depict every aspect of life .

So this poetry interacted with the state of the century , giving a clear picture of the people and the society , showing clearly the ideas and opinions of its owners.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

د. إبراهيم أنيس:

(٢) موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م.

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، (- ٨٥٠ هـ).

(٣) المستطرف من كل فن مستظرف، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، (- ٦٣٠ هـ):

(٤) الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، (٩).

د. إحسان عباس:

(٥) الشريف الرضي، دار بيروت للطباعة والنشر، ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت،

١٩٥٩م.

(٦) فن الشعر، دار الثقافة، بيروت، (٩).

أحمد أمين:

(٧) ضحى الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٨) ظهر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.

أحمد الشايب:

(٩) أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٣م.

الإسفرائيني، عبد القاهر بن طاهر بن محمد الإسفرائيني (- ٤٢٩ هـ).

(١٠) التبصير بالدين، تحقيق محمد سليم النعيمي الأعظمي، مطبعة النهضة، تونس، ١٩٣٩م.

(١١) الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، نشر مكتبة محمد علي سبع وأولاده، مطبعة المدني، القاهرة.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحصين بن محمد القرشي (-٣٥٦ هـ).

(١٢) الأغاني، شرحه وكتب هوامشه، عبدالأمير علي مهنا، وسمير يوسف جابر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٦ م.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس (-٦٦٨ هـ).

(١٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥ م.

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي:

(١٤) ديوان امرئ القيس، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة،

أيمن محمد زكي العشماوي:

(١٥) قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،

١٩٨٣ م.

الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي الباخري (-٤٦٧ هـ).

(١٦) دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، نشر دار الفكر العربي،

مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧١ م.

البيغاء، عبد الواحد بن نصر المخزومي (-٣٩٨ هـ):

(١٧) شعر البيغاء، دراسة وتحقيق د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة

والنشر والترجمة، الدوحة، قطر، ١٩٨٣ م.

بديع الزمان الهمذاني (-٣٩٨ هـ).

(١٨) ديوان بديع الزمان الهمذاني، دراسة وتحقيق يسرى عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

بروكلمان، كارل بروكلمان:

(١٩) تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.

بشار بن برد (-١٦٧هـ):

(٢٠) ديوان بشار بن برد، جمعه وشرحه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.

البغدادي، ابن ناقي البغدادي (-٤٨٥هـ):

(٢١) الجمان في تشبيهات القرآن، تحقيق د. مصطفى الصاوي الجويني، نشر منشأة المعارف، مطبعة الجيزة، الاسكندرية، ١٩٧٨م.

البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري (-٤٨٧هـ):

(٢٢) كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المشي، بغداد، صورة عن طبعة الجزائر، ١٨٥٧م.

بلاشير، د. ريجيس بلاشير:

(٢٣) أبو الطيب المتنبي، دراسة في التاريخ الأدبي، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥م.

بندلي جوزي:

(٢٤) من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٨م.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (-٤٤٠هـ):

(٢٥) الآثار الباقية من القرون الخالية، نسخة مصورة عن طبعة لا يبرزك سنة ١٩٢٣م، نشر مكتبة المثنى، بغداد، (٩).

(٢٦) الجماهر في معرفة الجواهر، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٥٥هـ.

تسيهر، جولد تسيهر:

(٢٧) العقيدة والشرعية في الإسلام، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبدالقادر، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٤٦م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (-٨٧٤ هـ):

(٢٨) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٢م.
تميم بن المعز لدين الله الفاطمي (-٣٧٥ هـ):

(٢٩) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

التنوخي، القاضي أبو علي المحسن بن علي بن أبي الفهم (-٣٨٤ هـ):

(٣٠) جامع التواريخ (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، مطبعة المفيد، دمشق، ١٩٣٠م، ومطابع دار الصياد، بيروت، ١٩٧١م.

(٣١) الفرج بعد الشدة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥م.

التهامي، أبو الحسن علي بن محمد التيامي (-٤١٦ هـ):

(٣٢) ديوان التهامي، تحقيق د. محمد بن عبدالرحمن الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٢م.

ثابت بن سنان، أبو الحسن ثابت بن قرة الحراني (-٢٨٨ هـ):

- (٣٣) تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، دار الأمانة، بيروت، ١٩٧١م.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي (-٤٢٩ هـ):
- (٣٤) تنمة اليتيمة، عني بنشره عباس اقبال، مطبعة فردين، طهران، ١٣٥٣هـ.
- (٣٥) التمثيل والمحاضرة، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦١م.
- (٣٦) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- (٣٧) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (-٢٩١ هـ):
- (٣٨) قواعد الشعر، تحقيق د. رمضان عبدالنواب، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- د. جابر أحمد عصفور:
- (٣٩) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٤م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (-٢٥٥ هـ):
- (٤٠) البخلاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، .
- (٤١) الحيوان، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، المجمع العلمي العربي، بيروت، ١٩٦٩م.
- (٤٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الجرجاني، القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني (-٣٩٢ هـ):
- (٤٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦م.

جرجي زيدان:

(٤٤) تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال، مصر، ١٩١٠م.

جرير بن عطية الخطفي:

(٤٥) ديوان جرير بن عطية الخطفي، تحقيق أكرم البستاني، دار صادر للطباعة والنشر،

بيروت، ١٩٦٠م.

ابن الجوزي، الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (-٥٩٧ هـ):

(٤٦) الأذكياء، وقف على طبعه ونقحه قسطنطين الحمصي، مكتبة المعاهد العلمية، مصر، (٩).

(٤٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، حيد آباد، ١٣٥٧ هـ.

(-) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عطا، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٩٢٢م.

الجوهري، اسماعيل بن حماد الجوهري (-٣٩٣ هـ):

(٤٨) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، دار الكتاب العربي،

مصر، ١٩٥٦م.

حتى، فيليب حتى:

(٤٩) تاريخ العرب المطول، ترجمة ادور جرجي و د. جبرائيل جبور، دار الكشاف للنشر

والطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٥٣م.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (-٥٦٠ هـ):

(٥٠) جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مطبعة دار المعارف، مصر،

١٩٦٢م.

(٥١) الفصل في الملل والنحل، تحقيق د. محمد إبراهيم نصر، و د. عبدالرحمن عميرة، دار الجبل، بيروت، ١٩٨٥م.

حسان بن ثابت الأنصاري (- ٥٠ هـ):

(٥٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١م.
حسن الصدر:

(٥٣) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام - دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
د. حسين عطوان:

(٥٤) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ١٩٧٤م.
الحلاج، أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (- ٣٠٩ هـ):

(٥٥) شرح ديوان الحلاج، أعاد صنعه ونصص عليه د. كامل مصطفى الشبيبي، مكتبة النهضة، بيروت، بغداد، ١٩٧٣م.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي البغدادي (- ٣٦٧ هـ):

(٥٦) كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، (؟).
حياة جاسم:

(٥٧) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي، منشورات وزارة الإعلام،

الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة والنشر، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٢م.

أبو حيان التوحيدي، محمد بن العباسي التوحيدي (- ٤١٤ هـ):

(٥٨) البصائر والذخائر، عنيي بتحقيقه والتعليق عليه د. إبراهيم الكيلاني، مطبعة الانشاء،

دمشق، ١٩٦٤م.

(٥٩) المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٦٩م.
الخالديان،

أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي (-٣٨٠ هـ)

وأبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (-٣٩٠ هـ):

(٦٠) ديوان الخالديني، جمع وتحقيق د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،
١٩٦٩م.

الخباز البلدي، أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان (كان حيًا قبل ٣٨٠ هـ):

(٦١) شعر الخباز البلدي، جمع وتحقيق صبيح رديف، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٥٣م.

الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (-٤٦٣ هـ):

(٦٢) تاريخ بغداد، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٣٦م.

ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (-٨٠٨ هـ):

(٦٣) مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (؟).

ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان (-٦٨١ هـ):

(٦٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت،

١٩٦٨م.

الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الخوارزمي (-٣٨٧ هـ):

(٦٥) كتاب مفاتيح العلوم، تحقيق ج. ف.، فلوتن، ليندن، ر. أ. ج.، بريل، ١٩٦٨م.

ابن دحية، مجد الدين عمر بن حسن بن علي المعروف بذي النسبين، دحية والحسين -)

(٥٥٤٤ هـ):

(٦٦) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، تحقيق المحامي عباس العزاوي، مطبعة المعارف،

بغداد، ١٩٤٦م.

الدلجي، شهاب الملة والدين، أحمد بن علي الدلجي، (-٨٣٨ هـ):

(٦٧) الفلاكة والمفلوكون، مكتبة الأندلس، مطبعة الآداب، النجف، بغداد، ١٣٨٥ هـ.

الدوري، د. عبدالعزيز الدوري:

(٦٨) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٤٨م.

الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عثمان التركماني (-٧٤٨ هـ):

(٦٩) تاريخ الإسلام، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٦٤ هـ.

(٧٠) العبر في خبر من غير، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦١م.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد الأصفهاني (-٥٠٢ هـ):

(٧١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، (٩).

ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (-٤٥٦ هـ):

(٧٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل،

بيروت، ١٩٧٢م.

ابن الرقاع، عدي بن الرقاع العاملي:

(٧٣) ديوان عدي بن الرقاع العاملي، عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق نوري

حمودي القيسي، و د. حاتم صالح الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد،

١٩٨٧م

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (-١٢٠٥ هـ):

(٧٤) تاج العروس. من جواهر القاموس، تحقيق عبدالكريم الغرباوي، مراجعة عبدالستار أحمد

فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٧٩م.

الزركلي، خير الدين الزركلي:

(٧٥) الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

د. زكي مبارك:

(٧٦) عبقرية الشريف الرضي، القاهرة، ١٩٣٩م.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (-٥٣٨ هـ):

(٧٧) أساس البلاغة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

السامر، د. فيصل السامر:

(٧٨) الدولة الحمدانية، في الموصل و حلب، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧٠م.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي السبكي (-٧٧١ هـ):

(٧٩) طبقات الشافعية الكبرى (طبقات السبكي)، تحقيق محمود الطنجاوي وعبدالفتاح الحلو عيسى

البابلي الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٦٤م.

سرور، د. محمد:

(٨٠) تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد الأتراك إلى منتصف القرن الخامس

الهجري، دار الفكر العربي، مطبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.

السري الرفاء، السري بن أحمد الكندي (-٣٧٢ هـ):

(٨١) ديوان السري الرفاء، عن نسختي الأدبيين تيمور باشا والبارودي باشا، عنيت بنشره

مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٥هـ.

() ديوان السري الرفاء، (الجزء الثاني)، تحقيق ودراسة د. حبيب حسين الحسيني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، مطابع دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (-٦٨٥ هـ):
(٨٢) المغرب في حلى المغرب، تحقيق زكي محمد حسن و د. شوقي ضيف وسيدة كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م.

السمرقندي، الشيخ نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي (-٣٨٣ هـ):
(٨٣) تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (٩).
السمعاني، أبو سعيد عبدالكريم بن محمد التميمي السمعاني (-٥٦٢ هـ):
(٨٤) الأنساب، تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، نشر محمد أمين دمج، بيروت، ١٩٨٠م.

سهيل عثمان ومنير كنعان:

(٨٥) المحصول الفكري للمتنبى، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩م.
سيد أمير علي:

(٨٦) مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦١م.
السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، (-٩١١ هـ):
(٨٧) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٨٨) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، المطبعة الشرقية، القاهرة، ١٣٢٧ هـ.

(٨٩) الشهاب الثاقب في ذم الخليل والصاحب، صححه وعلق عليه أحمد عبيد، مطبعة الترقى،

دمشق، ١٣٦٨ هـ.

الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (-٣٨٨ هـ):

(٩٠) الديارات، تحقيق كوركيس عواد، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٦ م.

ابن شاعر الكتبي، محمد بن شاعر الكتبي (-٧٦٤ هـ):

(٩١) فوات الوفيات، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤ م.

الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن أحمد الطاهر ذي المناقب (-٤٠٦ هـ):

(٩٢) ديوان الشريف الرضي، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١ م.

(٩٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مطبعة المعرفة، القاهرة، ١٩٥٨ م.

الشهرستاني، الامام أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (-٥٤٨ هـ):

(٩٤) الملل والنحل، بهامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، نسخة مصورة

بالأوفست، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥ م.

د. شوقي ضيف:

(٩٥) عصر الدول والإمارات، دار المغارف، مصر، ١٩٨٣ م.

الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن بن هلال بن زهروب الحراني (-٤٤٨ هـ):

(٩٦) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤ م.

(٩٧) كتاب الوزراء، أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار

إحياء الكتب العربية، مصر، ١٩٥٨ م.

الصاحب بن عباد، كافي الكفاة، الصاحب إسماعيل بن عباد (-٣٨٥ هـ):

(٩٨) المحيط في اللغة، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٤ م.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي (-٧٦٤هـ):

(٩٩) تمام المثنون في شرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربي والمدني، (٩)، ١٩٦٩م.

(١٠٠) الوافي بالوفيات، باعتناء هلموت ريتز وس. ريدرنيغ، دار نشر فرانز شتاير، فيسبادن،

١٩٦٢م.

د. صلاح الدين المنجد:

(١٠١) بين الخلفاء والخلفاء في العصر العباسي، دار الحياة، بيروت، ١٩٥٧م.

الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (-٣٣٥هـ):

(١٠٢) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢-٣٣٣ من

كتاب الأوراق، مطبعة الصاوي، القاهرة، ١٩٣٥م.

(١٠٣) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، من كتاب الأوراق، نشره ج. هيورت، مطبعة الصاوي،

مصر، ١٩٣٦م.

ابن طباطبا، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (-٣٢٢هـ):

(١٠٤) عيار الشعر، تحقيق عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (-٣١٠هـ):

(١٠٥) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت،

١٩٨٥م.

طرفه بن العبد:

(١٠٦) ديوان طرفه بن العبد، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١م.

طفيل الغنوي، طفيل بن عوف الغنوي (-١٣ق.هـ):

(١٠٧) ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق كرنكو، طبعة لندن، ١٩٢٧م.

ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (-٦٦٠ هـ):

(١٠٨) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦م.

ابن طلحة، أبو سالم النصيبي، كمال الدين محمد بن طلحة (-٦٥٢ هـ):

(١٠٩) العقد الفريد للملك السعيد، مطبعة الوطن، مصر، ١٨٨٨م.

عارف ثامر:

(١١٠) القرامطة، أصلهم ونشأتهم وتاريخهم وحروبهم، دار الكتاب العربي، بيروت، (٩).

العاملي، بهاء الدين العاملي، (-١٠٣١ هـ):

(١١١) الكشكول، مطبعة الشرف العامرة، مصر، ١٣٢٩هـ.

د. عبدالرحمن بدوي:

(١١٢) نيتشه، خلاصة الفكر الأوروبي، المطبوعات الكويتية، الكويت، ١٩٧٥م.

عبدالغني الملاح:

(١١٣) المتنبّي يسترد أباه "دراسة في نسب المتنبّي" المؤسسة العربية للدراسات والنشر،

بيروت، ١٩٨٠م.

د. عبدالفتاح صالح نافع:

(١١٤) لغة الحب في شعر المتنبّي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٠م.

د. عبدالقادر زيدان:

(١١٥) قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،

١٩٨٦م.

العبدلكاني الزوزني، أبو محمد بن عبدالله بن محمد العبدلكاني الزوزني (-٤٣١ هـ):

(١١٦) حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، تحقيق محمد جبار المعبيد، وزارة الثقافة

والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.

د. عبدالواحد حسن الشيخ:

(١١٧) قضايا النقد الأدبي والبلاغة عند اللغويين في القرن الثالث الهجري، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠م.

عبدالوهاب عزام:

(١١٨) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف، مصر، ١٩٥٦م.

أبو العتاهية، أبو اسحق اسماعيل بن القاسم (-٢١٠ هـ):

(١١٩) ديوان أبي العتاهية، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠م.

ابن العديم، أبو القاسم كمال الدين عمر بن أحمد هبة الله بن العديم (-٦٦٠ هـ):

(١٢٠) زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدمان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،

١٩٥٤م.

عريب بن سعيد القرطبي (-٣٦٦ هـ):

(١٢١) صلة تاريخ الطبري، طبعة دي غويه، مطبعة بريل، لندن، ١٨٩٧م.

د. عز الدين اسماعيل:

(١٢٢) الأسس الجمالية في النقد العربي، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، (٩)، ١٩٨٦م.

(١٢٣) التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، (٩).

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (-٣٩٥ هـ):

(١٢٤) شعر أبي هلال العسكري، جمع وتحقيق ودراسة د. محسن غياض، منشورات عويدات، مطبعة الوطن، بيروت، ١٩٧٥م.

(١٢٥) كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.

ابن عقيل، قاضي القضاة بهاء الدين عبدالله بن عقيل العقيلي (-٧٦٩ هـ):

(١٢٦) شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (٩).

د. علي البطل:

(١٢٧) الصورة في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، (٩)، ١٩٨١م.

علي الجندي:

(١٢٨) الشعراء وانشاد الشعر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.

عمر فروخ:

(١٢٩) تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٥م.

عننرة بن شداد العبسي:

(١٣٠) أشعار عننرة بن شداد العبسي، تقديم محمد عبدالمنعم خفاجي، نشر مكتبة القاهرة،

مطبعة عاطف وشركاه، القاهرة، ١٩٦٩م.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس (-٣٩٥ هـ):

(١٣١) مجمل اللغة، تحقيق الشيخ هادي حسن حمودي، منشورات معهد المخطوطات العربية،

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، ١٩٨٥م.

أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي، صاحب حماه (-٧٣٢ هـ):

(١٣٢) المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)، المطبعة الحسينية، القاهرة، (٤).

أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي (-٣٥٧ هـ):

(١٣٣) ديوان أبي فراس الحمداني، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١م.

ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان،

١٩٨٣م.

الفراهيدي، أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (-١٧٥ هـ):

(١٣٤) كتاب العين، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي، منشورات وزارة

الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م.

الفرزدق، همام بن غالب التميمي (-١١٠ هـ):

(١٣٥) ديوان الفرزدق، عني بجمعه عبدالله إسماعيل الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى،

مطبعة الصاوي، مصر، ١٩٣٦م.

الفيروز آبادي، مجد الدين الفيروز آبادي (-٨١٦ هـ):

(١٣٦) القاموس المحيط، المطبعة المصرية، القاهرة، ١٩٣٣م.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (-٧٧٠ هـ):

(١٣٧) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر،

١٩٠٦م.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (-٢٧٦ هـ):

(١٣٨) الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م.

- (١٣٩) عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م.
- قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة (-٣٣٧ هـ):
- (١٤٠) نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م.
- القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد القرطبي:
- (١٤١) بهجة المجالس وأنس المجالس وشذذ الذاهن والهاجس، تحقيق محمد مرسي الخولي، مراجعة، د. عبدالقادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف (-٦٤٦ هـ):
- (١٤٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، نسخة مصورة عن طبعة ليبسك سنة ١٩٠٣م، نشر مكتبة المتنى ببغداد، ومؤسسة الخانجي، بمصر، (٩).
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (-٨٢١ هـ):
- (١٤٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطابع كوستانسوماس وشركاه، القاهرة، ١٩٦٣م.
- (١٤٤) مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٤م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (-٧٧٤ هـ):
- (١٤٥) البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٢م.
- كشاجم، أبو الفتح محمود بن الحصين بن السندي بن شاهك (-٣٥٠ هـ):
- (١٤٦) ديوان كشاجم، تحقيق وشرح وتقديم خيرية محمد محفوظ، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، ١٩٧٠م.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي، (-٣٥٠ هـ):

(١٤٧) كتاب الولاية وكتاب القضاة، مطبعة الأدباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

الكيالي، سامي الكيالي:

(١٤٨) سيف الدولة وعصر الحمدانيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م.

لسترانج، غي لسترانج:

(١٤٩) بغداد في عهد الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد،

١٩٣٦م.

الموردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (-٤٥٠هـ):

(١٥٠) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، المطبعة الحمودية التجارية، مصر، (٩).

(١٥١) أدب الوزير، المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك، تحقيق حسن الهادي حسين، نشر

مكتبة الخانجي، مطبعة دار العصور، القاهرة، ١٩٢٩م.

(١٥٢) أعلام النبوة، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، مصر، ١٩٣٥م.

متز، آدم متز:

(١٥٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، مكتبة

الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.

المتنبى، أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي الكندي (-٣٥٤هـ):

(١٥٤) ديوان أبي الطيب المتنبى، بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى التبيان في شرح الديوان،

ضبطه وصححه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، شركة مكتبة

ومطبعة مصطفى الباني الحلبي، مصر، ١٩٥٦م.

(-) ديوان المتنبى بشرح عبد الرحمن البرقوقي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة

الاستقامة، مصر، ١٩٣٨م.

د. محمد بدیع شریف:

(١٥٥) الصراع بين الموالي والعرب، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٤م.

محمد جميل شلش:

(١٥٦) الحماسة في شعر الشريف الرضي، المكتبة العالمية، بغداد، ١٩٨٥م.

محمد عبد الفتاح عليان:

(١٥٧) قرامطة العراق في القرن الثالث والرابع الهجري، المطبعة الثقافية، القاهرة، ١٩٦٩م.

د. محمد عنيمي هلال:

(١٥٧) النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مطبعة نهضة مصر، القاهرة،

(٩).

د. محمد مرسي الخولي:

(١٥٩) أبو الفتح البستي ((حياته وشعره))، دار الأندلس للطباعة والنشر، (٩)، ١٩٨٠م.

د. محمد نجيب أبو طالب:

(١٦٠) الصراع الاجتماعي في الدولة العباسية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة،

الجمهورية التونسية، ١٩٩٠م.

محمود غناوي الزهيري:

(١٦١) الأدب في ظل بني بويه، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٤٩م.

د. محيي الدين اللاذقاني:

(١٦٢) ثلاثية الحلم القرمطي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م.

المرتضى، أحمد بن يحيى المرتضى (-٨٤٠هـ).

(١٦٣) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، اعتسى

بتصحيحه توما أرنولد، مطبعة دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد ١٨٩٨م.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (-٣٤٦هـ):

(١٦٤) التنبيه والإشراف، نشر مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٥م.

نسخة مصورة عن طبعة دي غويه، ليدن، ١٨٩٤م.

(١٦٥) مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة دار الرجاء، مصر، (؟). سكويه، أبو علي أحمد

بن محمد سكويه (-٤٢١هـ):

(١٦٦) تجارب الأمم وتعاقب الهمم، شركة التمدن الصناعية، مصر، ١٩١٤م.

الإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (-٢٦١هـ):

(١٦٧) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي،

دمشق، (؟).

د. مصطفى سويف:

(١٦٨) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، منشورات جماعة علم النفس التكاملية،

دار المعارف، مصر، ١٩٧٠م.

د. مصطفى أبو العلا:

(١٦٩) شعر المتنبي ((دراسة فنية))، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، (؟).

د. مصطفى ناصف:

(١٧٠) نظرية المعنى في النقد العربي القديم، دار القلم، بيروت، ١٩٦٥م.

المظفر، الشيخ محمد رضا المظفر:

(١٧١) عقائد الإمامية، قدّم له حامد حنفي داود، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٢م.

ابن المعتز، عبدالله بن المعتز (-٢٩٦هـ):

(١٧٢) ديوان ابن المعتز، المكتبة العربية، دمشق، ١٣٧١هـ.

(١٧٣) طبقات الشعراء في مدح الخلفاء والوزراء، اعتنى بنشره عباس اقبال، لندن، ١٩٣٩م.

المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري (-٤٤٩هـ):

(١٧٤) شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون،

وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد، بإشراف د. طه حسين، مطابع نسخة مصورة عن

طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٥م.

المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بالبشاري (-٧٨٣هـ):

(١٧٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، نسخة مصورة عن طبعة ليدن، ١٨٧٧م، نشر مكتبة

مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.

المقرئ، أحمد محمد المقرئ التلمساني (-١٠٤١هـ):

(١٧٦) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت،

١٩٦٨م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن عطي (-٨٤٥هـ):

(١٧٧) السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة

والنشر، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤م.

(١٧٨) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ((الحفظ المقريزي)) الناشر مكتبة المثنى

بيغداد، عن الطبعة القديمة ١٩١٠م.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (-٧١١هـ):

(١٧٩) لسان العرب، دار صادر، بيروت، (?).

مهيار الديلمي، أبو الحسن مهيار بن مرزويه (-٤٢٨هـ):

(١٨٠) ديوان مهيار الديلمي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥ - ١٩٣١ م.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني (-٥١٨هـ):

(١٨١) مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، منشورات دار النصر، دمشق،

بيروت، (٢).

النابعة الذبياني:

(١٨٢) ديوان النابعة الذبياني، تحقيق المحامي فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر

والتوزيع، بيروت، ١٩٦٩ م.

نذك الملائكة:

(١٨٣) قضايا الشعر المعاصر، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة التضامن، بغداد، ١٩٦٥ م.

ابن نباتة السعدي، أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن نباتة السعدي (-٤٠٥هـ):

(١٨٤) ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية

للطباعة، بغداد، ١٩٧٧ م.

د. نبيل خليل أبو حاتم:

(١٨٥) اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري، من خلال يتيمة الدهر، نشر وتوزيع دار

الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥ م.

ابن النديم، محمد بن إسحاق بن النديم (-٣٨٣هـ):

(١٨٦) الفهرست، تحقيق د. ناهدة عباس عثمان، دار قطري ابن الفجاءة، الدوحة، ١٩٨٥ م.

أبو نواس، الحسن بن هانئ (-١٩٩هـ):

(١٨٧) ديوان أبي نواس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٣ م.

النويري، شهاب الدين محمد بن عبد الوهاب النويري (-٧٣٣هـ):

(١٨٨) نهاية الأرب من فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٩٢٩م، نشر مطابع

كوستا توماس وشركاه، القاهرة ١٩٦٣م.

د. هادي نهر:

(١٨٩) مع المتنبي في شعره الحربي، مطبعة الجامعة، بغداد، ١٩٧٩م.

الهمذاني، محمد بن عبد الملك الهمذاني (-٥٢١هـ):

(١٩٠) تكملة تاريخ الطبري، تحقيق البرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت،

١٩٦١م.

هند حسين طه:

(١٩١) الأدب العربي في إقليم خوارزم، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، دار

الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م.

الوأواء الدمشقي، أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني (-٣٩٠هـ):

(١٩٢) ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي،

المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٠م.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر بن محمد بن علي (-٧٤٩هـ):

(١٩٣) تاريخ ابن الوردي (تنمة المختصر في أخبار البشر)، جمعية المعارف، القاهرة،

١٢٨٥هـ.

الوشاء، أبو الطيب محمد بن أحمد الوشاء (-٣٢٥هـ):

(١٩٤) الموشى (الظرف والظرفاء)، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٣م.

الوطواط، أبو إسحاق برهان الدين بن يحيى بن علي الكتبي (-٧١٨هـ):

(١٩٥) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، المطبعة الأدبية، القاهرة،

١٣١٨هـ.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبيد الله ياقوت بن عبدالله الحموي (-٦٢٦هـ):

(١٩٦) معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، د. أحمد فريد الرفاعي، مكتبة عيسى الباني

الحلبي وشركاه، مصر، ١٩٣٦م.

(١٩٧) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م.

يوسف الحناشي:

(١٩٨) الرفض ومعانيه في شعر المتنبي، الدار العربية للكتاب، المطبعة الثقافية، تونس،

١٩٨٤م.

اليوزبكي، د. توفيق سلطان اليوزبكي:

(١٩٩) الوزارة، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٠م.

يوسف الشبخاني:

(٢٠٠) أصحاب الكدية، السامانيون (قصيدتان ومقامة)، دار البصائر، دمشق، ١٩٨٤م.

* * * * *